تفسیر
القرآن الکریم

تألیف

صدر المتألهین
محمد بن ابراهیم صدر الدین الشیرازی

انتشارات بیدار
ایران قم

تفسير القرآن الكريم

سورة الواقعة

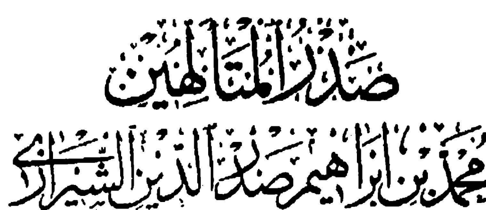
سورة الجمعة

سورة الطارق

سورة الأعلى

سورة الزلزال

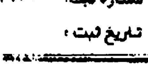
تأليف



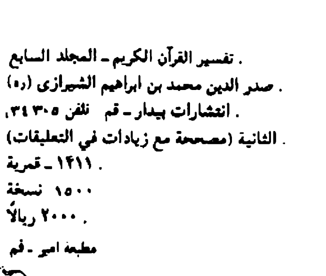
تصحيح محمد خواجوى

انتشارات بيدار

قم







الكتاب	. تفسير القرآن الكريم ـ المجلد السابع
المؤلف	. صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي (ره)
الناشر	. انتشارات بيدار ـ قم تلفن ٣٤٣٠٥،
الطبعة	. الثانية (مصححة مع زيادات في التعليقات)
التأريخ	. ١٤١١ ـ قمرية
عدد المطبوع	١٥٠٠ نسخة
الثمن	. ٢٠٠٠ ريالاً
المطبعة:	مطبعة امير ـ قم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو الجزء السابع ـ وهو الأخير ـ من أجزاء تفسير القرآن الكريم، المجموع من الرسائل التي كتبها الحكيم الإلهي صدر المتألهين قدس الله سره الشريف.

وقد نشرنا هذا الجزء سابقاً وخرج رغم إرادتنا بصورة غير مرضيّة، ولكن الله وفّقنا بمنّه الكريم لاستدراك ما فاتنا في تلك الطبعة، فها نحن نعيد طبعه منقّحاً حسب المستطاع ـ ولله الحمد في الاولى والآخرة.

وقد سبق أن أشرت في مقدمة الجزء الاول من هذا التفسير الى أن هذا الجزء قد راجعه صديقي الفاضل محمد الخواجوي، وقابله بنسخ عديدة سيأتي وصفها في ما كتبه من التقديم. وقد راجعت بعد هذا الجزء أيضاً وقابلته بنسخ توفّرت لي مستعينا في تحقيقه بالمصادر التي اعتمدها المؤلف، وبسائر مؤلفاته هو ـ قدّس الله نفسه ـ.

وقد خرّجت ما أمكنني تخريجه من الاحاديث الواردة في الكتاب، كما رتّبت فهرساً جامعاً لتسهيل المراجعين(*).

فالمأمول من الله المنّان ـ اذ وفّقنا لاتمام هذا العمل ـ أن يقبله بلطفه الشامل واحسانه القديم، وأن ييسّر لنا الوصول إلى حقائق كتابه الكريم ـ انّه وليّ التوفيق.

محسن بيدارفر

٢٦ رجب المرجب ١٤١٠

(*) فمما فاتني ذكره في مقدمة الكتاب إن ما جاء في الاجزاء السبعة بين المعقوفتين [ ] لم يكن في أصل الكتاب. فان كان في العناوين أضفناها تسهيلا للوصول إلى المطالب. وان كان في المتن فمما كان الكلام محتاجاً اليه في تمامه وقد أتينا بها من المصادر في الاكثر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلوة والسلام على محمد سفير وحيه ونبيّ رحمته، وعلى وصيّه خاتم الولاية المطلقة الالهية، علّي أمير المؤمنين، وعلى الائمة من بعده - نجوم سماء العصمة والهداية، وأقمار الامامة والولاية - ولا سيّما خاتمهم مليك بقعة الشرف والعصمة، ورئيس حظيرة العلم والحكمة، صاحب العصر والزمان - صلوات الله عليه وعليهم من الملك المنّان.

أما بعد - فهذا الجزء يشتمل على تفسير خمسة سور من القرآن الكريم - الواقعة، والجمعة، والطارق، والأعلى، والزلزال -* وقد قابلت هذه السور بالنسخ المذكورة فيما يلي:

١- تفسير سورة الواقعة: الف: نسخة مكتبة مجلس (رقم ١٧١٩) المكتوبة بسنة ١٢٤٦ ب: النسخة المطبوعة بسنة ١٣٢٢ حجرياً. ج: النسخة المطبوعة الحجرية الاخرى بدون تاريخ. د: النسخة المطبوعة في سنة ١٣٢٢.

٢- تفسير سورة الجمعة: نسخة الأصل التي كتب بخط مفسّرها الكبير، وهي من ممتلكات صديقي الفاضل السيد مصطفى الفيضي - من أخلاف النحرير الأعظم محمد بن المرتضى المدعوّ بالفيض قدس سره - في كاشان. وقد أمكنني من ذلك مشكوراً، فقابلتها في بيته كما عملت في تفسير آية النور وسورة الطارق أيضاً. وقد كنت راجعت قبل ذلك لتصحيح هذه السورة النسخة المحفوظة بمكتبة ملي (رقم ٧٧٣) المحررة بسنة ١٢٥٩ هجرية.

والنسخة المحفوظة بمكتبة مجلس المحررة بسنة ١٠٦٣ هجرية. كما استفدت من تلك النسخة في تصحيح سورة الحديد أيضاً وقد فاتني ذكرها هناك. والنسخة جيدة مصححة.

٣ـ تفسير سورة الطارق: كان الاعتماد فيه كما ذكرت على نسخة المؤلف، وان كنت قابلته أولا بالنسختين المذكورتين آنفاً (مكتبه ملي ومجلس) والنسخة المطبوعة.

٤ـ سورة الاعلى: الف: النسخة المحفوظة بمكتبة المدرسة الشهيد المطهري (السبهسالار سابقاً) ولم يذكر فيها اسم الكاتب وتاريخ التحرير. ب: النسخة المطبوعة مع كشف الفوائد للعلامة الحلي. ج: النسخة المطبوعة بسنة.١٣٢٢

٥ـ سورة الزلزال: الف: نسخة مكتبة مجلس المحررة بسنة ١٠٩١ هجرية. ب: النسخة المطبوعة بسنة.١٣٢٢

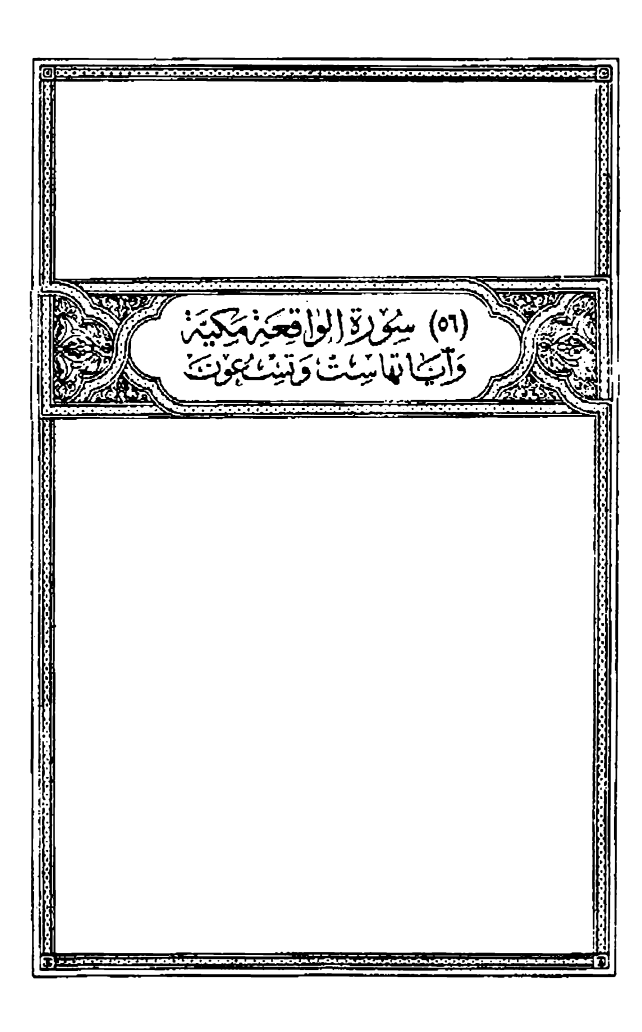
وفي الختام أرجو أن يتقبّل الله مني هذا العمل القليل، ويدخره ليوم لا ينفع مال ولا بنون، ويؤيد الناشر ويوفقه لما يوجب رضاه ويجزيه خير الجزاء.

وأنا العبد المفتقر الولوي. محمد الخواجوي

عامله الله بلطفه الخفي ١٣٦٧/١١/٢٩ هـ ش *

---

* لا يخفى ان هذه السور الخمسة قد نقلتها الى اللغة الفارسية وطبعتها مع أصلها في ثلاثة أجزاء بطهران سنة ١٣٦٣.


(٥٦) سورة الواقعة مكية
وآياتها ست وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي أنزل كلاماً إلهيّاً وكتاباً سماويّاً فيه مجامع العلوم والحكم، وبعث نبيّاً هادياً ورسولا مبلّغا أُوتي جوامع الآيات والكلم، والصلوة على مظهَر اسم الله الأعظم، وصفوة صورة العالم، وخلاصة بني آدم، محمّد وأهل بيته المعظّم المكرّم ـ عليه وعليهم التحيّة والسلام من الله وملائكته الكرام مدى الليالي والأيّام والدهور والأعوام.

وبعد:

فيقول أفقر الفاقرين إلى الحقّ المعين ـ محمّد المعروف بصدر الدين الشيرازي ـ نوّر الله عين قلبه بنور اليقين لفهم كتابه المبين ـ:

لّما كان نوع الإنسان في أوّل تكوّنه واقعاً في حدود النقصان، لكونه كباقي حواصل الصورة[1] من موادّ العناصر والأركان، وهو في مراتب التسفّل والهبوط بالقياس إلى ساير الجواهر والأعيان، لكنّه بحسب نوعه كان مختصّاً من بينها بمزيد خاصيّة هي قوّة الترقّي إلى حدّ الكمال، واستعداد الخلاص

(١) كباقي الحيوان حاصل الصورة ـ نسخة. حامل الصورة ـ نسخة.

من معدن الشرّ والوبال، والإتصال بأنوار المبدء الفعّال، ليصير أحد سكّان عالَم الخير والنور، متنعّمًا بنعيم الآخرة ودار السرور، ومتخلّصاً عن عالم الزور ومخالطة الآفات والشرور. فلم يجز في دأب الرحمة الإلهيّة وسنّة العناية الربّانيّة إهمال الإنسان عمّا خلق لأجله وأُهّل له، بأن يترك سدى، وإرساله كساير الحيوان في مراتع الجهالات بغير هدى.

ومن المعلوم إنّ لكلّ شيء كمالاً يخصّه لأجله خُلق، وفعلاً معيّناً يتمّمه إذا له وفّق، وكمال الإنسان في إدراك الحقايق الكلّيّة، ونيل المعارف الإلهيّة، والتجرّد عن المحسوسات المادّيّة، والخلاص عن القيود الشهوية والغضبيّة. وهذه لا تتحصّل إلّا بالهداية والتعليم، والتأديب والتقويم. فبعث الله رسولا ومعلّمًا، وأرسل كتاباً جامعا فيه لُبّ أسرار التأويل وتفاصيل أحكام التنزيل، متضمّناً لعلوم الأوّلين والآخرين، مشتملا على خلاصة الآداب والسنن التي كانت لساير النبيّين والمرسلين، مع زيادة إكمال وتتميم، وفصاحة مقال في ألفاظ الترقيم، ونزّلها منجّماً على حسب المصالح والأوقات، وفصّلها في صور السور والآيات، كلّ سورة من سوَره بحرٌ مملوّ من جواهر المعاني والبيان، بل فلك محشوٌ من كواكب الحقايق والأعيان وكل آية من آياته صدفة مكنونة فيها دُرر ثمينـــة وقيّمـــة، كلّ منهـا توازي روح الإنســان، بل دراري تتـلألا وتستضيء[٢] في سماء الهداية والنبوّة والولاية، فتنشأ من لمعاتها وإضاءتها حيوة الإنس والجان: في النشأة الآخرة ودار الحيوان، والخلاص من ظلمة العمى والحرمان وعذاب القبر والنيران.

وسورة **الواقعة** من بينها مشتملة على أسرار شريفة من علم المعاد.

---

(٢) تلمع ـ نسخة.

ومقاصد عظيمة في معرفة نفوس العباد، ودرجاتها بحسب حالاتها في الدار الآخرة، وأقسامها من جهة السعادة والشقاوة في النشأة الباقية. وعلوم الآخرة مّما يختصّ بدركها عرفاء هذه الملّة وحكمائها الراسخون، وليس لغيرهم من المتكلّمين والفقهاء إلّا سماع[٣] الألفاظ والتصرّف في مفهوماتها. وجمهور الحكماء بعلومهم الفلسفيّة عن إدراك أحوال المعاد معزولون[٤] حتّى أنّ رئيسهم أبا علي اعترف بالعجز والقصور عن فهم المعاد الجسماني ـ وكذلك المجتهدون في مسائل الاعتقاد منخرطون في سلك التقليد مع ساير العباد.

وإنّي كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء النظّار، حتّى ظننت أنّي على شيء. فلمّا انفتحت بصيرتي قليلا ونظرت إلى حالي، رأيت نفسي ـ وإن حصّلت شيئاً من أحوال المبدء وتنزيهه عن صفات الإمكان والحدثان، وشيئاً من أحكام المعاد لنفوس الإنسان ـ فارغة عن علوم الحقيقة وحقايق العيان، مّما لا يدرك إلّا بالذوق والوجدان، وهي الواردة في الكتاب والسنّة من معرفة الله وصفاته وأسمائه وكتبه ورسله، ومعرفة النفس وأحوالها من القبر والبعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ـ وغير ذلك ـ مّما لا تعلم حقيقته إلّا بتعليم الله، ولا تنكشف إلّا بنور النبوة والولاية.

والفرق بين علوم النظّار وبين علوم ذوي الأبصار كما بين أن يعلم أحد حدّ الحلاوة وبين أن يذوق الحلاوة، وكم بين أن تدرك حدّ الصحّة والسلطنة وبين أن تكون صحيحاً سلطاناً، وكذلك مقابل هذه المعاني.

---

(٣) اسماء ـ نسخة.

(٤) معتزلون ـ نسخة.

فعلمت يقينا أن هذه الحقايق الايمانيّة لا تدرك إلّا بالتصفية للقلب عن الهوى، والتهذيب عن أعراض الدنيا، والعزلة عن صحبة الناس وخصوصاً الأكياس، والتدبّر في آيات الله وحديث رسوله وآله عليهم السلام، والتسيّر بسيرة الصالحين، في بقيّة من العمر القليل ـ وبين يديّ السير الطويل[٥] ـ.

فلمّا أحسست بعجزي وأيقنت أنّي لست على شيء، وقد كنت قنعت عن ضوء النور بظلّ‌وفيء، إشتعلت نفسي لكثرة الاضطرار اشتعالا قويّاً، والتهب قلبي لشـدّة الانضجـار التهـابـاً نوريّاً، فتداركته العناية الأزلية بالرحموت، ونظرت إليه العطوفة الربّانيّة بشيء من لوامع الملكوت، فأفاض عليّ من بحر الجود شيئا من أسرار الوجود، وأفادني مظهر الخفيّات ومنوّر المهيّات بعضاً من أسرار الآيات وشواهد البيّنات. فاطّلعت على بعض أسرار التنزيل وحقائق التأويل. فشرعت خيرة من الله ورسوله في تفسير طائفة من السور والآيات، وقرعت باب رفع الحجب وكشف النقاب عن وجوه البيّنات. فرأيتهـا بحمد الله كطبقات الجنان مفتّحة الأبواب، فيها وجوه من الحور العـين، ينـادون أصحاب الكشف واليقين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خَالِدِين﴾ ففسّرت كثيراً من الآيات والسُور الطوال والقصار، كما قضى الله وأراد خالق القوى والأقدار، وأنشأ وأفاد واهب العلوم والأنوار.

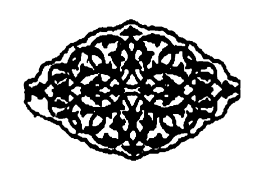
فأردت الآن أن أكتب ما اجتمع لي وخطر ببالي من نكات التنزيل ومعارف التأويل، المتعلّقة بهذه السورة، التي هي بحر عميق في تحقيق علم المعـاد، وكنـز من كنوز الآخرة؛ يعرف بها عاقبة نفوس العباد. ولا يمكن غورهـا، ولا يعـرف قدرهـا إلا بإمـداد علوي وتـأييد إلهي. فشمّـرت

---

٥) وبين أيدينا هذا السفر الطويل ـ نسخة.

عن ساق الجدّ مع طبعٍ قاصر، وقلبٍ منكسر، ومزاجٍ فاسد، ومتاعٍ كاسد، وبضاعةٍ قليلة، وأدوات كليلة، وخاطر فاطر خطرت فيه البلايا، وبالٍ مبتلٍ بفنـون الرزايا، رجاء بلطف الله في اقتباس لوايح أنواره، وتوكّلا عليه في اقتناص شوارد أسراره.

وشرعت فيه سائلا من الله حسن التوفيق ـ وبيده مقاليد الهداية وأزمّة التحقيق ـ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله عزّ اسمه:
إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾

هذا من قبيل قولك: «كانت الكاينة» و«حدثت الحادثة». والمراد القيامة وساعتها. والناظرون في علم الكتاب بعين الاحتجاب يظنّون أنّ زمان الآخرة وساعتها من جنس أزمنة الدنيا وساعتها، حتّى أنّهم يتوهّمون أنّ يوم القيامة يوم مخصوص متّصل أوّله بآخر أيّام الدنيا؛فيشكل عليهم وقوع الإخبار عن وقوعه ووقوع حالاته بالفعل ـكما في هذه الآية.

وقد تكرّرت الإخبار عن وقوع القيامة وحالاتها في القرآن بألفاظ دالّة على ثبوتها وتحقّقها بالفعل ـ مثل قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [٣٩/٦٨] وقوله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾ ـ الآية ـ [٧/٤٣] ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ.... وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النارِ.... وَنادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ...﴾ ـ الآيات ـ [٧/٤٤-٥٠] وأشباهها كثيرة ـ فوقعوا في تكلّف أرباب المجاز والمبالغة،كما قيل في الكشّاف وغيره: «إنّها وُصفت بالوقوع لأنّها تقع لا محالة» ولم يتذكّروا بمعنى قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [٣١/٢٨] فنسبة البعث إليه كنسبة الخلق.

فكما أنّ ايجاد الخلائق في أزمنتها وأوقاتها المتكثّرة المتجدّدة إنّما هو من من قِبل الله تعالى وبالقياس إلى مجاوريه ومقرّبيه من ذوات الملائكة المقرّبين وعقول أوليائه الصدّيقين في دفعة واحدة ـ وإليه أشير بقوله صلّى الله عليه وآله: «جفّ القلم بما هو كائن»[1] مع أنّه تعالى ﴿كُلَّ يَومٍ هُوَ في شَأنٍ﴾ إذ له تعالى شأن واحد في شؤون كثيرة حيث لا يشغله شأن عن شأن وزمان عن زمان، ولا مكان عن مكان لتعاليه عن هذه الأشياء مع انبساط نور وجوده عليها وارتفاعه عن الانحصار في عالم الأرض والسماء مع شمول علمه ونزول رحمته إلى ما تحت الثرى ـ فكذلك بعث الخلائق كلّهم من أجداثهم في لحظة واحـدة من جهتـه[2] لقوله: ﴿وَمَا أمْرُ السَاعَةِ إلاّ كَلَمحِ الْبَصَرِ اَوْ هُوَ أقْرَبُ﴾ [١٦/٧٧].

ومن خواصّ يوم القيامة أنّ مقداره بالقياس إلى طائفة خمسون ألف سنة لقوله تعالى ﴿تَعْرُجُ المَلئِكَةُ وَالرُوحُ اِلَيْهِ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسينَ ألف سَنَةٍ﴾ [٧٠/٤] وبالقياس إلى طائفة أُخرى ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ اَو هُوَ أقْرَبُ﴾ [١٦/٧٧] ﴿إنَّهُمْ يَرونَهُ بَعيداً.وَنَرَيهُ قَرِيباً﴾ [٧٠/٦].

وكذلك من خواص الساعة أنّها منتظرة الوقوع بالقياس إلى طائفة ﴿يقولُونَ مَتى هَذَا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقينَ﴾ [٦٧/٢٥] ﴿وَلاَ يَزالُ الَذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتّيٰ تَأتِيَهُمُ السَاعَةُ بَغْتَةً﴾ [٢٢/٥٥] وهي بالقياس إلى طائفة أُخرى ﴿أنَ السَاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فيهَا﴾ [٢٢/٧].

---

(١) صحيح البخاري: باب القدر ج٨ ص ٢ ١٥ «جف القلم بما أنت لاق» . راجع ايضا التوحيد للصدوق (ره) باب المشية والإرادة ص ٣٤٣.

(٢) من جهة ـ نسخه.

فقوله: «ليس» مع ما في حيزه صفة «الواقعة». ويحتمل أن يكون عاملا في الظرف كما تقول: «اليوم ليس لي عمل». ولا يحتاج إلى تأويل «ليس» بـ «لا يكون» ـ كما في بعض التفاسير[٣] ـ بناء على أنّه لنفي الحال فلا يكون عاملا في ظرف لم يقع بعد لما وقعت الإشارة إليه.

وعلى الأوّل «إذا» منصوبة بفعل مضمر ـ مثل اذكر ونحوه ـ أو بمحذوف يعني: إذا وقعت كان كذا وكذا.

وفي الكشّاف فسّرت «كاذبة» بنفس كاذبة. وذكر في المعنى: «أي لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله [وتكذب][٤] في تكذيب الغيب، لأنّ كلّ نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذّبات، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [٨٤/٤٠] ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٢٠١/٢٦] ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ [٥٥/٢٢]».

ولا يخفى أنّ القول بنفي وقوع الكذب على الله والتكذيب للغيب مطلقاً من نفس أصلا ممّا يناقضه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [٥٥/٣٠] وقوله: ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٧٢/١٧].

وأيضاً الحكم بأنّ كلّ نفس عند قيام الساعة مؤمنة صادقة مصدّقة كلام ناشٍ ممّن لا بصيرة له في إدراك المعارف الايمانيّة، بل بناء معرفته على ظواهر المنقولات وما اشتهر في المتداولات، وذلك لأنّ الايمان بالله واليوم الآخر هو

---

(٣) راجع الكشاف في تفسير الآية ٣/ ١٩٢.

(٤) الاضافة من المصدر.

غاية كمال النفس الإنسانيّة، لأنّه عبارةٌ عن نور من أنوار الله يقذف في قلب من يشاء من عباده، وهذا النورُ يطفي نارَ جهنّم، فكيف تتنوّر به نفوس الكفّار والمنافقين؟

وما ورد من الآيات في باب ايمانهم عند نزول العذاب فبعضها محمولة على ظهور الشقاوة عليهم يومئذ،ومشاهدتهم آثار السيّئات ونتايج الكفر والعناد،وتبعات المعاصي والفسوق وأضداد ما كانوا يحتسبون، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [٣٩/٤٧] وبعضها ممّا لا يفهم منه أزيدمن اعترافهم باللسان ودعويهم الايمان،كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[٤٠/٨٤]وربّما كانوا كاذبين في هذه الدعوى يومئذ، كما كذّبوا في قولهم للرسول صلّى الله عليه وآله ـ كما قال الله تعالى حكاية عنهم حيث قال ـ: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعلم إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [٦٣/١]. لا أنّهم يصيرون بعد الموت عرفاء بالله وآياته موحّدين، وإلّا فكيف يعذّبهم الله عذابا أبديّاً؟ إذ البراهين العقليّة والسمعيّة ناهضة على خروج أهل التوحيد عن النار، فالقول بأنّ كلّ نفس يوم القيامة غير كاذبة في محلّ المنع.

نعم منشأ الكذب والغلط ومبدأ الشر والوبال لا يكون إلّا في هذا العالَم الذي هو منبع الشرور والعاهات، ومعدن النقايص والآفات ـ كما بُيّن في مقامه ـ والنفس الشقيّة الكذوبة لا تكتسب مادّة الكذب والبهتان والكفر والعصيان ومنشأ التعذيب بالنيران إلّا بواسطة كونها مدّة في هذا العالَم ولأجل تعلّقها بالأبدان، فهي حمالة حطب نيرانها من هيهنا، والآخرة دار العدل والحساب والقضاء بمؤدّى الشهود والكتاب ﴿لاَ ظُلْمَ اليَومَ﴾.

والأولى: أن يحمل «الكاذبة» على المصدر كالعاقبة، أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب، ومعناه[٥] إنّها واقعة حقّاً وصدقاً وليس فيها ولا في الإخبار عن وقوعها كذب. واللام على الأوّل[٦] مثل ما في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَوتِي﴾ [٨٩/٢٤] وعلى ما ذكرناه مثل[٧].

قوله عزّ اسمه:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾

إمّا صفتان بعد الصفة، أو خبران لمبتدأ محذوف، أي: هي خافضة تخفض أقواماً، ورافعة ترفع آخرين، بمعنى إنّ الأشقياء المدبرين يهبطون وينحطّون فيها إلى الدركات الهاوية، والسُعداء المقبلين يصعدون فيها إلى الدرجات العالية.

وهذا أمر متحقّق الوقوع كما تدلّ عليه الآيتان ـ بصيغة اسم الفاعل الدالّة على الثبات والدوام ـ فما من نفس ما دامت في الدنيا إلّا وهي إما في الصعود أو الهبوط: بحسب النشأة الثانية، من جهة أعمالها الحسنة أو السيّئة. لكن ظهور هذه الأحوال وكشف الأغطية عنها لجميع الخلايق يتوقّف على قيام القيامة العظمى بموت الكلّ، وظهورها لكلّ واحد بخصوصه موقوف على القيامة الصغرى بموته.

---

(٥) نسخة +: كما في مجمع البيان.

(٦) اي على ما نقل عن الكشاف.

(٧) كذا في النسخ التي بأيدينا، والظاهر انّه سقط من هناك شيء.

قوله عزّ اسمه:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

«إذا» مع ما يليه بدل من «إذا وَقعتْ». أو هو منصوب بـ «خافِضَة رافِعَة».

و«الرَجُّ» هو التحريك الشديد. فمعنى «رجَّتِ ٱلْأرضُ»: حُرّكت تحريكاً شديداً حتّى انهدم كلّ شيء عليها من الأبنية والجبال. وهي كذلك عند قيام الساعة، كما إنها كذلك عند أهل الكشف،الذين غلبت على باطنهم ظهور سلطان الآخرة، فهم يرون الأرض ومن عليها دائمة التحوّل والنقل[8]، لازمة الانهدام والزوال من حال إلى حال.

و«البَسّ» هو التفتيت للشيء والتفريق له حتّى يعود كالسويق. و«بُسّت الجبال» صارت متفرّقة الأجزاء كالذرّات المبثوثة في الهواء، وكذلك أصل الجبال، فإنّها في الأصل كانت أجزاء متفرّقة في مدّة طويلة لا يعلم كميّتها إلّا الله، فجمعتها أيدي بعض ملائكة الله الموكّلة بتصريف الرياح وتمويج البحار فانعقدت جبالا بإذن الله في بعض الأوقات،ثمّ تعود إلى ما كانت وزالت عن مواضعها في كلّ وقت على التدريج، ولو بهبوب الرياح ونزول الأمطار وتأثير أشعّة الشمس وغيرها من الأنوار، وفسخها بالتحليل والتبخير، وعلى هذا القياس يرجع فيها كلّ شيء إلى أصله،ويظهر على صورته الحقيقيّة التي

(٨) والتنقل ـ نسخة.

كانت عليها، ولا شكّ إنّ الآخرة إنّما تحصل بارتفاع الحجب وظهور الحقايق وزوال التعيّنات وتميّزالحق عن الباطل.

على أنّ من اكتحل عين بصيرته بنور الايمان،وتنوّر قلبه بطلوع شمس العيان،يجد أعيان الأفلاك والأركان متبدّلة، وطبايع الصور والأكوان متحولة متزايلة، فهي أبداً في السيلان والزوال والحركة والانتقال، حركة جوهريّة وتجدّداً ذاتيّاً، لا بمجرّد الصفات والأعراض فقط؛ وفي المقولات الأربع لا غير ـ كما زعمه المحجوبون من أهل النظر ـ بل كما أُقيم عليه البرهان مطابقاً لما وجده أصحاب المكاشفة والعيان؛ من أنّ الطبيعة السارية في أجسام هذا العالم هي حقيقة سيّالة متجدّدة الذات، غير قارّة بحسب الجواهر.

وعُلم من ذلك أنّ الدنيا بحذافيرها حادثة، وهي دار زوال وانتقال، والآخرة دار قرار وثبات، كما يراه المليّون، حسبما وصل إليهم من حَمَلَة أسرار الوحي والتنزيل وخزنة علم النبوّة والتأويل.

قوله عزّ اسمه:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾

أي أصنافاً ثلاثة. وذلك لأنّ الإنسان فيه مبادي إدراكات ثلاثة من جهة قوى ثلاث: قوّة العقل، وقوّة الخيال، وقوّة الحس . ولكلّ قوّة كمالا، فكمال القوّة العاقلة بإدراك المعارف الإلهيّة والعلوم الربانيّة،وبه يحشر الإنسان في جوار الله وملكوته، وكمال القوّة الخياليّة في فعل الخيرات وتهذيب الصفات وتبديل السيّئات بالحسنات، وكمال القوّة الحسيّة بإدراك الملايم الحسّي من الملاذ الجسمانيّة والأعراض البدنيّة.

والإنسان في أوّل تكوّنه بالقوّة في كمال كلّ من هذه المبادي الثلاثة وهو بحسب كمال كلّ قوّة يقع في عالَم من العوالم بمقتضى طبيعة تلك القوّة إن لم يكن لها مانع، فله نشآت ثلاث بحسب قوى ثلاث، فهو بالقوّة في أوّل الوجود. فأوّل ما يخرج فيه من القوّة إلى الفعل هو نشأة الحسّ وكماله بحسبه يقتضي السكون في هذه الدار والانسراح في مراتع الشهوات كالبهائم والحشرات، فإذا تجاوز عن هذا المنزل يحدث فيه العقل العملي. وقوّة التخيّل، وكماله بحسب هذه القوّة يقتضي له التشوّق إلى الدار الآخرة والكون هناك، من حيث يتخيّل الخيرات المظنونة. ويقصد الأفعال الحسنة، وينوي فعل الطاعات وترك القبايح والسيّئات، ومعاد الإنسان من حيث همته.

ثم إذا ساعده التوفيق الإلهي وارتفع إلى كمال القوّة النظريّة يحيط بالكلّيات، ويتّصل بالمفارقات، ويعرف المبادىء والغايات؛ علماً برهانيّاً وإدراكاً مقدّساً عن شوب تغيّر وتجدّد أو ظنّ أو تخمين، فمنزلته منزلة المقدّسين.

فعلم إنّ الإنسان صار بحسب هذه المقامات منقسماً على ثلاثة أقسام، ولكلّ قسم أحوال مخصوصة بحسب الآخرة، وله منزل خاصّ من المنازل الكلّيّة ـ وإن كان تحت كلّ قسم أنواع بلا نهاية ـ وهذا لا ينافي وحدة النوع الإنساني قبل أن يصير باطنه خارجاً من القوّة النفسانيّة إلى الفعل الصوري الباطني في صفة من الصفات المكمونة فيه، المخزونة في طينته.

فوقعت الإشارة إلى تفصيل هذه الأقسام الثلاثة في قوله عزّ اسمه:

قوله عزّ اسمه:

فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾

وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾

فأصحاب الميمنة هم الذين تؤتون صحايف أعمالهم بأيمانهم، وأصحاب المشئمة هم الذين تؤتونها بشمائلهم ـ وهما جميعاً من أصحاب الأعمال والغالب عليهم القوّة العمليّة ـ لكن الطائفة الأولى مبدء أعمالهم العقل العملي ـ كما مرّ ـ بوساطة الإدراكات الباطنة الجزئيّة كالتخيّل وما يجري مجراه، وغايتها طلب الخيرات المظنونة والسعادات المقبولة. والطائفة الثانية مبدء أعمالهم هو القوّة المحرّكة الحيوانيّة المسمّاة بالشوقيّة، بوساطة الإدراكات الحسيّة، وغايتها إمّا طلب الشهوة بالأكل والجماع وما يجري مجراهما، أو الغضب بالغلبة والإنتقام وما يشبههما.

وأمّا السابقون: فهم أعلى مرتبة من أن يكونوا من أهل العمل وإنّما شأنهم مشاهدة الحقايق وملاحظة عظمة الله وملكوته، وقد شغلهم الله بمحبّته عن محبّة ما سواه وأغناهم عن الطعام والشراب وعن النظر إلى غيره. فمنزلتهم منه منزلة الملائكة العلّيين المجرّدين عن الأجرام كلّها وعن التعلّق بها سواء كانت من هذه الأجسام الكدرة الدنياويّة أو من الأجرام النورانية الأُخرويّة.

وعن الحسن[٩]: المراد من أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة: أصحاب

(٩) مجمع البيان، في تفسير سورة البلد: ٤٩٦/١٠.

اليمن والشوم؛ لأنّ السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم، والسابقون المخلصون، الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقّوا الغبار في طلب مرضات الله.

والأولى ما ذكر أوّلا.

وهيهنا وجه آخر ذكر في كثير من التفاسير وهو: إنّ أصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشئمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلي النار.

وتحقيقه إن العالم بتمامه كشخص واحد، لأنّ وجوده ظلّ لوجود الحقّ، فله وحدةٌ طبيعيّة جمعيّة هي ظلّ للوحدة الحقّة الإلهيّة، وله روحٌ واحد هو الروح الأعظم والعقل الأوّل، المشتمل على مجموع الأرواح الكلّية العقليّة اشتمالاً عقليّاً.و له كالإنسان جانبان:

أحدهما جانب اليمين، وفيه الملكوت الأعلى، وهي المدبّرات العلويّة المتعلّقة بالبرازخ النوريّة، وفيها جنّة السعداء،ومن ملائكتها من يسوقون عباد الله إلى رضوانه ومنهم كتّاب حسناتنا يكتبون صحايف أعمالنا الحسنة وهم الملائكة العلّيون وبأيديهم كتاب الأبرار: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [١٨/٨٣] والكتابة عبارة عن تصوير الحقايق، والكُتّاب هم المصوّرون الناقشون، والصحيفة هي محلّ التصوير والنقش،وكذا القلم هو الواسطة بين يمين الكاتب والكتابة. فالمراد من الكاتب هيهنا جوهرٌ ملكوتي فعّالٌ علويّ، ومن القلم قوّته العمليّة المصوّرة، ومن الصحيفة نفوسنا الناطقة الخالية عن النقوش في أوّل الفطرة، ولاشكّ إنّ هذه الكتابة لايمكن أن يشاهدها أحدٌ بهذه الحواسّ الكَدرة الترابيّة البالية، لأنّها

مكتوبات غيبيّة وقعت في عالم الغيب، لكنّ أكثر الناس لا يؤمنون بالغيب ولايعتمدون ولا يثقون إلّا بوجود المحسوس بإحدي هذه الحواسّ.

وثانيها الشمال. وفيه الملكوت الأسفل وهي المدّبرات السفليّة سدنة البرازخ الظلمانيّة وفيها جحيم الأشقياء، ولها طائفتان من الملائكة ـ كما في الأوّل ـ إحديهما السائقة لأهل النار إلي النار،والثانية الكاتبة لأعمال السيّئات للفجّار، لقوله تعالي:﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [٢١/٥٠] والطائفة الأولي منها هي ملائكة غلاظ شداد ﴿لَايَعصُون اللهَ ما أَمَرهُم وَيفعَلوُن مَايُؤمَرونَ﴾ والطائفة الثانية هي ملائكة بأيديهم أقلام من النار يكتبون المعاصي والشرور وأقوال الكذّابين وأهل الزور، في صحايف لايقة للاحتراق بالنار لما فيها من الأخبار الكاذبة والكلمات الواهية الباطلة.كما في قوله تعالي: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِلَفِي سِجِّينٍ.وَمَا أَدْرَيكَ مَا سِجِّينٌ.كِتَابٌ مَرْقُومٌ.وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِبِين﴾ [٧/٨٣]

وهذا الوجه قريب المأخذ ممّا ذكر أوّلا. وذلك لأنّ المراد من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال على الأوّل كلّ من أُوتي كتابه بيمينه وكلّ من أُوتي كتابه بشماله، والمراد منها علي الوجه الأخير كلّ من كان مآله إلى الملكوت الأعلي وجنّة السعداء مع العلّيين، وكلّ من كان مآله إلي الملكوت الأسفل و جحيم الأشقياء مع أهل السجّين، ولاشبهة في أنّ من أُوتي كتابه بيمينه كان حشره إلي ملائكة جانب اليمين والعلّيين، ومن أُوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره كان معذّبا بأيدي سدنة النار وزبانية الجحيم المعذبين لأهل النكال وأصحاب الشمال وكان في طبقات السجّين مع زمرة الشياطين فالمآل في الوجهين واحد.

ولفظة «ما» في الموضعين للتعجّب، عجب اللّهُ ورسولُه من حال الفريقين في السعادة والشقاوة.والمعني: أيّ شيء هذه الطائفة في السعادة، وأيّ شيء هذه الاُخرى في الشقاوة.

السَابِقُون السَابِقُون: الأوّل مبتدءٌ والثاني خبره .وفي الكواشي[١٠]: السابقون إلى طاعه الله هم السابقون إلي رحمته و رضوانه.

وفي الكشّاف: السابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم كقول أبي النجم: أنا أبو النجم وشِعري شِعري.... كأنّه قال: وشعري ما انتهي إليك وسمعت فصاحته وبراعته. وهيهنا وجهٌ آخر وهو إنّه كان ينبغي أن يقال: «السابقون ما السابقون» إلاّ أنّ الله تعالي أراد أن يصفهم بوصف لايُكتنه فقال هكذا، فكأنّه قال: لاوصف لهم أفضل من هذا.وهذا من أوجه الوجوه.

ومنهم من جعل الثاني تاكيدا للاوّل وجعل الخبر﴿أُولئك الْمقربوُن﴾ وليس بذاك، ووقف بعضهم على الاوّل وابتد ء بالثاني وليس بصواب لأنه تمام الجملة وهو في مقابلة القولين الاوّلين.

قوله عزّ اسمه:

﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾

هم الذين قربت درجاتهم عند الله واُعليت مراتبهم في الجنّة.وهذا القرب ليس بالمكان ولابالزمان إنّما هو بحسب الذات قُربا معنويًا لأجل الشرافة والبرائة عن الدنيا وشرورها،ونقائص الموادّ وآفاتها، وذلك لأنّ ظلّ الوجود إذاامتدّ وطال وانبسط عن الباري ووقع على قوابل المهيّات حسب اقتضاء

(١٠) كذا في النسخ التي عندنا.

الرحمة الواسعة ـ المعبرّ عنها بالنفس الرحماني ـ فابتدات وترتّبت الموجودات من جهة الإبداع على ترتيب الأشرف فالأشرف منتهية إلى الأخسّ الذي لا أخسّ منه كالهاوية والظُلمة. ثمّ عادت وتوجّهت إلى الكمال بعد التوحيد وارتقي إلى الشرّف بعد أن هبط منه من جهةَ التكوين على ترتيب الأخسّ فالأخسّ حتّى انتهت إلى الأشرف الذي لا أشرف منه في الإمكان. وظاهر أنّ أشرف الممكنات وأعلاها مرتبة في سلسلة البدو هو الروح الأوّل والقلم الأعلى. ثمّ سلسلة العقول ـ وهم الملائكة المقرّبون السابقون ـ ثمّ سلسلة النفوس المجرّدة ـ وهم الملائكة المدبّرون السابقون ـ ثمّ النفوس المنطبعة. ثمّ الصُور الطبيعيّة ثمّ الموادّ الجسميّة إلى أسفل سافلين ـ وهي غاية تدبير الأمر من السماء إلى الأرض.

ثمّ يعرج إليه وأخسّ الممكنات وأدناها منزلة في سلسلة العود هو الجسم بما هو جسمٌ، ويليه في الخسّة الصورُ العنصريّة، ثمّ سلسلة الجمادات، ثمّ النباتات، ثمّ الحيوانات بنفوسها الحيوانيّة ومادةّ أرواحها البخاريّة التي هي أجرام لطيفة شفّافة. وأشرف أنواع الحيوان الإنسان نفسا وبدنا لأنّ الأسطقسات في بدنه امتزجت، غاية الامتزاج حتّي انتهت بروحه التي هي جسمٌ حارٌ لطيف حاصل من صفوة الأخلاط ينبعث من القلب في التجويف الأيسر منه ثمّ اعتدلت في الدماغ اعتدالا بالغا حتّي شابَهت الجرم الفلكي في صفائه ونقائه ونوره وضيائه وبُعده عن التضادّ الموجب للفساد فصارت مرآة للنفس الناطقة بها تدرك الوجود كلّه على هيئته التي كان عليها كلّيا وجزئيّا، أمّا كلّياته فبذاتها المجرّدة. وأمّا جزئيّاته فبهذه المرآة المجلوّة. فإنّ في الإنسان شيئا كالَملك وشيئا كالفَلك. فمن حيث اعتدال مزاجه وعدم

الأضداد فقد شابه السبع الشداد، ومن حيث مفارقة صورته الموادّ القوابل يشاكل العلل الأوايل والعقول الفواعل.

وأشرف الإنسان مَن بلغ في الشرف والبرائة إلى مرتبة السابقين الأوّلين من الملائكة المقرّبين فصار متّحدا بالعقل الفعّال اتّحاد العاقل بالمعقول كماذهب إليه كثير من الحكماء وأشارت إليه كلمات الأولياء وشهدت عليه أذواق الصوفيّة وبُرهن عليه في الشواهد الربوبيّة.

فانظر إلى إتقان حكمة المبدع البديع وَجود الصانع المنيع كيف بدء بالوجود من الأشرف فالأشرف حتّي اختتم بالأجسام وانتهى إلى معدن الشرور و الظلام، ثمّ شرع في التلطيف والتشريف والإنارة والتصعيد والتكميل بإفاضة ثانية ولطف جديد ، ففتح فاتحة أُخري للجود و الإفادة، وأنشأ النشأة الثانية للإعادة، وقدقال سبحانه: ﴿كَمَابَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [٢١/١٠٤] فعكس الترتيب الأوّل من الأخسّ فالأخسّ إلى النفيس فالأنفس حتّى بلغ به إلى أرواح كالأملاك وأبدان كالأفلاك و هكذاإلى أن وقع الإختتام بروح أشرف الأنام خاتم الرسل المضاهي بنوره نور العقل الأوّل.ولهذاالمعنى قال صلّى الله عليه وآله: أوّلُ ما خَلق الله نوري[١١].

فتّمت به دائرة الوجود وعادت سلسلة الإفاضة والجود في النهايه حيث وقعت منه البداية.وهو سبحانه المبدء والمنتهى في البداية والرجعى

(١١) البحار: ج٢٥ ص ٢٢.

قوله عزّ اسمه:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾

اعلم إنّ هؤلاء الأصفياء وإن كانوا من جهة هويّاتهم العقليّة مقرّبين منه تعالى لأنّهم جالسون تحت قبة الجبروت لكنّهم من جهة نفوسهم الحيوانيّة المطيعة لأمر الله المسلمة لحكمه منسرحون في مراتع اللّذات متنعّمون بنعيم الجنان فإنّ لكلّ حقيقة درجاتٌ في الوجود ومراتب بعضها فوق بعض لاينفكّ بعض مراتبه عن بعض. فما من حقيقة كلّيّة هي مظهر اسم من أسماء الله إلّاولها بعد مرتبة ذلك الإسم الإلهيّ عقل ونفس وطبيعة وجسم، حتّي أنّ هذه الخلايق الكونيّة إنّماهي أصنام وأضلال لحقايق أُخرى عقليّة روحانيّة وهذه الأرض إنّما هي صنم لأرض عقليّة روحانيّة وهذا الإنسان الحسّي إنّما هو صنمٌ للإنسان العقلي، والإنسان العقلي مظهر لإسم الله ونور من أنواره حاصل من أمره في عالَم الغيب، كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِرَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّاقَلِيلًا﴾ [١٧/٨٥].

ثمّ إذا ثبت أنّ لكلّ حقٍ حقيقةً ولكلّ محسوس معقولاً فيحتمل أن يراد من الجنّات: الجنّات العقليّة. فإنّ الجنّة جنّتان: جنّة محسوسة بالحواسّ الأُخرويّة. وجنّةٌ معقولة مشاهدة ببصر الباطن العقلي ولكلّ منها درجات. كما أنّ العالم عالمان: غيبٌ وشهادةٌ، ولكلّ منهما منازل فالإنسان السعيد بروحه الذي هو عقل بالفعل جنّة معنويّة بما يحمله من المعارف والعلوم، ولنفسه الحيوانيّة جنّة صوريّة بما يحمله من اللذات والشهوات وينالـه من طريق قواها العمليّة الحسيّة من أكلٍ وشربٍ ونكاحٍ وغيرها جزاء بما صبرت

عنه في الدنيا وحبست قوّتها عن نيل قشورها الكدرة الظلمانيّة حتّى صارت بلبوبها الصافية النورانيّة. فإنّ النفس كلّما ارتاضت صفَت وتنوّرت، وبحسب صفائها ونورها كانت مخزوناتها الأُخروية وذخائرها الغيبيّة صافية نقيّة نورانيّة، فالمراتب والدرجات في الجنّات بحسب المراتب والدرجات في الأشواق والرغبات.

قوله عزّ اسمه:

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾

الثلّة: الجماعة من الناس الكثيرة. وأصلها من «الثلّ» وهو الكسر كما إنّ «الأُمة» من «الأم» وهو الشجّ كأنّها جماعة قطعت من الناس، وكونها في مقابلة القليل دال على الكثرة. وثلّةٌ خبر مبتدء محذوف، أي هم ثلّةٌ والمراد أنّ السابقين المقرّبين كثيرٌ من الأُمم الماضية التي كانت قبل بعثة محمّد صلّى الله عليه وآله وقليل من هذه الأُمة. وقيل: جماعة من أوايل هذه الأُمة وقليل من أواخرها.

وعن النبي صلّى الله عليه وآله: «الثلّتان جميعا من أُمتي»[١٢]. والمراد إنّ هذه في السابقين، وتلك في أصحاب اليمين، فعدد المقرّبين يتكاثر من مقدّمي هذه الأُمة دون متأخّريها. لأنّ أكثر الأولياء والشهداء والأئمة الكبراء كانوا في الأوّل حيث قربت أزمنتهم من زمان الوحي والتنزيل وعدد السعداء وأصحاب اليمين يتكاثر من الأولين والآخرين جميعا.

---

(١٢) الدر المنثور: ج ٦ ص ١٥٩.

قوله عزّ اسمه:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾

قال المفسّرون: مرمولة بالذهب، مشبّكة بالدّروالياقوت، متداخلة بعضها في بعض كما يوضن حلَق الدرع. وقيل: متواصلة أدنى بعضها من بعض.

وقد ورد في الخبر: إنّ يوم القيامة يؤتى بمنابر وأسرّة وكراسيّ كلّها من النور. فالمنابر للأنبياء عليهم السلام والأسرّة للأولياء والكراسيّ للعلماء.

ويحتمل أن يكون كناية عن مظاهر قلوبهم أومصادر أفعالهم.

قوله عزّ اسمه:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾

أي مستندين عليها جالسين. من جلوس الملوك على أسرّتهم. أو معتمدين عليها ساكنين إليها سكون الأرواح إلى النفوس. وهو حال من الضمير في «على» أي: استقرّوا عليها متّكئين متقابلين، ينظر بعضهم بعضاً، لعدم الحجاب بينهم لاخارجا ولاداخلا. أمّا نفي الحجاب الخارجي عنهم فلعدم الأبدان الغليظة لهم والحواجز الكثيفة بينهم. وأمّا نفي الحجاب الداخلي عنهم فلعدم الكفر والفقر والجهل والعمي والحسد والبغض والغضب وساير الأمراض النفسانيّة في نفوسهم، فيشاهد كلّ منهم كلّا منهم. إذ ذات كل واحد منهم عين باصرة وأُذن واعية دائماً وعقل درّاك بالفعل، كما إنّه نور مبصَر وكلام حقّ مسموع دائمًا وحقيقة معقولة بالفعل.

قوله عزّ اسمه:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: يدور حولهم ويستنير بأنوارهم القدسية ويستفيض من إشراقاتهم العقليّة أولادٌ روحـانيّون،هم نفـوس مجردّة متعلّقـة بأجـرام كريمـة نوريّة مستـديرة الحـركات، مخلّدين في دوام حركاتهم الشوقيّة لدوام الإشراقات العقليّة عليهم من آبائهم العقلية في النشأة الآخرة ـ لا في هذا العالم الزايل لزواله وانقطاعه وعدم استمرار الوجود فيه بالعدد لا في العنصريّات ولا في الفلكيّات ـ كما بيّن في موضعه ـ .

وقيل هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسناتٌ فيثابوا عليها ولا سيّئات فيعاقبوا عليها ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وعن النبي صلّى الله عليه وآله[١٣]: إنه سُئل عن أطفال المشركين، فقال لهم: هم خَدَم أهل الجنّة.

قوله عزّ اسمه:

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾

يطوف عليهم بأكواب، وهي القداح الواسعة الرؤوس بلاخراطيم ولا عرى لهم.

و«أبـاريق» وهي ذات العـرى والخراطيم. والمراد الأوانّي التي تبرق لصفاء لونها وإشراقها لاتوجد لها أمثلة في هذا العالَم إلّا الكواكب والتداوير

(١٣) مجمع البيان والكشاف في تفسير الآية.

الفلكيّة الدائرة التي تديرها النفوس السماويّة بأيدي قُواها العمليّة طرباً وشوقاً وتقرّباً إلى مباديها وغاياتها ومعشوقاتها العقليّة ومحرّكاتها الفلكيّة[١٤].

ويطوفون عليهم أيضا بكأس مملوّ من شراب الأحديّة، مَعين،جارفي أنهار المدارك الشوقيّة والمشارب الذوقيّة، مكشوف لأهل المشاهدة والعيان، إذ منبعه منشأ الحيوة والعقل والشهود.فكيف لايعان ولايعاين.

قوله عزّ اسمه:

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾

لايوجد[١٥] من شربها صداع.لصفائها من كدر الشرّ والآفة و فساد التركيب وغلبة أحد الأضداد،كخمُور هذه الدنيا، وتعاليهم عن تأثير المزاحمات وتصديع المصادمات لتجرّدهم عن عوالم التراكيب والأضداد وارتفاعهم عن الطبقات السافلة التي يوجد فيها الشرّ والفساد.

وقيل: لايفرقون عنها[١٦].

وقرء مجاهد لايصدّعون.بمعنى لايتصدّعون، أي لايتفرّقون. كقوله تعالى في حقّ الكفّار:﴿يَومَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[٣٠/٤٣] وذلك لأنّ منشأ صحبتهم ومبدء جمعيّتهم هو مشرب المحبّة الإلهيّة ونشأة الوحدة المعنويّة والوصلة الايمانيّة والرابطة الحكميّة، ليس باعثها الأغراض النفسانيّة والأوضاع الجسمانيّة المؤديّة سريعاً إلى التفرقة والوحشة والنفرة .

---

(١٤) الملكية ـ نسخة.

(١٥) لايأخذ ـ لايأخذهم ـ نسخة.

(١٦) الكشاف: ١٩٤/٣.

وقوله: ﴿لا يُنزفُون﴾ إن كان بفتح «الزاء» فمعناه: لا يذهب عقولهم بالسكر كما في قوله تعالى: ﴿لَا فيهَا غَولٌ وَلاَ هُم عَنْها يُنْزَفُونَ﴾[٤٧/٣٧] وهذا في قراءة الكوفيّين غير عاصم.

وإن كان بكسر الزاء ـ كما في قراءة الباقين ـ فالمعنى لايفنى شرابهم الروحاني ولا تزول نشأة مدامهم الحبّي الإلهيّ، إذ منبعه منبع فيض الوجود[١٧] الأبدي وعين ماء الحيوة السرمدي الذي لن يبرح من أسكوب الفضل سائلا مائلا ومن منبع الإفاضة والرحمة طائلا نائلا.

قوله عزّ اسمه:

﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾

يتخيّرون: يأخذون خيره. يقال: تخيّرتُ الشيء: أخذتُ خيره وأفضله. ويشتهون: يتمنّون. فإنّ أهل الجنّة إذا تخيّروا شيئاً واشتهوه خلقه الله دفعة، فإذا تمنّوا فاكهة ـ أي فاكهة كانت ـ تكوّنت بإذن الله كما تخيّروه. وإذا تمنّوا لحم الطير النضيج خلق الله لهم لحم الطير نضيجا من غير حاجة إلى ذبح الطير وايلامه.

قال ابن عبّاس رضي الله عنه: يخطر على قلبه الطير فيصير[١٨] ممثّلا بين يديه على ما اشتهى.

وهذا علْم غفل عنه الأكثرون وأدركه المكاشفون إدراكاً علميّاً ذوقيّاً بعد أن اعتقدوه اعتقاداً ايمانيّاً، وربما يبلغ العارف إلى مقام يقال له «مَقام كُنْ»

---

١٧) الفيض الجود ـ نسخة.

(١٨) مجمع البيان: ٢١٦/٩ . وفي نسخة: فيطير.

في عرفهم فيكون هذا حاله ـ وإن كان بعد في الدنيا ـ مثل حال أهل الجنّة، فما يقول لشيء «كُن» إلاّ ويكون.

وروي عن النبي صلّى الله عليه وآله: إنّه قال ـ حين كان في غزوة تبوك ـ: كُن أباذر. فكان أباذر[١٩].

وذلك لأنّ الله قد حوّل باطنه في النشأة الاخُرويّة، بل ما من عارف بالله من حيث التجلّي الإلهيّ إلاّ وهو قبل[٢٠] النشأة الآخرة قد حشر في دنياه ونشر في قبره، فهو يرى مالايراه الناس ويشاهد مالايشاهدون ويفعل مالايفعلون عناية من الله ببعض عباده ـ كما أعرب عنه بعض العرفاء حكاية عن نفسه[٢١].

وبيانه مّما يحتاج إلى اظهار لمعة من علوم المكاشفة قريبة المأخذ من علوم المناظرة . وهو إنّ الله ـ سبحانه ـ قد خلق النفس الإنسانية وأبدعها مثالا له ذاتاً وصفة ـ ولله المثل الأعلى ـ وفعلا مع التفاوت العظيم بين المثال والممثّل له، ولذلك جعل معرفتها وسيلة إلى معرفته كما يدلّ عليه الحديث المشهور:

«مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه»[٢٢].

فهي قد أبدعت مفتاحاً لمعرفة الله تعالى ذاتاً وصفة وأفعالا، لكونها مثالا له كذلك، أما الذات فقد خلقها الباري وجوداً نوريّاً مفارقاً عن الأجرام

---

(١٩) السيرة النبوية لابن هشام: ذكر غزوة تبوك، ج٢ ص ٢٥٤.

(٢٠) على ـ نسخة.

(٢١) راجع الحديث عن الحارثة بن النعمان في الكافي: (٥٤/٢) باب حقيقة الايمان واليقين.

(٢٢) مصباح الشريعة: ص ٤١ . ونسبه ابن أبي الحديد ٥٤٧/٤ الى علي عليه السلام.

والأحياز والأوضاع في ذاتها. وأمّا الصفات فقد خلقت عالمة قادرة حيّة سميعة بصيرة متكلّمة، وهذه كلّها صفات الله من حيث المفهوم. وأمّا الأفعال فذاتها عالَمها، والبدن كأنّه نسخة مختصرة من مجموع العالَم الدنيوي ـ أفلاكه وعناصره، بسائطه ومركّباته، وجواهره وأعراضه ـ ولها أيضا في ذاتها مملكة خاصّة شبيهة بمملكة بارئها، مشتملة على أمثلة الجواهر والأعراض المجرّدة والمادّيّة وأصناف الأجسام الفلكيّة والعنصريّة وساير الخلايق، يشاهدها بنفس حصولها وفيها[٢٣] ومثولها بين يديها شهوداً إشراقيّاً ومثولا نوريّا.

والناس لفي غفلة وذهول عن عجايب الفطرة الآدميّ وغرايب القلب الإنساني لاهتمامهم بعالَم المحسوس، ونسيانهم أمر الآخرة ومعرفة الرب والرجوع إليه: ﴿نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَيٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [١٩/٥٩]

فمن جملة المضاهاة الواقعة بين الربّ والنفس إنّه جعلها ذات نشأتين: الغيب والشهادة ـ كما إنّه عالم الغيب والشهادة ـ وذات عالمين: المُلك والمَلكوت، والخلْق والأمر ـ كمالَه الخلْق والأمر ـ فأفعال النفس بإرادتها على ضربين: فما تفعله باستخدام قويها البدنيّة وجنودها الجسمانيّة فهي متغيّرة متجدّدة لأنّها كائنة بواسطة الحركات وانفعالات مواد الآلات، والحركة لاتدوم لأنّها عين الحدوث والإنقضاء، وربما تنقضي القوى والطبايع لكلال آلاتها وفتور موضوعاتها. وأماماتفعله بذاتها من غير توسّط القوى الطبيعيّة والآلات الجسمانيّة. فهي أمور ثابتةٌ محفوظة عندها مادامت ذاتها تديمها[٢٤] وتحفظها بعد أن حصلت لها ملكة الحفظ والإسترجاع من جهة رجوعها إلى الباري

(٢٣) منها ـ نسخة.

(٢٤) تبدعها ـ نسخة.

واتّصالها بالملأ الأعلى والحفظة الكرام الكاتبين.فكذلك أفعال الله تنقسم إلى ثابتات ومتغيّرات، مُبدَعات وكاينات.

فعلم من هذا أنّ الله خلق النفس الإنسانيّة ذات اقتدار على ايجاد صور الأشياء في عالَمها الخاصّ ومملكتها الغائبة عن هذا العالَم بمشيّتها وإرادتها، لأنّها من سنخ الملكوت وعالَم القدرة والجبروت، إلاّ أنّ ماتخترعها وتنشا في عالَمها مادامت تكون في هذا العالَم وصحبة الأعدام والقوى والملكات يكون ضعيفة الوجود شبيهة بالأشباح والاظلال، فإذا قويت ذاتها وقرُبت من مبدأها بقطع هذه العلايق الماديّة أصبحت مخترعة للصور الغيبية المناسبة لأخلاقها الحسنة أو السيّئة، إمّا ملذّة أو موذية، ولم يفارق الدنيا عن الآخرة إلاّ في كمال الصورة وقوّة وجودها هناك ونقصها وضعف وجودها هيهنا.

فلو كانت للنفس قدرةٌ تامّة على تصوير الصورة الملذّة في عالَم الحسّ ـ كمالَها قدرة على تصويرها في عالَم الخيال ـ لَكان نعيمها كنعيم أهل الجنّة حيث تكون شهوتهم سبب تخيّلهم، وتخيّلهم سبب إحساسهم فلايخطر ببالهم شيءٌ يميلون[٢٥] إليه إلاّ ويحضر عندهم دفعة.

وإليه الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله: «إنّ في الجنّة سوقاً يُباع فيه الصُور»[٢٦]

والسوق عبارة عن اللطف الإلهيّ الذي هو منبع القدرة على اختراع الصُور بحسب المشيّة وانطباعها ووجودها في العين وجوداً ثابتاً مادامت المشيّة، لاوجوداً هو بمعرض الزوال كما في منام هذا العالَم، وهذه القدرة أكمل

(٢٥) ينالون ـ نسخة.

(٢٦) سنن الترمذي: صفة الجنة، الباب ١٥ ج٤ ص ٦٨٦.

وأوسع من القدرة على الايجاد من خارج الحسّ، لأنّ الوجود[٢٧] من خارج الحسّ يشغل بعضها عن إدراك البعض [٢٨] ويحتجب بعضها عن بعض لضيق عالَـمه، فإذا صار الإنسان مشغولا بسماع واحد أو رؤيته أو مماسّته صار مستغرقاً محجوباً عن غيره، وأما هذه النشأة فتتّسع اتّساعا لا ضيق فيه، حتى لو أراد أحد من أهل الجنة أن يأكل جميع الفواكه، لأكلها بعد إخطاره بباله، ولو أراد كلّ أحد منهم أن يأكل ما يأكله غيره لوسعَتهم لقمةٌ واحدة، فتحضر تلك اللقمة الواحدة في ساعة واحدةٍ لألف شخص في ألف مكان. وحمل أُمور الآخرة على ما هو أوسع وأتمّ للشهوات وأوفى للدواعي والرغبات أولى.

ومّما ورد في الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إنّه يأتي إليهم الملك بعد أن يستأذن في الدخول عليهم، فإذا دخل ناولهم كتاباً من عند الله بعد أن يسلم عليهم من الله، فإذاً في الكتاب لكلّ إنسان مخاطب به: من الحيّ القيّوم الذي لايموت إلى الحيّ القيّوم الذي لايموت، أمّا بعد: فإنّي أقول للشيء: كُن. فيكون، وقد جعلتك اليوم تقول للشيء: كن. فيكون. فقال: فلايقول أحد من أهل الجنّة لشيء: كن. إلاّ ويكون».

قال بعض العرفاء[٢٩]: من أراد أن يعرف كماله فلينظر في نفسه، في أمره ونهيه وتكوينه، بلاواسطة لسان ولاجارحة ولامخلوق غيره، فإن صحّ له المضاء [٣٠] في ذلك فهو على بيّنة من ربّه في كماله[٣١]، فإن أمر أو نهى أو شرَع

---

(٢٧) الموجود ـ نسخة.

(٢٨) بعض ـ نسخة.

(٢٩) ابن العربي: الفتوحات الملكية، الباب ٣٦١ ج٣ ص ٢٩٥، باختلافات يسيرة.

(٣٠) المصدر: المعنى.

(٣١) اضاف في المصدر: فانه عنده شاهد منه اي من نفسه وهو ماذكرناه.

في التكوين بواسطة جارحة فلم يقع أو وقع ولم يعم مع عموم ذلك بترك الواسطة فقد كمل، ولايقدح في كماله ما لم يقع في الوجود عن أمره بالواسطة، فإنّ الصورة الإلهيّة بهذا ظهرت في الوجود، فإنّه تعالى أمر عباده على ألسنة رسله وفي كتابه، فمنهم من أطاع ومنهم من عصى، وبارتفاع الوسايط لاسبيل إلاّ الطاعة خاصّة ولايتمكّن من إبائه.

قال صلّى الله عليه وآله: «يد الله مَع الجماعة»[٣٢].

وقدرته نافذةٌ ولهذا لو اجتمع الإنسان في نفسه حتّى صار شيئاً واحداً أنفذت همّته فيما يريد.

وقال أيضاً في فصوص الحكم[٣٣]: «بالوهم يخلُق كلّ إنسان في قوّة خياله ما لا وجود له إلاّ فيها، وهذا هو الأمر العامّ. والعارف يخلُق بالهمّة ما يكون وجوده في خارج محلّ الهمّة، ولكن لا تزال الهمّة تحفظه ولا يؤدها حفظه ماخلقته، فمتى طرء على العارف غفلةٌ عن حفظ ماخَلق عدم ذلك المخلوق».

وقال أبو علي في تعليقاته[٣٤]: «كلّما كان أشدّ تصوراً يكون أتمّ فعلاً، إلى أن ينتهي إلى الأوّل الذي ليس فيه شيء بالقوّة، فيلزم أن يصدر عنه كلّ موجود، والنفس مادامت تصوّراتها بالقوّة لايصحّ صدور فعل عنها إلاّ بمصوّر يصوّر لها الأشياء ويُخرجها من القوّة إلى الفعل، والكواكب تؤثر في نفوسنا

---

(٣٢) الترمذي: كتاب الفتن. باب ماجاء في لزوم الجماعة: ج٤ ص ٤٦٦.

(٣٣) فصوص الحكم: الفص الاسحاقي، ص ٨٨ وفيه: «والعارف يخلق بالهمة مايكون له وجود من خارج محل الهمة.

(٣٤) التعليقات: ص ١٦٧ باختلافات يسيرة.

دون العكس، لأنّها غير متشعبّة القوى، ونحن قوانا متشعبّة يصدّ بعضها عن فعل بعض بالتمام ويشغلها عنه، كما تشغل الحواسّ القوى الخياليّة عن فعلها بالتمام، وإذا لم تشغلها تمّ فعلها كالحال في المنام. والكواكب قواها غير متشعبّة ولاصادّة بعضها بعضاً بل كأنّها قوّة واحدة، فالباصرة فيها هي القوّة السامعة وهي القوّة المصوّرة، فكأنّها متوفّرة على قوّة واحدة فلهذا تؤثّر فينا ولانؤثّر فيها». ـ انتهى ـ

والحاصل إنّ مبدء صدور الأفاعيل هو تصوّرات المبادي سواء كانت الأفاعيل دنيويّة أو أُخروية، بشرط قوة الهمّة وشدة جمعيّة القـوى، فلمّا كان تفرّق[٣٥] القوى وتوزّع الدواعي مرتفعاً في الآخرة ـ لكون الانقسام والتفرّق من خواصّ هذه النشأة ـ فلامحالة يكون هناك للنفوس الكاملة اقتدار تامّ على إنشاء كلّ ما يتمنّونه،واختراع كلّ مايتخيّرونه من الصوَر المستلذّات كالحوروالقصور والشراب والسلسبيل والزنجبيل، فلكلّ نفس سعيدة عالَم مثل هذا العالَم، إلاّ أنّ عالَمه أشرف وأوسع[٣٦]. لكون موضوعه الجوهر النوريّ النفسـانّي ومـوضـوع هذا العـالَم هي المـادّة الكثيفة الظلمانيّة، وهذا أقلّ الـدرجـات وأدنى المنازل لعـوام أهـل الجنّة ولمن ينجو من عذاب النيران بالشفاعة أو التفضّل، وللجنّة طبقات بعضها فوق بعض.

---

(٣٥) تغير ـ نسـخة.

(٣٦) اصفى ـ نسخة.

قوله عزّ اسمه:

وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾

قُرء بالرفع، إمّا على تقدير: ﴿وَفيها حورٌ عينٌ﴾ أوعلى العطف على ﴿ولدان﴾. وبالجرّ، إمّا عطفاً على ﴿جنّاتِ النعيم﴾، أو ﴿أكوابٍ﴾. وبالنصب على تقدير: ويؤتون حوراً عين . أي: ذوات نفسانيّة نوريّة من النفوس الواقعة تحت مراقبتهم العقلّية في مقام تجلّيات الجمال وسرادقات الجلال وفي مجال مشاهداتهم الصفات في روضات القدس وحضرة الأسماء، لأنّ نسبة النفس إلى العقل المكمل لها بالإفاضة و التشويق. نسبة حوّا إلى آدم.

وإنّما وُصفت بالعين لأنّ ذواتها كلّها عيون لايمددن طرفاً عنهم[٣٧]، كما في قوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾[٣٧/٤٨] وذلك لفرط محبّتها وعشقها إليهم، لأنّهم هم المعاشيق، لأنّ المحبّة من لوازم الوجود لأنّه خيرٌ محض، وكلّ خير محبوب مؤثر إذا برىء من الشرور، وكل ما هو عقلٌ بالفعل فهو وجود بريء عن الشرّ، طاهرٌ عن دنس الآفات والنقائص فيكون معشوقاً بالفعل ـ عشقه غيره أم لا ـ كما هو معقول بالفعل ـ عقله غيره أم لا ـ

(٣٧) لايمدون طرفاً عنها ـ نسخة.

قوله عزّ اسمه:

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

كلّ ذلــك يؤتــى لهم جزاء بأعــمالهــم، فإنّ جزاء علومــهــم وتعقّلاتهم ليس الجنّة ومافيها، بل مشاهدة ذات الحقّ الأوّل وصفاته وأسمائه وذ وات العقول المقدّسين والملائكة المقرّبين وصفاتهم وآثارهم.

وتحقيق ذلك[٣٨] أنّ اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكلّ قوّة وغريزة لذّة، ولذّتها في نيلها لمقتضى طبعها الذي خُلقت له، وألمها في فقدان ذلك عنها. فلذّة الغضب في التشفّي والإنتقام، ولذّة الشهوة في النكاح والطعام، ولذّة البصر في درك الأضواء والأنوار، ولذّة السمع في الأصوات المناسبة والألحان، ولذّة الوهم في الرجاء. وألم كلّ منها في فقد ماينا سبها. فكذلك في قلب الإنسان قوّة تسمّى بالنور الإلهي لقوله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[٢٢/٣٩].

وقد تسمّى بالـروح الإلهيّ لقـوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[٢٩/١٥]. وهو غير الروح الحيوانيّ لكونه من عالم الخلق، وهو من عالم الأمر لقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٨٥/١٧].

وقد تسمّى بالعقل النظري، وبالبصيرة الباطنة. وهو ممتاز عن ساير القوى والمشاعر في أنّ مدركاته هي المعاني التي ليست متخيّلة ولامحسوسة ولذّاته ونعمه في نيلها، وشقاوته وجحيمه في الجهل بها والجحود لها.

فهـذه القـوى قد خلقت وابـدعت لأن تدرك حقـايق الأمور كلّها

(٣٨) اقتباس من احياء علوم الدين للغزالي (٤/٣٠٧ ـ ٣١٠) مع اضافات وتغييرات هامة من المؤلف.

فمقتضى طبعها معرفة صور الأشياء العقلية، من إدراك الحقّ الإله وملائكته، وإدراك خلْق العالَم وافتقاره إلى خالق مدبّر حكيم موصوف بالصفات الإلهيّة، وبها تحصل لذّته وسعادته، كما أنّ بمقتضى طبع ساير القوى تحصل لذّتها.

ولايخفى على ذوي البصائر إنّ في المعرفة والحكمة لذّة تفوق ساير اللذّات، ومن لم يدرك إنّ في الحكمة لذّة وفي تركها ألماًفذلكلأنّه لم تخلق بعد هذه الغريزة النورانيّة والبصيرة الباطنة في قلبه. فقد علم إنّ سعادة الجوهر العقلي من الإنسان في إدراك الحقائق العقليّة وفيها نعيمه. فنعيمه لايوجد في السماء ولافي الأرض ولافي الدنيا ولافي الآخرة، ولافي الجنّة ولافي النار. وبوجه يوجد في الجميع، إذ لكلّ واحدة منها حقيقةٌ عقليّة وصورة مفارقة يشاهدها العارف ويستلذّ بها في مرائي محسوساتها ومظاهر قابليّاتها محتجبة عن الأبصار، مختفية عن أنظار الأغيار، إلا أنّها لاينكشف له حقّ الإنكشاف، ولايتجلّى له كلّ التجلي إلاّ بعد الإنقطاع التامّ عن الدنيا والإنتزاع عن المادّة البدنيّة فيتجلّى له حينئذ تجلّياً يكون انكشاف تجلّيها بالقياس إلى ما علمه كانكشاف تجلّي المرايا[٣٩] بلا حجاب بالقياس إلى أشباحها الخياليّة، بل المعرفة الحاصلة في قلبه هي بعينها تستكمل في حقّه وتنقلب مشاهدة صريحة، كما أنّ نفسه المدبّرة لبدنه تنقلب في الإستكمال عقلا مفارقاً، ولايكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلاّ من حيث زيادة الكشف وتمام الوضوح كما في قوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [٨/٦٦].

---

(٣٩) المرئيات ـ نسخة.

ثمّ لايخفى إنّ لذّة كلّ علم وإدراك عقلّي ليست في درجة واحدة، لظهور أنّ لذّة العلم بالحراثة والخياطة ليست كلذّة العلم بالله وصفاته وملائكته وملكوت السموات، لأنّ زيادة اللذّة في العلم بقدر زيادة شرف وجود المعلوم، وزيادة شرف الوجود بقدر كماله وشدته وبراءته عن النقص والإمكان والزوال والتغيّر، فأجلّ اللذّات وأعلى السعادات هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم، وإلى أسرار الأمور الإلهية وكيفية تدبيره لعالمي المُلك والملكوت، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿فَلَاتَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [١٧/٣٢] وإنّه:أعدّ لهم مَا لاعينٌ رأتْ ولا أُذُن سمعت ولاخطر على قلب بشر.

فإذن جزاء المعرفة والحكمة هو جميع أقطار ملكوت السموات والأرض، وجميع صوَرها العقلّية ميدان العارف يتبوّء منها حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بشخصه، فهو من ملاحظة جمال الملكوت في جنّة عرضها السموات والأرض،وكلّ عارف فله مثلها من غير أن يضيق على غيره،إلاّ أنّهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم[٤٠] وكمال سعادتهم بقدر كثرة علومهم وقوّة نظرهم و رسوخ معرفتهم، وَهُم دَرجاتٌ عِند الله.

وقد وقعت الإشارة فيما مرّ أنّ أجناس العوالِم والنشآت منحصرةٌ في ثلاثة ـ كما إن مشاعر الإنسان و مداركه ثلاث درجات ـ وكلّ عالَم ونشأة له مشعَر خاصّ من الإنسان، وهو أيضا بحسب كمال كلّ درجة من درجاته الثلاث يقع في عالَم من العوالِم الثلاثة ويكون من الصورالموجودةفي ذلك العالَم فعالَم الدنيا ونشأة المحسوسات تختصّ بإدراك صورها الحسّيّة الحواسّ

(٤٠) مسراتهم ـ نسخة.

الـظاهـرة والإنسان يقع فيها ويدرك الصور المادّيّة ويستلذّ بها من حيث اشتماله على الجوهر الحاسّ وبذلك يشارك الحيوانات اللحميّة.

وأمّا عالَم الصورَ الأُخروية ـ وهو النشأة الغيبيّة ـ فتختصّ بإدراكها الحواسّ الباطنة والإنسان يقع فيها ويدرك صورها المجرّدة عن المادّة دون المقـدار والشكل، ويستلذّ بها لاشتماله على جوهر العقل العملي والتخيّل بالفعل وبذلك يشارك الجنّ وضرباً من الملائكة النفسانيّة.

وأمّـا عالَم الصـور المفـارقـة الإلهيّة والمُثـل النوريّة والنشأة القدسيّة فتختصّ بإدراكهـا القـوّة الروحانيّة والبصيرة العقليّة، والإنسان يقع فيها ويدرك صورها ببصيرته العقليّة وقوّته القدسيّة وهذه القوّة مفقودة في أكثر الناس ـ بل لاتوجد إلّا نادراً ـ وعالَم الدنيا منبع الظلمات ومعدن الآفات، كما أنّ العالَم الثالث محض الأنواروالخيرات المفارقة عن الشرّ بالكلّيّة.

وأمّا العالم الأوسط فينقسم إلى صوَر نوريّة وظلمانيّة، ولكلّ منها طبقات هي طبقات الجنّة والنار، فأهل الدنيا أشقياء محضة، وأهل الله سُعداء محضة، وأهل الآخرة ينقسم إلى السعداء ـ وهم أصحاب اليمين وأهل الجنّة ـ وإلى الأشقياء ـ وهم أصحاب الشمال وأهل النار ـ فمن عمل للدنيا كان أجره وجـزاءه المـال والجـاه، وعاقبته الحسرة والندامة والحرقة بالنار، ومن عمل للآخرة كان أجره وجزاءه الجنّة والحور والقصور ومن نظر في معرفة الله وعلم مبـدءه ومعاده وتصوّر حقايق الأشياء كما هي وصدّق بوجودها كان أجره وجـزاءه الإتّصال بالملأ الأعلى ومجاورة الحقّ الأوّل ومطالعة ملكوته ودوام النظر إلى وجهه الكريم، وذلك هو الفوز العظيم والفضل الجسيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستـقـيم، ولـذلـك جعـل الله المـذكـورات من السُـرر

والولدان والكأس من مَعين والفاكهة ولحم الطير والحور العين جزاء الأعمال، لاجزاء العلوم والمعارف، إذ لاغاية لها إلاّ أنفسها. قال بعض العرفاء[٤١]: إنّ لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ورجاء الجنّة.

وهكذا حكى عن نفسه الشريفة أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له.

وقد سأل بعض إخوان معروف[٤٢] عنه: أخبر أيّ شيء أهاجك إلى العبادة والإنقطاع عن الخلق؟

فسكت، فقال: ذكر الموت؟ فقال: أيّ شيء الموت.

فقال: ذكر خوف القبر؟ فقال: وأيّ شيء هذا.

فقال: خوف النار ورجاء الجنّة؟ فقال: وأيّ شيء هذا. فقال: إنّ ملكاً بيده هذا كلّه إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينه وبينك معرفة كفاك جميع هذا.

وفي أخبار عيسى عليه السلام[٤٣]: إذا رأيت التقيّ مشعوفاً في طلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عن جميع ماسواه.

ولايخفى عليك أنّ المشعوف بمعرفة الله وملكوته هم العرفاء الإلهيون والحكماء الربّانيّون. وإنّي لم أجد في وجه الأرض من له شعفٌ بعلومهم ومعارفهم إلاّ واحداً، تصديقاً لقول من قال: «جلّ جناب الحقّ عن أن يكون شريعة لكلّ واردٍ أو أن يطّلع عليه إلاّ واحداً بعد واحد»[٤٤].

---

(٤١) ابو سليمان الداراني على ما في احياء العلوم: ٤/٣١٠.

(٤٢) احياء العلوم ٤/٣١٠.

(٤٣) احياء العلوم: ٤/٣١٠.

(٤٤) الاشارات. آخر النمط التاسع.

وإذا بلغ الـرجـل إلى غاية يكون شعفه مقصوراً على إدراك أحوال الربوبيّة انحطت درجته عند الناس ـ إذ يخرج كلامه عن حدود عقولهم ـ ويهجرهم ويهجرونه ويتركهم ودينهم وينفرد عنهم آخذاً بدينه عاملا بوصيّة ربّه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٦/٩١].

قوله عزّ اسمه:

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾

«اللغو» و« العبث» من فعل القوّة المتخيّلة إذالم يكن معها غاية عقليّة أو فكريّة.

و«التأثيم» من فعل القوّة الطبيعيّة عندعصيانها عن طاعة النفس.

فالأول ناشٍ من ضعف العقل، والثاني من غلبة الطبيعةِ وانقهار النفس وعجزها، وهما منتفيان عن أهلِ الجنان وأصحابِ الرضوان .

قوله عزّ اسمه:

إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾

لسلامة صدورهم ونقاء سريرتهم عن الغشّ والعداوة، وسلامة أقوالهم واعـتـقـاداتهـم عن الـكـذب والغلط، فلا يسمعـون إلاّ قول بعضهم لبعض على وجه التحيّة: سلاماً سلاماً. فيفشون بينهم السلام وحسن الكلام

ونصب «سلاماً» إمّا على البدليّةِ لِـ «قيلاً» وإمّا على كونه مفعولا به، وإمّا على المصدريّة بتقدير سلّمك الله سلاماً.

قوله عزّ اسمه:

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾

لّما ذكر بعض آثار مناقب المقرّبين أراد أن يذكر بعض نتايج محاسن السُعداء وجزاء أعمالهم فذكرهم أوّلاً وعجب من حالهم تفخيماًلشأنهم في حسن مآلهم.

قوله عزّ اسمه:

فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾

«السدر»: شجر النبق[٤٥]. و «المخضود» مالاشوك له. وأصل الخضد عطف العود اللين، فكان المخضود لكونه ليناً رطباً لاشوك له غالباً.

و «الطَلْح» كلّ شجر عظيم الشوك. وقيل: شجر الموز. وقيل: شجر اُمّ غيلان، وله نَور كثير الرائحة.

و «والمَنضُود» الذي نضد بعضه على بعض بالحمل من أسفل ساقه إلى أعلى أفنانه. فليست له سوقٌ بارزة بل كلّه ثمر.

و ﴿ظِلٍّ مَمْدُود﴾ اي منبسط دائم لايتقلّص [٤٦]ولا ينسخهالشمس.

و ﴿ماءٍ مَسْكوب﴾ اي مصبوب.

فإن قلت: بعض هذه اللذات مّما لايرُغب فيها رغبة بالغة، بل يعافه

(٤٥) النبق (بفتحتين وبكسر النون وسكون الباء) حمل شجر السدر.

(٤٦) قلص الظل: انقبض .

طبع أكثر الناس، وكذا الكلام في العسل واللبن والاستبرق فما سبب ايرادها؟

قلنا: سبب ذلك أمران: أحدها أنّها ممّا خوطب به جماعةٌ عظمت هذه الأمـور في أعينهم ويشتهـونه غاية الشهوة، ولكلّ إقليم مطاعمٌ ومشاربٌ وملابس يختصّ بذوقها قومٌ دون قومٍ ولكلّ أحد في الجنّة ما يشتهيه كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَشْتَهِي أَنْفُسُكُم وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ﴾ [٣١/٤١].

وثانيها: لكلّ شيء يكون في الدنيا فله صورةٌ في الآخرة وكثيراً ما تكـون صورتـه الـدنيويّةسمجة كريهة، وصورته الأُخرويّة في غاية الحسن واللطافة. أوَ لا ترى أنّ أهل الايمان كثيراً ما يكونون في الدنيا شعثاً غبراً مصفرّ الوجوه أو سودها، وفي الآخرة وجوههم أضوء من الشمس وأنور من القمر؟ أوَ ما سمعت أنّ خُلوق فَم الصائم عند الملائكة أطيب من رائحة المسك الأذفر؟

فهكذا قياس ساير هذه الأُمور، فيحتمل أن يراد بهذه الألفاظ إمّا غير معانيها المعهودة أو خلاف أفرادها الموجودة ـ مخالفة نوعيّة،أو بحسب الكمال والنقص.

أمّا السِدر: فلايبعد أن يراد به السِدرَة المُنتهى، وهي الحدّ الذي مَن تجاوز عنه تجاوز من عالَم الصورة إلى عالَم المعاني الصِرفة،ولذا قيل: إنّها في منتهى الجنّة وآخرها. وقيل في وصفها: إنّها شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر[٤٧] وورقها كآذان الفيول تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله تعالى في كتابه، يسير الراكب في ظِلّها سبعين عاماً لايقطعها.

(٤٧) القلال: أعمدة ترفع بها الكروم من الارض . ويقال: ذهبت الشجرة هجراً اي طودا.

وقيل: لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحدٌ ماورائها.

وقيل: ينتهي إليها أرواح الشهداء، قال تعالى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوىٰ﴾[٥٣/١٥] أي تأوى إليها أرواح السُعداء وأصحاب اليمين.

ومن قال إنّها ينتهي إليها علم الملائكة وغيرهم ولايعلم أحد ما ورائها أراد بالعلم: العلوم التخيّليّة الجزئيّة المتعلّقة بعالَم الصوَر والأشباح، دون المعارف العقليّة المتعلقة بعالَم المعاني المحضة، وأكثر إطلاق الملائكة على الجواهر المتعلّقة بالأجسام وملكوتها وباطنها، فيكون علومها علوماً جزئيّة، دون علوم المقرّبين، المجردين عن عالَم الصور، وأراد من غيرهم أصحاب اليمين، المقتصرين في العلوم على مايسمعون بحسب النقل والرواية فيما يتعلّق بالأعمال، دون المكاشفات الغيبيّة المتعلّقة بحقايق الأشياء وأحوالها.

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: رأيتُ على كلّ ورقةٍ من أوراقها ملكاً قائماً يُسبّح الله[٤٨].

وعند العرفاء إنّ المراد من هذه الشجرة في العالَم الكبيرهي قوّة ملكوتيّة مظهرها السماء السابعة، شأنها تصوير الحقائق وتنزيلها منزلة التَخليق والتشكيل، وهي متوسّطة بين عالَم الأمر والخلْق.

وفي العالَم الصغير الإنساني: القوّة الخياليّة التي مظهرها اللطيفة البخاريّة الواقعة في بعض تجاويف الدماغ، التي في لطافتها وشفيفها تشبه السماء السابعة، وهي ـ أيضاً ـ متوسّطة بين العقل والحِسّ، شأنها تجسيم المعقولات وتجريد المحسوسات. ولهذا وقع في بعض الروايات عن ابن مسعود

(٤٨) قرب الاسناد: ص ٤٨. مجمع البيان في تفسير الاية.

والضحّاك: إنّها شجرةٌ ينتهي إليها مايعرج إلى السماء وينزل إليها مايهبط من فوقهـا من أمْر الله[٤٩] وروي أيضا: إنّها ينتهي إليها مايهبط من فوقها فيفيض منها وإليها ينتهي مايعرج من الأرواح.

فإذا تقرّر هذا فيحتمل أن يراد من السدر المذكور في هذه السورة هذه القوّة الإنسانيّة، ومن المذكور في سورة النجم[٥٠] تلك القوّة الملكوتيّة العظيمة الـواقعـة بين العالَمين،التي بلغ إلى حدّها معراج النبيّ صلّى الله عليه وآله بشخصه وجسده، ثمّ تجاوز عنها بروحه المقدّس.[٥١]

وأمّا الطلح المَنضُود: ففيه شبه ما في السدر في نسبة صورته الاُخروية. وعن علي عليه السلام: إنّه قرء عنده رجل: وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ. فقال: وَطَلْعٍ، وماشأن الطَلْح؟ ـ وقرء قوله: لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ـ فقيل له: أو نحوّلها؟

فقال عليه السلام: إنّ القرآن لايُهاج اليوم ولايُحوّل[٥٢].

وعن ابن عبّاس، ورواه أصحابنا عن يعقوب بن شعيب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: وطَلحٍ منضودٍ. قال: لا، وطَلعٍ مَنضُود.

وأمّا الظِلّ المَمدُود: فيراد به ظِلّ رحمة الله وعكس نور وجوده الواقع على المخلوقات ـ الأقرب فالأقرب ـ كما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ـ الآية ـ [٢٥/٤٥].

وأمّا الَماء المَسكُوب: فيراد به عين ماء الحياة الأبديّة الساكب دائمًا من

---

(٤٩) الدر المنثور: ج٦ ص ١٢٥.

(٥٠) ولقد رآه نزلة اخرى * عند سدره المنتهى [٥٣/١٤ ـ ١٥].

(٥١) بروح القدس ـ نسخة.

(٥٢) الدر المنثور: ج٦ ص ١٥٧.

أُسكوب منبع الفضل والرحمة، وقيل: يسكب لهم دائمًا أين شاءوا وكيف شاءوا ـ لايتعبون ولايتعبون فيه ـ. وقيل:مصبوب: يجري على وجه الأرض حيث أرادوا من غير أُخدود. وقيل: مسكوبٌ ليشرب على مايرى من حسنه وصفائه.

قوله عزّ اسمه:

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾

تكرير ذكر الفاكهة لاختلاف الصفة. فوصف فاكهة المقرّبين بأنّها متخيّرٌ لهم، ووصف فاكهة أصحاب اليمين بأنّها كثيرة غير مقطوعة ولاممنوعة عنهم. ولعلّ الوجه في هذا الإختلاف أنّ المقرّبين لكونهم في مقام الجمعيّة ودرجة الأمر والتكوين، فكلّ ما هو موجودٌ لهم فهو موجود عنهم، وقد مرّ أنّ شهواتهم وإراداتهم مبادي حصول الأشياءلأنّ علومهم فعليّة،وأمّا غيرهم: فإن كان من أصحاب الشمال ومن سُكّان عالَم الحسّ والطبع فهو مجبور محض في فعله، لأن مرتبته مرتبة الطبيعة ولها درجة الإنفعال، لمجاورتها واتّصالها بالموادّ الإنفعاليّة النازلة في صفّ النعال وفي النزال. وإن كان من أصحاب اليمين فمقامه مقام النفس، إلاّ أنّه نهى النفس عن الهوى وهَوى إلى درجة الطبيعة والدنيا، والنفس من حيث هي نفس وإن كانت مختارة في فعلها، إلاّ أنّ فعلها كاختيارها ليس يصدر عنها بالإستقلال، بل بمشاركة مبدء عقلي وإمداد جوهر قدسيّ وتأييد ملك علويّ من الملائكة العلويّة العقليّة، فمنه تفيض كمالاتها ومنه يأتي رزقها رغداً، وليست أرزاقها بتقديرها،بل بتقدير مقدّر عليم، وإنّما شأنها استدعاء الرزق والنعمة واستجلابها وطلبها لاغير، ولها من

الإختيار والمشيّة هذه المقدار لايزيد عليه. وأمّا التكوين والتحصيل فمن فوقها.

وأمّا وصف فاكهتهم بالكثرة وعدم الانقطاع المقابل له ـ تقابل العدم والملكة ـ المستلزم لاستمرار[٥٣] الإمتدادي الزماني وعدم المنع المقابل له هذا التقابل ـ دون فاكهة المقرّبين ـ فلأنّ عالَمهم عالَم الصورة والمقدار، وعالَم المقرّبين عالَم الوحدة والجمعيّة وعالَم المعاني المجرّدة والجواهر المرتفعة عن الكثرة العدديّة،الخارجة عن الامتداد واللّاامتداد،والاستمرار واللااستمرار، المتبرّئة عن الإنقطاع واللاإنقطاع،لتجرّدهم عن الزمان والمكان،وتقدّسهم عن التجدّد والحدثان، مع أنّ في ذلك العالَم يوجد جميع مايوجد في عالَم المقادير من صوَر الأنواع الكثيرة، إلّا أنّها فيه على وجه أعلى وأتمّ وأحسن وأحكم.

وهذا ممّا حقّقه وقرّره بعض الحكماء الراسخين والأولياء الشامخين من المتقدّمين،المقتبسين نور الحكمة من مشكوة الوحي والنبّوة، في كتابه المعروف بمعرفة الربوبيّة[٥٤] حيث قال:

«إنّ العالَم الحسيّ كلّه مثالٌ وصنمٌ للعالَم العقلي، فإن كان هذا العالَم حيّاً فبالحريّ أن يكون ذلك حيّاً، وإن كان هذا العالَم تامّاً كاملا فبالحريّ أن يكون ذلك العالَم أتمّ تماما وأكمل كمالاً لأنّه هو المفيض على هذا العالَم الحيوةَ والقوّة والكمال والدوام. فإن كان العالَم الأعلى تماما في غاية التمام فلا محالة إنّ هناك الأشياء كلّها ـ إلّا أنّها فيه بنوع أعلى وأشرف ـ فثمَّ سماء ذات حياة، وفيها كواكب مثل هذه الكواكب التي في هذه السماء،غير أنّها أنوَر وأكمل، وليس بينها

(٥٣) الظاهر: للإستمرار.

(٥٤) اثولوجيا: الميمر الثامن.

افتراق كما يرى هيهنا.وذلك لأنّها ليست جسمانيّة. وهناك أرض ليست ذات سباخ،لكنّها كلّها حيّة عامرة، وفيها الحيوانات كلّها الأرضيّة[٥٥] التي هيهنا، وفيهـا نبـات مغروس في الحيوة، وفيها بحارٌ وأنهار جاريةٌ تجري[٥٦] جرياً حيوانيّاً، وفيها الحيوانات المائيّة كلّها، وهناك هواء وفيه حيوانات هوائيّة حيّة شبيهة بذلك الهواء.

والأشياء التي هناك كلّها حيّة لأنّها في عالَم الحيوة المحض،لايشوبها الموت البتة، وطبايع الحيوان التي هناك مثل طبايع هذه الحيوانات إلاّ أنّ الطبيعة هناك أعلى وأشرف من هذه الطبيعة لأنّها عقليّة».

وقال أيضا: «إنّ الأشياء التي هناك كلّها مملّوة غنىً وحيوةً كأنّها حيوة تغلي وتفور، وجري حيوة تلك الأشياء إنّما ينبع من عين واحدة، وكيفيّة ذلك العالَم كأنّها[٥٧] حرارةٌ واحدة أو ريحٌ واحدة فقط بل كلّها كيفيّة واحدة[٥٨] توجـد فيهـا كلّ طعم، وإنّـك تجد في تلك الكيفيّة الـواحدة طعم الحلاوة والشـراب وسـاير الأشياء، ذوات الطعوم وقواها، وساير الأشياء الطيّبة الروايح، وجميع الألوان الواقعة تحت البصر، وجميع الأشياء الواقعة تحت اللمس، وجميع الأشياء الـواقعة تحت السماع ـ اللحون كلها وأصناف الايقاعات ـ وجميع الأشياء الـواقعـة تحت الحِسّ. وهذه كلّها موجودة في كيفيّة واحدة مبسوطة لأنّ تلك الكيفيّة الواحدة حيوانيّة عقلانيّة تسع جميع الكيفيّات التي

---

(٥٥) المصدر: والطبيعة الأرضية.

(٥٦) المصدر: ومايجري جريا.

(٥٧) المصدر: لاكأنها حرارة.

(٥٨) فيها كل كيفية وطعم واحد ـ نسخة.

وصفناها ولاتضيق عن شيء منها من غير أن يختلط بعضها ببعض ويفسد بعضها ببعض، بل كلّها فيها محفوظة كأنّ كلّ منها قائمٌ على حدة». ـ انتهى كلامه بترجمة حنين بن إسحق ـ.

فقد صحّ أنّ كلّ شيء في العالَم الأعلى العقلي مع وحدته عين أشياء كثيرة، ففاكهة واحدة مع وحدتها مشتملة على فواكه كثيرة مّما في العالَم الأوسط وجنّة أصحاب اليمين، وهذا أمر محقّق عند أهل الذوق والوجدان وثابت عند الواغلين[٥٩] في الحكمة بالبرهان.

قوله عزّ اسمه:

وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾

وبسط عالية ليست على وجه هذه الأرض السفلية، كما يقال: «بناء مرفوع». لا إنها كانت مخفوظة ثمّ رفعت. وقيل منضود بعضها على بعض حتّى ارتفعت. أو مرفوعة على الأسرّة.

وعن الجبائي: إنّ معناه: ونساءٌ مرتفعات القدر في عقولهنّ وحسنهنّ وكمالهنّ. بدلالة تعقّبها بقوله: «انَّا أنْشَأْنَاهُنَّ اِنْشَاءً» لأنّ المرأة تكنى عنها بالفراش، فيقال لامرأة الرجل: فراشه. ومنه قوله صلّى الله عليه وآله: «الوَلَد للفِراش وللعاهِر الحَجَر»[٦٠] وعلى التفسير الأوّل أضمر لهنّ،لأنّ ذكر الفراش ـ أي المضاجع ـ دلَّ عليهنّ.

(٥٩) الراغبين ـ نسخة.

(٦٠) مجمع البيان في تفسير الاية. وراجع ايضاً المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي: ج١ ص ٤٢٥.

﴿أنشأناهنّ﴾ أي ابتدأنا خلقهنّ من غير مادّة ولا ولادة، لأنّ أمور الآخرة كلّها انشاءات من غير مادّة واستعداد وحركة، بخلاف أمور الدنيا فإنّ كلّها ماديّات متجـدّدة متقضيّة[٦١] فاعلها طبيعة سيّالة الوجود تدريجيّة الكون، وقابلها قوّة إنفعاليّة تجدّديّة، والتأثير من الفاعل ليس إلّا التحريك والإعداد ـ دون الإنشاء والايجاد ـ فإمّا أن يراد بها اللاتي ابتدء انشاؤهنّ أو اللاتي أعيد خلقهنّ على سبيل العود.

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ أمّ سلمة رضى الله عنها سألته عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ فقال: ياأمّ سلمة، هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجايز شمطاً رمصا[٦٢]، جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الإستواء، كلّما أتاهنّ أزواجهنّ أبكاراً.

فلمّا سمعت عايشة ذلك قالت: واوجعاه. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: ليس هناك وجع[٦٣].

وقالت عجوز لرسول الله صلّى الله عليه وآله: أدع الله أن يدخلني الجنّة. فقال صلّى الله عليه وآله: إنّ الجنّة لاتدخلها العجايز. فولّت وهي تبكي. فقال صلّى الله عليه وآله: أخبروها إنّها ليست يومئذ بعجوز، وقرء الآية[٦٤].

عُرُباً ـ بضمّ الراء. وقرىء بسكونها تخفيفاً: ـ جمع «عَروب» أي: متحنّنات على أزواجهنّ، متحبّبات إليهم، حسنات التبعّل.

---

(٦١) منقضية ـ نسخة.

(٦٢) الشمط: الشيب. الرمص: وسخ في العين.

(٦٣) الكشاف: في تفسير الآية. راجع ايضا الدر المنثور: ج٦ ص ١٥٨.

(٦٤) الدر المنثور: الصفحة السابقة.

أتـرابـاً: متشـابهات مستويات في السـنّ بنات ثلاث وثلاثين، وكذلك أزواجهنّ لما روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله إنّه يدخل الجنّة أهل الجنة جرداً مرداً بيضاء جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين[٦٥].

قوله عزّ اسمه:

لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾

اللام من صلة «أنشأنا» أو «جعلنا» ويحتمل كون الظرف مستقرّاً أي: هذا المذكور حاصل لأصحاب اليمين جزاء لأعمالهم وميراثاً عن طاعاتهم.

قوله عزّ اسمه:

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

أي: طائفة من الأمم السابقة وطائفة من مؤمني هذه الأمّة.

قال الحسن: سابقـوا الأمـم المـاضية أكثر من سابقي هذه الأمة، وتـابـعـوا الأمـم المـاضـية مثـل تابـعـي هـذه الأمّـة، ويـوافـقـه قول مقاتل وعطاوجماعة من المفسّرين، والأرجح أنّ الثلّتين جميعاً من هذه الأمّـة ـ كما دلّ عليه الحـديث المنقـول آنفـا ـ[٦٦] وهو أيضا قول مجاهد والضحّاك ومختار الزجّاج.

وممّا يؤيّد هذا أنّ نوع الإنسان منذ أوّل بعثة آدم كان سالكاً سبيل الحقّ بالاهتداءمتدرّجاً في الترقّي والاستعلاء، متطوّراً في أطوار الكمالات من جهة

(٦٥) الترمذي: كتاب صفة الجنة، الباب ١٢ ج٤ ص ٦٨٣.

(٦٦) راجع الصفحة: ٢٨.

تلاحق الاستعدادات وظهور الأسماء بمقتضي بعثة الأنبياء ونزول الآيات وترادف المعجزات بحسب خصوصيّات الأزمنة والأوقات، حتّى وصلت النوبة في السعادة والاهتداء إلى ظهور نبوّة خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله فبلغ الترقّي في الكمال إلى منتهاه، ووصل الروح الآدميّ إلى مبتغاه بحسب الفطرة الثانية[٦٧] والنشأة الباقية.

وحكى عن أرسطاطاليس الحكيم أنّه قال: وراء طور العقل طورٌ آخر لكنّه إنّما يكون لأهل آخر الزمان، كما أنّ طور الحواسّ كان للأوايل ونبيّهم إدريس، فاطّلعوا بحواسّهم على ما في السموات من عدد الكرات الفلكية والكواكب وهيآتها وحركاتها، ثمّ طور الوهم والهمّة كان لبني اسرائيل[٦٨] وكان نبيّهم موسى، وكان إذا تأذّى من قوم يهلك منهم بلحظة ألوفاً كثيرة.

ثمّ طور العقل فهو لنا. ثمّ طورٌ وراء طور العقل يكون لأهل آخر الزمان.

ثمّ قال رجل من الفلاسفة كان بعده: صدق فيما قال أرسطو، ونبيّ هؤلاء محمّد بن عبد الله العربيّ، فإنّه اطّلع على أُمور بحسب الوحي من الله لم يدركه من كان قبله.

ثمّ إنّ فضيلة هذا النبيّ صلّى الله عليه وآله على ساير الأنبياء تدلّ على فضيلة أُمّته على ساير الأُمم، كما في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [٣/١١٠] وزيادة الشرف والفضيلة في النبي تدلّ على كثرة عدد الصحابة والتابعين والأئمّة الهداة والمأمومين والأتباع الصالحين والأشياع المؤمنين.

---

(٦٧) الثابتة ـ نسخة.

(٦٨) لمن بعدهم ـ نسخة.

وممّا يؤيّد هذا القول ويعضده من طريق الرواية ما رواه نقلة الأخبار بالأسناد عن ابن مسعود[٦٩] قال:

«تحدّثنا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلة حتّى أكثرنا[٧٠] الحديث، ثمّ رجعنا إلى أهلنا، فلمّا أصبحنا غدونا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: عرضت عليّ الليلة الأنبياء بأتباعها من أممها، فكان النبيّ يجيء معه الثلة[٧١] من أمته، والنبيّ معه العصابة من أمته، والنبيّ معه النفر من أمّته، والنبيّ معه الرجل من أمّته، والنبيّ ما من أمّته أحد، حتّى أتى أخي موسى في كبكبة من بني إسرائيل، فلمّا رأيتهم أعجبوني فقلت: ربّي من هؤلاء؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومَن معه من بني إسرائيل.

قلت: ياربّ فأين أمّتي؟ قال: أنظُر عن يمينك. فإذا ظراب[٧٢] مكّة قد سدّت بوجوه الرجال. فقلت: مَن هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء أمّتك.أرضيت؟ فقلت: ربّ رضيت. وقال: أنظر عن يسارك. فإذا الأفق قد سدّت بوجوه الرجال. فقلت: ياربّ مَن هؤلاء؟ فقيل هؤلاء أمّتك. أرضيت؟ فقلت: ربّ رضيت.فقيل: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً من أمّتك يدخلون الجنّة بلا حساب.

قال: فأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد بن خزيمة، فقال: يا نبيّ الله أدعُ ربّك أن يجعلني منهم. فقال: اللهم اجعَله منهم ثمّ أنشأ رجلٌ آخر

---

(٦٩) راجع المسند: ج١ ص ٤٠١ و ٤٢٠. والدر المنثور: ج٦ ص ١٥٩.

(٧٠) أكرينا - نسخه - اي اطلناه.

(٧١) ثلاثه - نسخة - وفي المسند الثلاثة من امته.

(٧٢) الظراب: الجبال الصغار. واحدها ظرب بوزن كتف (النهاية).

فقال: يا نبيّ الله ادعُ ربّك أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكاشة.

فقال نبيّ الله ـ صلوات الله عليه وآله ـ: فداكم أبي وأمّي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفاً، فكونوا. وإن قصرتم وعجزتم فكونوا من أهل الظراب. وإن عجزتم وقصرتم فكونوا من الأفق. وإنّي قد رايت ثمّة أناساً كثيراً يتهارشون[٧٣] كثيراً.

فقلت: من هؤلاء؟ ومن السبعون ألفا؟ فاتفق رأينا لهم على أنّهم ناس ولدوا في الإسلام فلم يزالوا يعملون به حتّى ماتوا عليه. فانتهى[٧٤] حديثهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: ليس كذلك. ولكنّهم الذين لايسترقون[٧٥] ولا يتكبّرون، ولا يتطيّرون[٧٦] وعلى ربهم يتوكّلون.

ثمّ قال: وإنّي لأرجو أن يكون من تبعني ربع أهل الجنّة. قال: فكبّرنا. ثمّ قال: إنّي لأرجو أن يكونوا ثُلث أهل الجنّة. فكبّرنا. ثمّ قال: إنّي لأرجو أن يكونوا شطر أهل الجنّة. ثمّ تلا رسول الله صلّى الله عليه وآله: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِين وثُلَّةٌ مِنَ ٱلآخِرِينَ﴾.

قوله عزّ اسمه:

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾

ثمّ ذكر سبحانه أصحاب الشمال وعجب رسوله من حالهم، وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى جهنّم أي: قعر العالم. كما أفصح عنه اسمها، يقال: «بئر جهنام» إذا كانت بعيدة القعر.

---

(٧٣) يتهارشون تهارش الكلاب: يتقاتلون ويتواثبون (النهاية).

(٧٤) فانهى ـ نسخة.

(٧٥) لايسرقون ـ نسخة.

(٧٦) ولايبطرون ـ نسخه.

أو الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، أي من جانب الحسّ والطبيعة، وقد مرَّ بيان أنّ المعنيَين متلازمان. وبيانه بوجه آخر: إنّ النفس الكليّة الموصوفة بالقوّتين ـ المعبّر عنها بلسان الشرع بـ «اللوح المحفوظ» ـ ظلّ للعقل الكلّي ـ المعبّر عنه بـ «القلم الأعلى» و «النور المحمّدي» لقوله صلّى الله عليه وآله «أوّل ماخلق الله نوري»[٧٧] كما أنّ الطبيعة ظِلّها.

فما لم تمتـدّ من ظلّ النفس وبقيَت في درجة النوريّة سُمّيت بالزمرّدة الخضراء، وما امتدّ من ظِلّ النفس فتسمّى طبيعة، وكان امتدادها على جوهر الهيولى المـظلمة، فظهر من جوهر الهيولى والطبيعة الجسم الطبيعي مظلمًا، ولهذا شبّهوه بالسبخة[٧٨] السوداء، وفي هذا الجسم[٧٩] ظهرت صور هذا العالَم وأشكاله.

فكما علمت هذا في النفس الكلّية فاعلم أنّ الحال في النفوس الجزئيّة هكذا لأنها رقائق للنفس الكلّية، فلكلّ نفس جزئيّة جانبان: الأعلى وهو اليمين، والأسفل وهو الشمال. وليس لها الإنتقال من طرف إلى طرف إلا أفراد النفوس الإنسانيّة، فإنّ كلّاً منها كطير له جناحان بإحديهما يطير إلى فوق ـ وهي القوّة النظرّية ـ وبالأُخرى يهوي إلى تحت وهي القوّة العمليّة.

فمن طارت نفسه إلى العالَم الأعلى ـ إمّا بقوّة ذاته كالمجتهدين العارفين، أو بقوّة غيره كالمقلّدين المريدين ـ فهو من أهل السعادة الأُخرويّة، إمّا من الفائزين المقرّبين أو من أصحاب اليمين الناجين.

---

(٧٧) البحار: ج ٢٥ ص ٢٢ .

(٧٨) بالشحة ـ بالشبحة ـ نسخة.

(٧٩) القسم ـ نسخة.

ومن هوت نفسه إلى العالَم الأسفل ونزلت درجته إلى درجة الطبيعة والحواسّ، فهو من أهل الشقاوة الاُخرويّة وأصحاب الشمال والوبال، لرُكونه وسكونه إلى عالَم الطبيعة. فإذا زالت عنه القوى الطبيعيّة ونفدت[٨٠] عنه هذه الحواسّ كان كإنسان مقطوع الأعضاء، مثول الأطراف في ظلمة شديدة لاأوحش منها. فما أصعب حال أصحاب الشمال وما أشدّ نكال أهل الظلمة والوبال.

فأراد سبحانه أن يكشف عن سوء أحوالهم وقبح وبالهم:

فقال ـ عزّ اسمه ـ: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾

أي في ريح حارة، حرّ نار تدخل مسامّهم وخروقهم[٨١]، وفي ماء مغلي حارّ متناهي الحرارة، وظلّ من دخان أسود شديد السواد، لابارد يُستراح إليه ويسكن لديه،ولاكريم ينتفع به ويتخلّص من يأوي إليه من ألم الحرّ وأذى الجحيم. سمّاه «ظِلّاً» ثمّ نفى عنه صفتي الظلّ، والمراد إثبات مقابل هذين الصفتين، والمعنى أنّه ظلّ حارٌّ ضارٌّ لاكظلال أهل الجنّة. وللنفي في مثل هذا الكلام[٨٢] بلاغةٌ ليست للإثبات، لاشتماله على ضرب من التهكّم بأصحاب الشمال، وأنّهم قد حُرموا روح تلك الظلال العاليَة وبردها ونفعها.

---

(٨٠) فقدت ـ نسخة.

(٨١) حزومهم ـ نسخة.

(٨٢) هذا المقام ـ نسخة.

واعلم ـ إن كنت من أهله ـ إنّ صورة جهنّم وأهلها هي بعينها من حقيقة هذه الدنيا وأهلها، لكنّها يظهر هناك باطنها ويبطن ظاهرها. كما أنّ ههنا طويت سرائرها ونشرت ظواهرها، فالسُموم بالحقيقة هي من نار الطبيعة الفاعلة للحرارة الشديدة في بواطن الأجسام المركّبة من العناصر، فإنّ فعلها في تحليل الرطوبات الحاصلة في بدن النبات والحيوان وإفناء فضلاتها أقوى من فعل النار المحسوسة في الحطب اليابس، فنار الطبيعة المستورة عن الأبصار الكامنة في هذه الأجسام هي أحقّ باسم النار من هذه النار التي هي إحدى الأُسطقسات، لأنّها تفعل في بواطن الأجسام أكثر من ظواهرها، بخلاف هذه، ولأنها أتمُّ فعلا وأدوم تأثيراً حيث لا يصادم تأثيرها مجاورة الماء لأنها تجامعه[٨٣] وتؤثّر فيه.

على أنّ هذه النار المحسوسة أيضا مبدء ناريّتها ومنشأ إحراقها وتفريقها المختلفات طبيعةٌ غير محسوسة، ولها صورة أُخرويّة قريبة من نار الطبيعة الكليّة في جميع الأجسام من صور غيرها من العناصر، وهي كلّها بالقياس إلى نار النفس الأمّارة الموقدة التي تطّلع علىٰ الأفئدة كشرارة من نارٍ عظيمة، وهاتان الناران ـ أي نار الطبيعة ونار النفس الشريرة ـ كامنتان عن مشاهدة الخلق ههنا، ظاهرتان عليهم يوم القيامة.

وأمّا الحميم: فهو من حقيقة مياه هذا العالَم إذا تسخّنت في الأجسام[٨٤] والأبدان النباتيّة والحيوانيّة واشتدّت سخونتها بفعل الحرارة الغريزيّة الكامنة فيها، وخصوصاً إذا انضمّت إليها الحرارة الغريبة الحاصلة من التعب والمشقّة

(٨٣) تجاوره ـ نسخة.

(٨٤) الاجساد ـ نسخه.

أو الإستحمام، أو من الحميات الشديدة، أو من الهواء المطيف بالبدن، أو من شدّة تسخين الشمس أو تجميد الزمهرير ـ الموجب لاحتباس الحرارة أيضا في الباطن ـ أو غير ذلك ممّا لايخلو عنها أهل الدنيا.

وأهل السلامة الاُخروية قد انقطعوا وتخلّصوا بباطنهم عنها، فلاجرم نجوا عن علوق أمثال هذه الاُمور. وأهل الشقاوة لّما تعلّقوا بهذه الاُمور ظاهراً وباطناً ففي القيامة أيضاً يتعذّبون بها أشدّ العذاب لكشف الغطاء وحدّة البصر وقوّة الحاجة إلى الخلاص عن عذابها.

وأمّا الظِلّ من يَحموم.فهو من ظلال الأدخنة السوداءالتي يسكن إليها ويستريح بها أهل الدنيا لفقرهم وحاجتهم إلى مايزيل عنهم أذى الحرّ واعتقادهم لفرط الجهل والنقصان بأنّ السكون عندها راحةٌ للنفس وانتفاع لها، وعدم تفطّنهم بأنّ جميع لذّات الدنيا آلامٌ ومصيبات للنفس، وإنّما تضطرّ النفوس إلى ارتكابها لانسداد طرُق النجاة وانغلاق أبواب الخلاص عليها عن عذاب جهنّم الطبيعة ودواعي تأثيرها وتحليلها مادامت محبوسة في سجنها، مقيّدة بأيدي سدنتها في حميمها وزقّومها.

ويحتمل أن يراد من «اليَحموم» سماء الدنيا، لأنّها من حقيقة الدخان كما في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾[٤١/١١] وكلّ دخان في ذاته فهو [٨٥] أسود وعند التراكم يظهر سواده ويشتد ـ وإن لم يظهر عند التلطّف ـ. أو طبيعة الجسم المطلق الذي هو ظلّ ذو ثلاث شعب لاظليل ولايغنى من اللهب. أو هذه الأرض المظلمة.

ولفظة «مِنْ»: إمّا للبيان، أو للتبعيض، أو للسبب. فيراد من «الظلّ» إمّا

(٨٥) فهو في ذاته ـ نسخة.

نفس شيء من هذه الأجسام، أو جزئه، أو مايتبعه كالبدن ونحوه فإنّ البدن ـ أيضا ـ كظلّ يسكن إليه النفس وهو كجزء من الأرض وحاصل من الطبيعة الأرضيّة المظلمة.

وروى: إنّ اليحموم جبلٌ في جهنّم يستغيث أهل النار إلى ظلّه[٨٦].

قوله عزّ اسمه:

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾

لّما ذكر سبحانه نبذاً من أحوال أهل الضلال وأصحاب الشمال بحسب العاقبة والمآل، أراد أن يذكر نبذاً من أسباب شقاوتهم من أحوالهم وأفعالهم التي أوجبَت لهم هذا النكال، وذهبت بهم إلى مضيق هذا الوبال إذ العاقبة لكلّ أحد من نتيجة السابقة. والنهاية من مقولة البداية.

ثمّ لاشكّ أنّ مجامع مبادىء الشرّ والعصيان في أفراد الإنسان منحصرةٌ في أُمور ثلاثة. لأنّ له قوى ثلاث خلقها الله فيه لحاجته إليها مادام في الدنيا لتكون وسيلة له إلى حسن العاقبة في الآُخرى ـ إذا صرفها فيما خُلقت لأجله ـ وهي بعينها أسباب الشقاوة ـ عند انصرافها في غير وجوه مصارفها الشرعيّة ومواضعها الفطريّة.

إحديها: القوّة الشهوية التي من شأنها أن تستعمل في

(٨٦) مجمع البيان: ج٩ ص ٢٢٦.

المستقبحـات[٨٧] وتـدفع القاذورات. والثانية: القوّة الغضبيّة التي من شأنها الغلبة والتهجّم والايذاء. والثالثة: القوّة الإدراكيّة سيمّا الوهمية التي من شأنها الجربزة والمكر والحيلة.

فقوله ﴿إنّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ إشارة إلى فعل القوّة الشهويّة على وجه الإفراط. أي كانوا في الدنيا متنعّمين، مفرطين في المآكل والمشارب اللذيذة والمناكحات الشهيّة. وبيّن سبحانه أنّ الترف ألهاهم عن الانزجار، وشغَلَهم عن الاعتبار، فكانوا تاركين للواجبات طلباً للراحة[٨٨].

وقـولـه تعالى: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ـ أي: الذنب العظيم ـ إشارة إلى فعل القوّة الغضبيّة، إذ الإصرار على الذنب أن يقيم عليه ولايقعد عنه بلوم لائم[٨٩] ولاينزجر بزجر زاجر، لشدّة القوّة وإفراط الداعية. ولّما كانت القوّة الغضبيّة أقوى من الشهويّة وأقرب إلى الأفعال[٩٠] الباطنة، فكانت ذنبها عظيمًا بالقياس إلى ذنب الشهوة. فكذلك ذنب القوّة الوهميّة أعظم من ساير الذنوب، كما أنّ طاعتها أعظم أجراً من طاعة هذه القوى التي تحتها.

قيل: كانوا يحلفون أن لايبعث الله مَن يموت وأنّ الأصنـام أنداد الله.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إشارة إلى فعل القوّة الوهميّة، وهو الإعتقاد الباطل في استحالة البعث والنشور، بناء على مقدّمات وهميّة وقضايا كاذبة يؤلف منها قياس مغالطي، أو مقدّمات مشهورة وقضايا شبيهة بالحقّ يؤلف منها قياس جدلي.

---

(٨٧) ان تـستعمل المستقبحات ـ نسخة.

(٨٨) لراحة ابدانهم ـ نسخة.

(٨٩) ولا يقلع بمنع مانـع ـ نسخة.

(٩٠) انفعال القوى ـ نسخة.

وهـذا أشـدّ ضـراراً وأكثر فساداً وأصعب انقلاعاً عن قلوب الجماهير، مثل قول مَن قال من منكري المعاد: إنّ الإنسان إذا مات وتلاشت أعضائه وصارت عظامه رميماً وأجزاءه تراباً فكيف يقبل الحيوة تارة أُخرى؟ فإن قبلت الأجزاء الباقية نفس الحيوة التي زالت عنها تلزم إعادة المعدوم، وإن قبلت غير تلك الحيوة يلزم كونها حيّة بحيوة أُخرى، وحينئذ لم يبق فرقٌ بين المُعاد والمستأنَف، ولافرق أيضا بين أن يقال «ذلك الشخص عادَحيّاً» أو «حدث شخصٌ آخر» ولتساوي نسبته إلى ساير الأشخاص لااختصاص لواحد دون واحد في كونه هذا الشخص بعينه، إذ لاعبرة بالأجزاء الترابيّة.

فقوله: ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يحتمل أن يكون للإشارة إلى ماذكر على قرائة من قرأ: «أَوْ آبَاؤُنَا» بسكون الواو، ليكون العاطفة فاصلة. وأمّا على قرائة مَن قرأ بفتح الواو ليكون[٩١] واصلة ودخلت عليه همزة الإستفهام ـ وهم أكثر القرّاء وقرائتهم أصحّ، لحسن العطف على المضمر في «لَمَبْعُوثُون» من غير تأكيد بـ «نَحْنُ» لوجود الفاصل الذي هو الهمزة ـ فيحتمل أن تكون الآية للإشارة إلى شبهة أُخرى لهم؛ وهي أنّ مقدار جرم الأرض مقدارٌ محصورٌ معدودٌ بالفراسخ والأميال، بل ممسوح بالأذرع والأشبار؛ وعدد النفوس غير متناه، فلايفي مقدار الأرض ولايسع لأن يحصل منه الأبدان الغير المتناهية، ولاتكون فيها أمكنه جميع الخلايق، السوابق منهم واللواحق لعدم تناهيهم، إذ لاقائل بأنّ المحشور والمُعاد بعض الناس دون بعض.

وهذا الوجه أربط بما ذكره تعالى في الردّ عليهم وهو قوله عزّ اسمه:

---

(٩١) فيكون ـ نسخة.

قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

وقرىء لمجمعون.

قد علّم الله نبيّه طريق رفع هذا الإعضال ولقّنه تقرير الجواب عن هذا السؤال فقال: قُل يامحمّد ﴿إِنَّ ٱلأوَّلِين وَٱلآخرينَ﴾ أي الذين تقدّموا عليكم من آبـائكم وغـير آبائكم، والذين يتأخّرون عن زمانكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقَاتِ يَوم مَعْلُوم﴾ أي لمحشورون إلى أجل وقّت به الله عباده، وهو يومٌ معلوم عند الله، هو يوم القيامة، فإنّ الميقات ما وقّت به الشيء.

قال صاحب الكشّاف: «إنّ هذه الإضافة بمعنى «مِن» كخاتم فضة». والحقّ أنّها بيانيّة.

وهو يوم يسع الخلايق كلّها،لأنه يشمل الأيّام كلّها،لكون مقداره خمسين ألف سنة، كما أنّ أرض المحشر تسَعهم أجمعين لأنّها جامعةالأرضين كلّهنّ ـ كما حقّقه العارفون ـ فإنّ المعية والجمعية للخلايق على ضرب آخر ليست كمعيّة زمانيّة أو جمعيّة مكانيّة، كيف وليس لجميع الأزمنة زمان، ولا لجميع الأمكنة مكان، ولالمجموع هذه الدار دارٌ أُخرى، إلاّ بمعنى أُخرى[٩٢] له نحو آخر من الكون.

ولنُمثّل لاجتماع الخلايق عند الله في يوم واحد على الساهرة[٩٣] بمثال واحد جزئيّ، وهو: إنّ ملاقات الكرة المتدحرجة مع السطح المستوي لايكون

(٩٢) آخر ـ نسخة.
(٩٣) ساهرة ـ نسخة.

في كلّ آن ولا في كلّ زمان من أزمنة السكون إلّا بنقطة واحدة متعيّنة، ويكون ملاقاتها معه في زمان حركتها الدورية بخطّ واحد متّصل، بل بنقطة واحدة بجميع[٩٤] النقاط كلّها،لاكجمعيّة النقاط التي تكون في مقدارٍ قارّ ساكن، بل جمعيّة أُخرى انطوت بسببها جميع أجزاء الخطّ وجميع النقاط التي كلّ منها واقعة في آنٍ غير آن صاحبها في نقطة الملاقات، وكذلك حال اجتماع الخلايق في عرصة القيامة عند الله، فافهم واغتنم إن كنت من أهله.

قوله عزّ اسمه:

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾

ثمّ إنّكم ـ أيّها الذين ظللتم عن طريق الهدى، ونكبتم عن هذه المحجّة البيضاء، وعمتْ بصائركم عن مشاهدة أنوار ملكوت الأرض والسماء، وفسدت أذواق قرايحكم عن إدراك حقايق الأشياء من جهة متابعة النفس والهوى، وتغيّرت مدارك قلوبكم وأرواحكم عمّا فطرها الله عليها بمرارة المراء والإمتراء فحرموا عن جذوبها [٩٥] وحرّم الله عليكم نعيم الجنّة وطعوم أهلها ـ لآكِلُون كالبهائم والأنعام من شجرمن زقّوم، أي: من شجر هو الزقّوم، فـ «مِن» الأولى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر وتفسيره، لأنّه اسم شجرة تنبت في أصل نار الجحيم، ثمرها رؤوس الشياطين؛ كما وصفها الله سبحانه في سورة

(٩٤) بجمع، بجمع ـ نسخة.

(٩٥) جذوبها ـ نسخة.

الصافّات حيث قال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ﴾ [٣٧/٦٥].

وهي شجرة النفس الخبيثة، المتغيّرة عن الفطرة العقليّة لسبب[٩٦] اعتقادات فاسدة أفسدتها، كشجرة طيبّة تغيّرت رائحتها لفساد تطرّق إليها وغيّرها عن الطبيعةالأصليةفصارتْ كريهة الطعم والرائحه، وهي بسبب[٩٧] هذه الإعتقادات نابتة[٩٨] في قعر جهنّم الطبيعة، المتشعبة أفنانها في دركاتها، تتغـذّى بها قلوب الكفّار ونفوس أهل النار، لأنّها تنمو وتزيد بواطنهم في النفسانيّة وقوّة الشرارة والقساوة[٩٩] وشدّة الجحود والعداوة لأهل الدين وأصحاب اليقين، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

فشجرة الزقّوم كأنّها مثال لنفوس الرؤساء وأئمّة الضلال المبتدعين للتعليم والإرشاد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ [٣٧/٦٣]إذ قد صارت تلك النفوس من جهة طلعها ـ أي حملها وثمرها من العلوم المغالطيّة والأكاذيب الوهميّة ـ رؤوس الشياطين.

و «الآكِلون مِنْ زقّوم» إشارة إلى نفوس الأتباع والمقلّدين، الذين ظلّوا عن سبيلهم ونكبوا عن دليلهم. وأكلهم منها : أخذهم الإعتقادات الباطلة منها وتديّنهم بدينها. وامتلاء بطونهم منها: نشؤهم في هذه العقايد الرديّة المسودة للقلوب، المغذيّة[١] للنفوس الشقيّة، المنمية لها فظاظة وغلظة، المورثة لها شدّة وقسوة، فإنّ الأشرارغذائهم من الشرور وهذه أغذيتهم الأُخرويّة.

وبازاء أغذية هؤلاء أرزاق أهل الله ومقويّات قلوبهم ومغذّيات أرواحهم

---

(٩٦) بسبب ـ نسخه.

(٩٧) بحسب ـ نسخة.

(٩٨) ثابتة ـ نسخة.

(٩٩) والفساد ـ نسخة.

(١) المغذية ـ نسخة.

وهي المعلومات اليقينيّة والعقايد الصحيحة الايمانيّة، من معرفة المبدء والمعاد. كما أشير إليه[٢] بقوله سبحانه: ﴿اولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون﴾ [٤٢/٣٧] ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم﴾ [٦٢/٣٧] أي: معلوماتهم التي هي من معلومات الله، مقوّية لقلوبهم، مغذّية لأرواحهم يتفكهون بها ويتلذّذون في صحبة أتباعهم وأصحابهم وقلوبهم بها مكرمة عند الله جالسة في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولاشكّ أنّ اليقينيّات التي تجعل العقول الهيولانيّة ـ التي هي ملائكةٌ بالقوّة ـ ملائكة بالفعل،خير نزلاً ونزولا إليهم من الوهميّات الكاذبة التي تجعل النفوس الوهمانيّة التي هي شياطين بالقوّة شياطين بالفعل.

وقرء: «من شجرة من زقّوم» فعلى هذا تذكير الضمير الراجع إليها في «عليه» لكونها على تأويل الزقّوم لكونه في معناه، وأمّا على القرائة المعروفة بتأنيث ضمير «الشجر » في «منها» على المعنى وتذكيره في «عليه» على اللفظ.

قوله عزّ اسمه:

فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾

فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾

قرء «شرب» بالحركات الثلاث، فمفتوح الفاء والمضموم مصدران، وعن أبي عبد الله عليه السلام: «أيّام أكل وشَرْب»[٣] ـ بفتح الشين ـ وأمّا المكسورة فبمعنى المشروب.

و الهيم: الإبل التي بها الداء المسمّاة بـ «الهيام» وهي داء تشرب منه

(٢) في النسخ: أشار اليه. والتصحيح قياسي .

(٣) الكشاف: ج٣ ص ١٩٥، في تفسير الآية.

ولاتروي، والمفرد «أهْيَم» و «هَيْماء». قال ذو الرمة:

فأصبحتُ كالهَيْماء لا الماءُ مبردٌ   صَداها ولايقضي عليها هَيامُها

ـ كذا في الكشّاف ـ وفيه أيضا: «قيل: الهيم: الرمال. ووجهه أن يكون جمع الهَيام-بفتح الهاء-وهو الرمل الذي لايتماسك. جمع على فُعُل، كسُحُب وسَحاب، ثمّ خُفّف وفعل به ما فعل بجمع أبيض ».

يعني: إذا ملئت بطون بواطنهم من تناول ثمرة الزقّوم حتّى صاروا كالممتلي غيظاً وحقداً وحسداً وقت هيجانهم، سلّط الله عليهم حرقة القلب وعطش النفس لحبّ الدنيا والرياسة على الأقران وايذاء الخلق ـ كمن به داءُ الكلَب لكلَب النفس ـ فشربوا عليها كاسات من حميم الأهواء والأماني المذمومة الرديّة وأشواق الاُمور السفليّة وتصوّرات الشرور الموذية التي يكسر بها بعض شرارة النفس وسَورة الغضب ـ وإن كانت مؤدّية أخيراً إلى ماصارت بها نفوسهم، أسوء حالا وأكثر حرقة واضطراباً، وطبايعهم أشدّ ثوراناً وهيجاناً من الأوّل لغلبة الحرص والشهوة والحسد والعداوة، كالناقة الهَيماء والكلب العَقور الذي به أسوء الداء.

قوله عزّ اسمه:

هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

اعلم إنّ كلّ مايأكلونه ويشربونه أهل النار من أطعمة الدنيا وأشربتها يصير زقّوماً وحميًا بحسب العاقبة، وهذا أمرٌ مشهود لأهل الكشف والشهود، لأنّ كلّ مايرد إلى باطن الإنسان يرتفع منه أثرٌ إلى نفسه ويؤثّر فيها بحسب نيّاته واعتقاداته في الخير والشرّ. والنزل مايعدّ للنازل تكرمة له، فالله سبحانه

أشار إلى مآل مايتنعّمون به في الدنيا بقوله: هٰذَا ـ أي الزقّوم والحميم ـ نُزُلُهُم الدنياويّ وعـاقبتـه في يوم الدين، وعلى هذا لايكون الظرف متعلّقاً بقوله «نزلهم» فلايكون فيه تهكّم بهم.

ويحتمل أن يكون المراد: إنّ هذا الحميم والزقّوم بصورتيهما الأُخرويّتين نزلهم في الآخرة، كما أنّهما بصورتيهما الدنياويتين نزلهم في الدنيا. فيكون الظرف متعلّقا به وعلى هذا ففيه تهكّم كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣/٢١].

وقرىء نزْلهم ـ بالتسكين ـ.

قوله عزّ اسمه:

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

«لولا» كهَلّا كلمة تحضيض، أي: نحن أوجدناكم أوّلا من غير مثال وحركة وإرادة زايدة وداع. فهلّا تصدّقون به، ولولا تعلمون[٤] كيفيّة الايجاد حتّى تعلموا منها كيفيّة الإعادة، فإنّ من قدر على خلقكم في هذه النشأة الدنياويّة من غير مثال أقدر على إنشائكم في نشأة أُخرى من غير مثال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٧/٢٩].

والمنكِرون للبعث وإن كانوا بزعمهم مصدّقين بالخلق والايجاد،لكن لايعلمون تحقيقه علي وجهه[٥]، ولاكيفيّة ارتباط الموجودات به بوجه حتّى يعلموا النشأة الثانية الباقية، وإلّا فلم يشكّوا فيها. فكأنّهم مكذّبون بالخلق.

---

(٤) لم لا تعلمون ـ نسخة.

(٥) لايعلمون بحقيقة وجهه ـ نسخة.

ويحتمل أن يكون التحضيض على البحث، أي: لّما علمتم بالخلق فهلّا تُصدّقون بإمكان البعث، لأنّ مَن خلَق أوّلا لايمتنع عليه أن يخلق ثانياً كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله عزّ اسمه:

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾

ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾

هذا يرجّح المعنى الأوّل لقوله: فَلولاَ تُصَدِّقُون. إذ فيه تنبيه على أنّ جهلهم بالبعث لجهلهم بالخلق، ولو علموا بكيفيّة الايجاد لعلموا بكيفيّة الإعادة، وذلك لأنّ القوم زعموا إنّ الفاعل مايفعل بحركة ومباشرة،فكلّ مَن يباشر حركة أو يستعمل جسمًا حتّى يتهيّأ لفيَضان شكل أو صورة من الواهب الحقيقي، فهم يسمّون ذلك المحرِّك فاعلا. ولهذا يظنّون الأب فاعلاً للإبن، والُممني فاعلا للمني، والزارع فاعلا للزَرع، والبنّاء فاعلا للبناء.

فهكذا تصوّروا فاعليّة الفاعل الأوّل جلَّ اسمه فوقعوا في الشرك. والله سبحانه نبّه على فساد ظنّهم وبطلان عقيدتهم بأنّ الممني ليس علّة للمني ولا البَنّاءُ علّة للبناء ولا الزارعُ للزرع،بل حركة كلّ منهم علّةٌ لحركة شيء آخر، وذلك الشيء يصير مادّة بتلك الحركة،مستعدّة لأن يكسوها فاعل الكلّ صورة أو شكلا.

أمّا الأبُ: فهو علّة لحركة المني، وحركة المني إذا انتهت على الجهة المذكورة تأدّت لحصول المني في القرار، وأمّا تصويره حيواناً أو إنساناً وبقاؤه

(٦) فسّر المصنف (قده) هذه الايات في كتابه «المبدء والمعاد» ص ٤١٤ وما بعده ايضاً، فراجع.

حيواناً وإنساناً[٧] فله علّةٌ أُخرى ومبدأ أعلى.

وأمّا البنّاء فحركته علّة لحركة اللبنة ثمّ سكونه بعدها وتركه الحركة علّة لانتهاء تلك الحركة، وانتهاؤها علّةُ الاجتماع. وأمّا التشكّل[٨] المجتمع من اللبنات وحفظه وامساكه مدّة،فله فاعلٌ آخر هو الذي بقوته يُمسك السَموات والأرْضَ أنْ تزُولاَ.

وكذا حكم الزارع، فإنّ حركته علة لحركة الحبّة[٩]،ثمّ سكونه بعدها أو ترك حركته علّةٌ لسكون الحبّ[١٠] في قرارها من الأرض ـ مثل سكون النطفة في قرار الرحم.

فإذا ثبت أنّ فعل الفاعل الحقيقي هو إفاضة الوجود ـ لا التحريك والإعداد المورثان لإستعداد الموادّ[١١] كالنطف والبذور لقبول صورة الحيوان والنبات من مبدأ جواد ـ تحقّق أنّ الاعادة منه مثل الإبداء،لايفتقرفيها إلى سبق مادّة قابلة يستعملها ليتهيّأ لحصول[١٢] صورة ثانية، بل إذا شاء أنشأها ثانية، من غير مثال سابق.

فقوله: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ـ معناه: أفرأيتم ماتقذفونه بالحركة الجماعيّة في أرحام النساء من النُطف؟ إنّكم مقدّروه ومصوّروه، أم نحن مقدّروه ومصوّروه؟

---

(٧) واما تصويره حيوانا وابقاؤه حيواناًأوانساناً ـ نسخة.

(٨) علة لاجتماع ما. وأما تشكيل ـ نسخة.

(٩) الجسم ـ نسخة.

(١٠) الجسم ـ نسخة.

(١١) كذا، والظاهر ان الصحيح: الا ستعداد للمواد.

(١٢) لتهيأ حصول ـ نسخة.

والأوّل باطلٌ فتعيّن الثاني. فإذا ثبت أنه تعالى مقدِّر الحيوة بلامادّة،فهو مقدّر الموت بلامادّة.

وقرأ أبو السماك «تَمنون» بفتح التاء. يقال: أمنى النطفة ومناها. قال سبحانه: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾[٥٣/٤٦].

قال الرازي في الكبير:[١٣]وجه الاستدلال بهذه الآية أنّ المني إنّما يحصل من فضلة الهضم الرابع،وهو كالطلّ المنبثّ في أطراف الأعضاء،وبهذا يشترك كلّ الأعضاء ويجب غسلها بالالتذاذ الواقع لحصول الارتحال عنها كلّها، ثمّ إنّ الله يسلّط قوّة الشهوة على البنية حتّى تجمع تلك الأجزاء الطليّة. بل إنّها بحسب مادّتها الغذائيّة كانت متفرّقة في أطراف العالَم، ثمّ الله جمعها بقدرته في بدن الحيوان، ثمّ في أوعية المني، ثمّ أخرجها ماء دافقاً إلى قرار الرحِم ، فإذا كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها وكوّن منها هذا الشخص، فإذا افترقت بالموت مرّةً أخرى فَكيف يمتنع عليه جمعها مرّة أخرى؟

هذا كلامه. وفيه مالايخفى من وجوه التكلف؛حيث اعتبر مقدّمات لادلالة عليها ولاحاجة إليها ، مع إمكان المناقشة فيها وفي استلزامها الدعوى بعد تسليمها.

قوله عزّ اسمه:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾

لّما نبّه على أنّ فاعل صورة الإنسان ومقدّر وجوده هو الله سبحانه

(١٣) في تفسير الاية (٢٥) من سورة البقرة ج٣٤١/١ بتصرفات من المصنف.

بحسب جهات فاعليّة ترجع إليه من علمه وإرادته وحكمته ـ لا بحسب جهات قابليّة ترجع إلى القابل من مادتّه ووضعه وحركته ـ لأنّ تلك الجهات هي منشأ الفعليّة والوجوب لحصول أصل الوجود، وهذه الجهات منشأ القوّة والإمكان، لتعيّنه ولاختصاصه بزمان ومكان وتعدّد وانقسام. فأشار إلى أنّه المعيد كما أنّه المنشيء، فإنّ ايجاد الخلق إفادة أصل الوجود لهم والإعادة إفادة أصل الوجود وثمرته وغايته. فالمجيء إلى الدنيا من الجنّة هو النزول من الكمال إلى النقص والخروج من الفطرة الأصليّة، ولامحالة صدور الخلق من الحقّ[١٤] لم يكن إلاّ على هذا الطريق.

والذهاب من الدنيا إلى الآخرة هو التوجّه من النقص إلى الكمال، والرجوع من الحالة الغريبة إلى الفطرة الأصليّة، ولامحالة رجوع الخلق الى الحقّ[١٤] ليس إلاّ على هذا الطريق ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣٠/١١].

لكن السعداء يتوجهّون إليه تعالى بنفوس راضية وقلوبٍ سليمة عن العلايق الظلمانيّة والعوائق الرديّة، وأمّا الأشقياء فيرجعون إليه بنفوس مظلمة كدرة كثيرة التعلّق بالدنيا ومؤذياتها وقلوب مسودّة منكوسة منقلبة[١٥] إلى الأسفل.

والتقدير: ترتيب الأمر على مقداره. قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرنا بَيْنَكُم الْمَوْتَ﴾ يحتمل أن يراد منه: نحن خلقنا الأبدان الأُخرويّة عند الموت بهيآت متفاوتة مختلفة وقسمناها بين أرواحكم مناسبة لأعمالكم واخلاقكم فإنّ الموت

---

(١٤) الخالق ـ نسخة.

(١٥) متعلقة ـ نسخة.

قد يطلق على حال الإنسان بعد هذه الحيوة الدنياويّة.

وعن مقاتل: المراد من قدّرنا الموت: قسمناه عليكم قسمة الرزق، على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيّتنا، فاختلف أعماركم من قصير وطويل [ومتوسط].

وعن الضحّاك: معناه سوّينا فيه بين المطيع والعاصي وبين أهل السماء والأرض.

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لايسبقنا أحدٌ منكم عليه ولايعجزنا عنه. تقول: «سبقته على شيء» إذا أعجزته عنه وغلبته عليه.

وقيل: إنّه من تمام ماقبله، فمعناه: لايغلبنا أحد منكم على ماقدّرناه من الموت بأن يدفعه(١٦).

وقيل: إنّه متّصل بما بعده ـ وهو قوله: عزّ اسمه: ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَتَعْلَمُونَ﴾.

* * *

إعلم(١٧) إنّ الروح الإنساني أوجده الله دائمًا مدبّراً لصورة طبيعيّة(١٨)، سواء كان في الدنيا أو في الجنّة أو في النار أو في غيرها. فأوّل صورة لبسها بعد الصورة التي أُخذ عليها الميثاق هي صورة دنياويّة حشر بها في رابع شهر من حين تكوّن صورة جسده في الرحم إلى ساعة موته، وله(١٩) انتقالات

(١٦) يذيقه ـ نسخة.

(١٧) اقتباس مما جاء في الباب الرابع والثمانون ومأتان من الفتوحات المكية ج٢ ص ٦٢٧ باضافات وتصرفات من المؤلف.

(١٨) للصورة الطبيعية ـ نسخة.

(١٩) ولها ـ وله فيها ـ نسخة.

متّصلةً يتوارد عليه[٢٠] الأمثال على نعت الإتّصال، حتّى يظنّ أكثرالناس أنّ بدنه بعينه واحد شخصيّ من ابتداء العمر إلى انتهائه، وليس كذلك بل له في كلّ حين حشر من صورة إلى أُخرى مشابهة[٢١] ولتشابه الصور يلتبس ذلك عليهم، كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١٥/٥٠] ويحتمل أن يكون اللَبس من اللباس، وفي هذا تشبيه حسَن كما في تفسيره بالاشتباه والالتباس.

ثمّ إذا مات حُشر إلى صورة أُخرى من حين موته إلى وقت سؤاله، فإذا جاء وقت سؤاله حُشر من تلك الصورة إلى صورة جسده الموصوف بالموت، فيجد نفسه الإنسان الميّت المقبور بعينه فيحيى به[٢٢]، ويؤخذ بأسماع الناس وأبصارهم عن حيوته إلاّ من خصّه الله بالكشف عن ذلك من نبيّ أو وليّ من الثقلين.

ثمّ يحشر بعد السؤال إلى صورة أُخرى في البرزخ، بل تلك الصورة عين البرزخ يمسك فيها إلى نفخة البعث لقوله تعالى ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١٠٠/٢٣] فيبعث عن تلك الصورة ويحشر إلى الصورة التي كان فارقها في الدنيا إن كان بقي عليه سؤال وحساب، وإن لم يكن من أهل ذلك الصنف حشر في الصورة التي يدخل بها الجنّة، والمسئول إذا فرغ من سؤاله حُشر إلى صورة يدخل بها الجنّة أو النار ـ وأهل النار كلّهم مسئولون محاسَبون.

فإذا استقرّ أهل الجنّة فيها ثمّ دُعوا إلى الرؤية والكشف[٢٣] حُشروا في

---

(٢٠) عليها ـ نسخة.

(٢١) متشابهة ـ نسخة.

(٢٢) فيجيء به ـ نسخه.

(٢٣) ونودوا الى الكثيب (نسخة بدل الكشف).

صورة لايصلح إلّا للرؤية، فإذا عادوا حشروا إلى صورة يدخلون فيها إلى سوق الجنّة، ، فإذا دخلوا سوق الجنّة ورأوا مافيه من الصور فأيّة [صورة] رأوها واستحسنوها انتقلوا إليها وحُشروا فيها فلايزالون في الجنّة دائمًا يحشرون من صورة إلى صورة إلى مالانهاية له، لأنّ قدرة الله واسعة.

ـ فاعلم هذا فإنه من لباب المعرفة الإلٰهيّة ـ

وقوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَاتَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى حشر الأرواح إلى عالَم المفارقات المحضة المقابل لحشر الأمثال والأجسام[٢٤] إلى عالَم الصور الجنانية أو الجهنميّة، ذلك للمقربين وهذه لأصحاب الشمال[٢٥].

ويحتمل أن يكون المراد منه: وَنُنشئكم فيما لاتعلمون من الهيئات المختلفة على حسب أعمالكم ونيّاتكم، فإنّ المؤمن يخلق على أحسن هيئة وأجمل صورة، والمنافق على أقبح صورة وأوحَش شكل وربما يحشر بعض الناس على صورة حيوان لم يعهد مثله في قبح المنظر وكآبة[٢٦] الصورة، بواسطة تركيب الأخلاق السيّئة في نفسه التي يوجد لكلّ منها قبح صورة متفرّقة[٢٧]، وقد اجتمعت في ذاته، مثل من اجتمعت في ذاته شهوة الحمار ودناءة[٢٨] الخنزير وتكبّر الأسد وحرص النمل وحقد الجمل وحسد[٢٩]

---

(٢٤) الاجساد ـ نسخه.

(٢٥) + واليمين ـ نسخة.

(٢٦) كراهه ـ نسخة.

(٢٧) التي يوجد كل منها في حيوان آخر قبيح الصورة متفرقه ـ نسخة.

(٢٨) دياثة ـ نسخة.

(٢٩) حيل ـ حيلة ـ نسخة.

الغراب وجبن الصلصل وغير ذلك، فيتركّب هيئة صورة جسده من هيئات صور هذه الحيوانات.

وفي الحديث: «يحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القِردة والخنازير».

قوله عزّ اسمه:

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

اعلم إنّ من علم وتفطّن بصنعة الباري ومسلك عنايته وحكمته في وجود النشأة الأُولى للإنسان ومذهب طبيعته وقوى نفسه في التدرّج في الأحوال والترقّي من صورة إلى صورة عند الاستكمال ـ حيث ابتدأ أوّلا من تراب،ثمّ من نطفة، ثمّ من ماء مهين، ثمّ كان علقة جامدة في قرار مكين، ثمّ كان مضغة مخلّقة، ثمّ كان جنيناً مصوّراً تامّاً، ثمّ كان طفلا متحرّكاً حسّاساً، ثمّ كان صبيّا ذكيّا فهيمًا، ثمّ شابّاً متصرّفاً قويّاً نشيطاً، ثمّ كان كهلا مجرّباً، ثمّ كان شيخاً كاملا:إمّا في الحكمة والمعرفة فيكون حكيمًا أو وليّاً من أولياء الله، ثمّ بعد الموت يكون ملكاً سماويّاً أو من الملائكة المقرّبين. أو في المكر والجربزة فيكون محيلا مكّاراً عدوّاً للدين من أعداء الله، ثمّ يكون بعد الموت شيطاناً مَريداً لعنه الله،محشوراً في حزب الشياطين وأصحاب النار، وإمّا في طلب اللذات الحسيّة من الشهوة والغضب فيكون إمّا ظالماً محشوراً بعد الموت في صورة السباع والحيّات، أو فاجراً محشوراً في صورة البهائم والحشرات ـ.

فيعلم يقيناً أنّ للإنسان نشأة أُخرى فوق هذه النشأة الأُولى، بل الدنيا والآخرة واقعتان تحت جنس المضاف بحسب المفهوم، فتعقّل كلّ منها

وتـذكّـرهما يستلزم تعقّل الأُخرى وتذكّرها. فإنّ الدنيا عبارة عن حالتك القريبة قبل الموت، والآخرة عن حالتك البعيدة بعد هذه الحيوة فكلّ منها مقيسة إلى الأُخرى ومضافه إليها.

وكما أنّ للإنسان أطواراً متفاوتة في الدنيا ـ بعضها فوق بعض ـ كذلك له مواطن وأطوار متفاوتة في الآخرة بعضها صوريّة وبعضها معنويّة، يسافر[٣٠] في مواطن الآخرة ويتوارد عليه الأمثال ويتعاقب له الأحوال، مثل العَرض والحساب والميزان والكتاب والصراط والأعراف والجنّة والنار.

ويحتمـل أن يكون المراد: إنك يا إنسان لّما علّمتك نشأتك الدنياويّة وحالتك الدنيّة الأُولى التي قد وقع لك فيها الانتقالات من رتبة إلى رتبة فوقها، فكنت أوّلا جماداً،ثمّ نباتاً، ثمّ حيواناً، ثمّ بشراً سويّاً سمعياً بصيراً متفكّراً، ولم تنتقل من رتبة من هذه المراتب إلاّ وقد خلع عنك صورة خسيسة وأعراض ناقصة، والبست ما هو أجود[٣١] منها وأشرف ـ.

فكذلك ينبغي لك ويجب عليك أن لاتتوانى من استعمال القوّة العاقلة التي هي آخر ماحصل لك في هذه النشأة في تذكّر أُمور الآخرة وأنّ الغايات كانت بازاء البدايات ومعرفة مَن الإبتداء وإليه الرجوع للكلّ.

فلاترقي درجة من درجات العلوم والمعارف إلاّ وتخلع عن نفسك أخلاقاً وعادات وأعمالا كنت معتاداً بها منذ الصبى من غير بصيره ولاروية، حتّى يمكنك أن تفارق هذه الصورة البشريّة وتلبس لباس الأخيار وتتصوّر بصور الملائكة[٣٢]، ويمكنك الصعود إلى المنازل العالية والترقّي إلى المراتب الجنانيّة

(٣٠) ليسافر ـ نسخة.
(٣١) اتم وجوداً ـ نسخة.
(٣٢) بالصورة الملكية ـ نسخة.

مع الذين أنعم الله عليهم من النبّيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسن أولئك رفيقا.

وقرء: النشأة والنشاءة.

وفي الكشّاف: «إنّ في هذه الآية دليلا على صحّة القياس حيث جهّلهم في ترك قياس النشأة الأُخرى على الأُولى».

ولايخفى أنّ هذا ليس من باب القياس، فإنّه من باب ملاحظة النهايات من البدايات،والاستدلال من ذي الغاية إلى غاية[٣٣] تؤل إليها، فكما أنّ النشاة النباتيّة غاية النشاة الجمادية، والحيوانيّة غاية النباتيّة، والحيوة العقليّة غاية الحيوة الحسيّة وكمالها، فكذلك النشأة الأُخرى غاية النشأة الأُولى.

فمَن نظر إلى ترتيب الأُمـور وتفاوت الموجودات في مراتب الشرف والخسّة،والكمال والنقص،ووجد أنّ لكلّ ناقص خسيس توجّهاً غريزيّاً إلى ما هو أقرب منه إلى الشرف والكمال، ثم نظر إلى حال الإنسان فوجد أن له انتقالات من صورة إلى صورة فوقهـا،واستحـالات من صفـة إلى صفـة؛يعلم[٣٤] علمًا يقينيّاً أنّ له نشأه ثانية باقية يقع له فيها الرجوع إلى موجد الكلّ وغاية الجميع .

وهذا إستدلال برهانيٌ ومسلك شريفٌ جدّاً، فإنّ الله تعالى قد ذكره ونبّه عليه في مواضع كثيرة تعليمًا لعباده:

منها ماقال في سورة الحجّ: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى قوله ﴿وَتَرَى ٱلْأَرضَ هَامِدَةً فَإذَا

(٣٣) من ذوي الغايات على غاياتها ـ نسخة.

(٣٤) من صفة الى صفه اخرى لعلم ـ نسخة.

أنزلنا عليها الماءَ اهتزّت﴾ ثمّ قال: ﴿ذلك بأنّ اللّه هو الحقّ وأنّه يحيى الموتى وأنّه على كلّ شيءٍ قدير * وأنّ الساعة آتية لاريب فيها وأنّ اللّه يبعث من في القبور﴾[٧/٢٢].

وقال في سورة المؤمنين بعد ذكر مراتب الخلقة: ﴿ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون * ثمّ إنّكم يوم القيامة تبعثون﴾[١٦/٢٣].

وقال في سورة لاأقسم: ﴿ألم يك نطفةً من منيٍّ يمنى * ثمّ كان علقةً فخلق فسوّى﴾[٣٨/٧٥].

وقال في سورة الطارق: ﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق﴾ إلى قوله: ﴿إنّه على رجعه لقادر﴾ [٨/٨٦]

فهذا المسلك في معرفة المعاد ليس قياساً فقهيّاً ـ كما توهّم ـ إذ القياس الفقهيّ من أضعف الأدلّة وممّا لايفيد إلّا ظنّاً ضعيفاً. ثمّ القياس على تقدير صحّته إنّما يصحّ في العمليّات، إذ الغرض فيها مجرّد العمل ـ دون الإعتقاد فكفى فيه الترجيح[٣٥] بالإجتهاد، وأمّا العقايد الحقة الدينيّة ـ سيّما معرفة المبدأ والمعاد ـ فيجب على كلّ مكلّف تحصيل اليقين فيها ولايكفي الظنّ. وقد ذمّ الله تعالى أهل الظنّ والتخمين في قوله: ﴿ولايتّبع أكثرهم إلّا ظنّاً إنّ الظنّ لايغني من الحقّ شيئاً﴾[٣٦/١٠].

---

(٣٥) فيكفي فيه الترجيح ـ نسخة.

قوله عزّ اسمه:

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾
لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾
إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

قد نبّـه الله سبحـانـه في هذه السورة على ثبوت المعاد وحقّية حشر الأجسـاد بوجـوهٍ مختلفة،بعضها لدفع شُبه الجاحِدين المنكرين والضالّين المكذّبين،وبعضها لزيادة تنوير قلوب أهْل الدين:

منها قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ـ الآية ـ وقد مرّ وجه الاستدلال به.

ومنها: أنّ الحبّة المزروعة جوهر جامدٌ أرضيّ غاية فعل الإنسان فيها أن يدفنه في التراب ويسقيه الماء، وغاية فعل التراب فيه أن يفسده ويعفنه ويجعله تراباً مثله ورماداً ـ كما يفعل بأجساد الحيوانات ـ وكذا فعل الماء في الأشياء، وأنّ فعل طبيعة الحبّة المزروعة في مادتّها التثقيل والتسكين،لا الإصعاد إلى جانب السماء،ثمّ الإثمار والايلاد بعد حصول النشوء والنماء، فلولا أنّ الله أفادها بحكمته قوّة أُخري باطنيّة وكلمة فعّالة ملكوتيّة[٣٦] يفعل بها مايغذّيها أوّلا، ثمّ ينميها ثانياً، ثمّ يولّدها ثالثاً بما يقع منه الانتفاع، بجنود وأعوان وخـدم منتشرة فيها،تستخدمها ثلاثة رؤساء: ـ الغاذية والنامية والمولّدة ـ لكانت إمّا رماداً أو هشيماً تذروه الرياح، أو حطاماً لاينتفع به حيوان في مطعم ولا في ملبس، أو تبناً لانفع فيه[٣٧] ولاغذاء منه.

(٣٦) كونية ـ نسخة.　　　　(٣٧) مخ فيه ـ نسخة.

فثبت وتحقّق عند العارف المحقّق أنّ الله قد أودع في موادّ الكاينات قبول فنون من الصور والكمالات والقوى والكيفيّات، وأودع بعنايته وحكمته في صورها توجّهاً طبيعيّاً إلى ما هو أشرف وأقرب إلى أُفق النور وعالَم الرحمة والسرور، ثمّ أفاض عليها رحمة بعد رحمة وهداية بعد هداية،حتّى أوصلها إلى غايات درجاتها ونهايات حركاتها، وهكذا إلى أن تنتهي حركاتها وانتقالاتها إلى الحيوانيّة،ثمّ إلى الإنسانيّة،وكلّما حصل فيها كمالٌ أتمّ وصورةٌ أقوى كانت عشقها وشوقها إلى ما هو كمال وغاية لها أكثر وأشدّ.

فإذن ثبت وتحقّق أنّه لايجوز أن تقف حركة الوجود عند الإنسان وتسكن لديه ولاتتجاوزه إلى ما هو خير حقيقي، لنقصانه مادام في الدنيا عن تمام الارتقاء إلى عالَم الدوام والبقاء.

فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ﴾ أي: تبذرون حبوبه في الأرض ـ وقوله: ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي: تنبتونه وتغذونه وتنمونه وتجعلونه في أطوار الخلقة وتبلغونه إلى أن تبلغ الغاية وتصل النهاية.

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: لايقولنّ أحدكم:زرعت. وليقل، حرثت[٣٨].

وسبب نهيه عن ذلك الاشتباه الواقع للناس بين المعِدّ والموجِد كما مرّ.

وقوله: فَظَلْتُمْ ـ وقرِء : فضللتم على الأصل ـ تَفَكَّهُونَ: أي تعجبون ممّا نزل بكم في زروعكم حيث جعل حطاماً وصار هشيمًا لاينتفع به.

وعن الحسن وقتاده وعكرمة: تندمون على تعبكم فيه وانفاقكم عليه وأصله من التفكُّه في الحديث[٣٩]، وهو التلهّي به. فكأنّهم يتروّحون إلى الندم

(٣٨) الدر المنثور: ج ٦ص ١٦١ .

(٣٩) بالحديث ـ نسخة.

كما يتروّح[٤٠] الفكِهُ إلى الحديث ممّا يزيل الهمّ.

وقرىء: تفكّنون. وفي الكشّاف: «منه الحديث: مثَل العالِم كمثَل الحمة[٤١] يأتيها البُعداء ويتركها القُرباء، فبيناهم إذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقي قوم يتفكّنون. أي: يتندّمون».

وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وقرء: «إئنّا» اي لملزمون غرامة ما أنفقنا فيه، أو مهلكون ـ لهلاك رزقنا ـ من الغرام، وهو الهلاك.

وقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: قومٌ مَبخوسون ممنوعون من الرزق عادِموا الحظّ والبخت، ولو كُنّا قوماً مجدودين غير محارفين[٤٢] لما جرى علينا ذلك.

قوله عزّ اسمه:

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾
ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾
لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

الماء المشروب هو الماء العذب الصافي الصالح للشرب.

والمُزن: السحاب. واحده مُزنَة.

لما ذكر في الآية السابقة مادّة المطعوم وصورته وفاعله الذي هو الخالق

---

(٤٠) تتروحون الى التندم كما تتروح ـ نسخة.

(٤١) في الصحاح: الحمة العين الحارة يستشفى به المرضى.

(٤٢) المحارف: المحروم، المنقوص الحظ.

الرازق[٤٣]، وغايته التي هي انتفاع الإنسان به وقوام نشأته[٤٤] الدنياويّة مدةّ عمره منه،ليتهيّأ في تلك المدّة للعود إلى النشأة الآخرة والرجوع إلى غاية الأشياء، وأُشير فيها إلى طريق[٤٥] الاستدلال على إثبات البعث، فذكر في هذه الآية مادّة المشروب وصورته وكيفيّة نزوله ومبدء وجوده وحكمة كونه وغايته.

* * *

وطريق الاستدلال به على إثبات فاعل الكلّ وغايته هو:إنّ الماء جسم ثقيل بالطبع تجبره على النزول طبيعته، فإصعاده على خلاف مقتضى الطبع لابدّ فيه[٤٦] من قوّة قاهرة من عالَم الأمر هي فوق المادّة والطبيعة تجبرهما على الصعود،كما تجبرها على الإصعاد قوّة العزيز الحميد الذي له المُلك والملكوت والخلق والأمر، فإذا أصعده تلك القوّة التي هي ملك نوراني من ملائكة الله أدّاه إلى يد ملك من ملائكة السحاب، وهو مع رخاوته[٤٧] حامل للماء الثقيل وممسك له في جوّ السماء، إلى أن يأذن الله له في إرسال الماء وتقطيعه قطرات، كلّ قطرة بالقدر الذي قدّره الله، على الشكل الذي شاء، وهو أفضل الأشياء وأشرفها لكونه أبسطها وأوسعها وأدومها وأتمها وفاعلها ومظهرها ودليلها.

ثمّ ترى ملك[٤٨] السحاب يرشّ الماء بتسيير الرياح وينزل المطر مدراراً في مظان الحاجة إلى الأرض الجرز، ويرسله قطرات متفاصلة،لاتدرك قطرة

---

(٤٣) الرزاق ـ نسخة.

(٤٤) وقوام الخلق به وقوام نشأة ـ نسخة.

(٤٥) وأشرفها، وطريق ـ نسخة.

(٤٦) لا بد له ـ نسخة.

(٤٧) خادمه ـ نسخة.

(٤٨) تلك ـ نسخة.

منها قطرة ولاتتصل واحدة بأُخرى ولاتزاحمها في الطريق، بل ينزل كلّ منها في الطريق الذي رسم لها، لاتعدل عنه يمنة ويسرة، ولايتقدّم المتأخّر ولايتأخّر المتقدّم حتّى تصيب الأرض التي عيّنت لها، ولكلّ حيوان فيها من طير ووَحشٍ وبَهيمةٍ ودودٍ مكتوب على تلك القطرة بخطّ إلهيّ لايدرك بهذه العين الظاهرة «إنّها رزق الدود الفلاني،في الوقت الفلاني،تصل إليه وقت حاجته وعطشه».

هذا وغير ذلك من الحِكم التي أنشأها الله تعالى في الماء وإنزاله من السحاب في وجوه مختلفة وعلى هيآت متعدّدة ـ مثل البَرد والثَلج والصقيع وغيرها، مع انعقاد البَرد الصلب من الماء اللطيف، وتناثُر الثلوج كالقَطن المندوف من تأثير محرّك قويّ ندّاف، مع أنّه لايشاهده العين لغاية لطافته وشفيفه ـ ممّا لايحصى عجايبه ـ كلّ ذلك فضل من الجبّار القاهر والخلّاق القادر، ما لأحد من الخلايق فيه شركٌ ومدخل، بل ليس للمؤمنين من خلقه ولاالملائكة المسبّحين إلّا الاستكانة والخضوع تحت جلاله، ولاللعميان[٤٩] الجاحدين إلّا الجهل بكيفيّة خلقه وأمره في شيء، ورجم الظنّ بذكر سببه وعلّته[٥٠].

فيقول الجاهل المغرور القاصر النظر: إنّما ينزل الماء من السحاب لأنّه ثقيل بالطبع، وطبيعته سبب نزوله، ويظنّ أنّ هذا معرفة انكشفت له ويفرح بها.

ولو قيل له: مامعنى الطبع؟ ومالذي أجبر طبع الماء حتّى رقى إلى

(٤٩) تحت جلاله ولاللعاصين ـ نسخة.

(٥٠) فاعله وعلته ـ نسخة.

جانب السماء؟ حتّى[٥١] لو احتالوا وتخيّلواوجهاً آخر وقالوا: إنّ الهواء انقلب بطبعه ماء في كرة الزمهرير لبُرودته العارضة ـ لا إنه صعد الماء إلى هناك. قلنا له: أيّها الجاهل بعلم مافوق الطبيعة، والغافل عمّن بيده[٥٢] الخلق والأمر فمَن الذي أجبَر طبيعة الهواء حتّى انقلب ماءً ، والبرودة كيفيّة عرضيّة والعرض لايقلب[٥٣] صورة الجوهر؟ ثمّ مَن الذي أجبَر طبيعة الماء المصبوب في أسفل الأشجارحتى رقي إلى أعلى الأغصان وهو ثقيل بطبعه، فإذا هوى إلى الأسفل كيف ارتفع ثانياً إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث انتشر في جميع أطراف الأغصان والأوراق، ففذاء كل جزء من كلّ ورق يجري إليه من تجاويف عروق شعريّة دقيقة غير مرئيّة يرى منها العرق الكبير الذي هو أصل الورق، ثمّ ينتشر من ذلك العرق الكبير الممتدّ[٥٤] في الطول عروقٌ صغار، فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول، ثمّ ينشعب من الجداول سواقي أصغر منها، ثمّ ينتشر منها خطوطٌ عنكبوتيّة دقيقة يخرج عن إدراك البصر حتّ تنبسط في جميع عرض الورق فيصل الماء في أجوافها إلى ساير أجزاء الورق ليغذيه وينميه ويبقي طراوته ونظارته، كذلك في ساير الأشجار والحيوانات.

والغرض منها كلّها خِلقة الإنسان، وإنّما كوّنت من فُضالتهساير الأكوان كما حقّقه أهل الكشف والبرهان.

وإن كان زمام أمر الماء بيده فكيف يتحرّك إلى فوق وهو مخالف طبعه،

---

(٥١) ثم ـ نسخه.

(٥٢) من مبدء ـ نسخة.

(٥٣) لايفيد ـ نسخة.

(٥٤) الممدود ـ نسخة.

وإن كان زمامه بيد جاذب فما الذي سخّر ذلك الجاذب حتّى يجذبه إلى فوق وساير الجوانب، فإن كان ينتهي بالأخرة إلى خالق السموات والأرض وجبّار الملك والملكوت،فلِمَ لايحال عليه في أوّل الأمر حتّى يخلص من هذا الشرك؟! فنهاية أمر الجاهل بداية حال العاقل.

فقوله: ﴿الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي: تشربون أنتم وأشجاركم وزروعكم، بل شُرب الأشجار والزروع لدى الإعتبار عند أُولي الأبصار هو شُرب الإنسان، فإنّ الماء يبدرق الطعام إلى مايتغذى به النبات والحيوان، ويسوقه من المواضع البعيدة إلى الإنسان بعد الإستحالات.

وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً﴾ أي: جعلناه ملحاً زعاقاً لايُقدر على شربه كما كان أولا في البحر، أو أبقيناه فيه على حاله من غير أن نصعده إلى فوق ثمّ نرسله إلى مواضع الأرض.

﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لاتعرفون قدر هذه النعمة العظيمة، فإنّ الشكر كساير المقامات له جزء علميّ ـ هو كالأصل ـ وجزء عملي كالفرع[55] فمَن عرف الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأن يتغذّى بها الإنسان يعلم أنّ تلك الأسباب لأجل سياقة العباد إلى عالَم المعاد، فيعمل بالضرورة عمل أهل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الانْسَانُ الَى طَعَامِه * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾ الآية [٨٠/٢٥].

فإنّك إذا نظرت إلى طعامك عرفت أنّه قد حصل من الماء والتراب، وإذا نظرت إليهما عرفت أنّهما بصرافتهما لايغذيانك، فتحتاج إلى البذور والحبوب، فإذا وجدت حبّةً أو حبّات،فلو أكلتها لفنيتَ وبقيتَ جائعاً، فما

---

(٥٥) هو فرعه ـ نسخة.

أحوجك إلى أن تنمو الحبّة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتّى تفي[٥٦] لحاجاتك، فخلق الله في حبّة الحنطة والشعير من القوى ماتتغذّي به كما خلق فيك، فإن النبات لاتفارقك في الاغتذاء والنماء، بل تفارقك في الحسّ والحركة الإراديّة. وكما أنّ كلّ شيء لايغذيك فكذلك النبات لاتتغذّى بكلّ شيء، بل تحتاج إلى طعام مخصوص، بدليل أنّه لو تركتها في البيت لم تزدد بمجرّد مصادفة الهواء، ولو تركتها في الماء لم تنم، وكذلك لو تركتها في أرض لا ماء فيها؛ بل لابدّ فيها من أرض فيها ماء يمتزج بها، ومن هواء يتخلخل فيهما، ومن حرارة تؤثر فيها، فيحتاج إلى العناصر الأربعة لتحصل منها مادّة غذائيّة.

ثمّ الماء لا يتحرّك بنفسه،فالله سبحانه يحرّكه بأيدي الملائكة الموكّلة عليه كما أُشير إليه في قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾.

ثمّ الهواء لايتحرّك بنفسه،ولو تركت الحبّة في أرض نديّة صلبة متراكمة لم تنبت ـ لفقد الهواء في جوفه ـ ولابدّ من تركها في أرض رخوة[٥٧] متخلخلة يتخلخل[٥٨] إليها الهواء، فيحتاج إلى ريح تحرّك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتّى ينفذ فيها.

ـ وإليه الإشارة بقوله: ﴿وأَرْسَلْنَا ٱلرِيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[١٥/٢٢].

وإنّما لقاحها في ايقاع الإزدواج بين الهواء والماء والأرض ـ ثمّ تحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، وهي لاتحصل من الماء والأرض لأنّهما[٥٩] الباردان، ولامن الهواء لقلّة حرارته الذاتيّة ولتبرده بمجاورتها، ولا من كرة النار لبعدها، فانظر كيف سخّر الله الشمس، وكيف جعلها مع بُعدها عن الأرض مسخنة

(٥٦) تبقى ـ نسخة.

(٥٧) محروثة ـ نسخة.

(٥٨) يتقلقل ـ نسخه.

(٥٩) وهما ـ نسخة.

لها في وقت دون وقت عند الحاجة، وجعل القمر نائباً عنها في نضج الفواكه لما فيه من الترطيب، كما فيها من التسخين.

وهذه إحدى فوائد الشمس والقمر، والحِكم فيهما وفي السماويّات كثيرة لاتحصى.

ثمّ إذا عرف حاجة النبات إلى الشمس والقمر والكواكب علم أنّ وجودها لايكون ولايتمّ إلاّ بأفلاك هي مركوزة فيها، ولايتمّ الأفلاك إلاّ بحركاتها، ولاتتمّ حركاتها الإراديّة الشوقيّة إلاّ بملائكة نفسانيّة تحركها بإرادات وأشواق إلى ما هي فوقها من غايات عقليّة،ولا تتمّ أفعال هذه الملائكة النفسانية إلا بملائكة عقلية مفارقة عن الأجسام وأشواقها وأعراضها[٦٠] لتعاليها عن النظر إلى غير وجه الله، لأنّهم المعتكفون تحت قبّة الجبروت مهيمون.فهم أبداً في مشاهدة جماله متحيّرون، لايرومون النظر إلى ماسواه لأنهّم صائرون إليه ﴿ألاَ اِلَى اللّهِ تَصيرُ اَلأُمورُ﴾

فمن عرف أنّ كلّ نعمة من نعم الله لايتمّ إلاّ بأمثال هذه الأمور المرتبّة المذكورة بعضها، المطوية أكثر منها لخفائها ودقّتها، من الأسباب المؤدية إلى عظايم عوالم ملكه وملكوته وجبروته، ثمّ إلى مرتبة الإلهيّة وأسمائه، ثمّ إلى تحت قبابه[٦١] الأحديّة وكبريائه الغيبية[٦٢]، فيعلم أنّ بَدء الأشياء منه تعالى، فيأخذ في شكر نعمه، ويجعل كلّ شيء في مصرفه الذي صرفه الله إليه، فينكشف له أنّ موادّ الأغذية كالماء والأرض والنار والهواء لفائدة الإغتذاء وحصول صورة الغذاء، وهي لحصول النشوء والنماء، وهما لتمام خلقة الشخص

---

(٦٠) اغراضها ـ نسخة.

(٦١) ذاته ـ نسخة.

(٦٢) العينية ـ نسخة.

وبقاء النوع ممّا لايقبل شخصه قوّة البقاء، ثمّ تمام الخلقة إنّما يكون لحصول النفس الحسّاسة المتحرّكة، وهي للنفس المتخيّلة، وهي للناطقة العارفة بالحقّ وملكوته بالقوّة، وهي للقوّة العاقلة بالفعل، الصائرة عقلا فعّالا يفيض منه المعقولات لأنّه قلم الحقّ الأوّل، الذي ينشأ منه تصوير الحقايق على ألواح القلوب والنفوس، والقلم بيد القدرة مقبوضة مسخّرة متحرّكة بها ولأجلها، والقدرة تنتهي إلى القادر، فمنه الإبتداء وإليه الإنتهاء.

فإذا علم هذا بلغ إلى مقام التوكّل والرضاء، فإن بلغ إليهما وأحكمهما يصل إلى مقام الوحدة، فيصير عبداً مخلصاً عن شوب الشرك بالكلّيّة، إذ في الشكر ضرب من الشرك الخفيّ لكونه لاستجلاب المزيد، وكذا في التوكلّ فإنّه يستدعي متوكّلاً ومتوكَّلاً عليه يتكلف المتوكل[٦٣] في حوالة أمره الى الوكيل، والرضا ـ وإن كان باب الله الأعظم ـ ففيه أيضاً رائحة من الإشراك[٦٤] فإنّ الراضي يستدعي[٦٥] وجوداً مقابلا لوجود المرضيّ عنه، وله مجال تصرّف تركه بالإختيار، وهذه المرتبة أيضاً قاصرةٌ عن درجة الواصلين إلى درجة التوحيد، فإن ارتقى من هذه الدرجات وصل إلى مقام الفناء المحض، ومحو الأثر بالكلّية، وهو منزل أهل الوحدة المطلقة فإنّ إلى الله المنتهى وإليه الرجعي[٦٦].

---

(٦٣) يتوكل المتكلف ـ نسخة.

(٦٤) الاشتراك ـ نسخة.

(٦٥) يدعي له ـ نسخة.

(٦٦) ماجاء في تفسير هذه الآية من الخطابيات مقتبس من احياء علوم الدين للغزالي: ٤/١١٦ و ٤٤٤.

قوله عزّ اسمه: أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾

ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾

ثمّ ذكر الله سبحانه حِكمة النار بعد ذكر الأرض المزروعة ـ لدلالة الزرع عليها[٦٧] بالإلتزام ـ وذكر الماء والهواء، لكونها أشرف العناصر وأصفاها وأبعدها مكاناً عنّا، مخاطِباً لنا للحثّ على النظر في عجيب أمرها وحكمة تكونها في وجه الأرض مع بُعد حيّزها الطبيعي عنها بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: نظرتم نظر المعتبر المتفكّر في خلقتها وحكمتها: ﴿الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تقدحونها وتستخرجونها من الزناد والمقادح، وهما أبعد شيء من قبول الصورة الناريّة.

قيل: إنّ العرب تقدح بعودين، يحكّ أحدهما على الآخر، ويسمون الأعلى: «الزّند» والأسفل: «الزّندة»، وشبّهوهما بالفحل والطروقة.

وقد مرّ في سورة يس[٦٨] عند قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ إنّ المرخ والعفار يقطع الرجل منها عصيّين[٦٩] مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ ـ وهو ذكَر ـ على العفار ـ وهي أُنثى ـ فيقدح بإذن الله فتعلّق بالحطب وغيره، فتنشأ شجرتها التي تنقدح منها النار ﴿ءأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ اي: أنبتتموها وابتدأتموها ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِؤنَ﴾ إيّاها على وجه تصلح لأن يتعلّق بها النار

---

(٦٧) لدلالة الارض اليها ـ نسخه.

(٦٨) تفسير سورة يس ٣٥٠.

(٦٩) قصيين ـ نسخة.

لتكون خليفة للشمس والقمر في وجه الأرض للإضائة ليلا، ولأن ينضج بها من الطعوم مالاينضجه الكواكب. فلايمكن لأحد أن يقول إنّه أنشأ تلك الشجرة غير الله.

ثمّ إنّ النار صاعدةٌ بالطبع، كما إن الماء والشجر وغيرهما هابطة بالطبع. وأيضاً: النارُ نورانيّة[٧٠] والشجرظلمانيّةٌ.والنار حارّة يابسةٌ،والشجر باردةٌ رطبة.فقد أمسك الله في داخل تلك الشجرة الظلمانيّة هذه الأجزاء النورانيّة[٧١]. فقد جمع بقدرته بين هذه الأجزاء المتنافرة وجبَرها على الالتيام ليستصلح بها حال النباتات، ويتهيّأ بها للإنسان الطعام، وليأخذ مَن يشاء مِن عباده طريق الآخرة ودار السلام بهذا المركب البدني وزاد المعرفة التي هي نورٌ من أنوار الله العقليّة يهتدي به في ظلمات برّ الدنيا وبحر الآخرة، ويستضيء به طريق المعاد وسبيل[٧٢] الهداية والرشاد .

وهو المحرّك لأهل الايمان إلى الجنّة والرضوان، والساعي بهم إلى عالَم القدس ومجاورة الرحمن، كما في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[٥٧/١٢].

قوله عزّ اسمه:

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾

إن الله جعلها تذكرةً ليتذكّر بها الإنسان كثيراً من دقائق صنع الله وعجايب حكمته، منها مامرَّ،ومنها أنّها تدلّ على النار الأُخرويّة الكبرى،لما

---

(٧٠) نور، نورية ـ نسخة. (٧١) النورية ـ نسخة. (٧٢) وسبيله ـ نسخة.

روى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ناركم هذه التي يُوقد بني آدم جزءٌ من سبعين جزء من حرّ جهنّم»[٧٣]. فإذا رآها الإنسان ذكر جهنّم وأهوالها فاستعاذ بالله منها.

ومنها: أنها تدلّ على نار النفس، التي هي شعلةٌ ملكوتيّة يتوقّد بها القلب بواسطة الروح البخاريّة التي هي كفتيلة دخانيّة استعدّت للاشتعال ﴿وَإِنْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ كمادّة فيها كيفية كبريتيّة، وتلك النفس هي التي سوّاها الله وألهمها فجورها وتقويها، فيتذكّر[٧٤] قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيهَا.وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيهَا﴾[٩١/١٠] فتأخذ في تزكية النفس وتطهيرها من الآفة والنقص.

ومنها: أنّها جوهر «نورانيٌ» سماويٌ،والنور حقيقة بسيطة تختلف مراتبه بالشدّة والضعف، وغاية كماله الأنوار العقليّة والنفسيّة، وهي كظلال وأضواء للنور الأحدي الإلهيّ، فيتذكّر بها عالَم الربوبيّة ويسافر منها إليه،كما وقع لموسى على نبيّنا وآله وعليه السلام.

ومنها: أنّها مادّة خلقة الشياطين وجنوده، فيتذكّر بها إبليس وكيده ويتعوّذ بالله منه بأن ينوّر نار نفسه بنور المعرفة،ويتّقي من استيلاء شرارة الغضب وحرارة الشهوة ودخان المعصية عليه، ويطفي بنور ايمانه نار جهنّم، كما ورد في الحديث: «إنّها تقول للمؤمن: جُزني يامؤمن فإنّ نورك أطفأ ناري»[٧٥]. تأويلا لقوله تعالى: ﴿إِنْ مِنْكُمْ إلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً.ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً﴾ [١٩/٧٢].

وقوله: ﴿مَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ أي جعلناها بلغة ومنفعة للمسافرين

---

(٧٣) البحار: ج٨ ص ٢٨٨ الترمذي: ج ٤ ص ٧٠٩ .

(٧٤) فتذكر ـ نسخة.

(٧٥) الدر المنثور: ج٤ ص ٢٨٢.

وعن ابن عباس والضحاك وقتادة: يعني الذين نزلوا الأرض القَواء ـ وهي القفر.

وعن عكرمة ومجاهد: للمستمتعين بها من الناس أجمعين؛ المسافرين والحاضرين. فيكون المقوي من الأضداد ـ الذي صار ذا قوّة من المال والنعمة، والذي ذهب ماله ونزل بالقَواء من الأرض ـ.

* * *

وفيه إشارة لطيفة،وهي: أنّ الروح الإنساني المسافر إلى عالَم الغيب من عالَم الشهادة مادام نزوله في البدن[٧٦] ـ وهو مكانٌ قفر مظلم لايوجد فيه شيء من نعيم الآخرة ـ ينتفع بحرارة نار الطبيعة التي في البدن لأنّها فاعلة فيه بتسخين البدن، فيصطلي بها قواه و يستضيء بها حواسّه وتفعل التغذية وتهضم الطعام وتطبخ الطبيخ من اللحوم والحبوب والتوابل[٧٧] وغيرها في قِدر المعدة أوّلا، ثمّ في قدر الكبد ثانياً. وأمّا إذا ارتحل الروح عن البدن ووصل إلى موطنه استغنى بأنوار المعارف الإلهيّة الفاعلة للحيوة الأُخروية الدائمة عن أنوار الحسّ والحركة، الناشئة عن طبيعة البدن، كما استغنى المقوي عن النار التي كان ينتفع بها في الأرض القواء ليلا ـ إذا رجع إلى منزله نهاراً ـ بأنوار الشمس.

وأمّا أهل الجحيم فهم بمنزلة الفقراء المحتاجين المضطرين، الذين اشتدّت حاجتهم إلى النار حيث كانوا لشدّة الفقر ـ سواء كانوا في المسكن أو في القفر ـ فإنّهم إذا رجعوا إلى مواطنهم في الشتاء سكنوا في الأُتونات

(٧٦) بالبدن ـ نسخة.

(٧٧) التابل ـ بفتح الباء وكسره ـ مايطيب به الاكل كالفلفل.

والمزابل والمواضع المظلمة، وذلك لبرودة قواهم الطبيعيّة بالهرم والموت وانطفاء أنوار حواسّهم، فليس لأحدهم نور، لانورُ المعرفة ولانور[٧٨] الحسّ ولانار الطبيعة، لأنّهم باعوا حرارة الطبيعة وأنوار الحواسّ بثمن بخس دراهم[٧٩] اللذات الدنيويّة، ولم يصرفوها في اكتساب نور المعرفة حتّى يربحوا ويفوزوا فوزاً عظيماً، فهم قد خسروا خسراناً مبيناً كما قال سبحانه: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَايُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ﴾ [٢/١٦ ـ ١٨].

قوله عزّ اسمه:

فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

لّما ذكر سبحانه مادلّ على قدرته وحكمته وإنعامه على وجه العناية الخالية عن شوب الأغراض التي يعود إليه، أمَر نبيّه صلّى الله عليه وآله ـ تعليماً للعباد ـ على إنشاء التسبيح، إمّا تقديساً له عن فعل العبث والجزاف وعن الإرادة المعلّلة بالدواعي والأغراض الزايدة وتنزيهاً له عمّا يقول الظالمون الذين يجحدون بآياته ويكفرون بوحدانيّته، وإمّا تعجباً من أمر المبدع لهذه العجايب المصنوعة لأمره، أو من أمرمَن ينظر إلى هذه الآلاء الباهرة والأيادي الظاهرة،ثمّ يمرّ عليها معرضاً عن التدبّر[٨٠] فيها والتفكّر في منافعها ومباديها وغاياتها، كما قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمواتِ وَٱلْأَرْضِ

(٧٨) نار ـ نسخة. (٧٩) هي ـ نسخة. (٨٠) النظر ـ نسخة.

يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُوْنَ﴾ [١٠٥/١٢]. وإمّا شكراً لله على هذه النعم العظيمة التي عدّدها ونبّه عليها وعلى منافعها الدنيويّة وغاياتها الأُخرويّة.

وحقيقة التسبيح ليست مجرّدأن يقول الإنسان «سُبْحَانَ الله» بل روح التسبيح ومعناه اعتقاد أنّه تعالى مجرّدٌ عن الأوصاف والنقايص الإمكانية، منزّهٌ عن العلايق الجسمانيّة والعوايق الظلمانيّة، وهذا لايتيسّر إلّا لمن كان له نصيب من القدس والتجرّد، كضرب من الملائكة وطائفة من أهل الوحدة وإخوان التجريد، فإنّ كلّ معتقد يعتقد في ذات الله تعالى وصفاته بحسب مقامه وحاله، فأهل الحواس يعبدون اللّهَ في مقام التشبيه؛ والعقلاء المجرّدون يعبدونه في مقام التنزيه؛ وأمّا أهل الله الواصلون الكاملون فيشاهدون الله ويعبدونه في جميع المقامات والأحوال ويسبّحونه ويعظّمونه عن الأشباه والأمثال.

قوله عزّ اسمه:

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

«لَا» زائدة [٨١] من قبيل قوله: ﴿لِئلاّ يَعلَم أَهْلُ الكِتَاب﴾ [٢٩/٥٧] وقيل: «لا» يزاد في القسم؛ فيقال: «لا والله» و «لا وعمرك» وكقول إمرء القيس [٨٢]:

(٨١) + مؤكدة ـ نسخة.

(٨٢) وينسب ايضا لربيعة بن جشم. راجع ديوان امرء القيس ٩٤ وخزانة الادب ٤٨٩/٤

[ف]ـ لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفرّ

وقيل: «لا» ردٌّ لما يقوله الكفّار في القرآن: «إنّه سحرٌ مفترى أو كهانة». ثمّ استأنف الكلامَ وأقسم. وقيل: «لا» مثبتةٌ، والمعنى: لاأُقسم على هذه الأشياء فإنّ الأمر أظهر من أن يحتاج فيه إلى اليمين.

و ﴿مَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قيل: هي مساقطها ومغاربها، وجّه في الكشّاف بأنّه لعلّ لله في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى الغروب أفعالا مخصوصة عظيمة، أو للملائكة عبادات موصلة[٨٣]، أو لأنّه وقت قيام المتهجّدين والمبتهلين إليه.

وفيه مالايخفى من الخدش : فإنّ سقوط النجم وغروبه لايختصّ بآخر الليل، بل ما من وقت إلاّ ويكون فيه غروب نجمٍ وغروب نوره في الأُفق.

وقيل: أراد بمواقعها منازلها ومسايرها، وله تعالى في ذلك من الدليل على عظمة[٨٤] القدرة والحكمة مالايحيط به الوصف.

ولايبعد أن يكون المراد بها النجوم أنفسها، لأنّها مواقع قدرة الله ومنازل جوده وحكمته بأن تكون الإضافة بيانيّة. أو يراد بالنجوم نفوسها المنورة. وبالمواقع أجرامها التي هي مواقع تلك الأنوار ـ فتكون الإضافة لاميّة ـ.

وفي الشواذ قرء الحسن والثقفي «فلا قسم» بمعنى: «فَلَأَنَا أُقسم» بلامٍ ابتدائيّة دخلت على جملة من مُبتدءٍ وخبرٍ ثمّ حذف المبتدأ وهو «أنَا» وليس لامُه للقسم لعدم اقترانها بالنون المؤكّدة ـ كما هو دأبهم ـ ولأنّ فعل القسم يجب أن يكون للحال وجوابه للاستقبال.

---

(٨٣) متقبلة ـ نسخة . وفي المصدر: موصوفة.

(٨٤) عظيم ـ نسخة.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ جملة وقعت اعتراضاً بين القسَم والمقسم عليه وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾. و ﴿لو تعلمونَ﴾ اعتراض بين موصوف وصفة، فهو اعتراض في اعتراض.

وإنّما وصف هذا القسَم بالعظمة لعظمة المقسَم به، فإنّ الله سبحانه قد عظّم أمر السماء ومافيها من الكواكب، فكم من سورةٍ تشتمل على تفخيمها في مواضع،وكم من قسم أقسَم بها القرآن كقوله: ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [١/٨٥] ﴿وَٱلسَّمَاءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [١/٨٦] ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَيهَا.وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَيهَا﴾ [٢/٩١] ﴿فَلَاَ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [١٥/٨١] ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [١/٥٣] وذلك لشرفها ونوريّتها وملكوتها ودوام دورتها[٨٥] وطاعتها لله تعالى وسرعة حركاتها الدوريّة والإراديّة في طلب الحقّ الأوّل،وتلألؤ جماله وورود إشراقاته عليها، لالداعٍ حيوانيّ من شهوة أو غضب أو التفات لها إلى مادونها[٨٦].

فلهافي كلّ اشراق أشواق،وفي كلّ شوق وجد ورقص وخضوع.ولكلّ حركة وسجودوركوع لمعة أُخرى وشروق نور آخر.فهكذا تدوم الإشراقات العقليّة بدوام الحركات الدورية، وتدوم الحركات الشوقيّة بدوام اللمعات الإلهيّة، وما من موضع في السماء إلاّ وفيه ملكٌ[٨٧] ساجد وراكع من نفس أو عقل.

ولعلوّ منزلتها وقربها من أُفق الإلهيّة أقسم الله تعالى بها وأحال الأرزاق إليها، فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَاتُوعَدُونَ﴾ [٢٢/٥١] ومدح الناظرين

---

(٨٥) دونها ـ نسخة.

(٨٦) التفات بها دونها ـ نسخة.

(٨٧) الا ومن الملائكة فيه ـ نسخة.

في أمـرهـا وأثنى على المتفكّـرين في خلقها القائلين: ﴿رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً﴾ [٣/١٩١].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لّما نظر إلى السماء والكواكب وقرء قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ ﴾ ـ الآية ـ [٢/١٦٤]:«ويل لمن قرء هذه الآية ثمّ مسح بها سبلته»[٨٨] أي: قرأها وتجاوزها من غير أن يتأمّل فيها ويتدبّر في ملكوتها.

وليس معنى المتفكّـر أن يعـرف أحد زرقة السماء وضوء الكواكب كالعوام والأنعام، أو لاترى أنّ الله تعالى قد ذمّ المعرضين عن التدبّر في آياتها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوضاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [٢١/٣٢] فعُلم أنّ معنى النظر إلى ملكوت السموات ليس بأن يمتدّ البصر إلى شكلها أو زرقتها،وضوء الكواكب وحركتها،من غير أن يتفطّن بمحرّكها ومحرّك محرّكها ـ وهكذا ـ إلى أن ينتهي النظر إلى لمعات أنوارالربوبيّة ومعاني الأسماء الإلهيّة، فيرتقي إلى عالَم الأسماء من عالَم السماء، بأن يعلم أنّ كلّ جرم سماويّ له طبعٌ ونفس وعقل واسم إلهي متصّل به الكلّ.

فإن كان مجرّد ذلك هو المراد فلِمَ مدح الله خليله إبراهيم عليه السلام خاصة بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [٦/٧٥] بل كلّ ما يدركه بحاسّة البصر وساير الحواس فهو من الـدنيا ـ وتشـترك فيه البهـائم مع الانسان ـ والقرآن يعبّر عنه بالمُلك والشهادة، وماغاب عن إدراك الحواسّ فهو من الآخرة ويعبّر عنه بالغيب والملكوت. والله تعالي عالِم الغيب والشهادة ﴿فَلَايُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلّا

(٨٨) راجع الصفحة: ٣١٢

مَن ٱرْتَضَىٰ مِن رَسُولٍ﴾ [٢٧/٧٢] وهو جبّار المُلك والملكوت، فلايستطيع أحد أن ينفذ فيهما إلّا مَن اصطفى مِن نبيّ ﴿يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْانسِ إنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا مِنْ اَقْطَارِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْاَرْضِ فَٱنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[٥٥/٣٣] أي: بنورٍ قاهر.

قال المسيح الممسوح بنور الله: «لَن يلج ملكوت السموات مَن لم يولد مرّتين» ـ مرّة من رحم الموادّ ومرّة من مشيمة الحواسّ.

* * *

واعلم إنّ ارتباط هذه الآية بما سبق أنّه سبحانه لّما ذكَر موادّ خلقة الإنسان وأسباب غذائه الجسمانّي، الذي به قوام بنيته ونشأته الدنيويّة من العناصر الأربعة، وذكرها على الترتيب من الأسفل الأخسّ إلى الأعلى الأشرف، حتّى بلغ إلى ذكر ما هو أشرفها وأقصاها ـ وهي النار ـ فذكر حكمتها ومنفعتها وحاجة الخلْق إليها، فأراد أن يهدي الناس إلى معرفة السماء ومواقع النجوم، لأنّها منشأ أرواح بني آدم ومادّة ميلاد نفوسهم في نشأة المعاد وعند قيامهم عند الله، لأنّ روح الإنسان إنّما يتغذّى بمعارف القرآن ويحيى بحيوة العلم والعرفان.

والقرآن بما فيه من العلوم الحقّة والمعارف الإلهيّة إنّما ثبت أوّلا من القلم الأعلى في اللوح المحفوظ، وهما من السموات العُلى، ثمّ نزل إلى هذه السماء الدنيا منجّمًا، ولهذا فسّر بعضهم مواقع النجوم بأوقات نجوم القرآن ـ أي: أوقات نزولها ـ وإنّما لم يقسم بتلك الأجسام العنصريّة مع مافيها من عجايب القدرة وأقسم بهذه المواضع لِعظم أمرها وشرف ملكوتها. فأيّ نسبة لجميع العنصريّات إلى السماء ومافيها من الكواكب وملكوتها، ومن أدرك الكلّ وفاته

عجايب ملكوت الله[٨٩] واعداد حكمة الله فيها فقد فاتَه الكلّ تحقيقاً، إذ هو الأمر كلّه، فالأرض والبحار والهواء وكلّ جسم سوى السماويّات بالإضافة إليها كقطرة في بحر عظيم

قوله عزّ اسمه:

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾

وقرء: «المتطهّرون» و «المطّهّرون» بالإدغام و «المطهَرون» من أطهره بمعنى طهره. و «المطهرون» بصيغة الفاعل بمعنى أنّهم يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالتعليم والإستغفار لهم.

إذ القرآن الكريم عند الله لكونه كلام الله يتكلّم به خواصّ ملائكته وصفوة أنبيائه في الدنيا وخواصّ عباده المؤمنين في الآخرة لدلالة قوله: ﴿وَلاَيُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ [١٧٤/٢] عليه بالمفهوم. ولأنّه رفيع المرتبة،مصون عن النسخ،ومحفوظ عن التغيير والتبديل[٩٠]، لكونه علماً بحقايق الأشياء التي لاتتبدّل بتغيير الملل والمذاهب، فهو عند الله شريف المنزلة.

وقيل: إنّه كريمٌ: بمعنى أنّه كثير المنفعة. وهو أيضا حقٌّ لأنّه عامّ المنافع كثير الخيرات والبركات، ينال الأجر العظيم بتلاوته تاليه ويفوز بالثواب الجسيم العامل بمافيه. ولكونه نوراً يهتدي به في ظلمات الأرض،كما قال: ﴿وَلكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنَا﴾ [٥٢/٤٢] والنور

(٨٩) عالم الملكوت ـ نسخة. (٩٠) التغير والتبدل ـ نسخة.

كثير البركة لكونه حكمه، والحكمة مفتاح كلّ سعادة لقوله: ﴿وَمَنْ يُؤتَ اَلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً﴾ [٢/٢٦٩].

وقيل: إنّه كريمٌ: بمعنى أنّه حسن مرضيّ[٩١] في جنسه، لأنّه معجزة للنبي الكريم المشتمل على كلّ دقيق وجليل من العلوم وعلى المواعظ والأحكام والإخبار عن المغيبات.

﴿في كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي: مستور مافيه من الخلق، لكونه من عالم الغيب، والخلق من عالم الشهادة، بل مصون عن أعين غير المقربّين من الملائكة،لايطّلع عليه من سواهم وسوى مَن وصل إلى مقامهم من الأنبياء المصطفين، وذلك الكتاب هو اللوح المحفوظ عن المحو والتغيير والنسخ، لأنّه جوهرٌ مجرّد عالٍ عن عالَم الأجرام التي يتطّرق إليها الكون والفساد، وعن عالَم الألواح القدريّة التي يعتريها المحو والإثبات، وأرواحها التي يجري فيها النقل والتغيير والتبديل والنسخ، فهو بجوهره عالم عقلي محلّ للقضاء الإلهيّ، ولوح[٩٢] كلّي مكتوب فيها جميع ماقضي الله بقلم الحقّ الأعلى، كما في قوله صلّى الله عليه وآله[٩٣] «إنّ اللّهَ كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلْق: إنّ رحمتي سبقت غضبي». فهو مكتوب عنده فوق العرش بقلم القدرة الإلهيّة ـ وهو المسمّى بـ «أمّ الكتاب» لقوله: ﴿وَإِنَّهُ في أُمِّ اَلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [٤٣/٤] لأنّ جميع العلوم الحقّة الموسومة باللدنيّة ـ التي لايُعلم إلّا بتوفيق الله ـ ثابتة فيه، فائضة منه بإفاضة الله على قلب من يشاء من عباده، كما قال: ﴿اِقْرَأْ وَرَبُّكَ اَلأَكْرَمُ * اَلَّذي عَلَّمَ بِاَلْقَلَمِ * عَلَّمَ اَلإنْسانَ مَالَمْ

---

(٩١) رضي ـ نسخة. (٩٣) المسند: ج٢ ص ٣٩٧ راجع إيضا: ج٢ ص ٢٥٨ و ٣٨١ و ٢٦٠.

(٩٢) روح ـ نسخة.

يَعْلَمْ﴾ [٥/٩٦] وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [٤/١١٣].

فكما أنّ عالَم اللوح القضائي ـ وهو مجمع الجواهر العقليّة والأرواح المفارقة الكليّة التي هي مفاتيح الغيب لقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ﴾ [٦/٥٩] ـ محلّ القضاء الإلهي، وهي أيضا خزائن مافي علم الله. فالعالَم النفساني بجرمه السماويّ محلّ القدَر لقوله تعالى: ﴿وَإن مِن شَيءٍ إلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[١٥/٢١].

فمحلّ حصول المعلومات الكلّية هو عالَم النفوس الناطقة وإنّما ترتسم صوَرها في الألواح القدَريّة على سبيل التنزّل[٩٤]، إذ الصور الكليّة العقليّة في عالَم القضاء في غاية الصفاء لاتترائى ولاتتمثّل في معلوميّتها لما تحتها لشدّة نوريّتها وجمالها[٩٥]، كمرآة مضيئة ترد البصر عن إدراك مافيها من الصوَر بشعاعها فيها. فينتسخ تلك الصور منه في لوح النفس الناطقة الكليّة التي هي قلب العالَم، كما ينتسخ بالقلم في اللوح صوراً معلومة مضبوطة بعللها وأسبابها على وجه كلّي.

وهذا مثل مايظهر في قلوبنا عند استحضارنا المعلومات الكليّة كالصور النوعيّة في باب حدود التصوّرات، وككبريات القياس في باب براهين التصديقات عند الطلب للأمر الجزئيّ المنبعث عنه الإرادة للفعل والعزْم عليه، وذلك الأول كالعلم الإجمالي الذي لنا، وهو عقلٌ بالفعل تنشأ منه الصور الكليّة عند الاستحضار، ثمّ ينتقش من عالَم النفوس الناطقة الكليّة في النفوس الحيوانية السماويّة والحسّاسة المنطبعة في أجرامها نقوشاً جزئيّة

(٩٤) التنزيل ـ نسخة. (٩٥) اجمالها ـ نسخة.

متشخصّة بأشكال وأوضاع معينّة، مقارنة لأوقات مقدّرة من لواحق المادّة على مايظهر في الخارج. وهذا كما ينتقش في قوّتنا الخياليّة كالصوَر الشخصيّة، وكصغرَيات القياس ـ لتحصل بانضمامها إلى كبرياتها نتيجة جزئيّة ينبعث منه رأيٌ جزئيّ يحصل عنه قصد جازم إلى فعل معيّن،فيجب عنه حصوله في الخارج.

وذلك العالم هو لوح القدَر،وخيال العالم، وكتاب المحو والإثبات، لأنّ جزئيّات العلوم متبدّلة فيه وكلّياتها مضبوطة فيما فوقه، لقوله تعالى: ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَايَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ [١٣/٣٩] .

وهذا الكتاب أيضا يسمّى بالدفتين الزمردتين، وبالسماء الدنيا التي نزل[٩٦] إليها القرآن الكريم أوّلا من اللوح المحفوظ وغيب الغيوب. ثمّ ظهر[٩٧] في عالَم الشهادة. فقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ إشارة إلى المرتبة الجمعيّة الإلهيّة الموسومة بـ «القلم الأعلى» و «العقل الأوّل» أعني العقل الإجمالي الذي هو فعال صور المعقولات في العقول والنفوس . وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ هو اللوح العقلي المحفوظ عن التجدّد والتغيّر وفيه علم الفرقان.

وإنّما وصف القرآن بالكريم ـ دون الفرقان ـ لأنّه العقل البسيط الذي ينشأ منه الصُور العقليّة التفصيليّة، ويتأخّر منه العلوم الاستحضاريّة تأخُّر المعلوم عن العلة والمركب عن البسيط، وإنّما هو العقل الفعّال ومجده بالعقل القرآني لابالعقول الفرقانيّة.

---

(٩٦) ينزل ـ نسخة. (٩٧) يظهر ـ نسخة.

قوله عزّ اسمه:

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾

إنّ القرآن كالإنسان المنقسم إلى سرّ وعلن، ولكلّ منهما ظهرٌ وبطنٌ ولبطنه بطن آخر ـ إلى أن يعلمه الله ـ ولعلانيته[٩٨] علانية أُخرى إلى أن يدركه الحواسّ وأهلها.

أمّا ظاهر علَنه فهو المصحف المحسوس المَلموس، والرقم المَنقوش المسوس.

وأمّا باطن علنه فهو مايدركه الحسّ الباطن ويستثبته القرّاء والحفاظ في خزانة محفوظاتهم كالخيال ونحوه، والحسّ الباطن لايدرك المعنى صِرفاً، بل خلطاً مع عوارض جسمانيّة، إلا أنه يستثبته بعد زوال المحسوس. فإنّ الخيال[٩٩] والوهم أيضا كالحس لايحضران في الباطن المعنى الصرف كالإنسانيّة المطلقة، بل نحو مايدركه الحسّ من خارج مخلوطاً بزوايد وغواشٍ من كمٍّ وكيفٍ ووضعٍ وأينٍ، فإذا حاول أحدهما أن يتمثّل له الصورة الإنسانيّة المطلقة بلا زيادة أُخرى لم يمكنه ذلك، بل إنّما يمكنه استثبات الصورة المقيّدة بالعلايق المأخوذة عن أيدي الحواسّ، وإن فارق المحسوس، بخلاف الحسّ فإنّه لايمكنه ذلك، فهاتان المرتبتان من القرآن أوّليتان دنيويتانّ[١٠٠] مّما يدركه كلّ إنسان.

وأمّا باطنه وسّره فهما مرتبتان أُخرويّتان لكلّ منهما درجات:

فالأُولى مّما يدركه الروح الإنسانيّة التي تتمكّن من تصور المعنى بحدّه وحقيقته، منفوضاً عنه اللواحق القريبة، مأخوذاً من المبادي الفعالة من حيث

---

(٩٨) لعلنه ـ نسخة. (٩٩) التخيل ـ نسخة. (١٠٠) دنويتان ـ نسخة.

تشترك فيه الكثرة،ويجتمع عنده الأعداد في الوحدة،ويضمحلّ فيه التخالف والتضادّ،ويتصالح عليه الآحاد، ومثل هذا الأمر لاتدركه الروح الإنسانيّة مالم تتجرد عن مقام الخلق ولم ينفض عنها الحواسّ ولم ترتقِ إلى مقام الأمر متّصلة بالملأ الأعلى، إذ ليس من شأن المعقول من حيث هو معقولٌ أن يحسّ كما ليس من شأن المحسوس من حيث هو محسوس أن يعقل. ولن يستتمّ الإدراك العقلي بآلة جسمانيّة، فإنّ المتصور فيها مخصوص مقيّد بوضع ومكان وزمان، والحقيقة الجامعة العقليّة لاتتقرّر في منقسم مشار إليه بالحسّ ، بل الروح الإنسانيّة يتلقّى المعقولات بجوهر عقلّي من حيّز عالم الأمر، ليس بمتحيّز في جسم ولا متمكّن في حسّ ولا داخل في وهم.

ثمّ لّما كان الحسّ تصرفه فيما هو من عالَم الخلق، والعقل تصرفه فيما هو من عالَم الأمر، فما هو فوق الخلْق والأمر فهو محتجب عن الحسّ والعقل جميعاً، ولاشكّ أنّ كلام الله من حيث هو كلامه قبل نزوله إلى عالَم الأمر ـ وهو اللوح المحفوظ ـ وقبل نزوله إلى عالم السماء ـ وهو لوح المحو والإثبات وعالم الخلق ـ له مرتبة فوق مرتبة الخلق والأمر جميعاً، فلايتلقيه ولايدركه أحد من الأنبياء إلاّ في مقام الوحدة الإلهية عند تجرّده عن الكونين ـ الدنيا والآخرة ـ وعروجه وخرقه العالمين ـ الخلق والأمر ـ . كما قال أفضل الأنبياء: «لي مع الله وقت لايسَعني فيه ملكٌ مقرّب، ولانبيّ مرسل».

* * *

فإذا تقرّر هذا ثبت إنّ للقرآن منازل ومراتب، كما للإنسان درجات ومعارج. فلابدّ لمسِّ القرآن في كلّ مرتبة ودرجة من طهارة وتجرّد عن بعض العلايق، فالضمير في ﴿لايمسّه﴾ إن كان عائداً إلى المصحف الذي بأيدي

الناس ويدركه جمهور أرباب الحواسّ فلايجوز لغير المتطهرّ من الأحداث والأنجاس ـ كالجنابة والحيض والنفاس ـ مسّ كتابته أو مسّ المصحَف، كما هو عند البعض وروي عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام وعطا وطاوس وسالم وهو مذهب الشافعي ومالك. ولالغير المتطهر من نجاسة كفر القالب بالإقرار بالشهادتين تلاوته وحفظ ألفاظه. فيكون ﴿لايمسّه﴾ خبراً بمعنى النهي.

وإن كان عائداً إلى ﴿كِتَابٍ مَكنُونٍ﴾ وجعلت الجملة الفعليّة صفة له فالمعنى: لايمسّ اللوح المحفوظ ولايحمله بما فيه إلاّ المجرّدون عن جلباب البشريّة من الإنسان والملائكة الذين وصفوا بالطهارة من آثام الأجرام، كجبرئيل حاملا التنزيل في مقام التفصيل.

وإن كان عائداً إلى القرآن الكريم من حيث يحمله القلم الأعلى في مقام الإجمال ـ حتّى تكون الجملة الإسمّية صفة له، والفعليّة صفة أُخرى بعد صفة، وهما جميعاً صفتان له بعد صفة الكرامة ـ فيكون المعنى: لاَيَمسُّه إلاّ المطهّرون عن نقايص الإمكان وأحداث الحدثان، وهم أعاظم الأنبياء والمرسلين وأكابر الملائكة المقرّبين.

وبالجملة للقرآن درجاتٌ كما مرّ، وكذلك للإنسان بحسبها، ولكلّ درجة من درجاته حَمَلَة يحملونه وحفَظَة يحفظونه، ولايمسّونه إلاّ بعد طهارتهم عن حدثهم أو حدوثهم وتقدّسهم عن شواغل مكانهم أو إمكانهم. وأدنى المنازل في القرآن مافي الجلد والغلاف ـ كما أنّ أدون الدرجات للإنسان هو مافي الجلد والبشرة ـ ويجب أن لايحمله الإنسان البشري إلاّ بعد تطهير لبشرته وغلافه من النجاسة.

وهذا كما ورد[١] أنّ الايمان ليس باباً واحداً، بل هو نيّف وسبعون باباً، أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجوداً واحداً، بل هو نيِّف وسبعون موجوداً، أعلاها الروح، وأدناها إماطة الأذى عن البشرة ـ بأن يكون مقصوص الشارب، مقلوم الأظفار، نقيّ البشرة عن الأخباث، حتّى يتميّز عن البهائم المرسلة الملوثّة[٢] بأوراثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها.

فعلم من هذا أنّ الإنسان ومراتبه مثال مطابق للايمان ومراتبه، وكذا حكم القرآن. وسيأتيك زيادة كشف.

قوله عزّ اسمه:

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

هذه صفة رابعة للقرآن، أي: مُنزَل من عند ربّ العالمين إلى أهل هذا العالَم، وإنّما وصف بالمصدر لأنّه من حيث هذا الوجود الكوني نزل منجّما بحسب الدواعي الكونيّة والمصالح الخلقيّة في الأوقات المعيّنة فكأنّه في نفسه تنزيل، لتعالي الباري القيّوم عن وصف التغيّر والتجدّد وكثرة الدواعي والإرادات.

وأما كيفية هذا التنزيل، فنقول في بيانها: إنّ الذات الأحديّة بحقيقته الصمدانية ممّا لاسبيل لأحد إلى إدراكه ـ سواء كان من الملائكة أو من

(١) راجع الترمذي، كتاب الايمان، باب ماجاء في استكمال الايمان: ٥/١٠. الجامع الصغير: ١/١٢٤.
(٢) المتلوثة ـ نسخة.

الأناس ـ وغاية السبيل إليه لأهل الكونين إدراك أفعاله وآثاره، وكلامه وكتابه عندنا من جملة أفعاله وآثاره ـ إلّا أنّ أحدهما وهو الكلام من عالَم أمره، بل هو الأمر كلّه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٨٢/٣٦] وأمره منزّه عن التجدّد والتضادّ لقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ [٥٤/٥٠].

وثانيهما ـ وهو الكتاب ـ من عالَم خلقه، بل هو عالَم خلقه لاشتماله على التجدّد والتضاد لقوله تعالى: ﴿لَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٥٩/٦].

ولكلّ منهما منازل ومراتب، وكلّ واحدة من مراتب الكلام قضاء وكلّ واحدة من مراتب الكتاب قدَر، وأعلى مراتب القضاء قضاءٌ محض ليس فوقه قضاء، وهو الكلام الإلهي المبدَع له بالحقيقة.

وأدنى مراتب القدَر «قدَرٌ محض» لاقدَر تحته، وهو الكتاب الكوني الذي فيه كتابة أعمال أهل الشمال.

وكما أنّ كلام الله مشتمل على الآيات، وهي آيات الله الكبرى الواقعة في المواقف[٣] العقليّة المثاليّة[٤] ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [٢٥٢/٢] وكذلك كتابه المبين مشتمل على آيات ـ وهي الآفاق والأنفس ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ [١/١٢] وكلّ كلام إذا نزل[٥] وتشخّص يصير كتاباً، كما أنّ الأمر إذا نزل صار فعلا ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

فالكتاب نايب الكلام، وأصل الكلام إنما يراد لتصوير ما يتضمّنه

(٣) المواقع ـ نسخة. (٤) المتتالية ـ نسخة. (٥) تنزل ـ نسخة.

باطن المتكلم في باطن المخاطب فيصير مثله، فإذا عجز المخاطب عن مسّ باطن المتكلّم[٦] ـ مسّ الخاتم للشمعة ليجعلها مثل نفسه في نقشه ورقشه ـ اتخذ بين الباطنين سفيراً من الظاهرين، إمّا رسولا هوائياً متكلّمًا به، أو رسالة سطحية ناطقة بما فيها، فإن الهواء بتموجه الصوتي على هيأته الحرفيّة كتابٌ بالقياس إلى ما فوقه ـ وهو نفَس المتكلّم ـ وهو بعينه كلامٌ بالقياس إلى ما تحته ـ وهو صحيفة الرسالة أو بسيط السماخ بهيئاتها الكتابيّة ـ.

فعلى هذا كلّ واحدة من الذوات المفارقة والملائكة العقليّة التي هي علومٌ إبداعيّة وصورٌ مجرّدة، كلام الله باعتبار وقلمه باعتبار. وكلّ واحد من الجواهر الفعليّة[٧] والملائكة المدبرة كتاب الله باعتبار ولوحه[٨] باعتبار.

وكذا الألواح القدَريّة والصحايف السماويّة كلّ منها كتاب مشتمل على آيات الربوبيّة ودلائل القدرة، وهكذا صحيفة الأكوان وطومار حوادث الزمان ودفتر الصور الجسمانيّة كتاب فيه آيات الليل والنهار التي ينشر بعضها وينطوي بعض آخر ويظهر ويكمن كما قال: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [١٠/٦] .

فعالَم الكلام والقول فيه آيات أمريّة عقليّة وعلمية، وعالَم الكتاب والفعل فيه آيات خلقيّة كونيّة عمليّة، ومالم يطلع[٩] الإنسان أوّلا بمشاعر نفسه وبدنه هذه الآيات الفعليّة[١٠] الكتابيّة الآفاقية والأنفسيّة لم يترقّ[١١] بها

(٦) المخاطب ـ نسخة.

(٧) العقلية ـ المنفعلة ـ نسخة.

(٨) فعله ـ نسخة.

(٩) وليطالع ـ نسخة.

(١٠) العقلية ـ نسخة.

(١١) لم يترقى ـ نسخة.

ذاته من مقام الحسّ والنفس إلى مقام القلب والروح فيسمع ويفهم تلك الآيات العقليّة[١٢] الكلاميّة حتّى يعرف بها الحقّ الأوّل، كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [٥٣/٤١].

فإذا علمت الفرق بين الكلام والكتاب فاعلم[١٣] إنّ هذا القرآن كلام الله وكتابه جميعاً، وهو بما هو كلام الله نور من أنوار الله المعنويّة نازل من لدنه، ومنزله الأوّل قلب من يشاء من عباده المحبوبين لقوله: ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٥٢/٤٢]وقوله: مخاطبا نبيّه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[١٩٣/٢٦] وقوله: ﴿وبِٱلْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [١٧/ ١٠٥].

وهو بما هو كتاب نقوش وأرقام، وفيها آيات أحكام نازلة من السماء نجوماً على صحايف قلوب المحبّين وألواح قلوب السالكين وغيرهم، يكتبونها بأيديهم في صحايف أعمالهم وألواح أفكارهم بحيث يقرأها كلّ قارٍ ويعمل بأحكامها كلّ عامل ويتساوى في هديها الأنبياء والأمم، كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرِيةَ وَٱلإنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ﴾ [٤/٣] وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَيٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللهِ﴾ [٤٣/٥].

وأمّا القرآن الكريم ففيه عظايم علم الله يتعلّم[١٤] به نبيّ الله لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [١١٣/٤]

---

(١٢) القولية ـ نسخة.

(١٣) اورد المصنف هذه التحقيقات بعينه في الاسفار الاربعة (٢٤/٧) ومفاتيح الغيب: ٣٣.

(١٤) كان يتعلم ـ نسخة.

وفيه عظايم أخلاق الله يتخلّق[١٥] به خاتم الأنبياء ـ عليه وعليهم السلام ـ لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٤/٦٨].

فإذا تقرّر هذه المقدّمات وتبيّنت فنقول في كيفيّة تنزيل الكلام وإنزال الكتب: إنّ الروح الإنسانيّة كمرآة مجلوّة إذا صقلت بصقالة العقل النظري وزالت عنها غشاوة الطبيعة و رين المعصية فحينئذ لاح لها نور المعرفة والايمان، وهو المسمّى عند أئمّة الحكمة بالعقل بالفعل، وبهذا النور يترائى فيها حقائق الملكوت وخفايا الجبروت، كما يترائى الأشباح المثاليّة في المرايا العقليّة إذا لم تفسد صقالتها بطبع ورين، لقوله ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لايَفْقَهُونَ﴾ [٨٧/٩] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَاكَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٤/٨٣].

فإذا أعرضت عن البدن والاشتغال بما تحتها من الشهوة والغضب والحسّ والتخيّل وتوجّهت وولّت بوجهها تلقاء عالم الملكوت الأعلى اتّصلت بالسعادة القصوى ورأت عجايب الملكوت والآيات، كما في قوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [١٨/٥٣].

ثمّ إنّ هذه الروح إذا كانت قدسيّة شديدة القوى، قويّة الإنارة لما تحتها، لاتشغلها جهة فوقها عن جهة تحتها؛ فتفي للجانبين وتضبط للطرفين ، لايستغرقها لغاية قوّتها وشدّة تمكنها حسّها الباطن عن حسّها الظاهر وليست كالأرواح العاميّة الضعيفة إذا مالت إلى الجانب الباطن غابت عن الجانب الظاهر، وإذا رجعت إلى مطالعة الظاهر غابت عن مطالعة الباطن، وإذا حضرت في شهود نشأة احتجبت عن النشأة الاُخرى ، بل إذا

(١٥) ان يتخلق ـ نسخة.

ركنت إلى مشعر من المشاعر ذهلت عن الآخر؛ وكذلك في القوى العمليّة إذا اشتغلت بما توردة قوّة تعطّلت عمّا توردة قوّة أُخرى، وكذلك البصر منها يخلُّ بالسمع، والخوف يشغلها عن الشهوة، والشهوة تصدّها عن الغضب، والفكر يعطّلها عن الفعل والذكر يصرفها عن الفكر.

والروح القدسيّة لايشغلها شأنٌ عن شأن، ولاتحجبها نشأةٌ عن نشأة. فإذا توجهّت إلى الأُفق الأعلى وتلقّت المعارف[١٦] بلاتعليم بشري من الله أو من ملائكة الله يتعدّى تأثيرها إلى قواها وتتمثّل صورة ماشاهَدها في روحها البشري، ومنها إلى أجسام العالَم، فتذعن لها طبيعة الخلق الأكبر وقواها من النفوس الجزئيّة، كما تذعن للملائكة الأقربين لاتّصالها لهم، فيكون حكمها حكمهم عند اتّصالها بأفق النور الإلهيّ.

والملائكة العلميّة ذوات حقيقيّة، ولها ذوات مضافة[١٧] إلى مادوتها تنشأ منها الملائكة اللوحيّة، وأمّا ذواتها الحقيقيّة فهي أمريّة كلاميّة قضائيّة، وذواتها الإضافيّة النفسيّة فهي خلقيّة كتابيّة قدريّة.

وإنّما تلاقى الصنف الأوّل[١٨] للملائكة من القوى البشرّية الروح القدسيّة في اليقظة، فإذا اتصلت الأرواح النبوّية بعالَمهم ـ عالَم الوحي الإلهي ـ يسمع كلام الله وهو إعلام الحقايق بالمكالمة الحقيقية بينها وبينه، لكونها في مقام القرب ومقعد الصدق. والوحي هو الكلام الحقيقي الإلهي كما مرَّ. فكذلك يعاشر تلك الملائكة ويخاطبهم ويسمع صرير أقلامهم كما حكاه النبيّ

---

(١٦) المعلومات ـ نسخة.

(١٧) اضافية ـ نسخة.

(١٨) في الاسفار الاربعة والمفاتيح الغيبية: الصف الاول.

صلّى الله عليه وآله عن نفسه[١٩].

ثمَّ إذا نزل إلى ساحة الملكوت السماويّ يتمثّل له صورة ماشاهدها في لوح نفسه الواقعة في عالَم الأرواح، ثمّ يتعدّى منه الأثر[٢٠] إلى الظاهر، وحينئذ يقع للحواسّ الظاهر شبه نوم ودَهش، لِما علمت إنّ الروح القدسيّ لضبْطه الجانبين يستعمل المشاعر الحسيّة ويشغلها[٢١] في سبيل معرفة الله وإطاعة[٢٢] الحقّ، فإذا خاطبه الله خطاباً بلاحجاب من الخلق بواسطة الملك أو بدونه واطّلع على آيات ربّه وانطبع في فصّ نفسه الناطقة نقش الملكوت وصورة اللاهوت وكان يتشبّح له مثال من الوحي وحامله إلى الحسّ الباطن فتنجذب قوّة الحسّ الظاهر إلى فوق وتتمثّل لها صورة الملك بحسب مايحتملها، فيرى ملكاً على غير صورته التي كانت في عالَم الأمر، بل على صورته الخلقيّة القدَريّة، ويسمع كلامه بعد ماكان وحياً، أو يرى لوحاً بيده مكتوباً، فيكون الموحى إليه يتصلّ بالَملك بباطنه وروحه، ويتلقّى بروحه القدسيّة[٢٣] منه المعارف الإلهيّة، ويشاهد آيات الله ويسمع كلام الله الحقيقي العقلّي من الملك الذي هو الروح الأعظم. ثمّ يتمثّل له الملِك بصورة محسوسة، وكلامه بصورة أصوات وحروف منظومة مسموعة،وفعله وكتابه بصورة أرقام ونقوش مبصرة، فيكون كلٌّ من الوحي والملك تتأدّي[٢٤] إلى

---

(١٩) البخاري: كتاب الصلاة الباب الاول:١/٩٨. المسند: ٥/ ١٤٤.

(٢٠) الانزال ـ نسخة.

(٢١) يشيعها ـ نسخة. وفي المفاتيح: تشيعها.

(٢٢) طاعة ـ نسخة.

(٢٣) بباطنه وروحه القدسية ـ نسخة.

(٢٤) الموحى والملك ينادى ـ نسخة.

مشاعره وقواه المدركة من وجهين، ويعرض للقوى الحسيّة شبه الدَهش، وللموحى إليه شبه الغشي، ثمّ يرى ويسمع ويقع الإنباء[٢٥].

فهذا معنى تنزيل الكلام وإنزال الكتاب من ربّ العالمين، وعلم منه وجه ماقيل: إنّ الروح القدسيّة يخاطب الملائكة في اليقظة، والروح النبويّة يعاشرها في النوم، ولكن يجب أن يُفرق بين نوم الأنبياء ونوم غيرهم فإنّ نومهم عين اليقظة.

قوله عزّ اسمه:

أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾
وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

أفأنتم بهذا الحديث الذي جاء من الغيب إلى الشهادة متهاونون. وتقديم الظرف على عامله للاهتمام به والإعتناء بأمره للمبالغة في أنّ المداهنة ـ أي لين الجانب وعدم التصلّب في مثله ـ ممّا يستغرب ويتعجّب منه، بخلاف غيره من الأحاديث التي تنشأ أوّلاً من عالَم المحسوس إلى السمع،ثمّ ترتقي إلى الباطن، فإنّ أكثر الناس متخيّلهم يتبع محسوسهم، وكذا معقولهم يتبع متخيّلهم، ولذا قيل: «مَن فقد حسّا فقد فقَدَ علِمًا» وذلك لعكوف أكثر النفوس في عالم المحسوس، وليس كذلك نفوس الأنبياء، فهم كما مرّ يرون ويسمعون في باطنهم أوّلا من عالَم الغيب ثمّ يتكلّمون بما شاهدوه.

والرزق: مايتغذّي ويتقوّي به العبد،سواء كان حراماً أو حلالا، محسوساً أو غير محسوس. وماقيل: «إنّ الحرام ليس من الرزق» معناه: إنّه

(٢٥) الانتباه ـ نسخة.

لايحصل به البقاء على السعادة الأُخرويّة. فكما أنّ الملائكة غذائهم التسبيح والتقديس، وأهل السعادة من الناس غذائهم العلم وزادهم التقوى، فكذلك الشياطين وأهل الشقاوة غذائهم تكذيب الحقّ والإبعاد عنه وترويج الباطل وإبطال الحقايق بالشبهات والتمويهات؛ لأنّهم بهذه الأفاعيل المزخرفة يتظاهرون ويتطاولون على الناس،ويترسّخ في باطنهم نار الجحيم ويشتدّ بزيادة الفظاظة والغلظة عذابهم الأليم.

كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [٢/١٠].

وفي الكشّاف: «﴿وَتَجْعَلونَ رِزقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾:على حذف المضاف، أي: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب. أي: وضعتم التكذيب موضع الشكر».

وقيل: نزلت في الأنواء[٢٦]: ونسبة المنافقين السقياء إليها. والرزق: المطر.

وعن ابن عباس[٢٧]: أصاب الناس عطش في بعض أسفاره صلّى الله عليه وآله فدعا، فسقوا. فسمع رجلا يقول: مطرنا بنوء كذا. فنزلت الآية.

---

(٢٦) الانواء هي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها. ومنه قوله تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ ويسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر وتطلع اخرى مقابلها ذلك الوقت في الشرق. فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم ان مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه اليها، فيقولون: مطرنا بنوء كذا. وانما سمي نوءاً لانه اذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق، ينوء نوءاً: اي نهض وطلع ... (النهاية ٥/١٢٢).

(٢٧) مجمع البيان في تفسير الآية ج٩ ص ٢٢٦.

أي: وتجعلون شكر مارزقكم الله من الغيث، أنّكم تكذبون بكونه من الله، حيث تنسبونه إلى النجوم.

وعن الحسن: معناه وتجعلون حظّكم من القرآن الذي رزقكم التكذيب به.

وقرء: تَكْذِبون. لأنّهم كذبوا في قولهم القرآن سحر وشعر وافتراء، أو قولهم: المطر من الأنواء. وكذا في تكذيبهم لما هو حقّ فإنّ كلّ مكذّب بالحقّ كاذب.

قوله عزّ اسمه:

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

ترتيب الكلام وأصله هكذا: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين. وباقي الكلام وقع اعتراضاً أو تأكيداً. أي: فلولا ترجعون النفس ـ أي: الروح المحتضر[٢٨] ـ إن كنتم غير مدينين، أو في تكذيبكم البعث أو غيره صادقين، إذا بلغت الحلقوم عند الموت، وأنتم ـ ياأهل الميّت ـ حينئذ[٢٩] ترون تلك الحال منه، وقد صار إلى أن يخرج منه روحه. فـ «لولا» الثانية مكّررة مؤكّدة للاولى، والمستكنّ المرفوع في: «بلغت» والبارز المنصوب

(٢٨) روح المحتضر ـ نسخة.　　(٢٩) وقتئذ ـ نسخة.

في «ترجعونها» للنفس، والمجرور في: «أقرب اليه» للمحتضر.

و ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير مسوسين بسياسة. من «دان السلطان رعيّته» إذا ساسهم.

وقوله: ﴿نَحْن أقْرَبُ إلَيْه مِنكُم﴾ إثبات لمعيّته تعالى لكلّ شيء وقربه منه[٣٠] معيّة قيّوميّة وقرباً معنويّاً إلهيّاً، لابمداخلة ولابمماسّة كمعيّة جسم لجسم، ولاكمعيّة صورة لمادّة، ولاكعرَض لمحل ولابالعكس، ولاكمعيّة مقوّم المهيّة ـ كالجنس والفصل ـ للمهيّة،أو مقوّم الوجود كالمادة والصورة للموجود المتقوّم بهما خارجاً أوعقلا. فإنّ البارى قيّوم لكلّ شيء وغاية له، لاإنّه مقوّم لشيء بأحد هذه المعاني. وأقرب أسباب الشيء ومقوّماته إليه هو الفاعل الحقيقي والغاية له لأنّه مسبّب الأسباب من غير سبب.

وقيل المعنى: ونحن أقرب إليه بقدرتنا وعلمنا، ومرجع هذا الكلام أيضا مامرّ. لأنّ قدرته وعلمه غير زايدين على ذاته.

وقيل المعنى: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لاتبصرون رسلنا ولاتعلمون قبضهم للأرواح من الأجساد، لأنّ إدراك الأُمور الأُخرويّة ومقدّماتها موقوفٌ على وجود البصيرة الباطنة[٣١]،وهي إنّما تختصّ بأهل الله وأصحاب الكشف والشهود. وأمّا قوله: ﴿وَلَو تَرَى اذِ ٱلظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ ٱلمَوتِ وَٱلمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِم أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [٦/٩٣] ـ حيث أتى بلفظة «لو» الدالّة على النفي أو الإمتناع، مع كون المخاطب هو الرسول صلّى الله عليه وآله ـ فليس متعلّق «لو» نفس الرؤية مطلقاً ليدلّ على نفيها أونفي إمكانها منه مطلقاً، بل مقيدّة بجماعة مخصوصة أو زمان

(٣٠) اليه ـ نسخة. (٣١) الباطنية ـ نسخة.

مخصوص قبل موتهم أو بعده أو بغير ذلك من الموانع الخارجيّة، وإلاّ فالنبيّ صلّى الله عليه وآله كان عارفاً بملائكة الموت وعدد أيديهم وكيفيّة إخراجهم لنفوس الكفّار عن أبدانهم وبملائكة الحيوة وأعوانهم وكيفيّة قبضهم لأرواح المؤمنين عن أبدانهم ونفوسهم.

ومعنى الآية: إنّكم أيّها الجاحدون لحقايق الايمان، والمنكرون للنشأة الآخرة والبعث والصراط والميزان ورجوع الخلايق كلّها إلى الرحمن الرحيم، والذاهبون إلى مذهب الإهمال والتعطيل في كلّ شيء ينسب إلى الحقّ المنّان والملائكة[٣٢] المدبّرين للأكوان، المقتصرون على عالَم الحسّ والشهادة: حيث انّكم تجحدون أفعال الله وآياته وملائكته ورسُله في كلّ شيء، فتنسبون الكتاب والكلام إلى الشعر والإفتراء،و تنسبون الأرزاق إلى النجوم التي في السماء، ومصادفة الأمطار في وقت الحاجة وزمان[٣٣] الدعاء إلى الأنواء، والحيوة والموت والصحّة والمرض وغيرها إلى تأثير الأمزجة والأهوية وتلتمسون[٣٤] الشفاء من الأدوية[٣٥] ـ.

فمالكم لاتُرجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم: إن لم يكن ثَمّ قابض ومُخرج من الأُمور الغائبة عن عالَمكم عالَم الشهادة والأسباب البعيدة عن شهود إدراككم، فهلّا[٣٦] ـ إن كنتم صادقين في دعويكم ـ ترجعونها بالتدابير الطبّية والبخورات والعزائم الكهانيّة والنيرنجات والطلسمات النجوميّة ـ ولو على سبيل الندرة والإتّفاق ـ إن لم يكن قضاءٌ حتم وقدَر لازم من أمر الله

(٣٢) ملائكة ـ نسخة.
(٣٣) مظان ـ نسخة.
(٣٤) ملتمسون ـ نسخة.
(٣٥) الدواء ـ نسخة.
(٣٦) فما بالكم ـ نسخة.

بموت كلّ إنسان في وقت معيّن لايحيط به علم البشر.

* * *

واعلم أنّ هذا حال أكثر المنتسبين إلى العلم والكياسة، كالمتفلسفة وعامّة الأطبّاء والمنجّمين وساير الطبيعيّين والدهريين المعطّلين، الذين عطّلوا الله عن جوده وتدبيره للعالَم وانحصرت علومهم في أحوال الطبايع الجسمانيّة وقواها وكيفياتها، وبهم زمانة عقول الجمهور[٣٧] عن الارتقاء الى عالَم الغيب، فلايومنون به حتّى يروا العذاب الأليم.

وهكذا درجة أكثر المتكلّفين من المجسمة والحنابلة، و الكرامية، ومَن يحذو حذوهم في عدم الايمان بما وراء المحسوس ومابعد الطبيعة، وإنّما امتازوا عن ساير الجحَدة والمنكرين وأتباع مردة الشياطين باقرارهم بأحكام الشرايع والأديان وعملهم بظواهر الأركان.

وأمّا المؤمن الحقيقي: فهم الذين يؤمنون بالغيب وعالَم الملكوت الربّاني، ويذعنون بالنشأة الآخرة ضميراً وقلباً. وهم ليسوا إلّا العارفون[٣٨] خاصّة. وماسواهم إن لم يكونوا من أهل سلامة الصدور والإقتداء بأهل الدين وأصحاب اليقين والإتبّاع لسبيل المؤمنين، فكانوا من حزب الشياطين المبتدعين وجنود إبليس أجمعين، فمآلهم كمآل أهل النكال وأصحاب البدع والضلال والإضلال في ايصال[٣٩] الجحيم والحرمان عن النعيم لقوله: ﴿وَمن... يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ ٱلمؤمِنينَ نُوَلِّهِ مَاتَوَلّى وَنُصْلِه جهنَّم﴾ [٤/١١٥].

(٣٧) العقود ـ الجمود ـ الجحود ـ نسخة.

(٣٨) العرفاء ـ نسخة.

(٣٩) «في ايصال» ساقط من نسخة.

فمابالك أيّها المسلم الذي وُلدت على فطرة الإسلام تترك متابعة الرسول وأهل بيته وأتباعه الذين دبّروا بعقولهم المنوّرة وآرائهم الرزينة أمر الدنيا والآخرة وسلكوا سبيل الله وأنابوا إليه، ولاتتبع سبيل من أناب واتّبعت رأي الفلاسفة. فلو استنبطت من معادن وجودك باستعمال الأدوات والقوى فيما هداك إليه الرسول صلّى الله عليه وآله لانفجرت مياه العلوم من صميم قلبك، وفتحت عين عقلك،وهديت[٤٠] بأشعّة بصيرتك إلى عوالم الغيوب، وشاهدت بعين بصيرتك الجنّة والنار ودار العذاب والقرار، كما قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَاتُبْصِرُونَ﴾ [٢١/٥١].

أوما علمت أنّ الفلاسفة قد فنت أعمارهم في الغوص في بحار الأفكار فغرقت عقولهم فيها، وتاهوا في سلوك أودية الأنظار وانقطع بهم سير الفكر في منتهى عالَم الملك والشهادة، ولم يدخل اسكندر نظرهم في تردده عالَمَ الظلمات إلى عين حيوة اليقين ـ التي من شَرب منها لايموت ـ فماتت حبة فِطرهم في مضيق عالَم الشهادة. ولم يخرجوا من جوف الدنيا وظلماتها التي بعضها فوق بعض إلى معرفة عالَم الآخرة وأنوارها وعالم الغيب وأسرارها؟

أولم يتفكّروا في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٢/٢٥٧]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [٢/٣] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [١١/١٢٣] وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [٦/٧٣].

فالله تعالى أوجد الملك والشهادة لقضيّة اسمه «الظَاهِر»، وأوجد الملكوت والغيب لقضيّة اسمه «الباطن».

---

(٤٠) امددت ـ مددت ـ نسخة.

(٤١) جنة ـ نسخة.

فمابك أيّها العاقل صرت مفتوناً بأن لايصدر عن الواحد إلّا الواحد، وحرّفت الكلمة[٤٢] عن مواضعها؟ فلو وقفت بعلم الأسماء لرأيت كلّ اسم آية ودليلا لك[٤٣] ككواكب السماء على سرٍّ صفة مستودَع فيها حقيقة علّة معلول، فكثرت[٤٤] لديك العلل والمعلولات، وانعكس في مرآة وجودك جلال الأسماء والصفات، من غير انثلام قاعدة الوحدة في الإفاضة والايجاد، مع صدور الأنواع والأعداد. فأين هذا العلم الموهوب من خزائن الجود الأزلي السرمدي؛ من العلم المتولّد لأبناء الشياطين من الفكر الرديّ.

فطوبى لأهل الشريعة والدين،المنقادين بالسمع والطاعة لله ولرسوله وأئمّة المسلمين.

وليعلم إنّ العقل حجّة الله في أرضه، وهو أوّل ماخلقه، يهدي به مَن يحبّه فيجعله فيه مكتحلاً بنور الهداية، ويضلّ به من يبغضه فيجعله فيه عرياً عن نور الهداية؛ لإثبات الحجّة. إذ لو غاب العقل رأساً ماثبتت الحجّة، وهو مناط الثواب والعقاب، وليس للفلاسفة ومن يحذو حذوهم إلّا العكوف على باب عقولهم، والإقتصار على ماأدركوه بمبادي عقولهم وأوايلها،وجحودهم لما ورائها، وعدم اقتباسهم أنوار حقايق الأشياء من مشكوة النبوّة والولاية.

فمن أثبت فلكاً ولم ير ملكاً، وأثبت معقولا وأنكر منقولا فهو كالأعور الدجّال، فهلّا نظر بالعينين وما أثبت العالمين بحسب كلّ موجود، وما جمع بين المعقول والمنقول والعقل والشرع؟ فالشرع عقلٌ ظاهر والعقل شرع باطن، كما أنّ الفلك ملَكٌ ظاهرٌ والملَك فلك باطن. فإذا حكمت ـ أيّها العاقل ـ بأنّ الفلَك

---

(٤٢) الكلم ـ نسخة.

(٤٣) كذلك ـ نسخة.

(٤٤) فكبرت ـ نسخة.

له اختيار وفعل؛ ولم تدر أنّ الفعل والاختيار للملك الموكّل به؛ فقد أخطأت، فصورة الفلك وطبعه[٤٥] من عالَم الشهادة، وصورة المَلَك وحقيقته من عالَم الغيب، فمَن لم يؤمن بالملائكة لم يؤمن بالغيب.

وهكذا الكواكب وماتضيف إليها من التدبير والتأثير هو من الأملاك الموكّلين بها.وهي في ذواتها أموات، والفلك كأرض موات أحياها الملائكة وعمّرتها بالذكر والتسبيح، وإذا سمعت صوت الرعد وحكمت بعقلك أنّه اصطكاك الأجرام من الحرارة والبرودة؛ فالذي أدركته بعقلك القاصر[٤٦] صحيحٌ لاينكر، ولكن حرمت القضيّة الأخرى بأنه ملك يسوق السحاب، ولاتكاد تدرك ذلك لأنّه من أحكام عالَم الغيب، وبك زمانة السكون والوقوف في عالَم الشهادة،ولاسبيل لك إلى بوادي عالَم الملكوت.

فقس على هذا ساير التأثيرات العلويّة من الزلازل والصواعق والهدّات والموتان وغير ذلك كالخسوف والكسوف، فإنّها من تخويف الله عباده وإظهار قدرته ليستدلّوا بالقدرة على القادر الحقّ وليرتقوا في الأسباب. مع ماثبت بالهندسة في علم الهيئة. فإنّ خسوف القمر يكون بحجاب نور الشمس عن القمر بحيلولة الأرض، وكسوف الشمس يكون بحجاب نورها عن البصر بحيلولة القمر.

فأهل الايمان لاينكرون مادلّت عليه البراهين الهندسيّة، ولكن الجاحدين لنور الشريعة ينكرون أحكام الغيب، وعلى هذا القياس ماحكمت إنّ الأرض كريّة الخلق[٤٧]، والفلك كريّ: مسلّم لك، فهو منتهى الحدود وهذه

---

(٤٥) طبيعته ـ نسخة.

(٤٦) الظاهر ـ نسخة.

(٤٧) الخلقة ـ نسخة.

مركز الأثقال،فأين أنتَ من الأرضين السبع التي هي منتهى حدود عالم الملك؟ ثمّ أين أنت من السموات العلى التي أُوليهنّ محيطة بجميع الأفلاك ومافيها فكلّها حشو السماء الأولى، وكلّ سماء بالنسبة إلى الأخرى كحلقة في أرض فلاة، وهكذا إلى أن يصير الأرضون السبع والسموات السبع وساير مااحتوت عليه من العناصر والأفلاك بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في أرض فلاة والكرسي بما احتوى عليه كذلك بالنسبة إلى العرش العظيم.

فسبحان فاطر السموات والأرض،ومبدع الخلق والأمر،الذي تلاشت الأوهام وتضاءلت الأفهام في إدراك عظمته،ولم يدر أحد منْ عظيم خلقه و أمره إلاّ القدر اليسير،وإليه المرجع والمصير.

قوله عزّ اسمه:

فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾

فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾

قد مرّ في أوايل هذه السورة أن الناس بالقياس إلى العاقبة وسلوك الطريق الآخرة ينقسم على ثلاثة أنواع: السابقين وأصحاب الجنّة وأصحاب النار، والأخيار والأبرار والأشرار، المشار إليهم في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ﴾ [٣٢/٣٥] وأشير إلى أحوال كلّ واحد من الثلاثة، فإعادة ذكرهم هيهنا لأنّ المنظور إليه بيان أحوال أرواحهم المفارقة بالموت،إن كان الكلام في روح المحتضر، لأنّ الغرض هيهنا بيان أوصاف أُخرى لهم.

أي فأمّا إن كان روح المتوفّى من أهل الكشف واليقين والسابقين

المقرّبين الذين هم أهل التوحيد والعلماء بالله وآياته، وهم الأخيار الأحرار، المرتفعون عن عالم السير والسلوك،لوصولهم إلى المقصود الحقيقي، بل هم مقصد السالكين ـ ولاتعد عيناك عنهم ـ وهم الذين قيل في وصفهم: «إن أحضروا لم يُعرفوا،وإن غابوا لم يُقصدوا»[٤٨] فحالهم بعينه حال الملائكة المقرّبين. ﴿فَرَوحٌ﴾ أي: فلروحه رَوح الاطمينان وراحة السكون عند الله[٤٩] وبرد اليقين، ولقلبه ريحان من رزق معلوم تفوح منه رايحة اليقين التي بها قوّة القلوب، ولنفسه جنّة نعيم يسرح فيها ويرتع في رياضها قضاء لشهواتها الحيوانيّة فيها ماتشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهي المشتهيات التي كانت ممنوعة من قشورها[٥٠] بأمر رائض الشرع مدة الرياضة في إصطبل الدنيا ومآب الدوابّ وموطن الحيوانات الهالكة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ فهي موطن الحيوانات الباقية.

وقرء يعقوب: فَرُوح ـ بالضمّ ـ وهو قرائة النبيّ صلّى الله عليه وآله وابن عبّاس والحسن، ومعناه: فله البلوغ إلى مقام الروح العلويّ من مقام الطبع والنفس، أوله الاتّصال بالروح الأعظم والقلم الأعلى.

وقال الحسن: الرُوح ـ بالضمّ ـ الرحمة الإلهيّة، لأنّها كالحيوة للمرحوم. وقيل: البقاء.

والريحان: الرزق. أي فهذان له معاً، وهو الخلود مع الرزق والنعيم. وقيل: والريحان: كلّ نباهة وشرف. وقيل: الريحان: المشموم من رياحين

(٤٨) راجع البحار ج٧٨ ص ١٦٢. وفي نسخة: لم يفقدوا (يفتقدوا).

(٤٩) عند وصول الحق ـ نسخة.

(٥٠) عن قشور منها ـ نسخة.

الجنّة يؤتى به عند الموت فيشمّه. وقيل: روح في القبر وريحان في البعث وجنّة نعيم، عند دخوله دار القرار[٥١].

قوله عزّ اسمه:

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾

فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾

وأمّا إذا كان المتوفّى من أصحاب اليمين وأهل سلامة القلب من الأمراض النفسانيّة ـ كالجهل المركّب والحسد والكبر والمكر والغيلة[٥٢] والجحود، سواء كانت صحيفة أعمالهم ساذجة من آثار الأعمال، وألواح نفوسهم خالية عن النقوش والأفكار، أو كانوا لصفاء قلوبهم واقتدار نفوسهم وفّقهم الله لفعل الحسنات والطاعات والاجتناب عن المعاصي والسيّئات، أو كانوا من أهل المعصية ثمّ أنابوا وتابوا إلى الله فقد تاب الله عليهم وانغسلت صفحة باطنهم بماء التوبة ـ والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ـ أو كانوا ممن خلطوا عملا صالحاً وآخر سيّئاً، لكن رجح لهم جانب المغفرة والنجاة. إذ كل هؤلاء من أصحاب اليمين ـ على تفاوت درجاتهم ـ وهم من أهل السلامة والنجاة من عذاب الجحيم ـ

فسلامٌ لكَ ياصاحب اليمين من إخوانك وأصحابك المؤمنين أصحاب اليمين وأهل سلامة القلب وصفاء الصدر ـ أي: يسلمون عليك ويلقون إليك التحيّة، كقوله: ﴿إِلاّ قيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾[٢٦/٦٥] وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فيهَا سَلاَمٌ﴾[١٠/١٠].

(٥١) مجمع البيان في تفسير الآية.

(٥٢) العناد ـ نسخة.

وعن قتادة: فسلام لك أيّها الإنسان الذي هو من أصحاب اليمين من عذاب الله، وسلمت عليك ملائكته.

وقيل معناه: فترى فيهم يامحمّد ماتحبّ لهم من السلامة من الخوف والمكاره.

وقال الفراء: فسلامٌ لك إنّك من أصحاب اليمين ـ فحذف «إنّك».

قوله عزّ اسمه:

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾

وقرء: ﴿وتصلية جحيم﴾ ـ بالرفع ـ عطفا على نُزُلٌ ـ وبالجرّ ـ عطفاً على حميم.

أي: إن كان المتوفّى من أهل الشمال والنكال والشرّ والوبال، وهم المضلّون المكذّبون بيوم الدين، والضالّون الناكبون عن منهج الدين، لعدم نور المعرفة واليقين، فله نُزُل من حميم جهنّم بإزاء مايعدّ للضيف من الأطعمة والأشربة، وتصلية نار الجحيم؛ أي: ادخالها له إيّاها. لأنّ حقيقة ذواتهم النفسانيّة حصلت من نار الطبيعة وشرورهم من شررها كما مرّت إليه الإشارة، فلاجرم الشيء يعود إلى أصله.

وتلك النار الأُخرويّة كانت كامنة في بواطنهم متسخّنة[٥٣] في قلوبهم وكانوا في الدنيا محترقة بها وهم لايشعرون لغلظ الحجاب، فإذا أُزيل بالموت

(٥٣) مسخنة ـ مسجنة ـ نسخة.

ظهَر أنّها موقدة تطّلع على الأفئدة، كما قال الله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ﴾ [٦/١٠٤] وطبايعهم أصلها وقلوبهم القاسية كالحجارة والحديد وَقودها، لقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [٢٤/٢] وقد قال: فَقَسَتْ قُلوبُهُمْ فَهِيَ ﴿كَٱلْحِجَارَةِ اوْ أَشَدُّ قَسوَةً﴾ [٧٤/٢].

واعلم إنّ النار التي يصل إليها مَن هو من أهلها في الآخرة مشهودة اليوم لك من حيث موضوعها ومصداقها ـ لامن حيث صورتها ـ وينقلب فيها أهل الجحيم على الحالة التي هم عليها، وكذا الجنّة مشهودة لك أيضا وأنت تنقلب فيها وتترقّي من درجة منها إلى درجة، من باب إلى باب ـ إن كنت من أهل الجنّة والترقّي ـ وأنت لاتعلم ولاتشاهدهما.

لأنّ الصورة الدنياويّة تحجبك من ملاحظة حقيقتها وصورتها الاُخروية.

فأهـل الكشف الذين أدركوا ماغاب عنهم يرون موضوعات الاُمور الاُخروية،ويرون من كان من أهل الجنّة في روضة خضراء،ويرون تقلّبهم في مراتبها وتردّدهم[٥٤] في غرفاتها، ويرون الجهنّمي متى استقرّ له دار الجحيم وكيف تتقلّب فيها ويهوي إلى منازلها ودركاتها، ومايكون فيها من لُغوب ونصب وحرور وزمهرير،كما في قوله:﴿وَتَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي روضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ [٢٢/٤٢].

وأكثر أهل الكشف في ابتداء طريقتهم يرون هذا، ومن لم يكشف الله عن بصيرته وبقي في عماء حجابه لايدرك هذا ويكون مثل الأعمى الذي في بستان، فإن لم يرَ ما هو فيه فلم يلزم من ذ لك أن لايكون فيه.

---

(٥٤) صعودهم ـ نسخة.

وقد نبه الشرع على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ﴾ [٢٩/٥٤].

وعلى بعض مواضع الجنّة والنار بقوله: «مابين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنّة»[٥٤] وبقوله في وادي محسِّر بمنى وغير ذلك: «من أودية النار». ولهذا شرع الإسراع في الخروج عنه لأُمتّه، فإنّه يرى مالايرون ويشهد ما لايشهدون.

وأخبر أيضا في نهر النيل والفرات وسيحان وجيحان أنّها: «من أنهار الجنّة»[٥٥] وأهل الكشف يرون هذه الأنهار من عسلٍ وماءٍ وخمرٍ ولبنٍ كما هو في الجنّة، ومن الناس من يستصحبه هذا الكشف ومنهم من لايستصحبه لحكمة أخفاها الله تعالى في خلقه.

وإلى هذا الكشف وقعت الإشارة بقوله عزّ اسمه:

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾

أي: هذه المذكورات من الأحكام الثلاثة للطوايف الثلاثة ممّا لاشبهة فيه ولاريب يعتريه عند أهل الكشف بل هو مشهود لهم. إذ معنى حقّ اليقين هو اليقين البالغ حدّ الشهود، فلأهل الله أعينٌ يبصرون بها، ولهم آذانٌ يسمعون بها، ولهم قلوب يعقلون بها، وألسنةٌ يتكلّمون بها؛ غير ماهي هذه الأعين والآذان والقلوب والألسنة عليه من الصورة، فكلامهم في كلّ ما يخبرون بها مصيب، فإنهم يشاهدون ببصائرهم المنورّة بنور الحقّ اليقين:

---

(٥٤) في كثير من الروايات: «مابين بيتي ومنبري» راجع البحار: ج٣ ص ١٨٥.

(٥٥) المسند: ج٢ ص ٢٦١. الخصال: باب الاربعة، ص ٢٥٠.

﴿فإنّها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصّدور﴾ عن الحقّ أي الصدور المنشرحة بالكفر، لقوله: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله﴾ [١٦/١٠٦].

وأمّا الصدور المنشرحة للإسلام ففيها قلوب منورة من الله لقوله: ومن يشرح ﴿صدره للإسلام فهو على نور من ربّه فويل للقاسية قلوبهم﴾ [٣٩/٢٢] فإنّهم ﴿صمّ بكم عمي فهم لايعقلون﴾ عن الله، فهم لايرجعون إلى الله، ووالله إنّ عيونهم لفي وجوههم وإنّ أسماعهم لفي آذانهم، وإن قلوبهم لفي صدورهم، وإن ألسنتهم لفي أفواههم، ولكن العناية ما سبقت لهم بالحسنى،فلايرون مايرون،ولايسمعون مايسمعون، ولايعقلون مايعقلون وعن السمع لمعزولون، كما في قوله: ﴿واعلموا انّ الله يحول بين المرء وقلبه﴾ [٨/٢٤] وقوله: ﴿نطبع على قلوبهم فهم لايسمعون﴾ [٧/١٠٠].

وهكذا حال أهل النار من الأشرار كما اعترفوا بذنبهم في يوم القيامة: ﴿لوكنّا نسمع أو نعقل ماكنّا في أصحاب السعير﴾ [٦٧/١٠] ولله الحمد والشكر وله التسبيح والتقديس على ماهدينا وأولانا،حيث حبانا تلك القلوب والأعين والآذان والألسن.

ولقد ورد في حديث نبويّ صحيح عند أهل الكشف ـ وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل لضعف الراوي ـ أنّه صلّى الله عليه وآله قال: «لولا تزييد[٥٦] في حديثكم وتمزيج[٥٧] في قلوبكم لرأيتم ما أرى وسمعتم ما أسمع»[٥٨].

---

(٥٦) تزيد ـ نسخة.　　(٥٧) تمريج ـ نسخة.

(٥٨) في المسند: ج٢ ص ٢٦٦: «لولا تمريغ قلوبكم او تزيدكم في الحديث».

وقال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِم﴾ [١٦/٤٤]. وأكثر من هذا البيان الذي وقع في القرآن سيّما في هذه السورة لايمكن،لكن أين مَن يفرغ محلّه لآثار ربّه ليقبلها وينقلها من غير زيادة وتحريف؟؟

هذا قليل نادر جدّاً والله وليّ التوفيق.

قوله عزّ اسمه:

فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

أي: قدّس الله ونزّهه عن التشبيه والتعطيل، وعن الغرض والتعليل في الأفاعيل وقصد التشفّي عن الغضب بالإنتقام في تعذيب المكذبين الضالّين وايلام الكفَرة المنافقين، وعظِّمه بحسن الثناء عليه بما ربّاك وهداك مولاك إلى طريق الدين، ونوّر قلبك بحقّ اليقين، وأراك معادك ومبدئك وفي أولاك نشأة أُخريك، وعاقبة أحبّائك في الجنّة مع الملائكة المقرّبين، ومقام أعدائك في النار مع زمرة المردة والشياطين، فتريهم معذّبين بالحميم وتصلية جحيم﴿النَّار يُعرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾[٤٠/٤٦] وهم مع ذلك لفرط غفلاتهم وتراكم جهالاتهم فرحون بماعندهم،مغترون بماهم عليه، كما في قوله: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم﴾ [١٦/٦٣] وقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُم قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَولُ﴾ [٤١/٢٥] وقوله: ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأسنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُم الشيطَانُ مَاكَانُوا يَعْمَلُون﴾ [٦/٤٣].

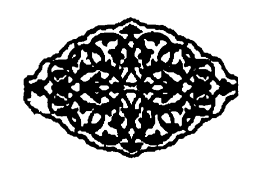
فلاجرم حالهم كما قيل شعراً:

تسرّ بماتفنى وتشغل بالمنى ... كما اغترّ باللذات في النوم حالم

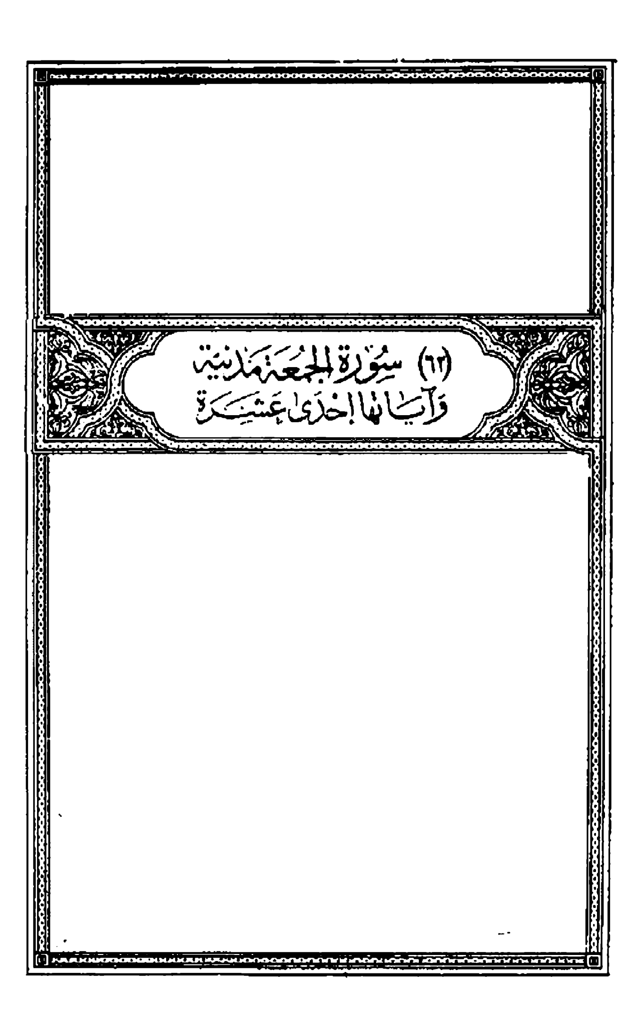
نهارك ـ يامغرور ـ سهو وغفلة ... ونومك نوم[٥٩]، والردى لك لازم

وتعمل شيئاً سوف تكره غبّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

* * * *



(٥٩) لوم ـ نسخة.


(٦٢) سورة الجمعة مدنية
وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لواهب النفس والعلم والعقل، والصلوة على النبيّ والوليّ والأهل.

وبعد: فيقول المتلجي إلى باب ربّه الكريم محمّد ـ المشتهر بصدر [الدين][1] إبن ابراهيم الشيرازي.

اعلم أيّها السالك من عالَم البشريّة إلى عالَم الربوبيّة ـ إنّ الموجود إمّا موجود بذاته قيّومٌ بنفسه، وإمّا موجود بغيره قائم بماعداه.

فالأوّل هو الله تعالى وله الأسماء الحسنى والصفات العليا[2]، وعنده مفاتيح الأشياء وبيده مقاليد السماء.

والثاني إمّا جوهر موجود لا في موضوع ، أو عرض موجود فيه. والجوهر إما جسمانيّ أو روحانيّ، والروحانيّ إمّا كاملٌ أو ناقص ، والكامل إمّا كامل بالفطرة الأولى أو بالفطرة الثانية. والناقص إمّا مستكف بذاته وبما يقوّم ذاته أو غير مستكف، والناقص الغير المستكفي إمّا قابل للاستكمال أو غير قابل له.

فالأوّل هم الملائكة المقرّبون، والثاني هم الأنبياء المرسلون، والثالث هم الملائكة السماويون ـ على طبقاتها ـ ، والزابع هم النفوس البشريّون في

(١) مابين [ ] غير موجود في النسخ التي بايدينا.

(٢) العلى ـ نسخة.

أوّل تكّونهم،وهم بمنزلة الملائكة الأرضيّين، والخامس النفوس المنتكسة الرؤوس فطرة ـ كالحيوانات ـ أو اكتساباً وتعمّلا كنفوس الأشرار من الفسّقة والكفّار، وهي بمنزلة الشياطين المطرودة عن عالَم الرحمة والرضوان إلى عالَم النقمة والخسران.

فللنفوس الإنسانيّة في أوّل فطرتها ومبدء نشاتها القوّة والاستعداد لأن تخرج إمّا إلى الملكيّة أو إلى الشيطانية أو إلى البهيميّة أو إلى السبُعيّة. ففيها قوّة أُمور أربعة: أحدها خيرٌ وسعادة، والثلاثة الأخيرة شرٌّ وشقاوة وخسران ووبال. وإنّما تخرج إمّا إلى ذاك وإمّا إلى هذه بسبب أعمال وإدراكات متكرّرة حتّى تصير ثمرتها صوَرة لذاته يتجوهر بها ذاته بحيث يمتنع زوالها.

فالأعمال والعلوم ـ على فنونها وشعبها ـ إمّا مقرّبات من الحقّ الأوّل وملكوته الأعلى،وأسباب الارتقاء إليه،والمنزلة في أوج ملكوته الأعلى من حضيض البشريّة السفلى الدنيا، كما اُشير إليه في قوله [تعالى]: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يرْفعُه﴾ [٣٥/١٠] وإمّا مبعدات منه وأسباب الطرد عن جنابه والبُعد عن عالَم الإلهيّة والوقوف في الهاوية السفلى والمرحلة الدنيا ومعدن البَوار والدثور وموطن أصحاب القبور لقوله [تعالى]: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [٢٥/٢٣].

ولَمّا كان الحال على هذا المنوال بعث الحقّ بمقتضى عنايته الأزلية على عباده لطفاً جديداً غير مافطرهم الله عليها في الفطرة الأولى، وأمدّهم بإحسانه مدداً ثانويّاً بعدما أنشأهم الله في النشأة الدنيا، فنصب شريعة علميّة وعمليّة، وأرسل رسولا هادياً لهم إلى طريق الخير ورادعاً عن طريق الشرّ، وأنزل كتاباً جامعاً إلهيّاً يهدي إلى الرشد، وصحيفة ملكوتيّة فيها خزانة أسرار

علوم السابقين واللّاحقين، وبحار قطرات معارف الأوّلين والآخرين. فيه تبيين[٣] الحلال والحرام من الأعمال والأفعال، والحسَن والقبيح من الصفات والأخلاق، والصواب والخطأ من العقائد والعلوم؛ ليتنبّه الإنسان ويستيقظ عن نوم الغفلة ورقدة الطبيعة وموت الجهالة، ويحيي بروح المعرفة والتقوى، ويقوم إلى العبوديّة، ويسلك سبيل القدس والرضوان والقرب من الرحمن، ويهتدي إلى صراط الله العزيز الحميد، وينزجر عن طاعة الهوى وخدمة النفس وعبوديّة الشيطان.

فالحقّ ـ سبحانه ـ بموجب عنايته التامّة ورحمته البالغة لم يهمل الإنسان سدي كباقي الحيوان وأبناء الشيطان والجانّ، التي ليست في قوّتها واستعدادها درجة الإرتقاء إلى العالم الأعلى كما قيل في الفُرس شعراً:

نَدْو دام رارَه بمعراج نيست سرخوك شايسته تاج نيست

أي لاخلاص لهذه القرية الظالم أهلها عن مشاركة البهائم والحشرات الضالّة عن المحجّة البيضاء؛ إلّا للكاملين في العلم والعمل، أو في العلم، أو المتوسّطين فيهما، أو من تبعهم[٤] واهتدى بهديهم وائتمر بأمرهم وانتهى بنهيهم، حتّى يحشر معهم بحكم: «مَن تشبّه بقوم فهو منهم»[٥].

فقد أوضح الشرع للعبد السبيلين وهداه النجدين ـ وهما طريقا الخير والشرّ، وسبيلا الحقّ والباطل ـ وبيّن أنّ أيّ الأفعال يوجب النعمة والرضوان، وأيّها يوجب النقمة والخذلان.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [٥/٦٧] أي: أفض

(٣) تبين ـ نسخة. (٤) يتبعهم ـ نسخة.

(٥) أبي داود: كتاب اللباس ، باب ٤، ج٤ ص ٤٤. المسند: ج٢ ص ٥٠.

على قلوب عبادي مما أفضنا على قلبك وعلّمهم ما علّمناك، وهذه الإفاضة والتعليم ـ وإن كانت عامّة شاملة ـ وهذه الهداية والحكمة ـ وإن كانت تامّة كاملة ـ لم ينتفع بها إلاّ النفوس السليمة عن أمراض الإعراض عن الحكمة والكفر والطغيان، والقلوب الساذجة عن آفات الحسد والطغيان لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٨٩/٢٦] وأمّا النفوس الشقية العنودة الفسوقة التي كفرت بأنعم الله فلم تؤثّر فيها الحكمة والقرآن، بل أثّرت فيها أضداد ما يؤثّر في أهل السلامة والايمان؛ كمثال نور الشمس واختلاف تأثيرها في تنوير بعض الجواهر وإظلام البعض، وترويح الموادّ الطيبة وتعفين الموادّ العفينة، وتبييض ثياب القصّارين وتسويد وجوههم.

فهكذا حكم تأثيرات أنوار القرآن على القلوب المتخالفة في الصفاء والكدورة واللطافة والكثافة ﴿يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوهٌ﴾ ﴿يضلّ به كثيراً ويهدى به كثيراً﴾ وذلك لاختلاف القوابل والاستعدادات وتفاوت الغرائز والجبلاّت، فالهادي بالذات لقوم ربّما يكون مضلاّ لقوم آخر من هذا الوجه، والانتفاع بالرسول والقرآن إنّما يختصّ بأهل الاهتداء والايمان ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾[١٦٤/٣] دون الكفّار والمنافقين ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَايُؤْمِنُونَ﴾ [٦/٢].

ففائدة هذه البعثة والإرسال ونتيجة هذا الإنذار والإنزال أمّا بالنسبة إلى ذوي القلوب السليمة فبأن ﴿يَتلُو عَليهم آيَاتِه ويُزكّيهم وَيُعلّمَهمُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ﴾ ويرشدهم إلى سبيل الله ويهديهم إلى رضوانه وجنانه، ويبيّن لهم أحوال الآخرة وتوزيع الدرجات وتفاوت السعادات والشقاوات، ويشرح لهم الطاعات المنوّرات المقرّبات، والمعاصي المكدّرات المبعّدات،

ويعيّن لهم الحلال والحرام،ويوجب عليهم الواجبات،ويحرّم عليهم الخبائث والمحظورات،ويحلّ لهم الطيّبات،ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

وأمّا بالنسبة إلى القلوب القاسية والنفوس المؤفة الفسوقة المنكرة لرحمة الله،فبأن يكون لله حجّةٌ بالغة عليهم يوم القيامة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [١٦٥/٤] ولئلّا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ فقد جاءهم ﴿بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [١٩/٥] و ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [٤٢/٨].

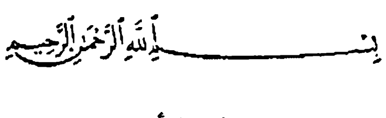
* * *

فإذا تمهّدت هذه المقدّمات ـ فاعلم أنّ سورة الجمعة مشتملة على أمّهات المقاصد الايمانيّة، محتوية على أصول الحقائق العرفانيّة: من معرفة الله سبحانه وحقيقة المبدأ والمعاد، وكيفيّة البعث والإرسال، والتعليم والإنزال، وماهيّة الكتاب والرسول، والهداية للعقول، فرأيت أن أرفع حجاب الإجمال عن آياتها وفصولها ، وأكشف قناع الغمّة عن وجه بيّناتها وأصولها، مضيفاً إلى ساير مارفعت الحجاب عن ألفاظها ومعانيها، وكشفت القناع عن أصولها ومبانيها من السُور والآيات والحجج والبيّنات.

وهذه المعاني والأسرار والرموز التي سنذكرها قطرة من بحرها الزاخر، ولمعة من بدرها الزاهر[٦]. قد أوردتها في مطالع وإشراقات هي أصول مسائل ربوبيّات و مباني[٧] قواعد إلهيّات.

وها أنا أشرع في الإفاضة بقوّة العزيز الحكيم:

(٦) الظاهر ـ نسخة. (٧) مبادي ـ نسخة.



المطلع الأول

في قوله سبحانه

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ
الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿ إشراق ﴾

جرّ هذه النعـوت لأنها تابعة للاسم المجرور. وفي الكشّاف: «قرئت صفـات الله تعـالى بالـرفع على المدح، كأنّه قيل: « هو الملك القدّوس ». ولوقرئت منصوبة لكان وجهاً كما قيل: الحمد لله أهل الحمد».

أي: يقـدّس الله وينزّهه ويمجّده كلّ ما في العلو والسفل والملكوت الأعلى والأسفل.

وإنما قال مرّة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ـ بصيغة الماضي ـ ومرّة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ـ بصيغة المضارع ـ ليكون تنبيهاً للناظر الخبير والأديب الأريب على دوام وقوع تنزيه عن صفات الموجودات المتغيّرات وعن سمات الممكنات الثابتات فيما سبق وفيما لحق، اي: سبّـح له سوابق الممكنـات ويُسبّـح له لواحق الكـائنـات ممّا في الأرض والسمـوات من جهـة أسبابها وعللها السابقة، وعوارضها ونتايجها اللاحقة.

﴿ إشراق ﴾

[الأسماء الحسنى في الآية الشريفة]

قد مرّ تفسير لفظ الجلالة في تفسيرنا لآية الكرسي.

والملك الحقّ: ماله وجود كلّ شيء ويفتقر إليه كلّ شيء[1] فإنّ مَن لايكون موجداً لكلّ ماسواه لم يكن له التصرّف في شيء واحد من الأشياء حيث شاء ومتى شاء وبأيّ وجه شاء. فلم يكن مِلكاً حقّاً لشيء، بل مع شركة من الغير وافتقار له إلى الغير، فكلّ مِلك حقّ يجب أن يكون موجد الكلّ وإله الجميع.

والقدّوس: هو المجرد المستغني في وجوده وحقيقته عن التعلّق والارتباط بغيره، سواء كان ذلك الغير فاعلاً له أو غاية أو مادة أو صورة أو موضوعاً أو عرَضاً أو جزء مطلقاً، وسواء كان التعلّق في الخارج أو في العقل كتعلّق وجود الشيء ذي الماهيّة بماهيّته، وكتعلّق النوع بجنسه أو فصله، أو تعلّق أحدهما بالآخر، فالله سبحانه مقدّس عن التعلّق بشيء من المبادي المقوّمة بسبب من الأسباب المحصّلة لاسبب به يحصل، ولاسبب له يوجدولامنه ولاعنه ولافيه ولامعه. لأنّ كُلاً من هذه الأُمور يسقط أوّليّته[2] ويصادم تقدّمه وإلهيّته، وهو مبدأ للأشياء ومنتهاها وأوّلها وآخرها وظاهرها وباطنها.

---

(١) + وفي كل شيء ـ نسخة.

(٢) اولويته ـ نسخه.

والعزيز بالحقيقة هو المتبرّي عن كلّ نقص وآفة، والمتمجّد عن كلّ قصور وشين، والممتنع عن أن يصل إلى نيل جلاله أفهام العاقلين ـ فضلا عن الغافلين، أو أن يدرك كنه جماله أنظار الموحّدين ـ فضلا عن أوهام الملحدين والمعطّلين.

والحكيم: العالِم الذي يعلم نظام الخير في الأشياء، ويضع الأشياء على وجه يؤدّي إلى غاياتها الذاتيّة، ويترتّب عليها وجوه المنافع، ويتخلّى عن الشرور والآفات بقدر الإمكان، وبالجملة على وجه يؤدّي المجموع إلى الخير المحض، والجمال المطلق، والكمال الأتم، والجلال الأرفع.

فالحكمة مفهومها متحصّل من علم تامّ وقدرة بالغة، إذ القدرة صفة تؤثّر وفق العلم والإرادة، وهي فينا من الكيفيّات النفسانيّة مصحّحة للفعل وتركه وقوّة على الشيء وضده، وتعلّقها بالطرفين على السويّة، فلاتكون تامّة لأنها فينا إمكان صرف وقوّة محضة، لأنّ مبادي أفاعيلنا الاختياريّة واردة علينا من خارج ـ كالعلم بالفائدة أو ما في حكمه، ثمّ الشوق، ثمّ الإجماع المسمّى بالإرادة والكراهة ـ وفيه تعالى هي الفعل مطلقاً، إذ لاجهة إمكانيّة فيه سبحانه وليست قدرته مندرجة تحت إحدى المقولات، بل هي نفس وجود ذاته وكونه بحيث يصدر عنه الموجودات لأجل علمه بنظام الخير الذي هو عين ذاته، فإذا نسبت إليه الممكنات من حيث أنّها صادرة عن علمه، كان علمه بهذا الإعتبار قدرة، وإذا نسبت إليه من حيث أنّ علمه كافٍ في صدورها، كان علمه بهذا الإعتبار إرادة، وإذا كانت الأشياء الصادرة عن علمه على غاية الإحكام والإتقان وخيريّة النظام، كان علمه بهذا الإعتبار حكمة.

﴿حكمة إشراقية عرشيّة﴾
[سريان التسبيح]

إنّ في القرآن نصوصاً قاطعة على سريان تسبيح الحقّ كسريان نور الوجود والشهود في جميع الموجودات حتّى الجماد والنبات، وعليه دلائل وشواهد عقليّة وكشفيّة، وأمارات وإشارات نقليّة وسمعيّة.

فمن الطريق الأوّل مسلكان:

الأوّل: إنّ كلّ موجود من الموجودات العالميّة دالّ لمن نظر وتأمّل فيه على وجود صانعه ووحدانيته وعلمه وإرادته وقدرته وحكمته؛ دلالة عقليّة واضحة. فهي كلّها مسبّحة مهلّلة محمّدة مكبّرة، إذ حقيقة التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد هي الشهادة على وحدانية الصانع وتنزيهه عن النقائص وإظهار عظمته وكبريائه،والدلالة على إلهيّته وقدرته، سواء كانت بالألفاظ أو بالذوات أو بالصفات، وسواء كانت الدلالة بوضع واضع وجعل جاعل،أو يكون وجود الدالّ عين كونه دالاّ بلا تخلّل وضع واضع وجعل جاعل.

فكلّ موجود بمنزلة كلام ناطق دالّ على تنزيهه تعالى وتقديسه، إذ يفهم منه وحدانيّته تعالى واتّصافه بصفات الكمال وتقدّسه عن سمات النقص والزوال. وأعلى المراتب في الشهادة والدلالة دلالة ذاته لذاته، وشهادة صفاته على ذاته وصفاته وأفعاله، ثمّ دلالة أفعاله عليها، وهم الملائكة المقرّبون، ثمّ النفوس الصالحون المقدسون ثمّ سائر المكوّنات، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [١٨/٣] وقوله:

﴿كُلٌّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٣].

المسلك الثاني: إنّ للحقّ تعالى معية ثابتة مع جميع الموجودات،وظهوراً خاصّاً منه في كل الهويّات، ليس كمعيّة جوهر مع جوهر، أو جوهر مع عرَض، أو عرض مع أحدهما، بل أشدّ من جميع المعيات حتّى معيّة الوجود مع الماهيّة، فلايكون ممازجاً و لامواصلا ولامغايراً ولامفاصلاً ولامتّحداً كاتّحاد موجود بموجود؛ ولاكاتّحاد ماهيّة متحصّلة بماهيّة متحصّلة. بل كما قال إمام الموحّدين ومقتدى العارفين،أمير المؤمنين عليه السلام: «مع كلّ شيء لابممازجة، وغير كلّ شيء لابمزايلة»[٤].

فكلّ موجود من الموجودات كقطرة في بحر وجوده، وذرّة متواصلة في إشراق ظهوره وشعاع نوره، فإذا كان الحقّ بجميع صفاته الكماليّة ونعوته الجماليّة والجلاليّة متجلّياً على جميع الأشياء، فلكلّ من الموجودات عينٌ شاهدة لأوصاف جماله، ولسان ملكوتيّ مسبّح مقدّس لنعوت كماله. فكلّ مافي السموات ومافي الأرض يسبّحه ويهلّله ويمجّده ويكبّره بجميع ألسنة ذاتها وقواها ومشاعرها وضمائرها وأسرارها وظواهرها وأطوارها، قولاً وفعلاً وضميراً واعتقاداً.

﴿إشارة حكمية﴾

قد تقرّر في أنظارنا الحكميّة وأسفارنا الإلهيّة أنّ جميع الموجودات متوجهّة نحو الحق تعالى طبعاً وإرادة وعقلا، وهذا المعنى مشاهَد في أكثر

(٣) إشارة الى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [١٧/٤٤].

(٤) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١.

المحسوسات الجوهريّة مثل بذر النبات في حركاته نحو الكمال، ونطفة الحيوان في تطوّراتها من حال إلى حال، وخلقة الإنسان في شؤناته من لدن كونه عقلا هيولانيّاً مهيّاً[٥] للاستكمال شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ مراتب الرجال الواصلين إلى درجة العقل المستفاد ـ بل الفعّال ـ ثمّ يترقّى في طور الولاية والقرب إلى أن يصل إلى الله العزيز المتعال.

وإذا ثبت هذا وتقرّر ظهر أنّ كلّ موجود على حسب وجوده عارف بربّه المتّصف بصفات الجمال، المنزّه من نقائص الإمكان والزوال، ومن عرف الله فلامحالة يسبّحه ويقدّسه وينزّهه بلسان الحال أو المقال أو الفعال، فكلّ موجود يسبّح بحمده إلّا من غلب عليه الوهم المغيّر لخلق الله.

هذا من سوانح هذا المقام فافهم واغتنم.

وأمّا الطريق الثاني:

وهو طريق الذين لايصدقون بالأشياء إلّا بمباشرة الحواسّ لاببرهان وقياس، فالمنقول من الآيات والأحاديث الدالّة على تسبيح الموجودات ـ حتّى الجمادات ـ كثيرة غير محصورة، فمنها ما أفصح الله [تعالى] عنه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [٢٢/١٨].

ومنها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [١٦/٤٨] فقد بيّن سبحانه أنّ

(٥) بتهيأ ـ نسخة.

ذلك التفيّؤ يميناً وشمالا سجود لله وعبوديّة وخضوع وصغار وذلّة لجلاله وجماله.

ومنها قوله تعالى متمماً لهذا المعنى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّموات وَمَا فِي ٱلأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي مَن يدبّ عليها[٦] ثمّ قال: ﴿وَهُمْ﴾ يعني أهل السموات والملائكة، يعني التي ليست في سماء ولا في أرض ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة ربّهم، ثمّ وصفهم بالخوف ليلعمنا إنهم عالمون بمن سجدوا له، ثم وصف المأمورين منهم إنّهم ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١٦/٤٩ ـ ٥٠].

ثمّ قال في حقّ الذين هم عند ربّهم: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَايَسْأَمُونَ﴾ [٤١/٣٨] أي لايملّون ولايفترون، كل ذلك للدلالة على أنّ العالَم كلّه في مقام الشهود والعبادة والعلم والشهادة ـ إلّا كلّ مخلوق له قوّة التفكّر، وليس إلّا النفوس الوهمانيّة الشيطانيّة والحيوانيّة خاصّة من أعيان نفوسهم لامن حيث هياكلهم وظلالهم، فإنّ هياكلهم وظلالهم كساير أعيان العالَم في التسبيح والتقديس والسجود. فأعضاء البدن كلّها مسبحة، ألا تريها تشهد على النفوس المسخّرة لها يوم القيامة من الجلود والأيدي والألسن والسمع والبصر وجميع القوى فالحكم لله العلي الكبير ـ.

وأمّا النفوس الوهميّة فهي مؤتمرة الشيطان، مغيّرة خلق الله عمّا فطر عليه،مليكة[٧] آذان الأنعام.

ومنها ما في الأدعية النبويّة ـ على الداعي وآله أفضل الصلوات ولهم أجزل الدعوات ـ: «إلهي أنت الذي سجد لك السماء والأرض، وسجد لك

---

(٦) عليها ـ نسخة.

(٧) متبكة ـ نسخة.

سواد الليل ونور النهار، وضوء القمر وشعاع الشمس، وحفيف الشجر ودويّ الماء».

وإنّما ذكر هذه الأُمور الضعيفة الوجود استظهاراً لتحقّق السجود والعبوديّة والشهادة والشهود لمباديها الجوهريّة الصوريّة ومقوّماتها النوعيّة النورية ـ فافهم واغتنم ـ.

﴿ إشراق عرشي ﴾

[حقيقة التسبيح ومراتبها]

حقيقة التسبيح وروحها تجريد الذات الإلهيّة عن علائق الأكوان وشوائب الحدثان والإمكان، وهذا لا يتحصّل إلاّ ممن كان له نحو من التجرّد والطهارة، فكلّ من كان أشدّ تجرّداً وأقوى براءة عن الموادّ الكونيّة،وأتمّ تخلّصاً عن الغواشي الدنياويّة؛ فهو أتمّ تسبيحا للحقّ، لأنّ كلّ أحد لا يعتقد شيئاً إلاّ بما في جوهره وذاته.

وهذه الحقيقة لها مراتب:

إحديها: مرتبة الذات الأحديّة الإلهيّة؛سبّوحٌ قدّوس ربُّ الملائكة والروح.

وثانيها[8]: تسبيح الملائكة المقرّبين والعقول المهيّمين، ولكلّ واحد منهم تسبيح واحد مشتمل على أعداد [الـ] تسبيحات التي دونه.

وثالثها: تسبيح الملائكة السماويّة، ولكلّ منهم تسبيحات متعدّدة حسب أعداد الدورات الأكريّة الفلكيّة الكوكبيّة،وأعداد الارتباطات

---

(٨) كذا. والظاهر: وثانيتها ... وثالثتها ...

والقـرانـات والأنظار والإتّصالات، وبالجملة حسب تكرّر الحوادث الماضية والآتية التي وقعت لكلّ كرة من الكرات، منسلكة كالسبحة في مسلك امتداد الأزمنة والاوقات

ورابعها: تسبيح الملائكة الأرضيّة والنفوس النطقيّة مع طبائعها وقواها الطبيعيّة السفليّة.

وخامسها: ذكر الأبدان والأبعاد مع أعضائها وأجزائها وكلّ واحد منها مسبّح وذاكر لربّه بلسان يخصّه، بل كل واحد لسان لذكر الحقّ وتسبيحه بوجه، كما ذكره صاحب فصوص الحكم بقوله: «فالكلّ ألسنة الحقّ ناطقة بالثناء عليه، بل إن شئت قلت: كلّ واحد تسبيح وذكر لربّه».

والعـالَم كلّه أيضـا من جهة الوحدة الطبيعيّة له كما أثبتها المحقّقون تسـبيح واحد وذكر مفرد لوصف جماله تعالى وجلاله، وسبحة واحدة بوجه آخر يوصف بها كماله تعالى وربوبيّته، وشخص مسبّح بوجه آخر، ولسان ذاكرٌ له بوجه آخر.

هذا باعتبار وحدته وإجماله، وأمّا باعتبار كثرته وتفصيله: فألسنة متعدّدة وتسبيحـاتٌ كثـيرة أو مثنيات ومسبّحـات حسب تعدّد الموجودات وتكثّر الممكنات، فإنّ كلّ طبيعة نوعيّة لها أفراد غير متناهية، فله مثالٌ عقليّ هو ربّ أصنافها الشخصيّة ونور ظلال أفرادها الماديّة، وهو الملك الهادي الملهم لها طريق الخير والكمال، الصارف عنها الآفة والشرّ والوبال. وذلك الملك المدبّر المربّي لها يسبّح الحقّ بألسنة تلك الأفراد كلّها كما أُشير إليه في الإشارات النبويّة والرموز الوَلوية.

وبهذا يستضحّ ويستكشف تسبيح الجمادات والنباتات بلامِرية، حيث

لكلّ نوع منها وجهٌ إلى الحق الأوّل، وهو طباعه التامّ وحقيقته الأصليّة، وهو المقوّم لأفراده، المتمّم لآحاده، بحيث يكون فعلها فعله، وذاتها ذاته، لأنّ نسبة أفراد كلّ نوع طبيعيّ متكثّر الأجسام متخالف الأصنام إلى مايدبّر أجسامها ويربّي أصنامها، نسبة البدن بما فيه من الأجزاء والقوى إلى النفس الناطقة، إلاّ أنّه لاينفعل ولايتأثّر منها كما تنفعل نفوسنا عن أبداننا وقواها مادُمنا في هذا العالَم.

فكما أنّ وجود البدن وقواه متّحدٌ مع وجود النفس، وأفعاله مستهلكة في أفعالها؛ فكذلك الحكم فيما أشرنا إليه.

وهذا الوجه في تسبيح هذه الموجودات قريب المأخذ ممّا ذكره بعض العارفين في تأويل هذه الآية، وهو قوله: المسبّح هو الروح المنبثّ في سائر الأرواح، والقائم بالصوَر والأشباح، وهو وجه الوجوه إلى الحقّ وسرّ الذوات المتنـوعة بتنوعات الخلْق، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ اِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [٨٨/٢٨] فـ «الهاء» في وَجهَه عائدة إلى الشيء الهالك الذي لايفني حقيقته بفناء قالبه الحسيّ وصورته الحسيّة، والروح هي المسبّحة الطائعة والمشاهدة السامعة، مستمرّة الحكم بذلك في الوجود، منها التسبيح والسجود حين الصَعق اللاحق بها في الآخرة حين يقول الله سبحانه ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلايجيبه أحدٌ لخمودها بالصعق الاُخروي، فيجيب نفسه بنفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [٤٠/١٦].

المطلع الثاني

في قوله سبحانه

هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

وفيه إشراقاتٌ شمسيَّةٌ وأنوارٌ قمريَّةٌ:

الأوّل في اللغة:

بعث في الأُميين ـ يعني أرسله في العرب،لأنّهم كانوا أُمّة أُميّة لاتكتب ولاتقرء ولم يُبعث إليهم نبيٌّ ـ عن مجاهد وقتادة ـ.

وقيل: يعني أهل مكّة، لأن مكة ـ شرّفها الله ـ تسمّى أُمّ القرى.

وعن بعض المحقّقين من أهل الكشف: إنّ الرسول يسمّى بالأُمّي لأنّه منسوبٌ إلى أُمّ الكتاب، أي اللوح المحفوظ، وبهذا الإعتبار تكون أُمّته أُميين ، فهو رسول مبعوث من الله في الأُميين مع كونه من جنس الآدميّين متعلّقا بقالب البشرّية المركّب من الماء والطين،ليمكن الوصول إليه والملاقات معه والإقتداء به والإستفادة من ذاته،بجهة الحصّة البشرّية والاستضائة من أشعّة عقله المنوّر بوسيلة المشاركة الحسيّة من ثقب أُصطرلابات الحواسّ والعقول،والإستماع لتلاوة آيات الله القرآنيّة منه في عالَم المخاطبة الكلاميّة والمقارعة الهوائيّة.

﴿ نور قمري ﴾

[خصائص النبي]

بعثتـه صلّى الله عليه وآلـه كونه مأموراً بإصلاح هذا النوع الآدمي بواسطة استجماعه لشرائط الرسالة الإلهيّة وخصائص السعادة الربانية، من أوصاف شريفة كثيرة، ونعوت كريمة غفيرة يشملها خصايص ثلاثة متعلّقة بروحه ونفسه وحسّه:

أمّا الأولى: ـ وهي أشرف الجميع ـ فكونه مطلّعاً على العلوم الإلهيّة، عالماً بحقائق الأشياء كما هي، من المبدأ الأعلى وملكوته العلوي والسفلي وحقيقة النفس بكلا جزئيها العلمي والعملي، وكلتا نشأتيها الآخرة والأولى، وأحوال الخلائق في تلك الدار ورجوع الكلّ إلى الواحد القهّار؛ علماً مستفاداً من إلهام الله بطريق الكشف الروحي والإلقاء السبّوحي. لابوسيلة التعلّم البشري والتعمّل الفكري.

وأمّا الثانية: فكونه ذا قوّة باطنيّة بها يتمثّل له الحقائق بكسوة الأشباح المثاليّة في العالَم المتوسّط بين العالَمين، بل يسري قوّته إلى الحسّ الظاهر، فهي تتشبّح له في هذا العالَم،فيشاهد الملك الملقي عياناً،ويسمع كلام الله منه كفاحاً. بعبـارات أنيقـة وألفاظ فصيحة دقيقة المعاني في غاية الفصاحة والسلاسة والنفـاسة، ويطلع بتعليمه وإلقائه على المغيبات الجزئيّة ويخبر عن الحوادث الماضية والآتية.

وأمّا الثالثة: فكونه ذا قوّة قويّة وبسطة شديدة بها يقهر على المعاندين والمنكـرين،ويتسلّط على أعداء الله وأوليائه الشياطين، وذا مصابرة على

الشدائد والامتحانات، واقتدار وتمكّن على تجهيز الجيوش وتثبّت في الحروب والمبارزات.

فمجموع هذه الثلاث من خاصية الرسالة. فأمّا آحاد هذه الخواصّ فقد يوجد في غير الأنبياء بوجه، فإنّ الأولى ممّا يتحقّق في الأولياء والحكماء، وضرب من الخاصيّة الثانية يوجد في أهل الكهانة والرهبانين، والثالثة قد تكون في الملوك الشديدة البأس والهمّة.

﴿إشراق شمسي﴾

[جامعية النبي للنشآت الثلاث]

جوهر النبي صلّى الله عليه وآله كأنّه مجتمع من ثلاثة أشخاص عظيمة كلّ منهم رئيس مُطاع في نوعه، فبروحه وعقله يكون ملَكاً من المقرّبين، وبمرآة نفسه ولوح ذهنه يكون فلكاً مرفوعاً عن أدناس العنصريين ولوحاً محفوظاً من مسّ الشياطين ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وبحسّه يكون ملِكاً من عظماء الملوك والسلاطين.

وتحقيق ذلك: إنّ النشآت ثلاث: نشأة الحسّ، ونشأة النفس، ونشأة العقل، والعوالِم ثلاثة بحسبها: عالَم الدنيا، وعالَم الآخرة، وعالَم الربوبيّة. والإنسان بحسب غلبة كلّ نشأة داخل في عالَم من العوالِم الثلاثة، فمن جهة حسّه ونفسه وروحه داخلٌ في هذه العوالِم إمّا بالقوّة أو بالفعل: فبحسّه من جملة الدنيا وتحت جنس الحيوانات، وبنفسه من جملة الملكوت الأسفل، وبروحه من جملة الملكوت الأعلى.

لكن الغالب على أكثر الناس نشأة الحسّ وموطن الدنيا إلاّ من

تاب و﴿آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾. [١٨/٨٨]

وأمّا جوهر النبوّة فله جامعيّة النشآت الثلاث لكونه كامل القوى الثلاثة الحسيّة والمثالية والعقليّة، فله السيادة العظمى والرئاسة الكبرى والخلافة الإلهيّة في العوالم كلّها، فهو شارعٌ ورسول ونبيّ، يحكم بالأول كالملك، ويخبر بالثاني كالفلَك، ويعلم بالثالث كالمَلَك. فافهم واغتنم.

﴿ إشراق آخر ﴾

[الاستكمال العلمي النبوي]

إمتنانه تعالى على الأمّة بأنّ الرسول صلّى الله عليه وآله منهم كما يدلّ عليه قوله: ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [٩/١٢٨] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [٦/١٣٠] للإشعار بأنّ هذه المرتبة الشريفة النبويّة من المراتب التي قد بلغت إليها النفس الإنسانيّة عند استكمال قوّتيها بالعلم والطاعة، وهي ممّا حصلت للنفس المحمّدية ـ عليه وآله الصلوة والتحيّة ـ بالإصالة، ولخواصّ أمّته وأولياء الله بالوراثة والتبعيّة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [٣/٣١] وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [٤/٦٩].

وفي الحديث: «العلماءُ ورثة الأنبياء»[١].

(١) ابي داود: كتاب العلم، الباب ١ ج٣ ص ٣١٧. الكافي: كتاب فضل العلم، باب صفة العلم .. ج١ ص ٣٢.

وعنه صلّى الله عليه وآله: «إنّ في هذه الأمّة محدَّثون متكلّمون»[٢].

وعنه صلّى الله عليه وآله أيضا: «إنّ لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء»[٣].

وعنه صلّى الله عليه وآله أيضا: «علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل»[٤].

وفي الرواية: «قلب المؤمن عزلي»[٥].

فأنت أيّها العالِم ـ مالم يكن علومك مقتبسة من مشكوة النبوّة فلست بعالِم بالحقيقة، بل بالتسمية المجازيّة، لدلالة قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ بحسب مفهوم العكس على ذلك فافهم.

ومن لم يكن هاشمياً بأن تكون ولادته المعنويّة ـ المعبرُ عنها عند الصوفيّة بـ «الفتح» ـ من جهة نسبته[٦] صلّى الله عليه وآله لها بإعطاء صورَ المعارف الايمانيّة لمادّة عقله،فليس مؤمناً حقيقيّاً، لأنّ المؤمن الحقيقي من يكون روحه وليد القدس، ويكون الرسول صلّى الله عليه وآله أبوه المقدّس،بأن يحصل في مادّة عقله الهيولاني التي بمنزلة التراب صورة اعتقاديّة ايمانيّة بمنزلة صورة النطفة الآدميّة، قابلة للتربية والتنمية بأغذية المقاصد العلميّة والمطالب القرآنيّة، وأشربة الأعمال والأفعال الشرعيّة، ونحن قد بيّنّا شرح هذه الولادة في مقامه.

فالمؤمن الحقيقي من يكون من أهل بيت الرسالة الإلهيّة،متشبّهاً في

---

(٢) مكلمون ـ نسخة.

(٣) راجع المسند: ج٥ ص ٣٤١ و ٣٤٢ و ٣٤٣: ليسوا بانبياء ولاشهداء.

(٤) في جامع الأخبار: باب العلم: «علماء امتى كسائر الانبياء قبلي».

(٥) لم أجد الرواية. ويحتمل كونه مصحف «عرشي» او «عرش لي».

(٦) نسبيه ـ نسخة.

أخلاقه بأخلاق أبيه المقدّس، وقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ﴾ [٧٨/٢٢] وقوله في حقّ نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [٤٦/١١] ينوّر ماقرّرناه، وقوله عليه السلام: «واشوقاه إلى لقاء الأشباه» يعطي ماذكرناه.

﴿ إشراق آخر ﴾

[فائدة البعثة]

فائدة البعثة فائدة جسيمة، ونتيجة الرسالة التي قد منّ الله بها على المؤمنين في هذه الآية وغيرها منّة عظيمة، كقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً﴾ [١٦٤/٣] هي إنّه صلّى الله عليه وآله ﴿يَتلُو عَلَيهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُم ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ويبيّن لهم أحوال الآخرة ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ [وَيُحَرِّمُ عَلَيهِم ٱلخَبَائِثَ] وَيَضَعُ عَنْهُم إِصرَهُم وَالأَغْلاَلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيهِمْ﴾ [١٥٧/٧] لأجل جهالة اليهوديّة وبلاهة النصرانيّة: اللتين كانتا مركوزتين في النفوس بحسب إفراطها وتفريطها في الصفات والأعمال، وخروجها في التشبيه والتنزيه عن جادّة الإعتدال، الذي يكون لهذه الملة[٧] البيضاء والشريعة الغرّاء ـ على الصادع بها وآله أفضل تسليمات الله تعالى كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾وقوله في سورة يس : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [٦/٣٦].

وكأنّ قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ عطف تفسيريّ لقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ وشرح له وبيان حاصل الأثر[٨] في تلاوة الآيات

---

(٧) الامة ـ نسخة. (٨) الامر ـ نسخة.

على سبيل الإجمال، فإنّ الغرض الأصلي من بعثة الرسول وتلاوة الآيات على العقـول سياقتهم إلى رضـوان ربّهم وهدايتهم إلى جواره الأطهر وملكوته الأنور. وهي إنّما ينوط بشيئين:

أحدهما: إصلاح الجزء العملي من الإنسان بالتصفية والتهذيب، وثانيهما: تكميل جزئه العلمي بالتصوير والتقريب.

فالقرآن المنزل على سرّ النبي صلّى الله عليه وآله أوّلا، وعلى قلوب اُمّته ثانياً ـ يجب أن يكون مشتملا على اُمـور ثلاثة:

الأوّل: في الحكمة العمليّة المبيّنـة للأفعال والأعمال، الشارحة للأخلاق والآداب، المفيدة للعبـد قطع تعلّقـه عن الأسباب وترك التفاته إلى الدنيا ومافيها،ورفع الغشاوات والحجب عن وجه قلبه بالكلية. وهذه الأحكام[٩] العمليّة والمعالم الأدبيّة تثبت في القرآن على أبلغ وجه وآكده،كما أشار إليه صلّى الله عليه وآله بقوله: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[١٠].

الثاني: في الحكمة العلمية والمعارف التي يبلغ إليه عقول العلماء والحكماء بقوّتهم الفكريّة بتعليم الأنبياء والأولياء عليهم السلام إيّاهم.

وهـذان القسـمان من العلوم والمعارف التي يقع فيه الإشتراك لساير الكتب السـماويّة مع القرآن، لكن يكون ما في القرآن أوثقها برهاناً وأجلّها شأناً،وأرفعها رتبة،وأعلاها مأخذاً،وأقومها غاية، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [٩/١٧] وبقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [٤/٢٦] وقوله: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرِيةِ﴾ [٥/٤٦].

---

(٩) الاعمال ـ نسخة.

(١٠) مجمع البيان: ج٥ ص ٣٣٣. الجامع الصغير: ج١ ص ١٤.

الثالث: في الحكمة التي لايبلغ إلى طورها إلّا المُخلّص من أحبّاء الله وأوليائه الصالحين، وهي المشار إليها في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٤١/٥٣] وهذه الحكمة من خواصّ المحبوبين لله، كما أنّ الحكمتين الأولين من خواصّ المحبّين لله وإليهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [٥/٥٤].

وفي الحديث الإلهي: «لايزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحببته ـ الحديث ـ»[١١].

﴿ تأييد عرفاني ﴾

[مراتب الايمان]

إنّ مراتب الايمان ثلاث مرتبة العوام، ومرتبة الخواصّ وهم المحبّون، ومرتبة الأخصّين وهم المحبوبون.

ولكلّ من هذه المراتب الثلاث علم وعمل:

فمرتبة العوام: أمّا من جهة العلم فهي أن يؤمن بكلّ ماجاء به النبيّ صلّى الله عليه وآله على سبيل التسليم والطمأنينة القلبيّة ايماناً بالغيب. وأمّا من جهة العمل فبأن يفعل الحسنات ويترك المعاصي والسيّئات طلباً لجزيل الثواب وتخلّصاً عن أليم العقاب[١٢].

وأمّا مرتبة الخواصّ : من حيث العلم فهي أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وأوليائه،وبالبعث بعد الموت، وبالجنّة والنار، وبالقدَر خيره وشرّه ـ كما

---

(١١) التوحيد: ص ٤٠٠. البخاري: ج٨ ص ١٣١. (١٢) العذاب ـ نسخة.

ورد في الحديث[١٣] ـ ويعرف هذه المعارف الايمانيّة والاعتقادات الأركانيّة كلّها بالبراهين النيّرة القدسيّة والمبادىء الإلهيّة.

وأمّا مرتبتهم من حيث العمل: فهي أنّ الله تعالى إذا تجلى لعبد بصفة من صفاته خضع له جميع أجزاء وجوده وتبعه قواه ومشاعره، وآمنت بالكليّة بعد ماكان قلبه يؤمن بالغيب ونفسه تكفر بما آمن به قلبه إذا كانت النفس عن تنسيم روائح الغيب بمعزل، كما أُشير إليه في الكتاب: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: جبل القلب ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى﴾ أي: موسى النفس ﴿صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ بعد رفع الحجب قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٤٣/٧]. وفي قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أسلم شيطاني على يدي»[١٤] تنبيه على هذا ـ فانتبه يامسكين وانزعج من مرقد النائمين.

وأمّا مرتبة الأخصين: فهي من حيث العلم والعمل إنّما تكون بعد رفع حجب الأنانيّة بتجلّي الحقّ بالصفات التمجيديّة والنعوت التقديسيّة، فإذا أفناه عنه بصفة الجلال يبقيه بصفة الجمال،ويعيد إليه عقله وسمعه وبصره، فلم يبق له الأين والبين،وبقي في العين، فيشاهد بنور الحقّ جميع الحقائق العينيّة وينفذ نورُ بصره في أعيان الملك والملكوت،والخلق والأمر.وفي هذه المرتبة يكون العلم والعمل شيئاً واحداً.

---

(١٣) في التوحيد: باب القضاء والقدر، ص ٣٨٠: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لايؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومرّه».

(١٤) مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار ج١٧ ص ١٥٧: «قال النبي صلّى الله عليه وآله مامنكم إلا وله شيطان. قالوا: وأنت يارسول الله؟ قال: وأنا، إلا أنّ الله أعانني عليه فأسلم على يدي، فلايأمرني إلا بخير».

والأيمان في المرتبة الأولى غيبي وفي الثانية عينيّ، وفي الثالثة عيانيّ.

وهذا كما كان حال النبي صلّى الله عليه وآله ليلة المعراج،فلمّا بلغ السدرة كان بعد في حيّز الأين، فلمّا جذبته العناية من الأين إلى العين ﴿فَأَوحَىٰ اِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوحَىٰ﴾ وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿آمنَ ٱلْرَسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَبِّه﴾[٢/٢٨٥] ـ أي: من صفات ربه وأفعاله ـ فآمنت ذاته بذاته، وصفاته بصفاته، وأفعاله بأفعاله. فصار كلّ وجوده مؤمناً بالله ايماناً عيانيّاً.

وفي هذا المقام أسرارٌ عظيمة لايحتمله العقول المجرّدة؛ فضلا عن العقول الملابسة المغشّاة بغشاوة الوهم والخيال، ويشمئزّ عنه طبائع أهل التقليد والجدال.

اللهّم لاتجعل هذه الكلمات مضلّة الجهّال والأرذال، واجعلها سبباً لزيادة بصيرة أهل الكمال، وموجبة لإنارة قلوب الرجال، الذين لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله العزيز المتعال.

﴿ إشراق ﴾

[مايختص بالقرآن من بيان مراتب الايمان]

إنّك إذا علمت ماذكرناه من اشتمال القرآن على هذه المراتب الثلاث من الايمان، وعلمت اشتراك سائر الكتب السماويّة معه في المرتبتين الأولين واختصاصه بالمرتبة الأخيرة، فقد أحطت علمًا بأنّ إنزال القرآن بمافيه إكمال للدين وإتمام لنعمة الله على المؤمنين، وتحقّقت بمعنى قوله تعالى: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الآية [٥/٣] ـ أي: جعلت الكماليّة في الدين من الأزل نصيباً لكم من جميع أهل الملل والأديان، وأتممت

عليكم نعمة الايمان العياني بإظهار دينكم على الأديان كلّها في الظاهر والحقيقة جميعاً، ورضيت لكم الإسلام ديناً به تجازون وتثابون،وبه تعاملون وتناكحون، فإنّ الإسلام في هذه الأمّة دين وطريق به يوصل إلى الايمان الحقيقي، وهو بمنزلة الايمان من سائر الأمم مع زيادة كمالية لم تكن حاصلا من قبل لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْاِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه﴾ [٨٥/٣].

وذلك لأنّ حقيقة الدين هي سلوك سبيل الله عزّ وجلّ بقدم الخروج عن هذا الوجود المجازي للوصول إلى الوجود الحقيقي،والإنسان مخصوص به من سايرالموجودات، ولهذه الأمّة اختصاص بالكمالية في السلوك من بين ساير الأمم.

فالدين من عهد آدم صفيّ الله كان في التكامل بسلوك الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ سبيل الحقّ إلى عهد نبيّنا صلّى الله عليه وآله فسلك النبي صلّى الله عليه وآله جميع المسالك التي سلكها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الماضون بأسرهم، فلم يتحقّق له الخروج أيضا بقدم السلوك في الحركات الباطنيّة من الوجود المجازي بالكليّة، حتّى تداركته العناية الأزليّة لاختصاصه بالمحبوبيّة من بينهم،فبلغ في القُرب إلى الكمالية في الدين، وهو سرّ ﴿أَو أدنَى﴾ فاستعدّ لسعادة الوصول إلى الوجود الحقيقي بالايمان العياني بعد الايمان العيني والغيبي جميعاً ـ وهو سرّ ﴿فَأَوحَىٰ إِلَىٰ عَبدِهِ مَا أَوحَىٰ﴾ في الحقيقة قيل له في هذه الحالة ﴿أَكمَلْتَ لَكُم دِينَكُم وأَتممت عليكُم نِعمتي﴾.

ولكن في حَجّة الوداع عند وقوفه بالجحفة أظهر على الأُمّة عند

إظهاره على الأديان كلّها وظهور كمالية الدين بنزول الفرائض والأحكام بالتمام،وتعيين الخلافة ونصب الإمامة[١٥] لعلي عليه السلام،والتنصيص عليه بإمامة المسلمين وإمرة المؤمنين.

وممّا يدلّ على ذلك مشاهدة النبي صلّى الله عليه وآله الأنبياء عليهم السلام في مقامات ملكوت السماء بحسب درجات قربهم إلى الله تعالى وصعوده صلّى الله عليه وآله عن جميع مقاماتهم إلى سدرة المنتهى ثمّ إلى الغاية القصوى.

وكذا ماورد في الحديث عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «مثَلي ومثَل الأنبياء من قبلي كمثَل رجل ابتنى بيتاً، فأحسنها وأجملها وأكملها إلاّ موضع لَبِنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: إلا وضعته هيهنا لَبِنة فتمّ بنائه؟ فقال: صلّى الله عليه وآله فأنا اللَّبِنة»[١٦] يصحّح ماذكرناه وينوّر ماقرّرناه من مقامات الأنبياء وتكامل بنيان الدين بهم وكماليّته بالنبي صلّى الله عليه وآله،وخروجه عن هذا الوجود المجازي بالكليّة، وتبعيّة خواصّ أُمّته الذين هم خير أُمّة أُخرجت للناس،لأنّهم أخصّ خواصّ هذا النوع.

ويدلّ على هذا المعنى أيضا: «إنّ الأنبياء كلّهم يوم القيامة يقولون نفسي نفسي، والنبي صلّى الله عليه وآله يقول: أُمّتي أُمّتي»[١٧] لفناء الوجود وبقائه بالحقّ الودود. فافهم جدّاً.

(١٥) الامام ـ نسخة.

(١٦) البخاري: باب المناقب ج٤ ص ٢٢٦. المسند: ج٢ ص ٢٥٦ و ٣٩٨ و ٤١٢ وجاء في أكثر الصحاح راجع المعجم: ج٦ ص ٨٨.

(١٧) راجع الترمذي: صفة القيامة الباب:١٠ ج٤ ص ٦٢٢.

﴿ نور قمري ﴾

[الحكمة وتقسيمها]

المراد من الحكمة في هذه الآية إمّا العلم الصحيح، وإمّا الفعل الصواب، كما أنّ إطلاق الإنسان إمّا على الروح أو على البدن. والروح أيضا ذا وجهين: وجهٌ إلى القدس وعالَم الآخرة، ووجهٌ إلى البدن وعالَم الدنيا. والعلم لتكميل الوجه الأوّل، والعمل لتكميل الثاني على وجه يؤدّي نفعه إلى تكميل الأوّل، ونفس العمل لنفس البدن.

ويروى عن مقاتل إنّه قال: تفسير الحكمة في القرآن يقع على أربعة وجوه:

أحدها: مواعظ القرآن: ففي النساء: ﴿وأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [١١٣/٤] ومثلها في آل عمران. [١٦٤/٣].

وثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم، قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ [١٢/١٩] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [١٢/٣١] يعني الفهم والعلم، وفي الأنعام: ﴿أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ﴾ [٨٩/٦].

وثالثها: الحكمة بمعنى النبوّة، وفي ص: ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني النبوّة وفي البقرة: ﴿وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [٢٥١/٢].

ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، وفي النحل: ﴿أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [١٢٥/١٦] ﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [٢٦٩/٢].

وأنت - ياحبيبي - إذا تأمّلت في جميع هذه الوجوه الأربعة وجدت

مرجعها جميعاً إلى العلم، بل لو نظرت في جميع موارد استعمالات لفظة الحكمة لم تجده خارجاً عن العلم بحقائق الأشياء والعمل بموجبها ـ وهو التجرّد عن الدنيا ومافيها ـ ولهذا قيل في حدّها: «إنّها التخلّق بأخلاق الله» أي: في الإحاطة بصورَ المجرّدات والتقدّس عن الماديّات.

وإليها الإشارة في الحديث عنه صلّى الله عليه وآله من قوله: «تخلّقوا بأخلاق الله» أي: تشبّهوا به في هذين الأمرين.

ثمّ اعلم إنّ الحكمة لايمكن خروجها من هذين المعنيين، وذلك لأنّها كمال الإنسانيّة بلاشبهة، وكمال الإنسان منحصرٌ في شيئين: أحدهما أن يَعرف الخير لذاته. والثاني أن يَعرف الخير لأجل العمل به. فالمرجع بالأوّل إلى العلم والإدراك المطابق، وبالثاني إلى الفعل العدل.

وكمال هذين الأمرين في نوع الإنسان مرتبة النبوة والولاية، وقد حكى الله عن إبراهيم الخليل وهو شيخ الأنبياء عليهم السلام إنّه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ وهو الحكمة النظريّة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ﴾ [٢٦/٨٣] وهو الحكمة العمليّة.

ونادى موسى ربّه فقال: ﴿إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَاإِلٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ وهو الحكمة النظريّة، ثمّ إنّه قال: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ [٢٠/١٤] وهو الحكمة العمليّة.

وقال عيسى عليه السلام كما حكى الله عنه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ﴾ ـ الآية ـ كلّ ذلك الحكمة النظريّة، ثمّ قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِٱلصَّلٰوةِ وَٱلزَّكٰوةِ مَادُمْتُ حَيّاً﴾ [١٩/٣١] وهو الحكمة العمليّة.

وقال الله سبحانه آمراً برسوله الخاتم وحبيبه صلّى الله عليه وآله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَاإِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهو الحكمة النظريّة، ثمّ قال ﴿وَٱسْتَغْفِرْ

لِذَنْبِكَ﴾ [١٩/٤٧] وهو الحكمة العمليّة. لأنّ علم التوحيد لايحصل بكماله إلاّ بعد الإطّلاع على جميع أبواب الحكمة النظريّة، والعمل الخالص من شوب أغراض النفس لايتيسّر إلاّ بأن يكون الإنسان حكيماً عارفاً بأنّ ماعند الله خير للأبرار.

وقال في حقّ جميع الأنبياء: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَاإِلٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ وهو الحكمة النظريّة، ثمّ قال﴿فَٱتَّقُونِ﴾ [٢/١٦] وهو الحكمة العمليّة. والقرآن مملوّ من الآيات الدالّة على أنّ كمال الإنسان ليس إلاّ في تكميل هذين الجزئين من النفس بهاتين الحكمتين.

وقال أبو مسلم: الحكمة «فِعْلَة» من «الحُكم» كالنِحلَة من النحل. ورجل حكيم: إذا كان ذا حِجى ولبّ وإصابة رأي، وهو في هذا الموضع في معنى الفاعل. ويقال: أمرٌ حكيم، اي: مُحكَم. وهو «فعيل» بمعنى مفعول، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [٤/٤٤].

وهذا الذي ذكره أبو مسلم من اشتقاق اللغة يناسب ماذكرناه من معناه الحقيقي.

﴿ إشراق ﴾

[معلم الحكمة ومفيضها]

اعلم إنّ معلّم الحكمة غير مُفيضها وموجدها في النفس ومخرجها من القوّة إلى الفعل، وذلك لأنّ القواطع البرهانيّة دالّة على أنّ فيّاض المعارف على النفوس هو الله سبحانه باستخدام بعض ملائكته العلوية البريئة من

كلّ وجه عن القوّة والإستعداد وملابسة الأجسام والموادّ، كما أنّ الباري جلّ مجده مبرء من جميع الوجوه عن الإمكان وملابسة الماهيّات؛ لأنّه محض وجوب بلاإمكان ووجود بلا ماهيّة. فالمنذر والمعلّم هو النبيّ صلّى الله عليه وآله،والله الهادي لمن يشاء، الفيّاض على قلوب عباده بصور الأشياء كما يدلّ عليه قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[٢/٢٧٢].

وتوضيح ذلك إنّ الحكمة إن فسّرناها بالعلم لم يكن من العلوم الضروريّة، لأنّها حاصلةٌ للبهائم وعامّة الناس والمجانين والأطفال، وهي لاتوصف بأنّها حكماء، فهي لامحالة مفسّرة إمّا بالعلوم النظريّة مطلقاً، أو بصفة تكون مبدء الأفعال الحسنة نظراً إلى قسميها، فإنّ الغاية في أحد قسميها نفس تلك العلوم، وفي الآخر تحصيل الخُلق الجيّد والملكة الملكية، وعلى أيّ التقديرين فيلزم أن تكون صورة العلوم النظريّة ومنشأ الأفعال الحسنة حادثة[١٨] في نفس الإنسان،واردة عليه من خارج، فيكون حصولها في نفسه بتأثير مؤثر خارج عن ذاته، إذ الشيء لا يتأثّر عن نفسه، وأيضا: لايكون الشيء أشرف من ذاته وأعلم منها.

فذلك المؤثر الخارجي يجب أن يكون عليمًا حكيمًا عاقلا بالفعل لابالقوّة، وإلّا لافتقر أيضا إلى مايُخرجه من القوّة إلى الفعل ومن النقص إلى الكمال، وهكذا حتّى يلزم وجود العقل الفعّال المبدء للاستكمال دفعاً للدور والتسلسل، والمبدء الفعّال للكلّ هو الذات الإلهيّة البريئة عن شوب الإمكان والزوال بالكليّة.

فقد ثبت أنّ الحكمة نورٌ فائض من الحقّ الأوّل على قلب من يشاء من

(١٨) عادماً ـ نسخة.

عباده، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يشير إلى أنّ ما يفيضه ويؤتيه لخواصّ عباده رشحة من رشحات بحار علمه ولمعةٌ من لمعات أنوار حكمته اللامتناهية.

تنبيه

تأمّل - أيّها العارف - إنّ الله تعالى ما أعطى لعباده إلّا القليل من العلم، لقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [٨٥/١٧] وسمّى الدنيا بحذافيرها قليلا: ﴿قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [٧٧/٤].

ثمّ قال في العلم الموهوب لعباده: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [٦٢/٤] و قال أيضاً: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [٢ / ٢٦٩] فانظر كم مقدار هذا القليل،حتّى تعرف عظمة ذلك العظيم الكثير.

والبرهان العقلي أيضا يطابقه، لأنّ الدنيا بأسرها متناهية المقدار ومتناهية العدد ومتناهية المدّة، والعلم لانهاية لمراتبه وعدده ومدّة بقائه والسعادات الحاصلة منه،وذلك دالّ على فضيلة الحكمة.

﴿ وهم وإزاحة ﴾

[لاتدل الآية على مذهب الجبر]

استدلّ صاحب التفسير الكبير بمثل هذه الآية وبمثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه.

وذلك الاستدلال فاسد، فإنّ الحكمة نورٌ من أنوار الله وهي ليست من

فعل العبد أصلا، وإن كان حصوله وفيضانه من الله ممّا يتوقّف على تصفية بيت القلب بمكناس الرياضة وتطهيره بإزالة الأوهام الباطلة وإزاحة العقائد الفاسدة بالتأمّلات والتفكّرات الموافقة لصورة الحقّ، وهي من جملة الحركات الإختياريّة النفسيّة والأعمال البشرية القلبية المعدّة لورود أشعّة نور الله تعالى[19]، ولااختيار للعبد إلّا في مثل ماذكر، وأمّا في وقوع نور الحكمة في قلبه فذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء لااختيار لأحد فيه، إلّا أنّ الغالب عدم تخلّف ذلك النور عن قلب العبد المجاهد الصبور مع شرائط الحضور.

اللهمّ إلّا أن يفسرّ الحكمة بنفس الأفعال الحسنة وهو ليس بصحيح، وإلّا لكان كلّ فعل حسَن حِكمة، وكلّ فاعل يفعل فعلا حسَنا حكيمًا ـ وإن كان من المجانين والسفهاء ـ.

بل المراد من الحكمة ـ كما وقعت إليه الإشارة ـ إمّا نفس العلوم الحقيقيّة أو الخُلق الذي هو منشأها، أو الملكة الصادرة منه الأفعال على وجه الصواب، وعلى أيّ وجه من هذه لم تكن الحكمة من الأفعال البشريّة، بل تكون إمّا من الكيفيّة النفسانية، أو الجوهر المفارق ـ تأمّل ـ.

فتلك الآية وأمثالها مادلّت إلا على أنّ الحالة النفسانيّة مخلوقة للحقّ ولانزاع لأحد من أهل الكلام فيها، ولادلالة فيها على أنّ الأفعال البشريّة مخلوقةٌ له تعالى من غير أختيار للعبد فيها.

وتحقيق هذه المسئلة العظيمة التي فيها مزلّة الأفهام ومزلقة الأقدام ممّا يحتاج إلى بسط في الكلام لايليق بهذا المقام.

وظنّي أن لاثلمة في الإسلام أكثر ممّا وقع من جهة الإفراط والتفريط في

---

(١٩) انوار الله تعالى ـ نسخة.

هذا المرام، فكم من مقصّرٍ وغالٍ فيه، وما أشدّ سخافة ماذهب إليه أصحاب أبي الحسن من الإعتقاد بخلق الأفعال في العباد على الوجه الذي صوّروه وتصوّروه واعتقدوه، إذ بها ينسدّ أبواب المعرفة والحكمة وينفسخ الإعتقا دات البرهانيّة ويبطل الغايات والنتائج العقليّة المبتنية كلّها على إثبات الترتيب والعليّة والمعلوليّة بين الموجودات ووجود سلسلة الأسباب المؤدّية إلى الغايات.

وأمّا ماتنوّر به قلوب المهتدين بأنوار حكمة الأنبياء، وذهب إليه المحقّقون من أكابر الحكماء من كون الوجود على الاطلاق فائضاً من الحق على كلّ موجود؛ لابالإتّفاق - بل بترتيب لازم واستحقاق ثابت؛ فما تقدّم متقدّم ولاتأخّر متأخّر إلّا بقضاء سابق وقدَر لاحق - فهو الحقّ الذي لامحيد عنه، وهو معنى التوحيد في الأفعال مع إثبات الحكمة والمصلحة والنظام من غير اختلال.

وتحقيق هذا فوق مايصل إليه أذهان الأشاعرة وأهل الاعتزال - فسبحان من تنزّه عن الفحشاء، وسبحان من لايجري في ملكه إلّا مايشاء.

﴿ بحث وتحصيل ﴾

[المقصود من الحكمة ليس القرآن أو النبوة]

فإن قيل: لِم لايجوز أن يكون المراد من الحكمة المستعملة في عدّة مواضع من القرآن إمّا النبوّة أو القرآن، أو قوّة الفهم أو الخشية - على ماهو قول الربيع بن أنس ؟

قلنا: الدليل المذكور يدفع هذه الاحتمالات، لأنّه ثبت بالنقل المتواتر أنّه يستعمل لفظ الحكيم في غير الأنبياء، فيكون الحكمة مغايرة للنبّوة

والقرآن، ولو كانت بمعنى قوّة الفهم لكان كل قويّ الفهم حكيماً، وكذا لو كانت بمعنى الخشية لكان كلّ خاشٍ حكيماً، وليس كذلك.

وأمّا الخشية الكاملة التي لاتتحقّق إلاّ في الحكماء كما يدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ [٣٥/٢٨] فهي أيضا من لوازم الحكمة وليست نفسها، لانهامعلّلة بالعلم والحكمة كما يدلّ عليه تعليق الحكم بالوصف.

ثمّ إنّ الخشية الموجودة فيهم ليست خشية العقاب، بل خشية القرب، فكيف تتحقّق إلا بعد المعرفة التامّة والحكمة الكاملة، فمن فسّر الحكمة بالخشية فكأنّه أراد به تفسيرها باللازم الأعمّ أو المساوي . ـ فافهم ـ.

المطلع الثالث

في قوله سبحانه

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

وفيه ظلال عرشية وإشراقات فرشية:

﴿ظلّ فرشي﴾

في الإعراب

قوله: «وآخَرين» صفةٌ لمجرور معطوف على الأُميّين، يعني إنّه بعث في الأُميّين وفي من يجيء بعدهم إلى يوم الدين.

وفي الكشّاف: «يجوز أن ينتصب عطفاً على المنصوب في «يُعلّمهم»، أي: يعلّمهم ويعلّم آخرين» ووَجّه ذلك بأنّ «التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كلّه مستنداً إلى أوّله، فكأنّه هو الذي تولّى كل ماوجد منه».

واعلم أنّ هذا الوجه الذي ذكره في كون النبيّ صلّى الله عليه وآله معلّما لكلّ من يجيء إلى يوم القيمة ـ وإن كان موجّها على طريقة أهل الحجاب وأرباب العقول النظريّة وحملة الكتاب، كقول أصحاب الحكمة الرسميّة في أرسطو:إنّه معلّم أوّل لمن يجيء بعده من أتباع المشّائين من الفلاسفة ـ إلّا أنّ أصحاب العيون المكحلة بأنوار الاهتداء، العارفين بحقيقة خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله يرون ببصيرتهم السليمة عن غشاوة الامتراء أنّ إمداد روحه وسرّه نافذ في تقويم أرواح من لحَقه من الأولياء والعلماء إلى قيام المهدي عليه

السلام، بل في أرواح من سبقه زماناً من الأنبياء والحكماء من وقت آدم من جهة السبب الباطني الفاعلي والغائي جميعاً. وقد بيّن هذا في موضعه.

﴿ إشراق ﴾

المراد من الآخرين قيل: هم الذين لم يلحقوا بالأمّيين بعد،وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة من التابعين.

وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة، فإنّ الله سبحانه بعث النبيّ صلّى الله عليه وآله إليهم، وشريعته تلزمهم وإن لم يلحقوا بزمان الصحابة ـ عن مجاهد وابن زيد ـ.

وقيل: هم الأعاجم ومن لايتكلّم بلغة العرب، فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله مبعوثٌ إلى من شاهده، وإلى كلّ من بعدهم من العرب والعجم ـ عن ابن عمر وسعيد بن جبير. وهو المرويّ عن أبي جعفرعليهاالسلام[1] ـ.

وقيل: لّما نزلت هذه الآية، قيل: مَن هم يارسول الله؟ فوضع يده على كتف سلمان وقال: «لو كان الايمان في الثريّا ليناله رجال من هؤلاء»[2].

وعلى هذين الوجهين فإنّما قال: «مِنهُم» لأنّهم إذا أسلموا صاروا منهم، كما قال: «المسلمون كلهم يد واحدة على مَن سواهم وأُمّة واحدة وإن اختلفت أنواعهم»[3]. وكما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ اوْلِيَاءُ

---

(١) مجمع البيان في تفسير الآية: ج٥ ص ٢٨٤.

(٢) في الكشاف: لنالته. مجمع: لتناوله. راجع البحار: ج١ ص ١٩٥.

(٣) جاء الحديث في أكثر الاصول بألفاظ مختلفة: المسند: ج٢ ص ١٨٠ «... والمسلون يد على من سواهم تكافأ دماؤهم يجيز عليهم أدناهم...».

بَعْضٍ ﴾ [٧١/٩] ومن لم يؤمن بالنبي صلّى الله عليه وآله فإنّهم ليسوا ممّن عناهم الله بقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ وإن كان مبعوثاً على كافّة الخلق بالدعوة، وبقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فإنّ من لم يؤمن لم يكن ممّن زكّاه الله تعالى وعلّمه القرآن والحكمة.

وقيل: إنّ قوله لمّا يلحقوا بهم ـ يعني في الفضل والسابقة، فإنّ التابعين لايدركون سيادة السابقين من الصحابة وخيار المؤمنين ـ تأمّل ـ.

﴿ إشراق عرشي ﴾

تحقيق الكلام وتلخيص المرام في هذا السبق واللحوق: أنّ الناس في الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيّين والكتب والأئمّة والدنيا والآخرة وعالَم البرزخ ـ وغير ذلك ـ على ثلاث طبقات:

لأنّهم إمّا أن ينالوا ذلك بإلهام الله ووحيه من غير تعليم بشريّ أصلا، أم لا. فالأوّل مرتبة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ . وأمّا الثاني فلايخلو إمّا أن يصلوا إلى مقام الاستفاضة من الله بحسب التابعيّة بلاتعمّل فكريّ، أم لا. فالأوّل مرتبة الأولياء ذوي الاستبصار[٤] والثالث مرتبة الحكماء والعلماء النظّار.

وأمّا أهل التقليد: فهم بمعزل عن البلوغ إلى حقائق الايمان، بل إنّما يصلون إلى شبَح منه، فينالون في الآخرة ضرباً من رحمة الله وتفضّله بحسب ماتصوّروه من هذه المعارف على سبيل التمثيل[٥] وبحكم: «مَن تشبّه بقومٍ

(٤) الابصار ـ نسخة. (٥) التمثّل ـ نسخة.

فهـو منهم»[٦]. يحشرون في القيامة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصـدّيقين، فحيوتهم الأُخرويّة حيوة بالعرض كحيوة الشَعر والظفْر من الإنســان، فإنّ الحيوة القـائمـة بنفس الإنسان وروحِهِ يسري في أعضائه الحسّاسة قصداً وفي غيرها تبعاً.

إذا تقـرّر هذا فنقول: السابقيّة في الايمان كما يستفاد في مواضع من القرآن ـ كقوله: ﴿وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [٥٦/١١] إشارة إلى مرتبة أولياء هذه الملّة في الايمان، واللاحقيّة فيه إشارة إلى مرتبة علماءها قبل وصولهم إلى مرتبة الكشف والعيان،وهم المشار إليهم بأصحاب اليمين، وأمّا مجرّد السابقيّة واللاّحقيّة بين المؤمنين في الزمان فليس فيه كثير تفاضل بحسب نفس الأمر، وقد تعاظم وتقدّس كتاب الله عن أن يعتبر فيه تقادم الأزمنة والآجال بين الناس في تفاضل أحوال الرجال، بل يجب أن يكون ملاك الأمـر في ذلك تفاوت القرب والبُعد من الحقّ المتعال،ودرجات شدّة انقطاع النفس عن هذه الدنيا الفانية منزلة الجهّال والأرذال.

---

(٦) مضى الحديث في ص ١٧٣

المطلع الرابع

في قوله سبحانه

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

﴿ ظل قمري ﴾

في الكشّاف: «ذلك الفضل الذي أعطاه محمّداً صلّى الله عليه وآله وهو أن يكون نبيّ أبناء عصره ونبيّ أنبياء العصور الغوابر هو فضل الله يؤتيه مَن يشاء إعطائه وتقتضيه حكمته».

وفي مجمع البيان: «عن محمّد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم، يرفعه، قال: جاء الفقراء إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فقالوا: يارسول الله ـ إنّ للأغنياء مايتصدّقون وليس لنا مانتصدّق، ولهم مايحجّون وليس لنا مانحجّ، ولهم مايعتقون وليس لنا ما نعتق.

فقال: من كبّر الله مأة مرّة كان أفضل من عتق رقبة، ومن سبّح الله مأة مرّة كان أفضل من مأة فرس في سبيل الله يسرجها ويلجمها للجهاد، ومن هلّل الله مأة مرّة كان أفضل الناس عملا في ذلك اليوم إلاّ من زاد.

فبلغ ذلك الأغنياء فقالوه، فرجع الفقراء إلى النبي صلّى الله عليه وآله فقالوا: يارسول الله قد بلغ الأغنياء ماقلت فصنعوه.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿ نور عرشي ﴾

[المراد بالفضل]

مايترائى من مواضع استعمالات هذا اللفظ في القرآن وغيره مع ضرب من إلهام الله تعالى وتأييده هو أنّ الفضل عبارة عمّا به يتفضّل الإنسان على جميع مافي هذا العالَم من الجواهر والأعراض ويستحقّ بذلك مسجوديّة الملائكة والجانّ، وهو عبارة عن الايمان بالله والعلم بحقائق الأشياء كما هي، والتجرّد عن العالَم الحسّي. وهو إنّما حصل عياناً للنبيّ صلّى الله عليه وآله بالإصالة، ولأولياء الله من أهل بيت نبوّته وولايته تبعاً، وحصل علماً برهانيّاً لحكماء أُمتّه، وسماعاً تقليديّاً لعوام أهل الايمان. كلّ ذلك بواسطة إشراق نور النبّوة على أراضي قابليّة قلوبهم، إلّا أنّ في الأوّل وقوع النور، وفي الثاني عكسه، وفي الثالث ظلّه. ﴿ومَن لَم يجْعَل اللّهُ لَه نُوراً فَمالَهُ مِن نُورٍ﴾.

فقوله تعالى: «ذلك» إشارة إلى ماتضمنّه قوله: ﴿يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: العلم بهما. فكلّ من كان أويكون من العلماء الربّانيّين والحكماء الإلهيّين أوسيجيء في هذا العالَم، فهو من الذين يزكّيهم الرسول ويعلّمهم الكتاب والحكمة، فهم من الذين شاء الله أن يؤتيهم هذا الفضل، ومأخذ هذا التعليم هو مايدلّ عليه قوله﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً﴾ [١٨/٦٥].

بل لايقتبس نور العلم والحكمة إلّا من مشكوة النبوّة، ولهذا من يؤتيها فقد أُوتي خيراً كثيراً، ويشهد بذلك قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [٤/١١٣].

فالتخلّق بأخلاقه صلّى الله عليه وآله ممّا يوجب للعبد استعداداً لقبول المعارف الإلهيّة الفايضة على قلبه صلّى الله عليه وآله على سبيل الانعكاس منه على قلب هذا العبد المطيع لله ولرسوله، لقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللّٰهَ﴾ [٤/٨٠].

وأمّا من لم يكن متأدّبا بآدابه، متخلّقاً بأخلاقه ولا مهتدياً بهداه ضميراً واعتقاداً، سواء تكلّف في ذلك ظاهراً كأكثر المنتحلين بمذهبه من غير بصيرة باطنيّة ولاانقياد سرّي، أو كان من المنكرين الجاحدين رأساً؛ فحالهم ماكشف عنه تعالى بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَايُؤْمِنُوْنَ﴾ [٢/٦] فالتزكية والتعليم لاينجع معهم لأنّ نفعه مختصّ بالمؤمنين، وإن كان نور الهداية والرحمة ينتشر منه على العالمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ اِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ﴾ [٢١/١٠٧].

والدعوة أيضا شاملة لكافّة المكلّفين إلّا أنّ نصيب النفوس الكَدِرة والأوهام العسوفة منها ليس إلّا الوحشة والعمى والظلمة والضلال والخسران والوبال، وعليه جرى القلم ونفذ فيه حكم القضاء الحتم والقدَر المبرم، ولذلك خلقهم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٦/١١٥] لأنّ نظام العالَم لايتمشّى إلّا بنفوس غلاظ شداد، ولاينصلح العمارة في الدنيا إلّا بطبائع جسمانيّة يعملون أعمالاً حسيّة بحسب مايجبلون[١] عليه من الدواعي الشهويّة والصوارف الغضبيّة والأغراض البهيميّة والسبعيّة.

ثمّ العجب أنّ نفس التزكية والتعليم كما يوجب الفضل الجسيم للقلوب

(١) ما يحملون ـ نسخة.

الصافية والضمائر النقيّة، كذلك يوجب العذاب الأليم على سبيل التبع والعرَض للنفوس المريضة بداء الجهالة والغلظة،والمعلولة بعلّة الجحود والاستنكار، وذلك كرائحة المسك بالقياس إلى خيشوم المزكوم،ونور الشمس بالنسبة إلى عين الأخفش .

﴿ تبصرة كشفية[٢] ﴾

[الكتاب والنبي هاديان ومضلان]

وهيهنا يتحقّق وينكشف عند البصير المحدِق والخبير المحقّق إنّه إذا تجلّت شمس عظمة القرآن ووقعت أشعّة أنواره على صفائح هياكل الأرواح الإنسيّة وسطوح قوابل العقول الهيولانيّة،فكما يظهر منه بالإرادة الإلهيّة والمشيّة الربّانيّة جوهر النور المحمّدي،وإكسير الخلاص السرمدي،ومعدن السعادة الأبديّة،ومولد النشأة الثانية الدائميّة، فكذلك ينشأ منه جوهر النار الإبليسيّة وبذر الشجرة الخبيثة الشيطانيّة.

وفي الحديث عنه صلّى الله عليه وآله: بُعثت داعيا وليس إلّي من الهداية شيء. وخُلق إبليس مضِلّا وليس إليه من الإضلال شيء[٣].

فكما ينشأ من التعليم المحمّدي صلّى الله عليه وآله في النفوس السقيمة زيادة في مرض الجهل والضلال لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٠/٢] وقوله: ﴿مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾[٤٢/٣٥] فربما ينشأ من الإغواء الإبليسي في القلوب السليمة الخالصة المخلصة زيادة في العصمة

---

(٢) راجع المفاتيح الغيبية: ص ١٦٨.

(٣) الجامع الصغير: باب الباء بعده العين: ج١ ص ١٢٦.

والهداية لهم من الله،كما قال تعالى في حقّ يوسف الصدّيق ـ على نبيّنا وعليه السلام ـ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [١٢/٢٤] فالله الهادي والمضلّ.

وهيهنا أسرارٌ لايحتمله الأفهام تركناها مخافة شنعة اللئام.

﴿تذكرة تنبيهية[٤]﴾

[القهر واللطف ومظاهرهما]

قوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيه إشارة إلى أنّ مشيّته الأزليّة متعلّقة بأمور متكثّرة متخالفة بحسب صفات وأسماء متعدّدة متقابلة، فإنّ لله تعالى صفتي لطف وقهر، ومن الواجب في الحكمة أن يكون الملك ـ وخصوصاً ملك الملوك ـ كذلك، إذ كلّ منها من أوصاف الكمال كمالايخفى، ولابد لكلّ من الوصفين من مظهر، فالملائكة ونفوس المقرّبين والأخيار ومَن ضاهاهم مظاهر اللطف، والشياطين والأشرار ومَن والاهم مظاهر القهر، ومظاهر اللطف هم أهل الجنّة والأعمال المستعقبة لها، ومظاهر القهر هم أهل النار والأفعال المعقبة إياها.

ثمّ اعلم ـ يامسكين ـ إنّ في عالَم الامكان لكلّ نور ظلمة، ولكلّ كمال نقصاً، وإنّ كلّ ممكن زوج تركيبيّ كما أشارت إليه الحكماء، وبهذا جرت المشيّة الأزليّة والسُنّة الإلهيّة.

وعلى هذا يكون مقتضى السلطنة الربّانيّة بحسب ازدواج صفتي القهر والمحبّة والغضب والرحمة. ومنهما ينشأ الهداية والضلال والتوفيق والخذلان، والسعادة والشقاوة، والجنّة والنار، والآخرة والدنيا والأرواح والأجرام بحسب

(٤) المفاتيح الغيبية: ص ١٦٦.

غلبة أحد الطرفين، وإن كان لكل جمال أيضاً جلال كالهيمان الحاصل من الجلال الإلهي، فإنّه عبارةٌ عن انقهار العقل منه وتحيّره فيه، ولكلّ جلال جمال وهو اللطف المستور في القهر الإلهي، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيوةٌ يَاأُولِي ٱلأَلْبَابِ﴾.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: سبحان من اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّه نقمته، واشتدّت نقمته لأعدائه في سعة نعمته[٥].

ومن هيهنا يُعلم سرّ قوله صلّى الله عليه وآله: حُفّت الجنّة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات[٦].

فهو الله الباري، المصوِّر الغفّار لقوم، وهو الله الواحد العزيز القهّار المتكبّر لقوم آخر، ولااعتراض عليه في تخصيص كلّ من الفريقين بما خصّصوا به، فإنّه لو عكس الأمر لكان الاعتراض بحاله.

﴿ إشراق شمسي ﴾

[السعادة والشقاوة والإنسان المختار]

ثمّ اعلم إنّ كلّ مافي عالم المُلك والملكوت له طباع خاصّ، يصدر منه آثار وأفعال مخصوصة، وكلّ طبع مسخّر لفعل خاصّ، كالنار للتسخين والماء للتبريد، وله حدّ محدود لايتجاوزه، ومقام معلوم لايتعدّاه من أعلى شواهق عالَم الأمر إلى أدنى منازل عالَم الخلق، إلاّ الإنسان فإنّه مسخّر للاختيار،

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ٨٨ مع اختلاف يسير.

(٦) مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها ج١٧ ص ١٦٥. ورواه البخاري في كتاب الرقاق: ج٨ ص ١٢٧ بلفظ: «حجبت النار بالشهوات».

فالاختيار له بمنزلة الفعل الطبيعي لغيره،لأنّ ذاته ليست ممّا يقف على حد ومقام في جوهره وهويّته، بل ينقلب من طور إلى طور، ومن نشأة إلى نشأة، وسعة هذه التقلّبات في الإنسان الكامل أكثر وتخالف أطواره أشدّ، وقوسه الصعوديّة أعظم، وارتقائه إلى عالَم الملكوت أعلى وأتمّ، فلذلك قيل: إنّ الإنسان مضطرّ في صورة مختار.

* *

فالمختاريّة مطبوعةٌ فيه،اضطراريّة له، وهو مجبول عليه كما جبل طبع الماء والنار والخبز واللحم على التبريد والتسخين والتغذية، فهو من لدن أوّل تكوّنه النطفي إلى تمام بلوغه الحسّي واستعداده النطقي لم يكن لاختياره في الترقيّات والتقلّبات مدخل،حتّى بلغ إلى مرتبة حيوان تامّ الحيوانيّة، منتصب القامة، عريض الأظفار، بادي البشرة. ثمّ من عند كونه عاقلا مكلّفاً ينتقل باختياره الذي هو عين اضطراره ويتطوّر بأطواره في مراتب افتقاره، فهو إمّا أن يرتقي إلى أعلى علّيين، أو يتردّى إلى أسفل سافلين، أو يقع في أحد أوساط المتوسّطين، حسب ماشاء الله وكتب في كتابه المبين: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الآية ﴿... وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾الآية [١١/١٠٥ ـ ١٠٨] أمّا السعيدفلايختار إلّاعمل أهل السعادة، وأمّا الشقيّ فلايختار إلّا عمل اهل الشقاوة﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَيهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [٣٢/١٩ ـ ٢٠].

ومع ذلك فلااعتذار لأحد في الشريعة،بل الجميع خوطبوا بخطاب

واحد: «اعملوا فكلّ ميسّرٌ لما خُلق له»[٧].

ومن هيهنا نشأت لك شبهة قديمة غير منحلّة[٨] ـ إلّا لمن أيده الله بكشف الحقـائق ـ وهي أنّ الكلّ إذا كان بمشيّة الله فما الفائدة في بعثة الرسول وتزكيته والتهذيب وإنذاره والتأديب؟

فيقـال لك: إنـزال الكتب وإرسال الرسل كما هو سبب من أسباب سعـادة السعداء كذلك هو بعينه سبب من أسباب شقاوة الأشقياء، وبهذا السبب كما يرتقي السعيد إلى منـازل الملكوت، يهوي الشقيّ إلى مهاوي الطاغوت ـ كما اُشير إليه ـ.

واعلم إنّ شهوات الدنيا مقرونةٌ بالآفات العظيمة، وحلاواتها ممزوجة بالسموم المهلكة القتّالة،وفائدة البعثة والإنزال إعلام الخلائق وإنذارها عن تناولها والتشاغل بها، فمن كان ذا فطرة صحيحة صدّق الرسول وسمع القرآن بقلبه فانتهى عن تناولها، ومن لم يصدّق الرسول ويصمّ عن سماع الكتاب ويعمى عن رؤية الآيات وكان مريض النفس عليل القلب: أخلَد إلى الأرض واتّبع هواه، فوقع في الهلاك ويئس من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور.

فكما أنّ الملك والقرآن والنبيّ رسل الله إلى هؤلاء، فالهوى والنفس والشيطان رسل الله إلى هؤلاء العميان. فاقرأ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية . وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ

---

(٧) راجع مسلم: كتاب القدر ج١٦ ص ١٩٧. ابن ماجة: المقدمة الباب ١٠.

(٨) المفاتيح الغيبية: ص ١٦٧.

عَليمٌ﴾ [٢٦٨/٢] ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [١٠٥/٢] وقوله ـ في الحديث القدسي ـ: «خلقت هؤلاء للجنّة ولا أُبالي، وخلقت هؤلاء للنار ولاأُبالي»[٩].

فالمؤمن الحقيقي من يقبل دعوة الله ويردّ دعوة الشيطان ولايقع في حبائل غروره وشَركة مكره، ويسمع بسمع التيقّظ قول المبلّغ: «رُبَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلا».

والرسول قد حذّره بقوله صلّى الله عليه وآله: «الدنيا حيّةٌ قاتلوها».

والقرآن علّمه بالبيان والبرهان: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلأَمْوَالِ﴾ [٢٠/٥٧].

والمنافق يردّ دعوة الرحمن ويقبل دعوة الشيطان فـ ﴿لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ وَلَايَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ [٧/٤٠ ـ ٤١].

قال بعض أصحاب القلوب: إنّ الله يعامل العباد في الأبد على ماعاملهم في الأزل. وقال بعضهم: ليس الخوف من سوء العاقبة، إنّما الخوف من سوء السابقة.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [٣٠/٣٠].

فالسعيد سعيد في الأزل، والشقيّ شقيّ لم يزل. واتل قوله [تعالى]: ﴿مِنكُم مَنْ يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَنْ يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ﴾ [١٥٢/٣] وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِد ثَوابَ ٱلدُّنيَا نُؤتِه مِنهَا وَمَن يُرِد ثَوابَ الآخِرةِ نُؤتِه مِنهَا وَسَنَجزِي ٱلشَّاكِرِين﴾ [١٤٥/٣].

(٩) جاء مايقرب منه في البحار ج٥ ص ٢٣٠ و ٢٥٣ والمسند ج٥ ص ٢٣٩ و ٦٨.

المطلع الخامس

في قوله تعالى

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

وفيه إشراقات:

الأوّل في الغرض المسوق إليه هذا التمثيل:

إنّ الله تعالى قد مثّل الذين حُملوا الكتب السماويّة وكلّفوا القيام بها والعمل بموجبها وهم لم يحملوها حقّ حملها من أداء حقّها ، ولم يتدبّروا فيها ولم ينظروا بعين الاستبصار والاعتبار، بل حفظوها بالتكرار لفظاً ودوّنوها في الأسفار لأغراض عاجلة لهم في هذه الدار ثمّ لم يعملوا بما فيها؛ بالحمار الذي يحمل أسفاراً، لأنّ الحمار الذي يحمل كتب الحكمة على ظهره لايشعر بما فيها، فمثَل من يحفظ الكتاب ولايدرك أسراره ومعانيه فلايعمل بمؤدّاه ومقتضاه كمثَل دابّة يحمل على ظهرها الكتب ـ لايعلم بما فيها ـ.

قال ابن عبّاس : فسواء حمل على ظهره أو جحده إذا لم يعمل به.

وعلى هذا فمن تلا القرآن ولم يفهم معناه وأعرض عنه إعراض من

لايحتاج إليه فكان حرياً بهذا المثل، وكذا من تدبّر في إعراب ألفاظه ودقائق عربيّته ونكاته البديعيّة ـ وهو بمعزل عن أسرار حكمته ومقاصده الأصليّة ـ من المعارف الإلهيّة والعلوم الربّانيّة، وأسرار المبدأ والمعاد، وعلم الروحانيّين والملائكة والشياطين، وكيفيّة الوحي والتنزيل، وعلم النفس ومعرفة الروح وورودها إلى هذا العالم، وردّها إلى أسفل سافلين، ثم عودها ورجوعها إلى بارئها ومبقيها إما راضية مرضيّة ـ إن آمنت وعملت الصالحات ـ أو ناكسةً منكوسة منحوسة محجوبة مظلمة ـ إذا جحدت وعملت السيّئات ـ وكيفيّة نشوء الآخرة من الدنيا، وأحوال القبر والبعث والحشر والنشر، إلى غير ذلك من المعارف التي هي الغرض الأصلي من إنزال الكتاب والوحي والإلهام والخطاب.

فمن لم يطلع من القرآن إلّا على تفسير الألفاظ، وتبيين[1] اللغات، ودقائق العربيّة وفنون الأدبيّة وعلم الفصاحة والبيان وعلم بدائع اللسان؛ وهو عند نفسه إنّه من علم التفسير في شيء، وإنّ القرآن إنّما أنزل لتحصيل هذه المعارف الجزئيّة ـ فهو أحرى بهذا التمثيل ممّن لاخبر له أصلا، لامن إعراب الألفاظ، ولامن حقائق المعاني، مع اعترافه بعجزه وقصوره.

وممّا أُنشد في هذا الباب شعر أبو سعيد الضرير[2] حيث قال:

زوامــل للأشعـار لاعلم عنـدهم بجيّدها، إلّا كعــلم الأبــاعــر[3]

---

(١) تبين ـ نسخة.

(٢) نسبه المبرد الى مروان بن سليمان بن يحيى يهجو قوما من رواة الشعر (الكامل: ٨٥٧/٢) وفيه: لعمرك مايدري البعير اذا غدا * باوساقه...

(٣) الزاملة: بعير تحمل المتاع.

لعمري مايدري المطي إذا غدا بأسفاره إذ راح مافي الغرائر[٤]

وفي قوله: ﴿بِئسَ مَثَلُ القومِ الذينَ كذَّبوا بِآيَاتِ اَللهِ﴾ تنبيه بليغ على كليّة هذه القضيّة وحقيّة هذا المثَل،من غير اختصاصها بشأن اليهود،الذين كذّبوا بالآيات الدالّة على إعجاز القرآن وجلالة قدر محمّد صلّى الله عليه وآله. بل كلّ من جحد ماوراء فهمه وأنكر ماسوى ماأخذه من معلّميه وأشياخه على غير بصيرة،أو وصل إليه من ظواهر النقول والروايات،فهو حقيقٌ بهذا التمثيل بالقياس إلى ماجحده وأنكره عند التحقيق.

﴿ الإشراق الثاني ﴾

[المقصود من المثَل]

إنّ قوله: ﴿بِئسَ مثَل القوَم الذينَ كذّبوا بآياتِ الله﴾ معناه بئس القوم قوم مثَلهم هذا، لأنّ اليهود إنّما صاروا مذمومين مطرودين عن باب الله لإنكارهم حقيّة الرسول وإعراضهم عن مطالعة آيات الله وجحودهم لما سمعوا من الحقائق الايمانيّة والمعارف الربّانيّة التي لم يبلغ أفهامهم إليه من قبل ولم يسمع من شيوخهم الماضين ومعلّميهم وآبائهم السابقين،كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ماسَمِعْنَا بِهذَا فِي آبَائِنَا اَلاَوَلِينَ﴾ الآية [٢٣/٢٤].

وكلّ مَن هذا صفته بالنسبة إلى أهل الحقّ وأصحاب الحكمة القرآنيّة في وراء مفلومه وفوق مفهومه من الإعراض والإنكار،اغترارا بظواهر الآثارو ماسمعه وتلقّفه من أشياخه ومعلّميه،أو إعجابا بما حصّله بالبحث والتكرار من غير استكشافٍ واستبصار،فهو داخلٌ في هذا الحكم ومكذِّب لآيات الله

(٤) الغرائر: الجوالق العظام.

بالحقيقة، لأنّ مقاصد أهل الله هي بعينها معارف الكتاب والسنّة، وهو حريّ بهذا التمثيل،لأنّه وإن لم يكن يهوديّ النحلة لكنّه يهوديّ الخصلة.

فكما أنّ القدريّة مجوس هذه الأُمّة، فالظاهريّة والمشبّهة يهود هذه الأُمّة، والباطنيّة نصرانيّ هذه الأمّة، فإنّ جميع المذاهب القديمة توجد في أُمّة نبيّنا صلّى الله عليه وآله بواحد يزيد عليها ـ وهي الفرقة الناجية والباقون في النار ـ كما دلّ عليه الحديث المشهور[٥]. وهذه الفرقة الناجية في غاية الخمول والخفاء والندرة والانزواء.

﴿ الإشراق الثالث ﴾

[المؤمن الحقيقي هو العارف الرباني]

إنّ المؤمن الحقيقي من يكون من الحكماء الإلهيّين والأولياء الربّانيّين وإنّ غيرهم إمّا من أهل الإغترار وحملة الأسفار ومتحمّلة الأوزار،المنسلخين عن الفطرة الأصليّة كالحمار،المقيّدين بسلاسل تعلّقات هذه الدار، لايهديهم الله لظلمهم وفسادهم سبيلا للارتقاء إلى دار القرار، ولايوفّقهم للنجاة من منازل الأشرار ومهاوي الفجّار إلى عالَم الأسرار ومعدن الأبرار.

وإمّا من أهل السلامة والتسليم والطاعة والانقياد من غير جحود ولاإنكار ولااستنكار،لبقائهم على فطرتهم الأصليّة ونقاء صحائف خواطرهم وأذهانهم عن نقوش الأقاويل المظلمة المضلّة،فهم من أهل الرحمة والنجاة الذين ينالهم ضربٌ من الرحمة الواسعة التي وسعت كلّ شيء.

---

(٥) راجع البحار: كتاب الفتن والمحن الباب: ١ ج٢٨ ص ٤.

والدليل على ما ادّعيناه من كون المؤمن الحقيقي هو العارف الربّاني والحكيم الإلهي مّما يستفاد من هذه الآيات على أتمّ وجه وأوضحه، فإنّ ماذكره تعالى في علّة البعثة وغاية الرسالة من قوله: ﴿يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يدلّ دلالة واضحة على أنّ نتيجة البعثة دعوة الخلق إلى العلم والحكمة،وأنّ الايمان بالله والرسول عبارة عن تعلّم الكتاب والحكمة بالحقيقة لا بالمجاز،وإلّا لكان الايمان ايماناً بالمجاز، فيكون المؤمن المجازي مسلوباً عنه الايمان الحقيقي ـ كما هو قاعدة إطلاق اللفظ على سبيل المجاز.

* * *

فثبت أنّ الايمان الذي يكون فائدة البعثة وثمرة إنزال القرآن عبارة عن صيرورة كون العبد المسلم حكيما عارفا بحقائق ما في الكتاب ـ لا بمجرّد حفظ الألفاظ وتكرارها، ولا بمجرد تفسير العربية ونكاتها البديعية ـ فإن معرفة الفاظ العرب ودقائق علم البيان ليس من مقصود علم القرآن في شيء، بل المقصود سياقة الخلق إلى جوار الله بالعلم بحقائق الأشياء والتجرد عن علائق الدنيا، وهي لا تحصل بمجرد الاطلاع على علم العربيّة ولا الكلام، والقرآن إنّما نزل بلغة العرب ليكون أوضح دلالة وأفصح بيانا، إذ لايكون في دقّة الألفاظ وغرابة أبنية الكلام فائدة يعتدّ بها كما دلّت عليه آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنَاً عَرَبِيَّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ [٤٣/٣] وقوله: ﴿وَهذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِيْنٌ﴾ [١٠٣/١٦].

﴿ الإشراق الرابع ﴾

[طهارة القلب واستكماله بفضل الله]

ثمّ لما بيّن فائدة البعثة وثمرة الرسالة وهو تزكية الأمة بإصلاح الجزء العملي من نفوسهم ليكونوا صلحاء حلماء وتعليمهم الكتاب والحكمة بتكميل الجزء العلميّ منها ليكونوا علماء حكماء ـ أشار إلى أنّ طهارة القلب عن رذائل الصفات واستكماله بمعارف الآيات الإلهيّات من فضل الله يؤتيه من يشاء، أي لابدّ فيه من سابقة عناية أزليّة وهداية إلهيّة وجذبة ربّانيّة لايوازيها عمل وكسب وهي من الحكمة التي من يؤتها فقد أوتي خيراً كثيراً. يعني إنّ ذلك مزيّة نورانيّة ونعمة روحانيّة لاينوط بكثرة التكرار آناء الليل وأطراف النهار، ولابحمل الكتب والأسفار، ولابطول المراجعة إلى أهل الاشتهار والتبسّط في البلاد والديار طلباً لحطام هذه الدار، كما هو عادة المشتغلين بكسب الشيخوخة ورياسة المذهب وشيمة طلّاب الإفتخار قصدا للجمع والإكثار مع اشتباه واغترار بأنّ مافهمه من علم الدين وأسرار اليقين.

ومنشأ هذه الغلطة[٦] وبذر هذا النفاق هو حبّ الجاه الذي يعمي القلب عن رؤية الحقائق، ويصمّ السمع عن الشعور بغير مايتوسل به إلى تحصيل المنزلة عند الناس، فإنّ من غلب على قلبه حبّ الجاه وميل الثروة صار مقصور الهمّ على مراعاة الخلق، ولايزال في أقواله وأفعاله وتحصيله ظواهر العلوم وإتيانه بصور العبادات والخيرات ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم، وربما يهمّ ويشتهي أن يجمع الدنيا مع الدين ويراعي الخلق مع الحق بظنّه الفاسد

(٦) الغلطة ـ نسخة.

وطمعه الكاسد انّ ذلك أمرٌ ممكن.

ولا يدري الجاهل المسكين أنّ ذلك بذر النفاق ومادّة الفساد وسبب الجحود والعناد في العلوم، ومنشأ المراياة في النسك والعبادات للتوسّل بها إلى اقتناص القلوب وجلب خواطر الخلق. ثمّ لا يدري السفيه أن من أراد أن يجمع بين الدين والدنيا صار في آخر الأمر بحيث لا دين له ولا دنيا؛ على أنّ الدنيا لا حقيقة له عند العقلاء بل من قبيل الأوهام والأحلام وصورة المرايا والظلال.

وقد شبّه رسول الله صلّى الله عليه وآله حب الجاه والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين ـ كما هو المرويّ عنه في كتب العامّة والخاصّة ـ[٧].

وهذا الحديث روي عن بعض ساداتنا المعصومين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ في مدح صفوان بن يحيى،حيث قال: ماذئبان ضاريان قد وقعا في غنمٍ غاب عنها رعاؤها بأضرّ في دين المسلم من حبّ الرياسة،لكن صفوان لايحبّ الرياسة[٨].

وروى عن النبي صلّى الله عليه وآله إنّه قال: حبُّ الجاه ينبت النفاق في القلب،كما ينبت الماءُ البقلَ.

فعلم أنّ حبّ الجاه والشهرة من المهلكات التي لايمكن النجاة لأحد منها، وإهلاكه وإفساده للمغترين بظواهر العلوم أشدّ وأكثر من إهلاكه للمغترين بظواهر الأعمال،بقدر التفاوت بين قبح الكفر الذي هو ضربٌ من

(٦) المغلطة ـ نسخة.

(٧) الكافي: كتاب الايمان والكفر، باب حبّ الدنيا والحرص عليها: ٢/٣١٨ ترمذي: كتاب الزهد الباب: ٤٣ ج٤ ص ٥٨٨. المسند ٣/٤٥٦.

(٨) الكشي: ماروى في صفوان بن يحيى ص ٥٠٣.

فساد العلم وبين الفسق الذي هو ضرب من فساد العمل، ومن الأمور الواضحة المستبينة عند أرباب الإطلاع على كيفيّة تحصيل المعارف اليقينيّة أنّ حبّ الجاه وحبّ التكبر يحجب القلوب عن مطالعة الآيات ومشاهدة الحقائق، كما قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [١٤٦/٧].

ثمّ انظر إنّه تعالى كيف أشار إلى أنّ المؤمنين هم أولياء الله والحكماء الإلهيّين،وأنّ المغترين بظواهر الآثار من الفجّار والمنافقين،حيث أثبت أوّلاً غرض الرسالة وفائدة البعثة وأنّها تصفية القلوب من الجهل والرذائل وتكميلها بعلم الكتاب والحكمة التي هو رئيس الفضائل.

ثمّ ضرب الله مثلاً لليهود ومَن يجري مجراهم الحمارَ في حمل[٩] الكتب والأسفار، وتركهم التدبّر والاعتبار وإنكار ماورد من آيات الله على ألواح[١٠] أنبيائه وجحود ماقذف من أنوار الله في قلوب أوليائه وأحبّائه.

ثمّ أشار بعد ذلك إلى بطلان زعمهم وفساد ادّعائهم أنّهم من أولياء الله وأحبّائه،أنّهم لو كانوا كذلك لوجب أن يعرضوا عن الدنيا وطيّباتها،ويحبّوا الموت، لكونه وسيلة إلى لقاء الله ولايكونوا أحرص الناس على حيوة هذه النشأة الجسمانيّة، وحيث أنّهم كانوا على أضداد صفات أولياء الله والحكماء فقد علم أنّهم من أعداء الله تعالى،المنكرين للدار الآخرة وعالَم الغيب وعالم الأرواح، الكارهين لقاء الله. «ومن كره لقاء الله كره الله لقائه» ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [٢٢/١١] ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[١٥/٨٣] وقد ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٤/٨٣].

(٩) حملهم ـ نسخة. (١٠) أرواح ـ نسخة.

﴿ الإشراق الخامس ﴾

[فهم القرآن]

كلّ من اكتفي بظاهـر العربيّة وبادَر إلى تفسير القرآن بمجرّد نقل الكتب وحمل الأسفار من دون الارتقاء إلى عالم الأنوار وفقه الأسرار ونقاء السريرة عن أغراض هذه الدار وخلاص القلب عن غشاوة هذه الآثار فهو حريٌ بهذا التمثيل، فإنّ الاطّلاع على ظاهر العربيّة وحفظ النقل عن أئمّة التفسير في ترجمة الألفاظ لايكفي في فهم حقائق المعاني، ومن أراد أن ينكشف له أنّ هذه المـرتبـة ليست من مرتبـة إدراك المعاني القرآنيّة، والاطّلاع على حقائقهافليتأملّ في مسئلة واحدة منها وعجْز المفسّرين عن دركها،ليقيس عليها غيرها، وهو أنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلِكِنَّ ٱللَّهَ رَمَى﴾ [١٧/٨].

وظاهر تفسيره واضح جلي، وحقيقة معناه في غاية الغموض، فإنّه إثبات للرمي ونفي له، وهما متضادّان في الظاهر مالم يفهم أنّه رمى من وجه،ولم يرم من وجه، ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله تعالى. ثمّ يفهم إنّه ماجهة الوحدة والهوهويّة، وماجهة الغيريّة والكثرة.

وكـذلك قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [١٤/٩] فإذا كانـوا هم القـاتلين كيف يكون الله هو المعذّب، وإن كان الله هو المعذّب بتحريكهم فما معنى أمرهم بالقتال؟

فالتحقيق في مثـل هذا المقـام يحتاج إلى العلوم المتعالية عن علوم المعاملات، ولايغني عنه علوم العربيّة وتفسير الألفاظ، ولعلّ العمر لواتّفق في

استكشاف أسرار هذا المعنى ومايرتبط بمقدّماته ولواحقه لانقطع العمر قبل الوصول إلى الإحاطة بجميع لواحقه، والقرآن مشحون بأمثاله، بل مامن كلمة من القرآن إلاّ وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك.

وإنّما ينكشف للعلماء الراسخين في العلم من أسراره وأنواره بقدر غزازة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفّر دواعيهم على التدبّر وتجرّد هم للطلب، ويكون لكلّ واحد حدٌّ في الترقّي إلى درجة منه، فأمّا الاستيفاء التامّ فلامطمع لأحد فيه، ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما والخلائق كتّابا لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله، فأسرار كلماته وأنوار آياته ممّا لانهاية لها ولابداية، فمن هذا الوجه يتفاضل الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير.

* * *

فقس على هذا المثال جميع ماورد في الكتاب والسنّة، ولاتغترّ بما سمعته أو تلقّفته من معلّميك في أوان الجاهليّة وزمان الاحتجاب، فإنّها كلّها تماثيل وأشباح للحقائق ـ إن لم يكن أغلاطا فاسدة ـ وإنّها قوالب وصور بلا معنى إن لم يكن أوهاما باطلة، وظواهر أعمال بلافائدة تبقى، وخيال أشخاص من غير صورة بها تحيى ، ومثال أشجار بلاثمرة تجنى، وحبال وعصيّ يخيّل من سحرهم أنّها حيّة تسعى ـ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [١٠٤/١٨].

ومن الأمثلة أيضا في فهم الأسرار والأنوار المودعة في ألفاظ القرآن والحديث ماذكره بعض أصحاب القلوب في معنى قوله صلّى الله عليه وآله في سجوده:أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك،

لاأحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك[١١].

وهـو إنّه لّما قيل له: ﴿اسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [٩٦/١٩] فوجد القُرب في سجوده، فنظَر إلى الأفعال فاستعاذ من بعضها ببعض، ثمّ زاد في قُربه فنظر إلى الصفات فاستعاذ من بعضها ببعض فإنّ الرضا والسخط صفتان، ثمّ زاد في قربه واندرج القرب الأول فيه، فترقى إلى الذات وقال: أعوذ بك منك. ثم زاد في قربه واستحيى عن الإستعاذة على بساط القرب فالتجى إلى الثناء فأثنى بقوله: لا أُحصي ثناء عليك، ثمّ عِلم أنّ ذلك قصورٌ فقال: أنت كما أثنيت على نفسك.

فهذه وأمثالها خواطرٌ تفتح لأرباب المعاني وأصحاب القلوب، ثمّ لها أغوارٌ وأسرار وراء هذا المعنى،وهو معنى فهم القرب واختصاصه بالسجود، ومعنى الاستعاذة من فعل إلى فعل ومن صفة إلى صفة ومنه به.

وأسرار ذلك كثيرة ولايدلّ ظاهر تفسير اللفظ عليها، ومع ذلك فليس مناقض لظاهر التفسير، بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن قشره فإنّ للقرآن حقيقة كالانسان،وله قشران ولبّان كالجوز، ولكلّ منها مراتب كثيرة حسب تعدّد النشآت، وكما أنّ الإنسان الحسّي صنم لسائر مراتبه واقعٌ في أوّل درجات الإنسانيّة ومراتبه ومعارجه، وأعلى منه الإنسان المثالي، ثمّ الإنسان النفسي، ثمّ العقلي كالحكماء، ثمّ الإلهي كالمتألهين من العرفاء والأولياء:

ـ فهكذا يجب أن يعلم مراتب فهم القرآن.فكلّ أحد لايفهم إلّا بما يتحقّق

---

(١١) مسلم: كتاب الصلاة (مايقال في الركوع والسجود) ج٤ ص ٢٠٣: أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ .... وجاء مثله في أبي داود: كتاب الصلاة (باب الدعاء في الركوع والسجود) ج١ ص ٢٣٢.

فيه. والقرآن بحسب حقيقته الأصليّة خُلْق النبي صلّى الله عليه وآله وكلّ مايفهمه المفسّرون ويصل إليه إدراكهم ظل من ظلاله القريبة والبعيدة وشبح من أشباحه العالية والدانية ـ فافهم هذا واغتنم ـ.

المطلع السادس

في قوله تعالى

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧﴾

وفيه إشراقات :

الأوّل في اللغة:

هَاد يَهُودُ:إذا تهوَّد، أي: انتحـل مذهبهم ورأيهم في ذات الله وصفاته وأفعاله وكتبه ورسُله واليوم الآخر. أمّا في الذات فكذهابهم إلى أنّه تعالى ذو ولـد وصاحبة. وأمّا في صفاته فبالحادهم فيها وتشبيههم. وأمّا في الأفعال فبانكارهم النسخ والتغيير وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وأمّا في الكتب والرسل فبانكارهم حقيقة القرآن وحقيقة الرسول المنذر به. وأمّا في اليوم الآخر فلما قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إلاَّ أيّاماً مَعْدُودَة﴾.

و الزَعْم: قولٌ عن ظنّ وتخمين.

والأولياء: جمع ولي. وهو الحقيق بالنصرة التي يوليها عند الحاجة، والله ولي المؤمنين لأنّه يوليّهم النصرة عند حاجتهم، والمؤمن ولي الله لهذه العلّة لأنّه ينصر دينه، ويجوز أن يكون لأنّه يولي المطيع له وينصره عند حاجته.

والتمنّي: قول القائل لما كان: ليته لم يكنْ. ولما لم يكن: ليتهَ كان. فهو يتعلّق بالماضي والمستقبل، وهو من جنس الكلام عند الجبائي والقاضي، وقال أبو هاشم: هو معنى في النفس يوافق هذا القول[١]. وهو ليس بشيء إذ جميع أقسام الكلام ـ خبرا كان أو انشاء ـ من هذا القبيل، حيث أنّ لها معاني في النفس وضعت بإزاء ألفاظ يطابقها ويوازيها.

وقرأ: «فَتَمَنَّو ٱلْمَوْتَ» ـ بكسر الواو ـ تشبيها بـ ﴿لَو ٱسْتَطَعْنَا﴾.

و «لاَ» كـ «لَنْ» لنفي المستقبل، ولافرق بينهما إلاّ أنّ في لَن زيادة تأكيد أو تأبيد ليس في لاَ. فأتى مرّة مؤكداً: ﴿وَلَنْ يَتَمَنّوهُ﴾ [٢/٩٥]. ومرّة بدونه ﴿وَلاَيَتَمَنونَه﴾.

﴿ الإشراق الثاني ﴾

في النظم

لّما تقدّم ذكر اليهود في انكارهم لما في التوراة من المعاني التي يستنبط منهـا أو يتضـح فيهـا بعثة النبي صلّى الله عليه وآله وتحريفهم الكلم عن مواضعها؛ كما هو عادة المتشبّثين بذيل الدنيا وشهواتها وأغراضها من صرفهم ألفاظ الكتاب إلى معان توافق طباعهم الخبيثة وتناسب مقاصدهم الخسيسة، وادّعـائهم مع ذلـك أنّهم من أولياء الله وأنصار دينه؛ أمر سبحانه نبيّه أن يخاطبهم بما يفحمهم فقـال: ﴿قُـلْ﴾ يامحمّـد﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي انتحلوا دين اليهود واتّصفوا بأوصافهم ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَولِيَاء لِلّهِ﴾ أي إن كـنتم تظنّون على زعمكم أنّكم أنصار الله وأنّ الله ينصركم ﴿مِنْ دُونِ

(١) مجمع البيان: ٩/٢٨٧.

ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوا ٱلْمَوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أنّكم أولياء الله وأحبّائه، فإنّ الموت من أسباب الوصلة إليه تعالى.

ثمّ أخبر عن حالهم وكذب مقالهم وفساد زعمهم وقبح سيرتهم ودغل سريرتهم وسوء شكيمتهم واضطراب رأيهم وتزلزل دعويهم ووخامة عاقبتهم وآخرتهم وأنّهم غير واقفين بما يقولون، إذ ليس بنائه على أصل صحيح وبرهان متين، بل على مجرّد ظنّ فاسد وتخمين واغترار بما يستحسنه أهل الظاهر، فقال: ﴿وَلَايَتَمَنَّونَهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي.

معناه ولايتمنّون الموت لما اكتسبت نفوسهم من ملكة محبة الدنيا ولذاتها وشهواتها وملكة الانجذاب إلى دواعيها وأغراضها، فصارت نفوسهم مقيدة بها، محبوسة فيها لتكرّر الأفاعيل البدنية الشهويّة والغضبيّة وتكثّر الأعمال الحيوانيّة البهيميّة والسبعيّة،الموجبة للركون إلى نعيم الدنيا وزهرتها والإخلاد إلى أرض ـ الشهوات والاستغراق في بحر اللذات.

ومنشأ هذه الأعمال والأفعال كلّها هو الفساد في الاعتقاد والشكّ في بقاء النفس في المعاد ورجوعها إلى الواحد القهّار، فصار هذه الأخلاق الرديّة والملكات الدنيّة الحاصلة من تكرّر الإلتفاتات إلى عالَم الخلق : وتكثّر الإعراض والاستيحاش عن عالَم الحقّ وملكوته الأعلى، وإنكار وجود المفارقات ونفي ثبوت الملائكة العقليات، مسامير مؤكّدة وأوتاد مستحكمة في النفس بحيث لافرق عندهم بين ترك البدن ونزع الروح عن الدنيا وبين ترك اللذات للذات ونزع الروح عن الروح، لأنّ نفوسهم صارت كأنّها عين البدن.

وهذا لايمكنهم تصوّر بقاء النفس من دون استعمالها للحواسّ واشتغالها

بالمحسوسات، فلو فرضوا أنّ أحداً يقوم بنفسه من غير مباشرة الأكل والشرب والوقاع، ولامصادقة الأقرباء والعشاير والديار والعقار والضياع والمواشي وغيرها، بل يكتفي بذكر الله وعالَم ملكوته؛ لاستحالوا ذلك أو عدّوا حاله من أسوء الحالات،وشبّهوه بحالة الأموات والجمادات.

جهلا بأنّ غاية ماسمّوه لذّة وغبطة بالنسبة إلى مايجده أولياء الله من ملاحظة حضرة الربوبيّة ومشاهدة العاكفين لجنابه،أشبه بأن يسمّي عذاباً وألماً من أن يسمى لذّة وراحة. كيف ولو كان مازعموه حقّاً لكان البغال والحمير أوفر سعادة وأجلّ سروراً وغبطة من ملائكة الله الذين طعامهم الذِكر والتحميد وشرابهم التنزيه والتقديس.

﴿الإشراق الثالث﴾

[الفطرة التوحيدية في الإنسان بالقوة]

إنّ في الآية إشعاراً بأنّ طبيعة أكثر الناس متنفرةٌ عن حقيقة الدين، معرضة عن لقاء الحقّ،لكونهم غير متمنّين للموت بل مستكرهين له، فهُم ليسوا من أولياء الله بحسب قاعدة عكس النقيض،بل من أولياء الطاغوت، فلذلك طبائعهم مجبولة على حبّ الدنيا وزينتها ورياستها.

والجوهر الروحاني الذي جبل على فطرة الله وفطر على قبول دعوة الإسلام ودين التوحيد،فهو مودع في الإنسان بالقوّة كالجوهر في المعدن، لايستخرج إلى الفعل إلاّ بجهد جهيد وكدٍ شديد وسعيٍ تامّ،وتنقية للقلب وتصفية للباطن عن أغراض النفس،وأعمال وعبادات على قانون الشريعة الحقّة،ومتابعة تامة للنبيّ صلّى الله عليه وآله في أوامره وزواجره وأحكامه

ورموزه وإشاراته. وبعده لوَرثة علمه وخزّان كتابه ـ وهم الأئمة المعصومون من أهل بيت نبوته وولايته، والعلماء الربّانيّون الراسخون في العلوم الإلهيّة، المتأدّبون بالآداب السبحانيّة خلَفاً بعد خلَف وخليفة بعد خليفة، إلى آخر الدور والقرون ومنتهى العصر والزمان.

وفي زمان كلّ واحد منهم جمهور الناس ـ بل أكثر علمائهم وفقهائهم ـ مع دعوى ايمانهم علانية ينكرون أطوار الأئمّة وسيرهم ضميراً وسرّاً، ويستبعدون ترك الدنيا والعزلة والانقطاع عن الخلق ـ وهو بعينه تمنّي الموت ـ وينكرون التبتيل[٢] إلى الله بالكليّة بالموت الإرادي طلباً للحيوة المعنويّة الأبديّة،إلاّ من كتب الله في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه، وهو نتيجة الصدق في الطلب وحسن الإرادة الحاصلين من بذر ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وإلاّ فمن خصوصيّة الإنسان بحسب ماركز فيه من الطبيعة الظلمانيّة التي لأصحاب الشيطان أن يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وإن كانوا يصلّون ويصومون ويزعمون أنّهم متديّنون ولكن بالتقليد ـ لابالتحقيق ـ اللهمّ إلاّ من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

تنبيه

لايخفى عليك إنّ في الإخبار بعدم تمنّيهم الموت ـ ولو بحسب القول واللسان ـ معجزةً من معجزات رسول الله صلّى الله عليه وآله،لما روى أنّه قال لهم: «والذي نفسي بيده لايقولها أحدٌ منكم إلاّ غصّ الله بريقه»[٣] فلولا أنّهم

(٢) السبيل ـ نسخة. (٣) الدر المنثور: ج٦ ص ٨٩.

كانوا موقنين بصدق الرسول صلّى الله عليه وآله لتمنّوا ذلك، ولكنّهم علموا إنّهم لو تمنّوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد، فما تمالك أحد منهم أن يتمنّى.

﴿الإشراق الرابع﴾

[تمنى الموت دليل كون صاحبه أهل السعادة]

قدنبّه الله في هذه الآية على كذب اليهود في دعويهم ولاية الله وقربه، ونبّه في موضع[٤] آخرعلى كذبهم في دعويهم أنّ الآخرة خيرٌ لهم من الأولى وأنّ الدار الآخرة خالصةٌ لهم، وكشف عن ذلك أيضاً بهذا الطريق فقال مخاطباً لرسوله صلّى الله عليه وآله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ عِنْدَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٩٤/٢] فأخبر بأنّهم لن يتمنّوا الموت أبداً بما قدّمت أيديهم من سوء الأفعال وقبح الأعمال وفساد الأنظار والأطوار المؤدية إلى الإحتراق بالنار كما قال طبق هذا المقال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [٩٥/٢]تنبيهاً على أنّهم ليسوا من أهل سلامة الآخرة وسعادة تلك الدار،إذ ليسوا من أهل المحبّة الإلهيّة، و المودّة الروحانيّة، فإنّ لمحبّة الله وولايته التي للأولياء المقرّبين علامات مرجعها إلى ترك الالتفات بغير الله وقطع النظر عمّا سواه وتنقية القلب عن سائر المحبوبات.

والمتضمّن لهذه التروك كلّها هو الموت، فمَن أحبّ لقاء الله اشتاق إلى الموت، إذ بالموت يتخلّص عن صحبة الأغيار بالكليّة ويرجع إلى لقاء الله العزيز القهّار.

---

(٤) مواضع ـ نسخه.

ومن جملة الأغيار المحبوبة بالمحبّة المجازيّة هي النفس والأهل والولد والمال والجاه والشهرة،وكلّ محبة لمحبوب مجازيّ يمنعه عن نحو من العبوديّة التامّة والمحبّة الحقيقيّة لله تعالى.

فمَن غلب عليه محبّة المال تمنعه عن الزكوة،ومحبّة الوطن تمنعه عن الحجّ، ومحبّة البدن بالأكل والشرب تمنعه عن الصوم، ومحبّة النفس تمنعه عن الجهاد، ومحبّـة الجاه والشهرة تمنعه عن تعلّم العلوم الحقيقيّة عن الغير والاعتراف بقصوره وجهله والإقرار بفضيلة من هو أعلم منه كثيراً.

فترك كلّ منها علامة من علامات محبّة الله من جهة امتثال أمره بما يكـرهـه ونهيه عمّا هو يحبّه . فمهـما ترك جميع محبوباته فحصل له علامة الاستعداد للقاء الله فيهون عند ذلك عليه الموت، لأنّ محبّة كلّ شيء سوى الله فرع محبّة النفس، فمهما ترك بمحبّة الله محبّة النفس زالت عنه محبّة كلّ شيء سوى الله. فصار وليّاً من أولياء الله،عارفاً به،مشتاقاً إليه،وإلى عالم ملكوته،فيتمنّى الموت.

فتمنّي الموت لهذا الوجه يكون من علامة ولاية الله وعرفانه، ولذا قال ﴿فَتَمَنَّوا ٱلْمَوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ومن كان حاله على مضادّة هذا الحال حيث يحبّ النفس والولد والأهل والمال والعشيرة والجاه،يكون من أعداء الله، كما قال سبحـانـه ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللّهِ ورَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [٩/٢٤].

﴿ الإشراق الخامس ﴾

[الإنسان لماذا لايتمنى الموت]

قد نفي الله تعالى عن اليهود ومَن يحذو حذوهم من أولي الطبائع الغليظة والقلوب القاسية عن قبول نور المعرفة والحكمة تارة درجة الولاية والقرب ـ كما في هذه الآية ـ، وأُخرى درجة السعادة الاُخرويّة ـ كما في الآ ية المنقولة ـ.

والسبب في ذلك أنّ أهل الآخرة إن كانوا من الكاملين في المعرفة واليقين فهم من أولياء الله المقرّبين، وإن كانوا من الكاملين في العمل فهم من أصحاب اليقين. وجزاء المقرّبين مجاورة الحقّ الأوّل ومشاهدة لقائه ولقاء العاكفين في حضيرة قدسه وساحة ملكوته، وجزاء أصحاب اليمين السيحان في روضات الجنان ومنادمة الحور والغلمان والابتهاج باللؤلؤ والمرجان.

وهاتان المرتبتان كلتاهما مسلوبتان عنهم راساً،لفساد اعتقادهم لعنادهم وجحودهم للعلوم الحقّة الحقيقية،واعتمادهم على أوهام وظنون تقليديّة تلقّفته من غير دراية، وبطلان أعمالهم لغلبة دواعيهم[5] الحيوانيّة وانكبابهم إلى طلب هذه الدنيا الدنيّة، فينفي عنهم مايؤدّي إلى الكمال العلمي والعملي بالكليّة، فيمتنع عنهم تمنّى الموت.

وإنّما يتمنّاه مَن كان حكيماً عارفاً بالله حارساً لآخرته،عاملا عمل أهل الآخرة من الزهد في الدنيا وترك مرغوباتها ومستلذّاتها ورياساتها،حتّى يكون الموت موصلا إيّاه إلى محبوبه الأصلي ومطلقاً له عن أسر الطبيعة وحبس الظلمات وصبحة الأضداد والموذيات،وقاطعاً عنه كلفة العبادات وشدّة الرياضات والمحن والأمراض.

---

(٥) دعاويهم ـ نسخه.

﴿الإشراق السادس﴾

[تمنّي الموت من علامات أهل النجاة]

إنّ في كلّ واحدة من هذه الآية ونظيرتها إشارة إلى أنّ أصحاب العلوم الظاهرة المنكرين على أرباب المعارف الحقيقيّة يزعمون أنّهم من أهل النجاة وأهل الدرجات،دون هؤلاء المحقّقين المعرضين عن الصيت والاشتهار وطلب الافتخار والتقلّب في البلاد والديار والتعرض للشيخوخة والقضاء وتولية الأوقاف.

فجعل الله تعالى علامة أهل النجاة السآمة من حيوة هذه الدنيا وتمنّي الموت، وأشار إلى أنّ هذا حال السالك والمحبّ الصادق، والمحقّق العاشق، كما قال بعضهم:

اقتلوني ياثقاتي إنّ في قتلي حياتي

فإنّ العبد المطيع يحب الرجوع إلى مولاه، والعبد العاصي الآبق يكره الرجوع إلى مولاه. وفي الحديث: من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقائه، ومن كره لقاء الله كره الله لقائه[٦]. أي: محبّة العبد للقاء الله نتيجة محبّة الله للقاء العبد بحسب الجذبة الإلهيّة التي لايوازيها عمل الثقلين. ولذا قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [٥/٥٤] بتقديم الأوّل على الثاني دون العكس.

وبالمقايسة إلى حال السالك العارف يعرف حال الواقف الجاهل والمبتدع المضلّ المداهن الحريص على الدنيا، لأنّ حال العدوّ بخلاف حال الوليّ، وحال الساكن الواقف في النشأة الأولى بخلاف حال المسافر الساير

(٦) معاني الأخبار: ص ٣٢٦. البخاري: ج٦ ص ١٢٩.

إلى النشأة الأُخرى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٥٦/٦٢].

ولـذا قال سبحانه في وصفهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [٢/٩٦] لأنّ المشركين وإن كانوا حُرّاصاً على الحيوة، ولكن لم يكن لهم خوف العـذاب لإنكـارهم البعث. وأمّا المغرور الممكور فيكون له حرص الحيوة وخوف العقاب، فيكون أحرص الناس على الحيوة من المشرك.

وبالجملة حبّ الدنيا نتيجة الغفلة من الله، فأشدّهم منه غفلة أحبّهم للدنيا، وحال المؤمن على ضدّ هؤلاء كما عرفت.

﴿الإشراق السابع﴾

[حكمة خلق العصاة وذوي القلوب القاسية]

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إشارة إلى أنّ ايمان المؤمنين ونفاق المنافقين أُمور مُرتبة بالعلم الأزلي والقضاء الأُولي بحسب اقتضاء الأسماء الإلهيّة الموجبة لأن يكون وجود هذا العالَم السفلي والمحلّ الهيولي ممتزجاً بالأنوار والظلمات، مركّباً من الشرور والخيرات، لأنّ نظامه حاصل من تركيب الأضـداد وطبائع متخالفة المواد والأجساد، ولاينصلح تعميرها إلّا بنفوس فظاظ غلاظ شداد، وقلوب قاسية كالحجـارة متلطّخـة بالـظلمة والسواد، لايلينهـا إلّا النـار الآخـرة التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين، ولايوثـر فيها الوعظ والنصيحة والإنذار، ولاينجع لها تلاوة الكتاب والسُنّة

بالدرس والتكرار، لعدم اهتدائهم بعالَم آخر إليه رجعي نفوس الأخيار ومعدن العلوم والأنوار.

وعن بعضهم: إنّ الله قد أبطل قولَ اليهود وأظهر لهم كذبَهم في هذه السورة في ثلاثة أُمور: افتخروا بأنّهم أولياء الله وأحبّائه فكذّبهم في قوله: ﴿فَتَمَنَّوا ٱلْمَوتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وبأنّهم أهل الكتاب والعرب لاكِتاب لهم، فشبّهم بالحمار يحمل أسفاراً. وبالسبت وأنّه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة ـ والله وليّ الهداية والتوفيق.

المطلع السابع

في قوله تعالى

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

وفيه إشراقات:

الأوّل في القرائة:

قرء[1] زيد بن علي عليه السلام: «إنّه ملاقيكم» بدون الفاء، وفي قرائة ابن مسعود: «تفرّون منه ملاقيكم» وهي ظاهرة. وأمّا التي بالفاء فلتضمّن الذي معنى الشرط. وقيل: إنّ التقدير قل إنّ الموت هو الذي تفرّون منه. فجعل«الذي»في موضع الخبر، لاصفة للموت، ويكون «فإنّه» مستأنفا. وكذلك في قرائة زيد قد جعل«إنّ الموت الذي تفرّون منه»كلاماً برأسه، أي إنّ الموت هو الشيء الذي تفرّون منه، ثمّ استؤنف إنّه ملاقيكم.

﴿الإشراق الثاني﴾

[لاينفع الفرار من الموت]

﴿قل﴾ ـ يامحمّد صلّى الله عليه وآله ﴿إنّ ٱلموتَ الذي تَفِرّونَ منْهُ﴾

---

(١) الكشاف.

لاعتيادكم[٢] بصحبة أهل الدنيا وأبنائها وشهواتها ونسائها ومالها وأسبابها وبنانها ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ أي إنّكم وإن فررتم من الموت أو القتل بتقوية المزاج وأكل الأغذية الجيّدة والمشروبات المقوية،والتداوي بالأدوية والترياقات لدفع السموم والآفات، وتحصيل الوقايات من الأسلحة الدافعة والدورع الواقية واتّخاذ الأبنية والحصن الرفيعة والقلاع العالية الحصينة والبروج المشيدة الحارسة عن العدوّ ـ إلى غير ذلك من التدابير البشريّة والحيل الآدميّة لمدافعة الموت ـ فإنّه لاينفعكم عند حلول الأجل المعلوم عند الله، ولا بدّ أن ينزل بكم الموت ويلاقيكم ويدرككم، ولا ينفعكم الهرب منه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّم ٱلْمَوتُ وَلَو كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [٧٨/٤].

وإنّما قال بالفاء وحرف التأكيد والجملة الاسميّة مبالغةً في الدلالة على أنّه لاينفع الفرار منه، فسواء فرّوا منه أو لم يفرّوا فإنّه ملاقيهم، بل ربما كان نفس الفرار من أسباب الموت كما يشاهَد في بعض مواضع الاحترازات والاستعلاجات الطبيّة والنجومية،حيث يصير بعينه سبباً من أسباب الوقوع فيما وقع الفرار منه. فإذا كان الفرار كالسبب في ملاقات مايفرّ منه فلامعنى للتعرّض للفرار لأنّه لايباعدهم على أيّ وجه.

وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام: «كلّ امرء لاقٍ مايفرّ منه والأجَل مساق النفس والهرب منه موافاته»[٣]. وقال زهير:

ومن هابَ أسباب المنايا ينلنه ولو نالَ أسبابَ السماء بسلّم

ولاشكّ إنّها يناله، هابَها أو لم يهبها، ولكنّه إذا كانت بمنزلة السبب للمنيّة فالهيبة لامعنى لها.

---

(٢) لاعتباركم ـ نسخه. (٣) نهج البلاغة، من الخطبة رقم ١٤٧ وفيه: كلّ امرىء لاق مايفرّ منه في فراره.

﴿الإشراق الثالث﴾
في حكمة الموت

اعلم إنّـه قد تقرّر في العلوم الكليّة بيان حكمة الموت وحكمة نفرة النفوس عنه. أمّا حكمة الموت فلأنّ كون النفس في هذه الدنيا حال نقص دون التمام، وكونها في الآخرة حال تمام، فالبقاء على حال التمام أفضل وأكمل وألذّ وأشرف، كما أنّ حال الأبدان في الأرحام حال نقص عن التمام والكمال، وحالها بعد الولادة حال تمام وكمال؛ كما لايخفى على أحد، ولايجوز في العناية الربّانيّة إهمال شيء من الكمالات والخيرات وعدم الإجادة به على مستحقّه. فيجب بمقتضى جوده ورحمته إكمال كلّ ناقص بكماله اللائق بحاله.

وكما أنّه لايمكن الوصول إلى تمام الخلقة البدنيّة في الدنيا إلاّ بعد تقدّم حال النقص في الرحم والجواز عليه والخروج عنه، فهكذا حال الأرواح في تمام تكـوّنها الأُخـرويّ ونشأتها الثانويّة، فإنّها لايصل إليها إلاّ بعد تقدّم حال النقص في رحم الـدنيا والـورود فيها والجواز عليها والخروج عنها، فحال الأرواح بعد الموت على موازنة حال الأبدان بعد مفارقتها الأرحام لأنّ الموت ليس معناه سوى مفارقة الروح الجسد والدنيا، كما أنّ الولادة ليست سوى مفارقة الجسد المشيمة والرحم.

فالـدنيا كالرحم، والبدن كالمشيمة، والروح كالجنين، والم النزْع كألم الولادة، وملك الموت كالقابلة، والقبر كالمهد، وفضاء الآخرة وأنوارها الإلهيّة والجبروتيّة والملكوتيّة بالنسبة إلى ضيق الدنيا وظلماتها الثلاث التي بعضها فوق بعض ـ ظلمـة الهيولى وظلمة الطبيعة وظلمة النفس ـ بدواعيها الشهويّة والغضبيّة

والوهميّة كفضاء الدنيا وأنوارها الشمسيّة والقمريّة والسراجيّة بالنسبة إلى ضيق الجوف وظلماته الثلاث ـ ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن، أو ظلمات الجمادية والنباتيّة والحيوانيّة.

وأمّا حكمة كراهة الموت للأرواح: فإنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ جعل بواجب حكمته في طبع النفوس محبّة الوجود والبقاء أبداً سرمداً، وجعل في جبلّتها كراهة الفناء والعدم،لأنّ الوجود خيرٌ محض موثَر عند الكلّ،فيحبّه كلّ أحد ويبغض زواله، والموت يزيل هذا الوجود الدنيويّ فيكون مكروهاً. هذا هو السبب الفاعلي، وأمّا السبب الغائي وحكمته فليحرص النفوس بطباعها وغرايزها على حفظ البقاء ويهرب عن الأضداد والمفسدات قبل بلوغها إلى درجة الكمال.

وهيهنا وجهان آخران أحدهما أنّ الباري جلّ مجده لمّا كان ذاته بذاته علّة الموجودات ومقوّم الحقائق ومقيّم الكائنات وممسك السموات والأرض وهو باقٍ أبداً؛ صارت الموجودات كلّها تحبّ البقاء وتشتاق إليه،لأنّه صفة موجِدها وعلّتها، والمعلول يحبّ علّته وصفاتها ويشتاق إليها. فمحبّة البقاء وكراهة الفناء من فروع محبّة الباري جلّ ذكره، فمن أجل هذا قالت الحكماء الأقدمون والعرفاء المحقّقون: «إنّ الباري ـ جلّ ثنائه هو المعشوق الأوّل يشتاقه ساير الخلايق جبلّة وفطرة ويدور عليه الكلّ طبعاً وإرادة».

وثانيهما: أنّ أكثر النفوس لا يدري بأنّ لها وجوداً خلواً عن الأجسام، فيتوهّم أن الموت فناء الذات بالكلية.

فإن قيل: لِمَ لا يلهم اللهُ النفوسَ بأن لها وجوداً مستقلّاً ولا حاجة فيه إلى هذا البدن؟

قلنا: لأنّه لايصلح لها العلم بهذه المعاني، إذ لو علمت لفارقت أجسادها قبل أن تتمّ وتكمل، أو تهاونت في تدبيرها كما ينبغي، فأدّت الأجساد إلى الفساد قبل استعدادها للمعاد وهذا ممّا يبطل حكمة الايجاد.

وأيضـا: إذا فارقت النفـوس الأجساد قبل ذلك بقيت فارغة معطّلة بلاشغل وعمل ولامعطّل في الوجود. والحكمة تقتضي أن لايكون شيء من الموجودات مهملا معطّلا، كما أنّ الباري ـ جلّ ذكره ـ لم يخل أبداً من تدبير وصنعة حتّى يكون فارغاً بلاتدبير وإفاضة، بل كلّ يوم هو في شأن.

فظهر أنّ الموت لابدّ وأن يلاقيه الإنسان من جهة القضيّة الربّانيّة مع كونه مكروهاً تفرّ وتنفرّ منه النفوس بحسب ماهو مركوز في غرايزها من جهة التدبير الإلهي، ولذلك سلّط عليها دواعي هي أسباب دوامها الدنياوي، وهي بعينهـا أسباب عطبها و هلاك هياكلهـا وشقاوة نفوسها. وهذا من عجائب حكمـة الله في هذا العـالَم حيث يكـون سبب البقـاء بعينه سبب الهلاك والشقـاوة، وتلك الأسبـاب والـدواعي المسلّطة هي مثـل الجوع والعطش والشهوات المختلفة والأشواق واللذات الزايلة.

أمّا قصد الباري في تكوين الجوع والعطش وتسليطهما على النفوس ليدعوها إلى الأكل والشر ب ليخلف[٤] على أبدانها من الكيموسات الصالحة بدلا عمّا يتحلّل منها ساعة فساعة، ليبقى بها الشخص والنوع، إذ كانت أجسامها دائماً في التحلّل والذوبان والسيلان.

وأمّا الشهوات المستولية فلأن يدعوها إلى الأغذية الجيّدة والمأكولات المختلفة الموافقة لأمزجة أبدانها ومايحتاج إليه طباعها مدّة الكون.

(٤) ليختلف ـ نسخة.

وأمّا اللذّة: فلأن يكون مايأكل ويشرب بقدر الحاجة ولايزيد ولاينقص.

وأمّا الذي يعرض لها من الآلام والأوجاع عند الأمراض والعاهات[٥] العارضة لأجسادها فلأن يحرص النفوس على حفظ أجسادها من الآفات ليبقى إلى وقت معلوم ولايفسد قبل بلوغ النفس إلى كمالها اللائق بحالها، فإنّ استكمالها بالعلم والعمل وبلوغها إلى درجة العقل والمعقول بالفعل إنّما يحصل بآلات البدن واستعمال حواسّه الظاهرة والباطنة مدّة مديدة. ولذا قيل: «مَن فقَدَ حِسّا فَقَد عِلمًا».

﴿الإشراق الرابع﴾

[لمية لحوق الموت الطبيعي]

اعلم إنّابيّنا في بعض فصول أسفارنا[٦] علّة لحوق الموت الطبيعي بكلّ نفس منفوسة بوجه تحقيقي غير ما اشتهر في الكتب الطبيعيّة والطبيّة، واستبطنا ذلك من بعض الآيات القرآنيّة حسبما ألهمني الله، وأثبتناه بالبيان البرهاني على نهج الحكماء الإلهيّين، لابالبيانات التي هي مسلك الأطبّاء والطبيعيّين.

وحكاية القول فيه: إن في جبلّة النفوس بل المكوّنات العنصريّة كلّها الترقّي من حال إلى حال والتدرّج إلى كمال بعد كمال، والتوجّه والسير الحثيث إلى المبدأ الفعّال والقيّوم المتعال، وهذا أمر مشاهَد في النبات والحيوان،فضلا عن الإنسان،وقد أُقيم في مواضعه عليه البرهان.

أوَلا ترى أنّ النفس الإنسانيّة منذ أوّل تكوّنها النطفي قبل حين تكوّنها النطقي كانت لها قوّه قابلة هيولانيّة شبيهة بالعدم،كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى

---

(٥) الافات ـ نسخة.

(٦) راجع الاسفار الاربعة: ٩٨/٨ الى ١٠٨. و٤٧/٩ الى ٥٣. و٢٣٧/٩.

عَلَى ٱلإِنسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [١/٧٦] ثمّ دخلت في دائرة النبات، ثم في دائرة الحيوان، ثمّ ظهر منها آثار البشريّة حتّى بلغت غاية النموّ وكمال الخلقة حين أشدّها الصوري،فصارت قويّ القوى الشهويّة والغضبيّة. ثمّ إذا جاوزت عن وقت بلغ غاية النموّ فشرعت في الذبول الخَلقي والفتور البدني، ولم يكن منشأ ذلك آفة خارجيّة وردت عليها أو قصور عرض لها في حين حركتها نحو الكمال.

وقد علمت إنّ الفائض من المبدأ الحق ليس إلّا خيراً وكمالا ـ لاعدماً وشرّا ـ واستدعاء القابل منه ليس إلّا البقاء والدوام لا الذبول والفساد، بل منشأئه توجّه الطبيعة النفسانيّة نحو نشأة ثانية وسلوكها مسلكاً آخر إلى عالَم آخر، كما سننبّه عليه تنبيهاً يليق بهذا الموضع.

وأمّا حديث تناهي القوى الجسمانيّة في فعلها وانفعالها،وكلال الالات عن تمادي الحركات والتغيّرات إلى لانهاية،فهو إنّما يصدق فيما يكون الأفعال والانفعالات صادرة عنها على [٧] الاستقلال، وأمّا على سبيل الاستمداد عمّا هو أرفع منها فيحتمل اللانهاية كما في حركات الأفلاك على رأيهم.

وأمّا حديث قصور مزاج الغذاء الذي يصير بدلا عمّا يتحلّل بحسب الكيفيّة عن مزاج أصل البدن من جهة نقصان مراتب الهضم والتعديل فيه عن مراتبها في مادّة البدن بمرتبة واحدة:

ـوذلك لأنّ النطفة ممّا وردت عليه خمسة هضوم وتعديلات ـأحدها في المعدة، والثاني في الكبد، والثالث في العروق، والرابع عند الأعضاء، والخامس في اوعية المني مثل الاُنثيين والرحِم ـبخلاف الغذاء؛ فإنها تقصر عن المني في تلك

(٧) عن ـ نسخة.

المراتب بمرتبة واحدة أخيرة، وهي التي يصير المنّي بها تامّ الاستعداد لقبول الصورة الحيوانيّة، فلايكاد فيها يزيد منها على البدن لما ينقص من الاعضاء عنه، فلهذا يعرض الفناء.ـ

فهو أيضا أمر تخمينيّ مبناه على الظنون والترجيحات الخياليّة ـ لاعلى المقدّمات الاضطراريّة البرهانيّة،والبرهان هو المتّبع ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وأمّا حكاية النجوم وأحكامها في باب مقادير الأعمار: فأكثرها مجازفات وتخمينات ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ٱلظَّنَّ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا﴾.

بل الحقّ الحقيق بالتصديق أنّ الطبيعة بحسب ماأودعه الله في جبلتها إذا جاوزت النوع الأخسّ ـ وقد بقيت بعد ـ فلابّد وأن تتخطّى النوع الأشرف، والاّ لكانت معطّلة، ولا معطل[8] في الوجود. وقد تقرّر أيضا في العلوم الإلهيّة أنّ الطبيعة العنصريّة ما لم توف النوع الأخسّ لم تتجاوز منه الى النوع الذي فوقه.

ثمّ لاشبهة في أنّ الإنسان بحسب كمال خلقته البدنيّة أشرف الأنواع الحيوانيّة،لكونه تامّ الحواسّ،مع [9] قوّتين أُخريين تخصّان به، وهما نظريّة وعمليّة، فمعلوم أنّ طبيعته قد تجاوزت عن جميع الحدود المترتبّة التي في سائر الحيوانات، بعدما تجاوزت عن سائر الدرجات النباتيّة،المتجاوزة عن الجماديّة والجسميّة والجوهريّة المطلقة والشيئيّة العامّة، وهي بعد في الحركة المعنويّة، و لم يبق من الصور والأنواع الممكنة في عالَم الطبيعة ونشأة الدنياويّة إلاّ وتجاوزت عنه متوجهّة نحو غيره، فلابدّ من توجهّها ورجوعها إلى عالَم الآخرة وعند

(٨) ولايعطل ـ نسخة. (٩) وله ـ نسخة.

الله، سواء كانت سعيدة مسرورة،أوشقيّة مخذولة معذبّة منكوسة، لأنّ هذه الحركة من النفس ليست اختياريّة بل اضطراريّة جبليّة.

فالموت الطبيعي عبارة عن تجاوز الطبيعة الإنسانيّة عن مراتب الاستكمالات الحيوانيّة المناسبة لها في هذه الدار ـ وهي عالم الشهادة ـ إلى أوّل نشأة تكون لها في الدار الآخرة وعالَم الغيب.

فهذا هو السبب البرهاني اللمّي لعروض الموت، كما أنّ ماذكرناه أوّلا هو السبب الغائي له. فافهم واغتنم فإنّه مع كمال وثاقته وقوّته ووضوحه وجلائه ربما خفي على الأذهان القاصرة الغير المناسبة لمطالعة المباديء الإشراقيّة،وأخذ النتائج المطلوبة منها لاعتيادها بالتلقّف والاكتساب عن المباديء التقليديّة الحسيّة ـ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

﴿ تذكرة تمثيلية ﴾

[يجب الاستغناء عن البدن قبل خرابه]

إنّ معنى الموت في الحقيقة يرجع إلى ترك النفس استعمال الجسد،لأنّ البدن للنفس بمنزلة الدكّان للصانع، والأعضاء بمنزلة الآلات،فإذا كلّت آلات الصانع أو انكسرت أو خرب الدكّان وانهدم بنائه فإنّ الصانع لايقدر على عمل شيء من الصنعة إلاّ أن يتجدّد دكّاناً آخر وأدوات متجدّدة أُخرى.

فكلّ صانع حكيم إذا فكر في أمره ونظر في عواقب عمره علم بأنّه لابدّ وأن يخرب يوماً دكّانه وتكلّ أدواته وتضعف قوّة بدنه ويذهب أيّام شبابه،فمن بادَر واجتهد قبل خراب الدكّان وكسر الآلات وذهاب القوّة واكتسب مالاً يغنيه عن الدكّان واستغنى عن السعي، فإنّه لايحتاج بعد ذلك إلى دكّان آخر

وأدوات أُخرى مجدّدة، بل يستريح من العمل ويستقلّ بالتمتّع والالتذاذ بما كسب وادّخر، فهذه يكون حال النفوس الفاضلة بعد خراب أبدانها وعطب أجسامها.

فتفكّر ـ يامسكين ـ وبادِر واجتهد وتزوّد قبل خراب هذا الدكّان وفساد الآلات، فإنّ خير الزاد التقوى.

﴿شك وتحقيق﴾

[حكمة بقاء النفوس الكاملة في الدنيا]

إن قيل: ما العلّة في بقاء النفوس الكاملة المجرّدة بذاتها، المستغنية عن البدن وقواه: مدّة في هذه الدار مع مايعتريهم من المحن والآلام ومايلحقهم من الأوجاع والشدائد وعداوة الجهّال وفتنة الأشرار؟

يقال: الحكمة في ذلك كون تلك النفوس مشغولة بتدبير النفوس الناقصة المتجسدة كيلا يتم[١٠] هذه وتتخلص من النفس ، ويكمل تلك وتصير فوق التمام وبالغة إلى كمال بعد الكمال، وإلى حال أشرف وأعلى من ذلك الحال ﴿وانَّ اِلَى رَبِّكَ اْلْمُنْتَهَى﴾.

والمثال في ذلك: الأب الشفيق والأُستاذ الرفيق في تعليم التلامذة والأولاد وإخراجهم إيّاها من الظلمات والجهالات إلى فسحة العلوم والمعارف ليتمون[١١] هؤلاء ويكملون أولئك الآباء والأستاذون،ويخرجون بها في قوّة نفوسهم من العلوم والصنايع والحِكم إلى الفعل والظهور، اقتداء بالباري سبحانه وتشبّهاً بالحكيم الأوّل في حكمته وجوده، إذ هو السبب في إخراج

(١٠) الظاهر: كي يتم.

(١١) تموّن: ادخر مايلزمه من المونه.

الموجودات من القوّة والبطون إلى الفعل والظهور، فكلّ نفس هي أكثر علوماً وأحكم صنعة وأجوَد عملا وعلى غيرها أكثر إفاضة وَجوداً وإفادة فهي أقرب إلى الله نسبة وأشدّ تشبّهاً.

وهذه أوّلا هي مرتبة الملائكة الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٦٦/٦] فـ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [١٧/٥٧] ولهذا قالت أئمّة الحكمة العتيقة في تعريفها: «إنّها هي التشبّه بالإله بقدر الطاقة البشرية».

وفي الحكمة المحمّدية ـ على الصادع وآله أفضل التقديسات والتسليمات ـ: «تخلّقوا بأخلاق الله». يعني من يكون علومه حقيقيّة وصنائعه محكمة وأعماله صالحة صافية من الغشّ والدغل، وأخلاقه جميلة وآرائه صحيحة وفيضه على مَن دونه متّصلا فهو من أولياء الله المؤمنين المقرّبين منه وأحبّائه المزدلفين لديه.

﴿الإشراق الخامس﴾

[التوحيد الأفعالي]

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ اعلم إنّه قد وقعت نسبه قبض الأرواح وجذب النفوس وردّها إلى عالَم الآخرة تارة إلى الله تعالى كما في قوله: [تعالى] ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [٣٩/٤٢] وتارة إلى بعض ملائكة الله المقرّبين كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٣٢/١١] وتارة إلى رسل الله كما في قوله تعالى:﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [٦/٦١] وتارة إلى نفس النفس كما في قوله تعالى:

﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةِ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [٢٨/٨٩] وتارة لم ينسب إلى فاعلٍ معين وقابض معلوم كما في هذه الآية. ونحن قد ذكرنا في تفسير سورة يس مايستفاد منه وجه في تعدّد هذه النسبة وتكثّر المبادىء في هذا الفعل، فليراجع إليه من أراد ذلك[١٢]، ولكن لانسكت هيهنا عن ذكر شيء يسير من المقال يشير إلى لميّة الحال.

فنقول: إنّ بين الذات الأحديّة الإلهيّة وبين كلّ موجود طبيعي أُمور متوسّطة هي أسباب تحقّقه ووسائط تكوينه، ومنها ما هي أسباب جذب الأرواح والنفوس من أسفل سافلين، كما أنّها بعينها أسباب وجودها وورودها من أعلى علّين.

فأوّلها اسم الله «القابض» في العالَم الإلهي، ثمّ الملك المقرّب الذي يجذب الأرواح في عالم القدس، ثمّ نفوس رسل الله وهم الدعاة إلى الله، ثمّ النفوس المطمئنّة الراجعة إلى ربّها راضية مرضيّة في عالم النفوس، ثمّ الطبيعة الإنطباعيّة في عالَم الطبائع؛ وإن كان لكلّ إنسان قوّة محرّكة جاذبة للجسم الغذائي الترابي إلى درجة الطبيعة النباتيّة، وله قوّة أُخرى حيوانيّة فاعلة للحسّ والحركة الإراديّة تجذب لطائف الأخلاط إلى أُفق الأرواح البخاريّة، وله قوّة نطقيّة فوق القوة الحيوانية تجذبها إلى مرتبة النفس النطقية، وفوقها قوة نبويّة تدعو النفس النطقيّة جاذبة إلى عالم الملكوت الغيبيّة، وفوقها قوّة جبرئيليّة ترافقها وتصعد بها إلى عالَم الربوبيّة. والله سبحانه بقوّتها التي تمسك السموات والأرض أن تزولا فوق الكلّ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ ويقبض الكلّ باسمه «القَابض» ﴿والأرْض جَميعاً

(١٢) تفسير سورة يس ص ١٦٠.

قَبْضَتُهُ يَومَ ٱلْقِيمَة﴾.

فللإشارة إلى هذه المراتب المقتضية لقبض الأرواح وجذب النفوس إلى الله تعالى وقعت نسبة التوفّي تارة إلى الله تعالى، وتارة الى الملك الروحاني وإلى ملائكة هي دونه في الرتبة، وتارة إلى رسل الله، وتارة إلى النفس، تارة إلى الطبيعة المسخّرة ـ كما في هذه الآية ـ تنبيهاً على اختلاف هذه النشآت وتعدّد العوالِم وتفاوت الدرجات للإنسان.

لكن يجب على الناظر المتأمّل أن يعلم ممّا أكثرنا ذِكره وكرّرنا إثباته في توضيح أسرار بعض الآيات أنّ كلّ فعل إذا نسب إلى الباري القيّوم يكون بالحقيقة لابالمجاز، وإن نسب إلى ماسواه يكون بالمجازبوذلك لأنّ الأسباب مستهلكة الذوات والمهيّات عند مسبّبها،فإذا سمعتَ مثل قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوفَّى ٱلانْفُسَ حِينَ مَوتِها﴾ فاحمله على الحقيقة في التوفّي، وإذا سمعت مثل قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفّيكُمْ مَلكُ ٱلْمَوتِ﴾ فاحمله على المجاز.

فالكامل في العرفان من كان في حدقة عرفانه نوران: نور التوحيد، ونور الحكمة. ولايطفي أحدهما نور الآخر، فبأحد النورين ينظر إلى توحيده تعالى، وبالنور الآخر ينظر إلى حكمته في ترتيب الأسباب للمسبّبات، ويرى كثرة صورَ الأعيان التي هي مظاهر الأسماء في وحدة وجوده وفيض جوده.

وأكثر الناس ممّن يشغلهم شأن عن شأن، فمنهم من راعى جانب التوحيد في الأفعال،فاهمل رعاية الحكمة والترتيب كالأشاعرة المنكرين للقول بالعلّة والمعلول وترتيب الأسباب ـ أوَلم يتدبّروا في خلْق السموات والأرض ومابينهما من عجائب الحكمة وبدائع الفطرة، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَاخَلَقْنَا ٱلسَموَاتِ وَٱلأرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ [٤٤/٣٨] وقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّموات وَالارض وَماخَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَد اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ * مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَه ويَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [٧/١٨٥ ـ ١٨٦] فهذه الآية ناصّةٌ على وجوب النظر في المسائل الحكميّة على من وفّق له.

ومنهم من راعى جانب الحكمة في إثبات الوسائط،لكن أهمل جانب التوحيد الأفعالي وصارت رؤية الأسباب القريبة حجاباً له عن رؤية مسبّب الأسباب، وهذا كالمعتزلة المثبتين للعبد قدرة مستقلة.

* * *

وأمّا الذي تزيّن به محقّقوا الإسلام وحكماء شريعة سيّد الأنام ـ عليه وآله السلام ـ وهم الراسخون في علم القرآن والعالمون بتأويل الأحاديث؛ فهو الجمع بين التوحيد والشريعة الحكميّة، ولأجل هذا الجمع والتوفيق نسب الله الأفعال في القرآن مرّة إلى الملائكة أو العباد ومرّة إلى نفسه فقال في القبض تارة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّيكُمْ مَلكُ الْمَوتِ الذي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وتارة: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوتِهَا﴾ وتارة: ﴿إِرْجِعي إِلى رَبِّكِ﴾ وقال في باب الحراثة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ﴾ [٥٦/٦٣] ثمّ قال: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً﴾ [٨٠/٢٥ ـ ٢٧] وقال في باب نفخ الأرواح في الأجساد مرّة: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ [١٩/١٧] ومرّة: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [٦٦/١٢] ومرّة: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾ [٣/٤٩].

وفي الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في وصف ملك الأرحام: إنّه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثمّ يصوّرها جسداً،فيقول: ياربِّ أذكرٌ

أم انثى أسويّ أم معوج؟ فيقول الله ماشاء، ويخلق الملك[١٣].

وفي لفظ آخر: يصوّر الملك فيها الروح بالسعادة والشقاوة[١٤].

وقال بعض السلف: إنّ الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجسام، وإنّه يتنفّس بوصفه فيكون كلّ نفَس من أنفاسه روحاً يلج في جسم، ولذلك سُمّي روحاً.

وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حقّ يشاهده أصحاب القلوب ببصائرهم. وهذا بعينه كحال المتكلم بالكلام الحكمي حيث أنّ كلّ نفَس من أنفاسه يفيد معنى عقليّاً يلج في تشكّل كلامه، وكذلك ذكر الله في القرآن الآيات الدالّات على وجوده ووحدانيّته، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ [٣/١٩٠].

ومثل قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [٤١/٥٣] فنسب الدلالة على وجود ذاته والشهادة على وحدانيته إلى الموجودات الآفاقيّة والأنفسيّة ثمّ قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٤١/٥٣] وقال أيضاً: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّه لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾[٣/١٨] فبيّن أنّه الدليل على نفسه.

وليس ذلك بمتناقض بل طرق المعرفة مختلفة: بعضها من جهة الحكمة والترتيب في النظام، وبعضها من جهة التوحيد وأحديّة الجمع؛ فكم من سالك عرف ذاته بوسيلة النظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف بالنظر إليه

---

(١٣) جاء مايقرب منه في مسلم: كتاب القدر ج١٦/١٩٤.

(١٤) راجع الكافي: كتاب العقيقة، باب بدا خلق الإنسان.. ج٦ ص ١٣.

كلّ الموجودات، فقال: «عرفت ربّي بربّي، ولولا ربّي لما عرفت ربّي».

وهذا بعينه مسلك الصدّيقين، والأوّل مسلك ذوي الأنظار.

وأيضا قد وصف الله نفسه بأنّه المحيي والمميت، ثمّ فوّض الموت والحيوة إلى ملكين. ففي الخبر: «إنّ ملك الموت وملك الحيوة تناظرا فقال ملك الموت: أنا أميت. وقال ملك الحيوة: أنا أحيي الأموات. فأوحي الله إليهما: كونا على عملكما وما سخّرتما له من الصنع؛ فأنا المحيي والمميت ولامحيي ولامميت سواي».

فالمحقّق العارف هو الذي ينكشف له بنور معرفته أن لاقوام للأشياء عنده بأنفسها وإنّما قوامها بغيرها، فهي باعتبار أنفسها باطلات الذوات هالكات الهويّات والإنيّات، وإنّما حقيّتها[١٥] بغيرها لا بأنفسها من حيث هي هي، فإذاً لاحقّ عند المحقّق المحِقّ إلّا الحقّ القيّوم الذي ليس كمثله شيء فهو القائم بذاته وكلّ ماسواه قائمة بقدرته،فهو الحقّ وماسواه باطل.

ولّما جرى هذا المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً أو إتّفاقاً صدّقه رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد:

ألاكلّ شيء ماخلا الله باطل وكلّ نعيم لامحالة زائل[١٦]

فكلّ شيء هالك إلّا وجهه.

﴿الإشراق السادس﴾

[المحيي هو المميت]

لما علمت أنّ للإنسان مراتب مختلفة في الوجود [و] لتحصيل كلّ مرتبة

---

(١٥) حقيقتها ـ نسخة. (١٦) راجع البخاري: باب أيام الجاهلية ٥٣/٥. مسلم: الشعر ١٣/١٥.

أسباب وعلل أوجدها الله تعالى؛ فاعلم إن محصِّل كل مرتبة عالية للإنسان بالذات مستتبع لزوال مرتبة دانية له بالعرض والتبعيّة؛ فمحيي الإنسان في كل نشأة هو مميته في النشأة المتقدمة عليها. ولهذا قيل لقابض الروح إنّه ملك الموت،نظراً إلى هاتين الجهتين، ويسمّى بأبي يحيى على الرسم،لامن باب تسمية الشيء باسم ضدّه كما هو عادة العرب، وأمّا نسبة الإحياء إلى ملك آخر غير ملك الموت-كما سبق-فذلك التعدّد بالقياس إلى وجود مرتبة ونشأة وعدم مرتبة ونشأة أخرى.

﴿ الإشراق السابع ﴾

في لميّة توجّه الروح الإنساني إلى الله سبحانه.

إنّ من الحكمة البالغة والنعمة السابقة أنّ الله قد جمع في سنخ حقيقة الإنسان ما أفرد به الملائكة المقرّبين والحيوانات المبعدين، فضلا عمّا خصّ به غير هذين الجنسين من العالمين أجمعين.

فمن ذلك أنّه تعالى أفرد الملك بنور روحانيّ علويّ باقٍ أبديّ، لأنّه نورٌ من أنوار الله وسرٌّ من أسرار الله، وأفرد الحيوانات بروح سفليّ فانٍ ظلماني، فأفرد الإنسان بالتركيب بين الروحين فيه: فانٍ حيواني وباقٍ ملكي.

فالحكمة في ذلك أنّ الروح الملكي غير متغذٍ ولانامٍ، وإنّما بقائه بالتسبيح والتقديس، وهما بمثابة النفس للحيوان، ولهذا ليس للملك الترقّي من مقامه لقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [٣٧/١٦٤].

والروح الحيواني قابل للترقّي لأنّه متغذّ فجعل الإنسان مركّباً من الروحين لينطبع روحه الملكي بطبع روحه الحيواني في التغذّي وقبول الفناء

الذي يعبّر عنه بالموت ليصير مترقّياً كالحيوان، قابلا لأن ينتقل من هذه الدار إلى دار البقاء، مترقيّاً إلى العالَم الأعلى، وينطبع روحه الحيواني بطبع روحه الملكي ليصير مسبّحاً ومقدّساً كالملك، باقياً بعد المفارقة، عارفاً بالله ـ بخلاف الحيوانات ـ.

ولكن من اختصاص الروح الحيواني بالتغذّي أن يجعل الغذاء من جنس المتغذّي ولونه وصفته. ومن أختصاص الروح الإنساني أن يكون متلوّناً بلون الغذاء ومتّصفاً بصفته، وذلك لأنّ غذاء الروح الحيواني الطعام والشراب وهما من الجماد والنبات، والحيوان المذبوح المطبوخ، وفيها الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة مركوزة بالطبع؛ والروح الحيواني غالب عليها ومتصرّف فيها يجعلها من جنس المتغذي، وغذاء الروح الإنساني ذكر الله وطاعته والشوق إلى جنابه والمحبّة إلى لقائه كما قال الله تعالى في أواخر هذه السورة: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٦٢/١٠] وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [١٣/٢٨] وأمثال ذلك، وفيه النور والجذبة الإلهيّة، وهما غالبان عليه. فالروح يتجوهر بجوهرهما وفي تجوهره بتجوهر الروح الربّاني نوع من الفناء عن وجوده والبقاء بنور ربّه. فهو بمثابة ميت ذاق الموت ثمّ أُحيي بنور ربّه كما قال تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يمشي به في ٱلنَّاسِ﴾ [٦/١٢٢].

وقد انكشف هذا المعنى لبعض الحكماء السابقين كفرفوريوس مقدّم المشّائين ـ وهو أعظم تلامذة أرسطاطاليس الحكيم ـ حيث ذهب إلى أنّ النفس الإنسانيّة ستصير بعد إحكام نور المعرفة عين النور العقلي الذي هو بذاته عقل بالفعل وفاعل للمعقولات التفصيليّة.

وظاهر أنّ النفس مالم تمت عن نشأتها النفسانيّة لم تتّحد بالعقل الفعّال المنور لما في الدار الآخرة من الصور والمهيّات. فهذا الفناء الذي استحقّ به الـروح الإنسـاني الإحياء الأُخرويّ بنور الله إنّما استفاده بسبب النفس الحيوانيّة التي هي ذائقة الموت وقابلة الفناء.فافهم واغتنم فإنّه عزيز الجدوى.

﴿ الإشراق الثامن ﴾

[ظهور صور الأعمال والملكات في الآخرة]

إنّ قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى ظهور صورة الأعمال والأخـلاق يوم القيامة. فإنّ الناس يحشرون يوم القيامة على صورَ نيّاتهم وهيئـات ضمائـرهم وأشكـال أخـلاقهم وصفاتهم الحاصلة من تكرّر الأفاعيل والمعاملات المؤثرة في القلوب إنارةً وإظلاماً. فإنّ الأعمال هيهنا بمنـزلـة الحـراثـة والـزراعـة وطـرح البذور في أراضي القلوب. والنيّات والإعتقادات المستورة فيها بمنزلة البذور، ومدّة الكون في الدنيا كمدّة الشتاء التي يحتجب الأرض فيها عن الشمس عن سمت رؤس أهلها. فإذا ارتفع النهار واشتدّ حرارة الشمس وقت الربيع يظهر ماكمن في باطن الأرض من البذور. ويحصـل الأزهار والأثمار، وانكشف ماستر في بواطن الأشجار من الأنـواع المختلفة والألوان المتضادّة. فيكون كلّ ثمرة مناسباً لحبّه وبذره، ويكون فيها بعضها حلواً وبعضها مُرّاًوبعضها حامضاً. وبعضها ترياقاً نافعاً، وبعضها سمّاً ناقعاً.

فهكذا يكون الحال يوم قيام الساعة وطلوع شمس الحقيقة من مغربها، وعنـد ذلـك يكـون حشر الحقائق: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُم أَحَداً﴾ [١٨/٤٧] وبـروزها للحقّ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [١٤/٤٨]

وظهور بواطنها وسرائرها: ﴿يَومَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ﴾ [٨٦/٩].

ويكون الحشر لهم على أنحاء مختلفه: فلقوم على سبيل الوفد: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَقِينَ اِلَى ٱلرَّحْمٰنِ وَفْداً﴾ [١٩/٨٥] ولقوم على سبيل الوهن والعذاب: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ اِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ [١٩/٨٦] ﴿وَيَومَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللهِ اِلَى ٱلنَّارِ﴾ [٤١/١٩] وقوم يساقون على وجوههم كالحيوانات المؤذية.

وبالجملة كلّ أحد يحشر إلى مايعمل لأجله ويحبّه، كما يدلّ عليه مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [١٧/٨٤] وقوله: ﴿أُحْشُرُوا ٱلذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [٣٧/٢٢] وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ﴾ [١٩/٦٨] حتّى أنّه: «لو أحب أحدكم حجراً لَحُشر معه» ـ كما ورد في الحديث[١٧] ـ ولاشكّ أنّ المحشور مع الحجر كان من جنس الحجر. وفيه سرٌّ غامض.

وبالجملة إنّ أفاعيل الأشقياء المدبرين، المتوقّفين بحسب هممهم القاصرة عن الارتقاء إلى عالَم الملكوت في البرازخ الحيوانيّة ومادونها بأعمال يناسبها، فلاجرم تكون تصوّراتهم مقصورة على أغراض شهويّة أو غضبيّة أو محبّة أجساد جماديّة كالذهب والفضّة والياقوت، فيحشرون على صوَر تلك الحيوانات وما هي أنزل منها في الدار الآخرة كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاِذَ ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [٨١/٥] وقول النبيّ صلّى الله عليه وآله: «يحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القردة والخنازير».

وربما يتصوّر بعضهم في هذه الدار بصورهم الحقيقيّة الأُخرويّة لأهل الكشف والشهود وذلك لغلبة سلطان الآخرة على بواطنهم.

﴿اِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾.

(١٧) الأمالي للصدوق: المجلس ٨٢ ص ٢٦٠.

المطلع الثامن

في قوله سبحانه

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾

وفيه إشراقات:

الأوّل: في اللغة والقرائة:

قال الشيخ أبو علي الطبرسي (ره): «الجُمْعة والجُمُعة[1] لغتان، وجمعها: جُمَع وجُمَعات. قال الفرّاء: وفيها لغة ثالثة: جُمَعَة ـ بفتح الميم ـ كضُحَكَة وهُمَزة».

وفي الكشّاف: «يوم الجُمْعَة: يوم الفوج المجموع، كقولهم: «ضُحْكَة» للمضحوك منه. ويوم الجُمَعَة ـ بفتح الميم ـ: يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضُحَكَة ولُعَنَة ولُعَبَة، ويوم الجُمُعَة تثقيل للجمعة كما قيل: عُسرة في عُسرة، وقرأ بالوجوه الثلاثة».

و «من» بيانيّة مفسّرة لـ «إذا».

و «النداء» الأذان. وقد كان لرسول الله صلّى الله عليه وآله مؤذّن واحد، وكان إذا جلس على المنبر أذّن المؤذّن على باب المسجد، فإذا نزل أقام الصلوة، وكان ذلك مستمّراً إلى زمان عثمان، فكثر الناس وتباعدت المنازل

فأحدث الأذان الثاني، فزاد مؤذّناً آخر فأمر بالتأذين الأوّل على داره التي تسمّى زوراء، فإذا جلس على المنبر أذّن المؤذّن الثاني فإذا نزل أقام الصلوة.

وإنّما سمّيت جمعة لأنّ الله تعالى فرغ فيه من خلق الأشياء، فاجتمعت فيه المخلوقات. وفيه سرٌ سنشير إليه. وقيل: لأنّه يجتمع فيه الجماعات.

وقيل: إنّ أوّل من سمّاها جمعة كعب بن لوي، وهو أوّل من قال: «أمّا بعد». وكان يقال لها «العُروبة» ـ عن أبي سلمة ـ.

وقيل: أوّل من سمّاها جمعة الأنصار. وذكر ابن سيرين جمع أهل المدينة قبـل قدوم النبيّ صلّى الله عليه وآله ونزول هذه السورة، فقالت الأنصار: لليهود يومٌ يجتمعون فيه كلّ سبعة أيّام وللنصارى مثل ذلك، فهلمّوا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلّي. فقالوا: يوم السبت لليهود، يوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العُروبَة.

فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم، فسمّوه يوم الُجمعة لاجتماعهم فيه، فأنزل آية الُجمعة، فهي أوّل جمعة كانت في الإسلام[٢].

وأمّا أوّل جمعة جمعها رسول الله صلّى الله عليه وآله فهي إنّه لّما قدم المدينة مهاجرا نزل قبا على بني عمرو بن عوف وأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعـاء والخميس وأسسّ مسجدهم، ثمّ خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلوة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطب وصلّى الجمعة[٣].

---

(٢) الاقوال مما ذكر في مجمع البيان في تفسير الآية: ج٩ ص ٢٨٦.

(٣) الكشاف: تفسير سورة الجمعة، ج٣ ص ٢٣٠.

﴿الإشراق الثاني﴾

في فضل يوم الجمعة

عن النبي صلّى الله عليه وآله: خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، وفيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنّة، وفيه أُهبط إلى الأرض ، وفيه تقوم الساعة[٤].

وعنه صلّى الله عليه وآله: أتاني جبرئيل وفي كفّه مرآة بيضاء وقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربُّك ليكون لك عيداً ولاُمّتك من بعدك. وهو سيّد الأيام عندنا، ونحن ندعوه إلى الآخرة يوم المزيد[٥].

وعنه صلّى الله عليه وآله: إن لله في كل جمعة ستمأة ألف عتيق من النار[٦].

وفي الحديث: إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحفٌ من فضّة وأقلام من ذهب، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم[٧].

قيل: كانت الطرقات في أيّام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصّة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج.

وقيل: أوّل بدعة أُحدثت في الاسلام ترك البكور إلى الجمعة.

---

(٤) الترمذي: ٣٥٩/٢ راجع ايضا ابن ماجه: ٣٤٥/١ والوسائل: ٦٧/٥.

(٥) الكشاف: الصفحه السابقة.

(٦) جاء كذلك في الكشاف ومجمع البيان وفي الوسائل ٦٦/٥: في كل ساعة ستمأة ألف ...

(٧) جاء مايقرب منه في الوسائل ٤٢/٥ ومسلم ١٤٥/٦.

وعن أبي جعفر عليهما السلام يقول: ماطلعت الشمس بيوم أفضل من يوم الجمعة[٨].

وروى سهل بن زياد عن أبي بصير، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ يوم الجمعة سيّد الأيّام،يضاعف الله فيه الحسنات،ويمحو فيه السيّئات،ويرفع فيه الدرجات،ويستجاب فيه الدعوات،ويكشف به الكربات،ويقضي فيه الحاجات العظام،وهو يوم المزيد، لله فيه عتقاء وطلقاء من النار. ما دعا الله فيه أحد من الناس وعرف حقّه وحرمته إلا كان حقاً على الله أن يجعله من عتقائه وطلقائه من النار، ومن مات فيه يومه أوليلته مات شهيداً و بعث آمناً، وما استخفّ أحد بحرمته وضيّع حقّه إلاّ كان حقّاً على الله عزّ وجلّ أن يصليه نار جهنّم إلاّ أن يتوب[٩].

وفي فضله أحاديث كثيرة وفيما نقلناه كفاية للمستبصر.

﴿ الإشراق الثالث ﴾
في الحكمة المتعلّقة بالنداء ـ أي الأذان ـ

اعلم إنّه لمّا كان كلّ واحد من الأوضاع الشرعيّة مشتملا على سرّ إلهي نوريّ كاشتمال الإنسان المكلّف به على لطيفة ربّانيّة نوريّة ليكون له قربة إلى جناب[١٠] الحقّ ووصلة الى رضوانه ومناجاة له، ومن جملة تلك الأوضاع

(٨) الوسائل: ابواب صلاة الجمعة، باب ٤٠ ج٥ ص ٦٤.

(٩) الوسائل: الباب السابق ص ٦٣، والرأوي فيه: ابن أبي نصر بدل أبي بصير وفيه بعض الاختلاف مع المذكور هنا.

(١٠) جوار ـ نسخة.

الأذان. فشرع قبل الصلوة ليتنبّه ويعرض عن غير الله ويتوجّه بشراشر قلبه وسرّه إلى جناب القدس ليستأهل لمناجاة الحقّ، لأنّ الإنسان متغيّر عمّا هو عليه حالا بعد حال، متعرّض للإنتقال والزوال، ليس له قوّة الثبات على أمر.

ولهـذا كان النبي صلّى الله عليه وآله مع جلالة قدره وعلّو سرّه يؤمر بالثبات والاستقامة ويسئل الثبات على الدين والطاعة، فكان شرع الأذان موجبـاً لانتباه النفوس الراقدة، معدّاً لأن يستأهل النفس لذكر الله،لأنّه معـراج المؤمن، وذكـر العبـد لله مستلزم لذكـر الله العبـد كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [٢/١٥٢].

وفي الحديث القدسي: «من ذَكرني في خلاً ذكرته في خلاً، ومَن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[١١].

ومعلوم إنّ من ذكَـر الحقّ فقـد جالَسه، لقوله تعالى: أنا جليس من ذكرني[١٢]. ومن جالَس من ذكره وهو ذو بصيرة رأى جليسه وشاهده، ومن شاهده فقد أدركه، وهذا غاية مطلب الصديقين، ومآل حال أهل الله ﴿وَبِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

ثمّ الأذان مجمع صفات الجلال والإكرام، وأوّل أجزائه: «الله أكبر» وهو ايذان بأنّ الله أكبر من جميع الأشياء، بل هو أكبر من أن ينسب إليه هذه النسبة، فإنّ الكبرياء ردائه، والعظمة إزاره، ووظيفة السامع من استماع هذه الكلمة الرجوع إلى الله تعالى ورفض ماسواه الذي هو ظِلّه، لأنّ الوجود كلّه لله من حيث ذاته ومن حيث أسمائه الحسنى ومن حيث أفعاله لاوجود لما سواه.

(١١) المحاسن: ج١ ص ٣٩. وجاء مايقرب منه في الكافي: ج٢ ص ٤٩٨ و٥٠١.

(١٢) الكافي: كتاب الدعاء، باب مايجب من ذكر الله ... ج٢ ص ٤٩٦.

ولـمّا كانت النـوبة الأولى لم تتنبّه[١٣] النفوس المشتغلة الماديّة غالباً شرع التكرار لإثبات معنى الألوهيّة الجامعة لجملة الأسماء والصفات في مرآة النفس الناطقة.

ثمّ كلمة الشهادة التي هي كالعنوان لما حصل في النفس من معنى الجزء الأوّل من التصديق الذي هو عمل القلب، والجزء الأوّل يشير إلى إثبات الواحد الحقّ، والثاني يشير إلى نفي شريكه، وقد علمت مما سبق إليك في التعاليم إن الايمان بالله يجعل للنفس استعداداً لقبول الفيض الإلهي، الموجب للقربة والزلفى، وينقي النفس عن المضارّ الدنيويّة والأخرويّة ـ على مابيّن فيما سبق من تفسير آية النور ـ أنّ كلمة التوحيد بمنزلة المصقلة في إزالة ظلمة الرين والطبع عن مرآة القلب.

ثمّ عقّب الكلمة الثالثة المشيرة إلى الإعتراف برسالة محمّد صلّى الله عليه وآله،ليحصل[١٤] لهم بذلك التزام أوامره ونواهيه، وقد علمت الاحتياج إلى وجود النبيّ صلّى الله عليه وآله لما مرّت إليه الإشارة من أنّ الناس صنفان: صنف يستوي عندهم المعقول والمحسوس ـ وهم الأنبياء ـ وصنف لا يتعدّى نظرهم عن عالم المحسوس ـ وهم أكثر الخلق ـ فلابدلهم من مرشد يرشدهم إلى مالايهتدي إليه بالحسّ بل بالعقل،فإنّ للنبوّة طوراً وراء طور العقل لايدرك إلاّ بالكشف الشهودي،وليس لكلّ عبد أن ينال درجة النبوّة، بل رتبة الولاية، فإنّ جناب الحقّ جلّ من أن يكون شريعة لكلّ وارد أو يطلع عليه إلاّ واحداً بعد واحد.

على أنّ النبوّة قد ختمت بنبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله لأنّه في أعلى

(١٣) لم تتنبه ـ نسخة. (١٤) ليجعل ـ نسخة.

مرتبة العلم والحكمة وله الدرجة العليا والزلفى، وقد طلب إبراهم الخليل عليه السلام في دعائه عن الله تعالى بعثة منه في ذريّته حيث قال تعالى حكاية عن دعـائـه: ﴿رَبَّنَـا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [١٢٩/٢].

ثمّ ذكر بعد كلمتي الشهادة دعوة الخلق إلى مناجاة الحق وطلب الوقوف بين يدي الربّ سبحانه للدعاء والصلوة الموجبة للفلاح ـ وهو إدراك المنية والبغية، إمّا في الدنيا كالسعادة التي يطلب بها حيوتهم في دنياهم، وإمّا في العقبى وهو بقاء بلافناء وغنى بلافقر وعزّ بلا ذلّ وعلم بلاجهل ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثمّ إنّه ختم بما بدأ منه إشارة إلى استغنائه عن الجميع ـ فإنّ الله غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين ـ والأمر كلّه منه أبتدائه، وإليه انتهائه، وإليه يرجع الأمر كلّه، وهو المقصود الأوّل والمرتجى،وإليه الرجعي ـ كما قيل:

محرّك الكلّ أنت القصد والغرض وغـاية ما لها مرمـي ولا غرض
مَن كان في قلبه مثقـال خردلـة سوى جلالـك فاعلم أنّـه مرض

* *

واعلم إنّ سرّ الإقامة قد علم ممّا سبق، ونذكر فيها نكتتين:

الأولى: الإفراد ليكون أسرع إلى المراد الذي هو الصلوة،وفيه إشارة إلى طلب زيادة الإخلاص والخشوع والتواضع لقربه من الوقوف بين يدي الله. والثانية: زيادة لفظ «قد قامت الصلوة» للدلالة على أنّ ذكر الله قائم على باطن كلّ نفس، فيجب أن يكون الظاهر موافقاً للباطن والعلانية حاكية عن السرّ.

﴿ الإشراق الرابع[١٥] ﴾
في الحكمة المتعلّقة بوجوب الصلوة يوم الجمعة

اعلم إنّه لّما اقتضت الأسماء الحسنى الإلهيّة ظهور آثارها جميعاً في المظاهر الكونيّة لئلّا يتعطّل طرف من الالوهيّة ظهرت في نوع الإنسان الذي أوجده لأجل العبادة كما أشار إليه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾ [٥١/٥٦] وطبائع أكثر الناس مجبولةٌ على العدول عن منهج الحقّ والانحراف عن سنن العدل كما أشار إليه بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [٣٤/١٣] وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤمِنِينَ﴾ [١٢/١٠٣] وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [٢٣/٧٠] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وقد تقرّر هذا البيان بنيانه[١٦] في كثير من الأحاديث القدسيّة، مثل قوله تعالى: «كلكم ضالّ إلّا من هديته، فاسئلوني الهدى أهدكم. وكلكم فقير إلّا من أغنيته فاسئلوني أرزقكم، وكلّكم مذنبٌ إلّا من غفرته فمن علم منكم أنّي ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني غفرت له ولاأُبالي»[١٧].

فلو أن الناس أُهملوا وطبائعهم وتركوا سدى وخُلّي بينهم وبين طبائعهم لتوغّلوا في الدنيا، وانهمكوا في اللذات الجسمانية، وطلبوا دواعي القوى

---

(١٥) ذكر المؤلف ماجاء في هذا الاشراق ومابعده في تفسير سورة البقرة ١/٢٧٤ ـ ٢٨٥.

(١٦) تبيانه ـ نسخة.

(١٧) الترمذي: ٤/٦٥٦. ابن ماجه: ٢/١٤٢. مسند: ٥/١٥٤ مع فروق.

الـظلمانيّة لضـراوتهم بها واعتيـادهم من الـطفـوليّة والصبي،حتّى زالت استعداداتهم وانحطوا عن رتبة الإنسانيّة فمسخوا ومثّلوا بالبهائم والسباع كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [٥/٦٠].

وإن حوفـظوا ودعوا بالسياسات الشرعيّة والعقليّة والحِكم والآداب والمواعظ الوعديّة والوعيديّة ترقّوا من حدّ البهيمة وتنوّرت بواطنهم بنور الملكّية، كما قال الشاعر:

هي النفس إن تهمل تلازم خساسة   وإن تنبعث نحـو الفضـائـل تلهج

فلهـذا وضعت العبـادات وفرض عليهم تكرارها في الأوقات المعيّنة ليزول عنهم بها درن الطبائع المتراكمة في أوقات الغفلات،وظلمة الشواغل العـارضة في أزمنة اتّخاذ اللذات وارتكاب الشهوات، فيتنوّر بواطنهم بنور الحضور وينتقّش[١٨] قلوبهم بالتوجه إلى الحقّ عن السقوط في هاوية النفس والعثور، ويستريح بروح الروح وحبّ الوحدة عن وحشة الهوى وتفرّق الكثرة.

كما قال صلّى الله عليه وآلـه: «الصلوة إلى الصلوة كفّارة مابينهما من الصغائر ماجتنبت الكبائر»[١٩].

ألاترى كيف أمرهم عند الحدث الأكبر ومباشرة الشهوة بتطهير البدن بالغسل، وعند الحدث الأصغر بالوضوء، وعند الاشتغال بالأشغال الدنيويّة في ساعـات اليوم والليلة بالصلوات الخمس المزيلة لكـدورات مدركـات الحواسّ الخمس الحاصلة في النفس منها كلّ بما يناسبه؟

---

(١٨) في ج١ ص ٢٧٦: وينبعث.   (١٩) جامع احاديث الشيعة: كتاب الصلوة، الباب ١ الحديث ٥٣.

ولـذلـك وضعوا بإزاء وحشة تفرقة الأُسبوع وظلمة انفرادهم بدؤوب الأشغـال والمكـاسب والمـلابس البدنيّة والملاذّ الجسمانيّة اجتماع قوم على العبادة والتوجّه لتزول وحشة التفرقة بانس الإجتماع والحضور، ويحصل بينهم نور المحبّة الايمانيّة والمؤالفة القلبيّة، وتزول عنهم ظلمة الاشتغال بالأُمور الدنيويّة والإعراض عن الحقّ من جهة الأغراض المختصّة الشخصيّة.

فوضع لليهود في قديم الزمان أوّل الأسابيع لكونهم أهل المبدأ والحسّ الظاهر، وللنصارى مابعده آخرها لكونهم أهل المعاد الروحاني وأهل الباطن المتأخّرين عن المبدأ والظاهر، وللمسلمين آخرها الذي هو يوم الجمعة لكونهم في آخر الزمان، وهم أهل النبوّة الختميّة وأهل الوحدة الجمعيّة للكلّ.

وإن جعل السبت آخر الأُسبوع ـ على مانقل أنّه السبع[٢٠] ـ فبالنسبة إلى الحقّ تعالى، لأنّ عالَم الحسّ الذي إليه دعوة اليهود وهو آخر العوالم بالنسبة إليه، وأوّل العوالم عالَم العقل الذي إليه دعوة النصارى، والجمعة هي يوم الجمع والختم ـ هذا على ماذكره بعض أهل القرآن[٢١] رحمه الله.

﴿ استشهاد قرآني ﴾

[علة تعيين الجمعة للمسلمين]

وممّا يناسب ماذكر ويؤكّده ما استفيد من كلام بعض المحقّقين وهو إنّ موسى عليه السلام لّما كان باعتبار قومه من أهل المبدأ وصاحب التنزيل كان من جانب الغرب، وهو موضع أُفول النور كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [٢٨/٤٤].

(٢٠) السبيع ـ نسخة. (٢١) الخزان ـ نسخة.

وانّ عيسى عليه السلام لّما كان من أهل المعاد وصاحب التأويل كان مكانه في الشرق ـ وهو موضع ظهور النور وطلوعه ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [١٩/١٦].

وانّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله لّما كان جامع المنزلتين ـ المبدأ والمعاد ـ والبرزخ المتوسّط بين الجانبين ـ المشرق والمغرب ـ بوجه،والمبّرأ عن العالمين ـ الدنيا والآخرة بوجه ـ كان مكانه متوسّطاً بين الشرق والغرب.

أمّا كونه جامعاً للمبدأ والمعاد فلأنّ له منزلة في المبدأ ـ «كنت نبيّا وآدم بين الماء والطين»[٢٢] ـ ولكلّ شيء جوهرٌ وجوهر الخلق محمّد صلّى الله عليه وآله. وله صلّى الله عليه وآله منزلة في المعاد إذ هو شفيع يوم المحشرلقوله صلّى الله عليه وآله: «ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي»[٢٣].

وأمّا كونه متوسّطا فلأنّ قبلة موسى عليه السلام إلى الغرب من وسط العالَم، وقبلة عيسى عليه السلم منه إلى المشرق، وقبلة نبيّنا صلّى الله عليه وآله بينهما كما قال صلّى الله عليه وآله: «مابين المشرق والمغرب قبلتي»[٢٤].

وأمّا كونه مبرتاً عنهما فلقوله تعالى: ﴿لَاشَرْقِيَّةٍ وَلَاغَرْبِيَّةٍ﴾ [٢٤/٣٥] وهما حرامان على أهل الله.

﴿ الإشراق الخامس ﴾

في لّمية وجوب الصلوة مطلقاً

لّما علم الشارع إنّ جميع أفراد الإنسان لايرتقون في مدارج العقل إلى

(٢٢) مناقب: ج١ ص ٢١٤ وفي الترمذي ج٥ ص ٥٨٥: «بين الروح والجسد».

(٢٣) راجع الخصال ص ٣٥٥ وعيون الأخبار ج١ ص ١٣٦.

(٢٤) ابن ماجه: كتاب اقامة الصلاة ج١ ص ٣٢٣ : «قبلة» بدل «قبلتي».

درجـة العـرفـان، فلاجرم سوّى لهم رياضة بدنيّة وسياسة تكليفيّة تخالف أهوائهم الطبيعيّة، وحافظ لهم الصورة الإنسانيّة، وراعى فيهم حكاية النسك العقليّة. فمهّد لهم قاعدة في الأذكار والأوراد،وألزمهم ترك النسيان بتكرير الأعـداد، وهي [في الـوجـوب][٢٥] أعمّ وفي الحسّ أعظم،لترتبط بظواهر الإنسان ويمنعهم عن التشبّه بسائر أفراد الحيوان.

وأقـر بهذا الهيكل الظاهر على كلّ بالغ عاقل فقال [صلّى الله عليه وآله]: «صلّوا كما رأيتموني أُصلّي»[٢٦] ولو قال: «صلّوا كصلاتي» فمن الذي صلّى مثل صلوته؟ لأنّه كان يصلّي وبصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان في صلوته يرى من خلفه.

فقـد ظهـر إنّ في صلوة القـالب مصلحة كثيرة لايخفى على اللبيب العاقل، ولايقرّ به لسان الجاهل العاذل.

وهذا المعنى من الصلوة قد كانت واجبة على الأمم السابقة على أعداد أكثر من أعداد صلواتنا لعموم جدواها، وكانوا مكلّفين بأعمال جسمانيّة كثيرة المشقّة لغلبة الجسمانيّة عليهم وقلّة آثار الملكوتيّين فيهم، وشريعتنا المحمديّة ـ على الصادع بها وآله أفضل الصلوة والتحيّة ـ أقلّ تكلّفاً وأكثر فائدة لصفاء القوابل ولطافة القلوب ورقّة الحجاب في أُمّته صلّى الله عليه وآله،ولذلك قال صلّى الله عليه وآله: «بعثت بالشريعة السهلة السمحاء»[٢٧].

---

(٢٥) الاضافه من ج١ ص ٢٧٧.

(٢٦) البخاري: باب ماجاء في اجازة خبر الواحد.. ج٩ ص ١٠٧.

(٢٧) في المسند ج٥ ص ٢٦٦: «بعثت بالحنيفية السمحة».

﴿الإشراق السادس﴾

في لميّة وجوب الصلوتين الجسمانيّة والروحانيّة

إنّ الله تعالى قد بعث النبيّين معلّمين بالكتاب والحكمة،واضعين الشريعة والملّة،مقيمين للعدل والقسط،لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [٥٧/٢٥] فوضعوا للناس النواميس الإلهيّة ليخرجوهم عن حضيض البرزخ الظلماني ويبلغوهم إلى أوج العالَم النوراني لينخرطوا في سلك الملائكة المقرّبين ويتنعّموا في جوار القدس مع النبيين والصديقين،رحمة من الله وفضلا ونعمة منه وإحسانا،فشرع كلّ منهم بإذن الله لأُمّته حسب ما أعطته العناية الإلهيّة واقتضته الرحمة الأزليّة في ذلك الوقت والزمان من الأعمال القلبيّة والبدنيّة مايكمل به قوّتاهم العلميّة والعمليّة بحسب طاقتهم.

ولّما كانت الحكمة المحمديّة ـ على مقيمها وآله أفضل المحامد العليّة ـ حكمة فردة،لأنّه أكمل موجود في هذا النوع الإنساني،بل هو أكمل الممكنات علويها وسفليها، روحانيها وجسمانيها، وكان تأثير قوّة نبوته في تكميل نوع الإنسان أبلغ وأتمّ،وكماله أقوم وحكمته أحكم وكتابه وشريعته أبلغ وأعمّ،كانت لُمّته خير الأمم وأعدلها،وأشرف الفرق وأكملها،كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [٣/١١٠].

وإليه أشار صلّى الله عليه وآله بقوله: علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل[٢٨].

(٢٨) مضى الخبر في الصفحة: ١٥٥

فخصّ المحمّديون بوجوب حقيقة الصلوة والذكر القلبي والمعرفة الإلهيّة التي هي روح الصلوة، كما وجب عليهم صورة الصلوات الخمس المكتوبة، وأُمروا بالمواظبة عليها والمحافظة لها وتكريرها في كلّ يوم بهيئة مخصوصة مشتملة على سرّ الهيّ في أوقات معيّنة،وهي ذكر له تعالى وقربة إلى جناب الحقّ ومناجاة معه، وروح الصلوة أشدّ وجوبا على بواطن العقلاء الكاملين من صورتها على ظواهر سائر الناس وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [١٢٤/٢٠].

﴿ الإشراق السابع ﴾

في تحقيق القول من سبيل آخر

قد بان لك إنّ في الإنسان شيئا من العالَم الأسفل وشيئا من العالَم الأعلى، وأعني بالعالَم الأسفل الدنيا ومافيها،وأعني بالعالَم الأعلى الآخرة مافيها،وكذلك في كلّ عمل من الأعمال الدينيّة قشرٌ ظاهر ولبّ باطن،فالقشر متعلّق بالدنيا واللبّ متعلّق بالآخرة، فكما أنّ مقصود الشارع من طهارة الثوب ـ وهو القشر الخارج ـ ثم من طهارة البدن ـ وهو القشر القريب ـ إنّما هو طهارة القلب وهو اللبّ الباطن، وطهارة القلب عن نجاسات الأخلاق الذميمة، كالكفر والحسد والبخل والإسراف وغيرها؛ فكذلك مقصود الشارع من صورة كلّ عبادة هو الأثر الحاصل منه في القلب.

ولايبعد أن يكون لأعمال الجوارح آثار في تنوير القلب واصلاحه،كما لايبعد أن يكون لطهارة الظاهر أيضا تأثير في إشراق نورها على القلب،فإنّك

إذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك،صادفت في القلب انشراحاً وصفاءً لاتصادفه قبله، كيف ـ وإدراك النظافة يوجب حصول صورتها في القلب، وهذا ضربٌ من الوجود ففعل الطهارة أوجَب حصولها في القلب ـ ولو بوجه ضعيف ـ.

وذلك لسرٍّ العلاقة بين عالَم الشهادةِ وعالَم الغيبِ وعالَم الملكوت،فإنّ ظاهر البدن من عالم الشهادة والقلب من عالم الملكوت وعالم الغيب بأصل فطرتـه، وإنّما يكون هبوطه إلى هذا القالب كالغريب عن موطنه الأصلي ونزوله إلى أرض عالَم الشهادة عن الجنّة التي هي موطنه وموطن أبيه المقدّس لجناية صدرت أولاً عن أبيه.

وكما ينحدر عن معارف القلب آثار إلى البدن فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب،ولذلك أُمر بالصلوة مع أنّها حركات للجوارح،وهي من عالم الشهاده.

وبهـذا الوجه جعلها رسول الله صلّى الله عليه وآله من الدنيا فقال: «أحببت من دنياكم ثلاثا ـ الحديث»[٢٩] وعدّ الصلوة من جملتها.

ومن هيهنا قد شممت شيئا يسيراً من روائح أسرار الطهارة أيضا فإن كنت بحيث لاتصادف بعد الطهارة وإسباغ الوضوء شيئاً من الصفاء الذي وصفناه،فاعلم إنّ الخدر الذي عرض على قلبك من كدورة شهوات الدنيا وشواغلها اقتضى كلال حسّ قلبك،فصار لايحسّ باللطائف والأشياء الخفيّة اللطيفة كأكثر الناس، فاشتغل بجلاء قلبك،فذلك واجبٌ عليك من كلّ ماأنت فيه.

---

(٢٩) في الخصال باب الثلاث ص ١٦٥ والمسند ص ١٨٢ و١٩٩ ج٣ بلفظ «حبّب إليّ»

فإذا تقرّر هذا عندك وعلمت بمثل هذا التقسيم فيها وفي جميع العبادات، واتّضح أيضا لك وتأكّد عندك حسبما قدّمناه إليك أنّ الصلوة منقسمةٌ إلى رياضيّ جسماني وإلى حقيقي روحاني، فأعلم إنّ نفوس الإنسان متفاوتة بحسب آثار القوى والأرواح والدواعي المركّبة فيها،فمن غلب عليه الروح الطبيعي والحيواني فإنّه عاشقُ البدن، يحبّ نظامه وتزيينه وأكله وشربه ولبسه وطالبٌ لجذب منفعته ودفع مضرّته. وهذا الطالب من عداد الحيوانات وفي زمرة البهائم،فأيّامه مستغرقة باهتمام بدنه وأوقات عمره موقوفة على مصالح جثّته وشخصيّته،فهو غافل عن الحقّ،جاهل بأمره،فلايجوز له التهاون بهذا الأمر الشرعي اللازم الواجب، وإن قعد عنه فبالسياسات والزواجر يكره عليه ويجبر حتّى لايفوت عنه بالكليّة حقّ التضرّع والإشتياق إلى الله تعالى،ليفيض عليه بجوده وينجيه من عذاب وجوده،ويخلصه من آمال بدنه ويوصله إلى منتهى أمله، فإنه لو انقطع عنه قليل خير لتسارع إليه كثير شرّ، ولكان أدنى درجة من البهائم وأضلّ سبيلا من الأنعام.

ومن غلب عليه قواه الروحانيّة وتسلّط على هواه قوّته الناطقة وتجرّدت عن محبّة الدنيا وعلائق العالم الأدنى،فهذا الأمر الحقيقي والتعبّد الروحاني وذكر الله بالقلب ومناجاته وقرباته واجبٌ عليه أشدّ وجوبا وأقوى إلزاما،كما قيل «الحكمة أشدّ تحكّما على باطن العاقل من السيف على ظاهر الأحمق».

لأنّه استعدّ بطهارة نفسه وشرافة عقله ليفيض عليه ربّه، فلو أقبل عليه بمشقّة واجتهد في تعبّده لتسارع إليه جميع الخيرات العلويّة والسعادات الأُخرويّة،حتّى إذا انفصل عن جسمه وفارق الدنيا يدخل عليه الملائكة من كلّ باب ويشاهد مفيضه وموجده ومكمله ربّ الأرباب ويجاور حضرته ويلتذّ

بمنادمته حينئذ ومجاوريه وهم سكّان ملك الملكوت وقطان عالَم الجبروت.

﴿الإشراق الثامن﴾

في سرّ الصلوة وروحها وفي تمثيل الصلوة الكاملة بالإنسان الكامل من جهة اشتمالها على ظاهر جسماني وباطن روحاني

إعلم إنّ الصلوة عبارة عن تشبّه مّا للنفس الإنسانيّة بالأشخاص الفلكيّة، فما أشدّ شباهة حال الإنسان حين التشغّل بالصلوة الكاملة بتلك الأجرام الكريمة بأرواحها الملكيّة في تعبّدها الدائم وركوعها وسجودها وقيامها وقعودها، طلباً للثواب السرمدي وتقرّباً إلى المعبود الصمدي.

ولذلك قال صلّى الله عليه وآله: «الصلوة معراج المؤمن».

وقال صلّى الله عليه وآله: «الصلوة عماد الدين»[٣٠].

وأصل الدين تصفية الروح عن الكدورات الشيطانيّة والهواجس النفسانيّة. والصلوة هي التعبّد للعلّة الأولى والمعبود الأعظم والخير الأعلى، والتعبّد في الحقيقة عرفان الحقّ جلّ مجده والعلم به وبآياته بالسرّ الصافي والقلب النقيّ والنفس الفارغة، فسرّ الصلوة ـ التي هي عماد الدين ـ هو العلم بوحدانيّة الله تعالى، ووجوب وجوده، وتنزّه ذاته، وتقدّس صفاته، واحكام آياته ومعرفة أمره وخلقه وقضائه وقدره وعنايته وحكمته وإرادته وقدرته ويده وقلمه ولوحه ورقمه وملائكته، وكرام الكاتبين، وكتبه ورسله واليوم الآخر لمعاد عباده إليه ورجوع الخلائق لديه ومثول الأرواح والنفوس بين يديه مع الإخلاص له في العبوديّة.

---

(٣٠) جامع الأخبار: الباب ٣٣. وجاء في كثير من المصادر بلفظ «الصلوة عمود الدين».

وأعني بالإخلاص أن يعبد الله بلامشاركة أحدٍوأن يعلم ذاته وصفاته بوجه لايبقى للكثرة فيه مشرعا وللإضافة مترعا، ومن فعَل هذا فقد أخلص وصلّى، وما ضلّ وما غوى؛ ومن لم يفعل هكذا فقد افترى وعصى.والله تعالى أجلّ من ذلك وأعلى.

ثمّ إنّـك لّما قرع سمعك مراراً أنّ موجودات العالم الطبيعي والنشأة الدنيويّة مثنويّة، وحقيقة الإنسان من جملتها لها ظاهر جلي وباطن خفيّ،ولها صورة مشهورة وحقيقة مستورة، فهو منقسم إلى ظاهر متغيّر وباطن ثابت هو قلبه وسرّه. فالصلوة التي هي أشرف أعماله منقسمة إلى ظاهر خَلقي ـ وهـو الـرياضي المتعلّق بالظاهر ـ وباطن أمري ـ وهو الحقيقي الملتزم به الباطن ـ

والأوّل يجري مجرى السياسات للأبدان والرياضات للقوى والأدوات الصوريّة،به ينوط نظام الجمعيّة التمدنيّة وقوام الشريعة المصلحيّة لإصلاح الخلق بحسب حالهم على وجه يؤدي إلى كمالهم وإصلاح بالهم لسلامة مآلهم، وكلتاهما واجبتان عقلاً وشرعاً.

فالأولى كلّف به الشارع بالغاً عاقلا ليتشبّه بدنه بما يختصّ به روحه من التضرّع والخشوع إلى الجنبة العالية ليفارق البهائم بهذه الهيئة الشرعيّة، فإنّ البهائم متروكة عن الخطاب مسلمة عن العذاب[٣١]؛ فأمّا الإنسان فإنّه مخاطَب ومحـاسَب، مثاب ومعـاقَب،إذ يجب عليه امتثال الأوامر الشرعيّة والعقليّة والإجتناب عن المناهي الشرعيّه والعقليّه. فلمّا رأى الشارع الحكيم أنّ العقل المنوّر بنور معرفة الله أكرم عند الله ألزم النفس بالصلوة الحقيقيّة

(٣١) الحساب ـ نسخة.

المجرّدة وهي عرفان الله وملكوته، وكلّف على بدنه الصلوة الجسمانيّة أثراً على تلك الصلوة وعنواناً لها، ليكون قواه العمليّة مشايعة لقواه الإدراكيّة لئلّا يزاحمها.

هذه نظير ماذكرنا مطالعة البصر الأرقام الهندسيّة عند مطالعة العقل براهينها الكلية،وكذا المحاكاة الخياليّة والبدنية عندالتعمقّ في العلوم الدقيقة وأشباهها، وذلك لعلاقة شديدة بين النفس والبدن.

فإذا كان حركات القالب محاكية لما يتصوّره القلب يكون أعمال القلب آكد وأصفى عن المزاحمة، فلذلك أوجب الشارع صورة الصلوة على الإنسان تتميمًا لصلواته الحقيقيّة مادام في الدنيا، كما أثبت الله الوجود الجسديّة مادام في الدنيا وقاية لروحه وحفظاً وإمساكاً له عن الخلل والفساد إلى حين بلوغه العقلي ووصوله إلى عالَم المعاد، فركّب أعداد هذا التعبد الجسماني ونظّم أركانه على أبلغ نظام في أحسن صورة وأتمّ هيئـة ليتابع الأجسامُ[٣٢] الأرواحَ في التعبّد ـ وإن لم يطابقه في المرتبة والتوحّد ـ ويتابعه في التكرار ـ وإن لم يوافقه في الدوام والاتّصال ـ.

﴿الإشراق التاسع﴾

في منشأ وجوب هذا التعبد الروحاني

هذه الصلوة قد وجبت على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وآله في ليلة قد صعد إلى العالَم العلوي وتجرّد من بدنه وتنزّه من أمله،ولم يبق معه من آثار الحيوانيّة شهوة،ولا من لوازم الطبيعة قوّة، ولا من الدواعي النفسانيّة بقيّة،

(٣٢) الاشباح ـ نسخة.

فناجى ربّه بقلبه وروحه،فقال كما روي عنه: «وجدت لذّة غريبة في ليلتي هذه فاعطني [يارب] هدى ويسّر عليّ طريقاً يوصلني كلّ وقت إلى لذّتي».

فأمره الله بالصلوة فقال: «يامحمّد ـ المصلّي مناج ربّه».

ولايخفى على المتأمّل العاقل أنّ مناجات الله لاتكون بالأعضاء الجسمانيّة ولابالألسن الحسيّة، لأنّ هذه المكالمة لاتصلح إلّا لمن يحويه مكان، ويعتريه[٣٣] حركة وزمان، أمّا الواحد المقدّس الذي لايحيط به مكان ولايحويه زمان ولايدركه حسّ أحد ولايشار إليه بجهة من الجهات ولايختلف حكمه في صفة من الصفات ولايتغيّر في وقت من الأوقات، فكيف يعاينه الإنسان المشكّل المجسّم المحدود بجسمه وقوله وفعله وحسّه ؟! وكيف يناجي في هذا العالم المركّب المخروب من لا يعرف حدود جهاته ولا يرى جناب صفاته، فإنّ الموجود المطلق عن عالم المثل والمحسوسات، بل المرتفع عن العقول القادسات،غائب عن الحواسّ،غير مشار إليه بالأخماس، ولايدرك بالإلماس، ومن عادة الجسم والجسمي أن لايناجي ولايجالس الّا مع من يراه بالبصر ويحسّ بالحسّ، ويدركه بإحدى الخمس، وإذا لم ينظر إليه يعده غائباً ويكون بفقده عن المشاعر خائباً، فمن كان خارجاً عن هذا الباب، مقدّساً عن طرفي هذا النفي والإثبات جميعاً، وعن المداخلة والمزايلة رفيعاً،فمناجاته بإحدى الظواهر والآلات أمحل المحالات،وأفحش الخرافات والموهومات.

فإذن قوله: «المصلّي مناج ربّه» محمول على عرفان النفوس العرافة العلّامة المجردة عن جهات الجسم والمكان وحوادث الحركة والزمان؛فهم يشاهدون الحقّ مشاهدة عقليّة،ويبصرون الإله بصيرة نوريّة،ويسمعون كلامه سماعاً روحانيّاً.

(٣٣) ويقترن به ـ نسخة.

﴿ تفريع ﴾

[درجات الانتفاع من الصلوة]

فتبيّن أنّ الصلوة الحقيقيّة التي تنهى عن فحشاء القوّة الشهوية البهيمية ومنكر القوّة الغضبيّة السبعيّة وبغي القوّة الوهميّة الإبليسيّة هي المعارفة الربّانيّة والمشاهدة الإلهيّة والمكاملة العقليّة،وهي التضرّع بالنفس الناطقة نحو الإله الحقّ والموجود المطلق.

ولأصحاب العلوم الظاهرة من هذه حظّ ناقص وإن ارتقوا من منزل البهائم قليلا وأرتفعوا من درجة العوام والأنعام يسيرا، وللمحقّقين قسم وافر ونصيب كامل من هذا البحر الذاخر، ولهم قرّة عين في الصلوة، ومن كان حظّه أكمل فثوابه أجزل، فالعاقل يتأمّل سلوك طريق التعبّد والمداومة على الصلوة ويلتذّ بمناجاة ربّه لابشخصه، وينطقه لابقوله، ويبصره لاببصره، ويحسّه لابحسّه.

وأمّا الجاهل المغرور فيطلب ربّه بشخصه وجسمه، ويطمع في رؤيته بعينه، وكذا العالم الممكور المشعوف بماعنده من القشور، الطالب في مناجاته للذّات عالم الزور، المتوجّه إلى تحصيل المنزلة والجاه عند أصحاب القبور. ومن آثر الهوى واتّبع الشيطان انحرف عن الحقّ والهدى وحرّم الله عليه لذيذ مناجاته، كما ورد في أخبار داود ـ على نبيّنا وعليه السلام ـ إنّ أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرّم عليه لذيذ مناجاتي(٣٤).

وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول:

(٣٤) جاء مايقرب منه في الكافي: ج١ ص ٤٦ (باب المستأكل بعلمه..).

إنّ أهـون ما أصنع بالعالِم إذا أحبّ الدنيا أن اخرج مناجاتي من قلبه».

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

﴿ الإشراق العاشر ﴾

في سرّ الأسبوع ولميّة وضع أيّامها

اعلم ـ إنّ كلّ وضع من الأوضـاع إذا لم يطلع على سرّه العقول البشريّة فلابّد في إدراك لميته وسببه من طور آخر وراء طور العقل المشوب بالوهم، وذلك لامتناع التخصيص من غير مخصّص كحروف التهجّي وأيّام الأسبوع، فما ثبت للعقـول الكشفيّة من أصحاب الذوق والعرفان: إنّها وضعت بإزاء الأيّام الإلهيّة التي هي مدة عمر الدنيا ـ وهي سبعة آلاف كما هو المشهور بين الجمهور على عدد أدوار الكواكب السبعة السيّارة التي مدّة دورة كلّ منها الخاصّة ألف سنة.

وقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله إنّه قال: «عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، بقيت في آخرها ألف»[٣٥].

وقال صلّى الله عليه وآله: «لانبيّ بعدي على هذه الأمّة الي يوم القيامة»[٣٦].

وهو يوم العرض الأكبر ويوم العرض الثاني، كما أنّ يوم الميثاق يوم العرض الأوّل، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ

(٣٥) الجامع الصغير: الدنيا سبعة آلاف سنة أنا في آخرها ألفا. ج٢ ص ١٧.

(٣٦) جاء مايقرب منه في الدر المنثور: ج٥ ص ٢٠٤.

تَقُولُوا يَومَ ٱلْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾ [١٧٢/٧].

وبين اليومين مدّة[٣٧] سبعة أيّام كلّ يوم كألف سنة ممّا تعدّون.

فكما أنّ الدنيا كمدينة جامعة ومصر جامع فيها من كلّ الخلائق والرجال والنسوان والمشايخ والصبيان، فمنهم أخيار وأشرار، وصلحاء وفجّار، وعلماء وجهّال، مختلفة الطبائع والأحوال والأخلاق والآراء والأعمال، فهكذا في العالم الكبير نفوس كثيرة بسيطة، ونفوس جزئية مختلفة الحالات. فمنها نفوس علّامة خبيرة فاضلة، ومنها نفوس درّاكة شريرة وهميّة، ومنها نفوس جاهلة شريرة، ومنها جاهلة غير شريرة.

فالأولى من جنس[٣٨] الملائكة وصالحوا المؤمنين والعلماء الربّانيّون، والثانية مردة الشياطين وسحرة الجنّ والإنس والفراعنة والدجّالون، والثالثة أنفس السباع الضارية والجهّال الأشرار من السباع، والرابعة أنفس الحيوانات السليمة كالغنم والحمام وغيرها والنفوس الساذجة من الإنسان.

وكما أنّ المدينه الجامعة فيها مساجد وبيَع وصلوات، ولأهل الدين فيها مجالس وجماعات وأعياد وجمعات وعبادات وأذكار، فهكذا في فضاء الملكوت وأرض القيامة وفسحة الجنان وسعة العرش والسموات جموع[٣٩] من الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء والعلماء، ولهم تسبيحات ودعوات مستجابات، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [٢٠/٢١] وقال: ﴿وَتَرى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَولِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [٧٥/٣٩].

وكما أنّ لأهل المدينة فيها حبوس ومطامير عليها شرط وأعوان؛ فهكذا

(٣٧) عدة ـ نسخة. (٣٨) اجناس ـ نسخة. (٣٩) جمع ـ نسخة.

في العالم الكبير للنفوس الشريرة جهنّم وسجّين ونيران وهاوية،عليها زبانية ومالك وغضبان.

وكما إنّ تلك المدينة فيها لأهلها صنائع وأعمال، وللصناع والعمّال أُجرة وأرزاق، وفيها بيّاع وتجار يتعاملون بموازين ومكائيل، ولهم مظالم وخصومات ودعاو، ولهم فيها قضاة وعدول، ولهم فقه وأحكام وفصول، وإنّ من سنّة القضاة والحكّام البروز والجلوس لفصل القضاء في كلّ سبعة أيّام يوم واحد،فهكذا يجري حكم الله وحكم النفوس الكليّة يوم القيامة ويوم العرض الأكبر، ففي كلّ سبعة أيّام يوم واحد وضع لعرض النفوس الجزويّة لدى النفوس الكليّة لفصل القضاء بينهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِيءَ بِٱلنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [٣٩/٦٩ ـ ٧٠].

وقوله: ﴿فَلاَتُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [٢١/٤٧][٤٠].

﴿ الإشراق الحادي عشر ﴾

في سرّ يوم الجمعة

اعلم إنّ اليوم السابع من الآيّام الربّانيّة الأُسبوعيّة هو الذي وقع فيه ظهور النور التوحيدي في المظهر الجمعيّ المحمّدي،واكمال الدين وارتقاء النفوس إلى المبدأ الذي هبطت منه، وقطع القوس العروجيّة إلى غايتها الأصليّة هو يوم الجمعة.

---

(٤٠) مقتبس مما جاء في رسائل اخوان الصفاء: ٣/٢١٨ ـ ٢١٩.

وهو آخر يوم من أيّام الدنيا بوجه، وأوّل يوم من أيّام الآخرة بوجه،لقيام الساعة فيه والظهور التامّ للحقّ ووقوع القيامة الكبرى، وعند ذلك يظهر فناء الخلق والبعث والنشور والحساب، وفيه يتميّز عند عرفاء أُمّته أهل الجنّة وأهل النار، وفيه يُرى عرش الله بارزاً كما حكينا في حديث حارثة الأنصاري (ره) عن شهوده[٤١].

وقد مرّ في تفسير الحديد[٤٢] عند قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٤/٥٧] أنّ الأيّام الستّة الماضية هي مدّة احتجاب الحقّ بالخلق،لأنّ الخلق حجاب على وجه الحقّ، فمتى خلقهم اختفى بهم، وقد بيّنا هناك بوجه حِكميّ أنّ بقاء الدنيا وعالَم الطبيعة عين حدوثها وتغييرها ووجودها عين عدمها وزوالها، واليوم السابع هو يوم الجمعة وزمان استواء الرحمن على العرش بالظهور في جميع الصفات وابتداء يوم القيامة الذي طلع فجره ببعثة نبيّنا صلّى الله عليه وآله.

فالمحمديّون أهل الجمعة ومحمّد صاحبها وخاتم النبيّين، وبه إكمال الدين لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [٣/٥].

تتمة

اتّفق أهل الملل كلّها من اليهود وغيرهم: أنّ الله قد فرغ من خلق السموات والأرض في اليوم السابع، إلّا أنّ اليهود قالوا: «إنّه السبت وابتداء الخلق من يوم الأحد» وعلى التأويل الذي ذكرنا يكون هو يوم الجمعة.

---

(٤١) الكافي: كتاب الايمان والكفر، باب حقيقة الايمان واليقين ج٢ ص ٥٤.

(٤٢) تفسير سورة الحديد: ١٦٠.

وكون الأحد ابتداء الخلق بأوّل بأنّ أحدية الذات منشأ الكثره، وإن جعلنا الأحد أوّل الأيّام ووقت ابتداء الخلق ، كان جميع دور النبوة دور الخفاء، وفي السادس ابتداء، وازداد في الخواصّ كما ذكر إنّه يوم خلق آدم الحقيقي، ويوم الساعة، ويوم المزيد، ويوم دخول الجنّة، وسيّد الأيام ـ كما مرّ ذكره في الأحاديث المرويّة في فضل يوم الجمعة ـ حتّى ينتهي إلى تمام الظهور، وارتفاع الخفاء في آخره عند خروج المهدي عليه السلام ويعمّ الظهور في السابع الذي هو السبت.

إكمال

لّما كان هذا اليوم ـ أي الجمعة ـ موضوعاً بإزاء المعنى المذكور،ندب للناس فيه إلى الفراغ من الأشغال الدنيويّة التي هي حجبٌ كلّها، وإلى الحضور والاجتماع في الصلوة،وأوجب السعي إلى ذكر الله وترك البيع والسعي في الدنيا،لكي تتظاهر النفوس بهيئة الاجتماع في صلوة الحضور،المعدّ للوصول إلى حضرة الجمع بالصلوة الحقيقيّة والتعبد الروحاني،عسى أن يتذكّر أحدُهم بالفراغ عن الأشغال الدنيويّة التجردَ عن الحجب الخلقيّة، وبالسعي إلى ذكر الله السلوكَ في طريق الوصول إليه، وبالصلوة مع الاجتماع الوصولَ إلى حضرة الجمع،فيفلح ﴿ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾ أي سرّ ذلك وحقيقته.

﴿الإشراق الثاني عشر﴾

في ماقيل في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

قال المفسّرون[٤٣]: أي إلى الخطبة والصلوة.ولتسمية الله الخطبة ذكراً له ذهب أبو حنيفة وأتباعه إلى أنّه إن اقتصر الخطيب على مقدار ما يسمّى ذكر الله ـ كقوله: الحمد لله. سبحان الله ـ لكفى.

وقيل إنّ عثمان صعد المنبر فقال: «الحمدُ لله» وارتجّ عليه فقال: إنّ أبابكروعمركانايعدان لهذاالمقام مقالاً، وإنّكم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمامٍ قوّالٍ، وستاتيكم الخطب. ثمّ نزل وكان ذلك بحضور الصحابة فلم يعب عليه.

وعند الشافعي وصاحبيه لا بدّ من كلام يسمّى خطبة.

وعند فقهائنا الإماميّين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ يجب الخطبتان، ويجب في كلّ منهما الحمد لله بما هو أهله، والصلوة على النبي وآله، والموعظة وقرائة سورة خفيفة.

وقيل: يجزي ولو آية واحدة ممّا يتم به فائدتها.

وفي رواية سماعة: يحمد الله ويثنى عليه ثمّ يوصي بتقوى الله ويقرأ سورة خفيفة من القرآن، ثمّ يجلس، ثمّ يقوم فيحمد الله ويثني عليه ويصلّي على النبيّ وآله وعلى أئمّة المسلمين ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات[٤٤].

فإن سئل: كيف يفسّر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله؟

---

(٤٣) الكشاف، ٣/٢٣١.

(٤٤) الوسائل: كتاب الصلاة، أبواب صلاة الجمعة ٢٥ ج٥ ص ٣٨.

أُجيب بأنّ ماكان من ذكر رسول الله صلّى الله عليه وآله والثناء عليه وعلى أئمّة المسلمين وأهل بيته وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكْر الله. وأمّا ماعدا ذلك من ذكْر الظّلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقّاء بعكس ذلك؛ فمن ذكْر الشيطان ـ نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيّام.

﴿ الإشراق الثالث عشر ﴾

في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ﴾.

أي: دعوا المبايعة. قال الحسن: كلّ بيع يفوت منه الصلوة يوم الجمعة فإنّه بيعٌ حرام لايجوز، وهذا هو الذي يقتضيه ظاهر الآية، لأنّ النهي يدلّ على فساد المنهيّ عنه مطلقاً، عبادةً كان أو غيرها.

وأكثر فقهائنا الإماميّين ـ رضوان الله عليهم ـ على أنّ البيع حرام إلّا أنّه غير فاسد بل منعقد، لأنّ النهي في العبادات وإن كان مستلزماً للفساد لاستحالة الجمع بين المأمور به في الجملة والمنهيّ عنه، ولكن في غيرها غير مستلزم له.

وقيل: إنّ النهي فيها أيضا غير مستلزم للفساد، إلّا أن يكون المنهيّ منافياً لها أو لبعض أركانها، كالصلوة في الدار المغصوبة، لأنّ خروج المكلّف عنها مأمورٌ به، والقيام منهيّ عنه، وهو ركنٌ في الصلوة؛ والحركة والسكون متنافيان فلايكونان مأموراً بهما معا، وكيف يكونان مأموراً بهما حتّى يلزم أن يكون قيامٌ واحد مأموراً به ومنهيّاً عنه؟ وهو محال لأنّ الأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضدّه العامّ بل الخاصّ ـ على رأيٍ ـ وتنقيح هذه المسئلة موكول إلى علم أصول الفقه، فليُطلب من هناك.

﴿الإشراق الرابع عشر﴾

في قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أي: ما أمرتم به من حضور الجمعة واستماع الذكر وأداء الفريضة وترك البيع أنفع لكم عاقبة إن كنتم عالمين بمنافع الأمور ومضارّها، ومصالح أنفسكم وأرواحكم ومفاسدها.

وفيه دليل على أنّ ملاك الأمر في العبادات على العلم الصحيح والنيّات الخالصة.

وقيل: معناه:اعلموا ذلك. عن الجبائي.

وفي هذه الآية دلالةٌ على وجوب الجمعة وتحريم جميع التصرفّات عند سماع أذان الجمعة، والبيع إنّما خُصّ بالنهي عنه لكونه أعمّ التصرفّات في أسباب المعايش.

وفي الكشّاف[٤٥]: «لأنّ يوم الجمعة يوم يهبط الناس من قُراهم وبواديهم وينصبون إلى المصر من كلّ أوب،ووقت لسقوطهم[٤٦] واجتماعهم واختصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار وتعالى إلى الضحى ودنا وقت الظهيرة،وحينئذ تحر التجارة ويتكاثر البيع والشرى،وقيل لهم: بادِروا تجارةَ الآخرة واتركوا تجارة الدنيا،واسعوا إلى ذكر الله الذي لاشيء أنفع منه وأربح، وذروا البيع الذي نفعه يسير وربحه مقارب».

ومّما يدلّ على تحريم شواغل الدنيا عن حضور الجمعة عند النداء أنّ

(٤٥) الكشاف : ٣/٢٣١

(٤٦) المصدر: وقت هبوطهم.

الله سمّاه خيراً، وترك الخير الكثير من العالم به لأجل النفع الحقير ـ وإن كان الحقير عاجلا والكثير آجلا ـ حرام عقلا، فيكون حراماً شرعاً، كما هو عند أصحابنا القائلين بالتحسين والتقبيح العقليّين.

تفريع

في هذه الآية دلالة على أُمور: الأوّل: أنّ الخطاب للأحرار، لأنّ العبيد لايملك البيع. الثاني: اختصاص الجمعة بمكان معيّن. ولذلك أوجب السعي إليه. الثالث: اختصاص وجوبها على من يقدر على الحركة والسعي. فخرج من المكلّفين أصحاب الأعذار ـ من السفر والمرض والعمي والعرج، أو أن يكون امرأة أو شيخا ممّا لاحراك به، أو عبداً، أو يكون على رأس أكثر من فرسخين من الجامع.

وعند حضور هذه الشروط ونفي الأعذار لايجب إلّا عند حضور السلطان العادل أو من نصبه للصلوة.

والعدد يتكامل عند أكثر فقهاء أهل البيت ـ عليهم السلام ـ بخمسة لصحيحة منصور بن حازم: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يجمع القوم يوم الجمعة إذا كانوا خمسة فمازاد، وإن كانوا أقلّ من خمسة فلاجمعة لهم[٤٧]. وغير ذلك من الرواية.

وقيل: بسبعة؛ لما رواه محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليهما السلام قال: يجب الجمعة على سبعة نفر من المسلمين ولايجب على أقلّ منهم: الإمام

(٤٧) الوسائل: أبواب صلاة الجمعة، باب ٢ ج ٥ ص ٨.

وقاضيه، والمدّعي حقاً، والذي عليه الحقّ، والشاهدان والذي يضرب الحدود بين يدي الإمام[٤٨].

وعند أبي حنيفة والثوري يتكامل العدد بثلاثة سوى الإمام.

وعند الشافعي ينعقد بأربعين رجلا أحراراً بالغين مقيمين.

وعند أبي يوسف ينعقد بإثنين سوى الإمام.

وعند الحسن وداود ينعقد بواحد غير الإمام كسائر الجماعات[٤٩].

وقال صاحب الكشّاف[٥٠]: «عند أبي حنيفة لاينعقد إلاّ في مصر جامع لما روي منه صلّى الله عليه وآله : «لاجمعة ولا تشريق ولافطر ولاأضحى إلاّ في مصر جامع» ـ والمصر الجامع:ماأقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام ـ.

ومن شروطها الإمام أو من يقوم مقامه، لقوله صلّى الله عليه وآله: «فمن تركها وله إمام عادل ـ الحديث ـ». وقوله صلّى الله عليه وآله: «أربع إلى الولاة ـ الفيء والصدقات والحدودات والجماعات[٥١]» فإن أمّ رجل بغير إذن الإمام أو من ولاّه ـ من قاضٍ أو صاحب شرطة ـ لم يجز. فإن لم يمكن الاستيذان فاجتمعوا على واحد فصلّى بهم جاز. وهي ينعقد بثلاثة سوى الإمام» ـ انتهى ـ.

والاختلاف بين الفقهاء في مسائل الجمعة كثير موضع بيانه كتب الفقه.

(٤٨) الوسائل: الباب السابق، ص ٩.

(٤٩) مجمع البيان: ٢٨٨/٩. في تفسير الآية.

(٥٠) الكشاف: في تفسير الآية ج٣ ص ٢٣١.

(٥١) في المصدر: الحدود والجمعات.

المطلع التاسع

في قوله سبحانه

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾

وفيه إشراقات

الأوّل: في الإشارة إلى ماقيل فيه:

قيل[١]: إنّ الإنتشار في الأرض ليس لطلب دنيا، ولكن مثل عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله.

وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول: المراد من الابتغاء من فضل الله طلب العلم[٢].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام إنّه قال: الصلوة يوم الجمعة. والانتشار يوم السبت[٣].

وروى عمر بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام إنّه قال: «إنّي أركب في الحاجة التي كفاه الله تعالى، ماأركب فيها إلّا التماس أن يراني الله أضحى في طلب الحلال، أما تسمع قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ

---

(١) الكشاف (٢٣٢/٣) عن ابن عباس ، وفي مجمع البيان (٢٨٨/٩) رواه انس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

(٢) مجمع البيان في تفسير الآية: ٢٨٨/٩.

(٣) الوسائل: كتاب الصلاة. أبواب صلوة الجمعة باب ٥٢ ج٥ ص ٨٥.

﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أرأيت لو أنّ رجلا دخل بيتاً وطيّن عليه بابه ثمّ قال: «رزقي ينزل عليّ» أكان يكون هذا أمّا إنّه أحد الثلاثة الذين لايستجاب لهم.

قال: ـ قلت ـ: مَن هؤلاء الثلاثة؟

قال: رجل يكون عنده المرأة فيدعو عليها فلايستجاب له، لأنّ عصمتها في يده لو شاء أن يخلّي سبيلها يخلّي سبيلها. والرجل يكون له الحق على الرجل و لايشهد عليه، فيجحده حقّه فيدعو عليه فلايستجاب له، لأنّه ترك ما أُمر به. والرجل لايكون عنده الشيء فيجلس في بيته فلاينتشر ولايطلب ولايلتمس حتّى يأكله، ثمّ يدعو فلايستجاب له»[٤].

وعن بعض السلف إنّه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أُمور الدنيا نظراً في هذه الآية[٥].

﴿الإشراق الثاني﴾

في الإشارة إلى لبّ المعنى

إنّ الأمر بالانتشار في الأرض وابتغاء الفضل بعد قضاء الصلوة إشارة إلى الرجوع والمعاشرة مع الخلق بالإرشاد والتعليم، والانتشار في أرض الحقائق، ونشر الفضائل في أراضي قلوب المستعدّين، وإفاضة الصور الكماليّة على قوّة قابليّاتهم بعد العزلة عنهم والإنزعاج والتوحش عن صحبتهم والتخلّي مع الله والوقوف بين يديه بالصلوة الحقيقيّة.

---

(٤) مجمع البيان: في تفسير الآية، ج٥ ص ٢٨٩.

(٥) الكشاف: في تفسير الآية: ٣/٢٣٢.

فإنّ السالك في أوائل سلوكه وانزعاجه عن الخلق إلى الحقّ لايحتمل الهمس من الخفيف، وأمّا بعد الوصول فإمّا له استغراق في الحقّ واشتغال به عن كلّ شيء وسير فيه ووقوف مع الجمع،فيكون أيضا محجوباً بالحق عن الخلق: بل بالذات عن الصفات، وإمّا سعة للجانبين وانشراح صدر للطرفين. فالانتشار في الأرض هو السياحة في أرض الحقائق وايفاء حقوق الخلائق بالمحبّة الأفعاليّة الناشئة من محبّة الذات ومحبّة الصفات والأسماء، فيرى ذاته تعالى في مرائي الصفات،وصفاته في مظاهر الأسماء، فيقول بلسان حاله ومقاله: «ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله فيه أو معه».

فيحّب الخلائق بمحبّة خلاّقهم،ويبتغي من فضل الله بطلب حظوظ التجلّيات الصفاتيّة والأسمائيّة،ويرجع من سماء القدس إلى أرض النفس لتوفية حظوظها بالحقّ،ويهبط من جنّة المعارف الإلهيّة إلى عالَم البدن لتوفية حظوظ النفس التي هي بمنزلة زوجة العقل في جنّة الصفات ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [١٨٩/٧] كما أنّ حوّا زوجة آدم في جنّة الأفعال: ﴿يَاآدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [٣٥/٢].

وكذلك الرجال البالغون لهم أن يتصرفوا في الدنيا وزينتها والشهوات النفسانيّة ولذتها عند بلوغهم بنور المعرفة والتقوى إلى مرتبة لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله بقوّة ربّانيّة وبصيرة روحانيّة، لابشهوة حيوانيّة ولذّة نفسانيّة. فقد علم كلّ أُناس مشربهم،ويكون لهم ذلك ممدّاً في العبّودية ومجدّاً في سلوك طريق الربوبيّة كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [٣٢/٧].

المطلع العاشر

في قوله سبحانه

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾

وفيه إشراقات: الأوّل:

إنّما أمر الله عباده ووصّاهم بإكثار الذكر حتّى لايلهيهم شيءٌ من تجارة ولابيع ولا أكل ولاشرب ولاغيرها عن معرفة الله وعبوديته، ولايكون هممهم مصروفة عن الترقيّ إلى عالَم الربوبيّة ونفوسهم منغمرة في طلب الأغراض الحيوانيّة، لأنّ فلاحهم في الخلاص عن النشأة السائلة الدنيويّة،وفوزهم منوط بالارتقاء منه إلى النشأة العالية الأُخرويّة، ولذلك قيل: معناه أُذكُروا الله في تجارتكم وأسواقكم.

كما روي عن النبي صلّى الله عليه وآله إنّه قال: «مَن ذكر الله في السوق مخلصاً عند غفلة الناس وشُغلهم بما فيه،كتب الله له ألف حسنة،ويغفر له يوم القيامة مغفرة لم يخطر على قلب بشر»[١].

واعلم إنّ المداومة على تذكّر شيء ومعاودة اسمه توجب وصاله، ولهذا قيل: العبادة باعثة للمحبّة، والمحبّة باعثة للرؤية.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوق،فلو أخلص نيّته لله لأتاه الذي يريد في أسرع من ذلك».

---

(١) عدة الداعي: ص ٢٤٢. وجاء مايقرب منه في البحار: ١٥٤/٩٣.

ومن علامة المحبّة ذكر المحبوب: من أحبّ شيئاً أكثر ذكره.

وقيل: المراد بالذكر هيهنا الفكر، كما قال صلّى الله عليه وآله: «تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنةٍ»[١] وروي: «سبعين سنة»[٢] أيضاً[٣].

وذلك يُشبه أن يكون حقّاً، فإنّ الفكر بالحقيقة هو الذكر الحقيقي القلبي، لأنّ حقيقة الإنسان وروحه هو باطنه وسرّه، لابدنه وهيكله المحسوس؛ فالذكر الحقيقي منه مايقع من لسان قلبه وإحضاره وإخطاره صورة المذكور في باله، ولهذا ورد في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني»[٤] والله سبحانه أجلّ وأرفع من أن يكون جليس البدن حاضراً عنده؛ ولكن مع تجرّده وتقدّسه ممّا يحضر في قلب العارف ويقع عليه نوره.

واعلم إنّي لاأظنّ أحداً من الناس أوفي بعهد الله وعمل بمقتضى هذه التوصية منه في باب إكثار ذكر الله والمداومة عليه بالحقيقة إلّا الحكماء العارفين بالله، لأنّهم هم الذاكرون الله كثيراً، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهم كالمشعوفين بهذا الأمر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وذلك لأنّ كلّ أحد سواهم له دوام شغل بغير الله وآياته وأفعاله من صنايعهم العلميّة والعمليّة ـ؛

مثلا: النحويّ أكثر اهتمامه بحفظ قوانين النحو، لأنّه الغالب على طبعه، وكذا اللغويّ والشاعر ومايجري مجراهم؛ وهمّة المنجّم طول عمره مصروفةٌ في

---

(١) عدة الداعي: ص ٢٤٢. وجاء ما يقرب منه في البحار: ١٥٤/٩٣.

(٢) تفسير العياشي: ج٢ ص ٢٠٨.

(٣) جاء في الدر المنثور ج٢ ص ١١١: «ثمانين سنة».

(٤) البحار: باب ذكر الله تعالى، ج٩٣ ص ١٥٣.

ضبط حركات الأفلاك وتقاويم الكواكب واستنباط الأحكام من حركاتها وأوضاعها وانتقالاتها وارتباطاتها، وإلاّ لم يكن منجّمًا بارعاً فائقاً على الأقران، وكذا الطبيب لو لم يكن مشعوفاً بعلمه مستفرغاً جهده في طلبه، ثمّ في حفظه وضبطه قوانينَ العلاج ومعرفة الأدوية المفردة والمركبّة على أبلغ وجه وآكده لم يكن من البارعين في فنّه، وكذا الفقيه الحاوي لفروع الفقه، المستحضر لمسائله، المدقّق في وجوه الاستنباطات الدقيقة وتفريع الاحتمالات البعيدة مع جلوسه في مسند الفتوى والحكومات، لابدّ له من استغراق القلب وصرف العمر واستيعاب الخاطر وبذل الوسع والطاقة فيه حتّى يكون فائقاً على الأقران، مشاراً إليه بالأنملة والبنان، وكذا المحدّث في استعمال أوقاته في علم الرواية،[٥] أعني في سماعه الحديث وجمع الطرق الكثيرة وطلب الأسانيد العالية الغريبة، فهمّته أبداً مصروفة في أن يحصل عنده ما لم يحصل عند كثير من الناس، ولهذا يدور في البلاد ويري الشيوخ ليقول: «أنا أروي عن فلان»، «ولقد لقيت فلاناً» «ومعي من الأسانيد العالية ما ليس مع غيري».

وكذلك سائر العلوم والصناعات. إلاّ الحكيم الإلهي والعالم الربّاني، فإنّ موضوع علمه ومادّة صناعته هو الموجود المطلق والإله الحقّ ـ جلّ مجده ـ فتمام عمره مشغول بالحقّ وجميع همه مصروف بالكشف عن توحيده وتقديس صفاته وأحكام أفعاله ومعرفة نعوته وأسمائه وآياته، فلا شغل له إلاّ ذكر الله وذكر آلائه، وله علمان شريفان نوريّان: علم المبدأ وعلم المعاد. وله في الأوّل بابان شريفان: أحدهما أشرف وأنور من الآخر وهو العلم بوجوده ووحدانيته وتقدّس صفاته وأسمائه وسكّان جبروته من المفارقات والربوبيّات،

(٥) الدراية ـ نسخة.

والآخر العلم بأفعاله من السماوات والأرضين والبسائط والمركبات.

وإلى الأوّل أشير بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وإلى الثاني بقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ وإلى علم المعاد أشير بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٩١/٣].

وكذا أشير إلى أحد المنهجين في معرفة المبدأ بقوله: [تعالى]: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [٥٣/٤١] وإلى الآخر بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٥٣/٤١].

قال بعض الفضلاء في تفسيره الكبير[٦]: القرآن مشحون بذكر هذه العلوم الثلاثة، فإنّ للانسان أيّاماً ثلاثة: الأمس، والبحث عنه يسمّى بمعرفة المبدأ، واليوم الحاضر، والبحث عنه يسمّى بالعلم الأوسط، واليوم الآخر والبحث عنه يسمّى علم المعاد.

وقد وقعت في آخر سورة البقرة إشارة إلى العلوم الثلاثة، فقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ إشارة إلى علم المبدأ وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إشارة إلى علم الوسط، وقوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ إلى علم المعاد.

وكذا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ إشارةٌ إلى الأوّل، وقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى قوله تعالى ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ إشارة إلى الأوسط وقوله: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ الخ ـ إشارة إلى علم المعاد.

---

(٦) راجع التفسير للفخر الرازي: ج٢ ص ٥٦٩ و٥٧٠. في تفسير: «آمن الرسول» بتغييرات من المؤلف.

وقال في آخر سورة هود إشارة إلى هذه المعارف الثلاثة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلأَمْرُ﴾ إشارة إلى أوّلها.

وأمّا علم الوسط وهو علم يجب اليوم أن يشتغل به، فله أيضا مرتبتان: البداية والنهاية. أمّا البداية فعلم النفس والاشتغال بالعبوديّة، وأمّا النهاية فقطع النظر عن الموادّ والأسباب والتجرّد التامّ، والإتّصال بالمبدأ الفعّال وتفويض الأمور إلى مبدء المبادىء ومسبّب الأسباب وذلك هو التوكّل. فذكر هاتين المقامين فقال: ﴿وَٱعْبُدْرَبَّكَ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

وأمّا علم المعاد فهو مشار إليه بقوله: ﴿وَمَارَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنّ ليومك غداً ستصل إليك فيه نتائج أعمالك وثمرات أفعالك.

وفي كلام أمير المؤمنين ويعسوب الدين ـ عليه أزكى تسليمات المصلّين ـ إشارة إلى هذه العلوم الثلاثة للإنسان لإصلاح الأيّام الثلاثة له حيث قال: «رحم الله امرأ أعدّ لنفسه، واستعدّ لرمسه، وعلم من أين وفي أين وإلى أين».

فقد اشتملت هذه الآية على العلوم الثلاثة، ونظيرها أيضا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إشارة إلى علم المبدأ وقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إشارة إلى علم الوسط، وقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى علم المعاد، ولهذا قال في صفة أهل المعاد[٧]: ﴿وَآخِرُ دَعْوَيهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [١٠/١٠].

وهذه العلوم الثلاثة مع أجزائها وأبوابها وفصولها من علم الكلّيّات وأحكام الماهيّات والعلم بالعلل الأربع والأسباب القصوى لوجود الأشياء الكائنة ـ فاعلها وغايتها ومادتها وصورتها ـ والعلم بمبادىء الحركات الكلّيّة

(٧) كذا. والظاهر: اهل الجنة.

وغاياتها،وعلم المفارقات وعلم النبوّات وعلم السماء والعالم وعلم الروحانيّات وعلم النفس وأحوالها بعد الموت،وعلم انبعاث الرسل وكيفيّة الوحي والتنزيل والكتاب والتأويل،وعلم النبوّة والرسالة،وعلم الإمامة والسياسة؛ كلّها ذكر الله وذكر صفاته وأسمائه وآلائه ونعمائه.

فالحكماء الأفاضل سيّما الأنبياء والأولياء منهم ـ سلام الله عليهم ـ كلّهم مشتغلون بذكره، مشعوفون بمناجاته ومخاطباته، فهم الذاكرون الله كثيراً دون غيرهم، إذ ليس عشق المبدأ الأعلى ومعرفة ذاته داخلاً في موضوعات علوم غيرهم وصنايعهم، ولامقوّماً لمطلوباتهم ـ من حيث هي مطلوباتهم ومسائلهم ـ ولاغاية لأنظارهم وأفكارهم وثمرة لأفعالهم وأعمالهم القلبيّة إلّا بوجه من التكلّف والتجوّز البعيد والتمحّل الشديد.فأولئك تحرّوا رشداً؛ دون غيرهم.

فهم أحقّاء بأن يكونوا عباد الله الصالحين وأولياء الله المتقين، وأنّ الحقّ جليسهم ورفيقهم حسبما ورد من قوله: «أنا جليسُ مَن ذكرني»[٨] وبأن يكون الحقّ حاضراً عندهم مشاهداً لهم بمقتضى قوله: «أنا عند المنكسرة قلوبهم، أنا عند المندرسة قبورهم». إذ لهم قلوب منكسرة وأبدان كقبور مندرسة لتوحّشهم عن الناس وتفرّدهم عن الخلق بالموت الإرادي وتضرّرهم بها للمنافاة والتضادّ بين سلوكهم وسلوك غيرهم، فإنّ الرجل بقدر إمعانه في العلوم الباطنيّة يتوحشّ عن الخلق ويتأذّى عن صحبة أهل الظاهر وعلى مبلغ عرفانه بالحقّ يتناكر عن الناس.

ولهذا قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو أعرف العرفاء بالحقّ: «ما أوذي

(٨) مضى الحديث في الصفحة: ٢٦٢

نبيٌّ مثل ماأُوذيت»[٩].

وأمّا غير العالم الربّاني فليس له هذا التوحش عن أهل الدنيا والخوف والخشية والموت الإرادي عن مرغوباتها والرياضة البدنيّة بالأعمال والعبادات، والنفسيّة بالأفكار والتأمّلات. لاشتغال هؤلاء بما يوجب تقوية القوى وتمشية الهوى والركون إلى أهل الدنيا والإخلاد إلى الأرض السفلى والإنسراح إلى مراتع الحظوظ النفسانيّة بالحكومة والفتوى والإغترار بظواهر الرخص الشرعيّة،حيث لم يقفوا على كُنه الأمر ولالهم الخوض والإمعان في غرض الشارع منها بحسب الغاية القصوى.

فأكثر الخلق كما أخبر الله عن حالهم بقوله﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾وقوله﴿ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ فلم يبق منهم مع خطيب الأنبياء إلّا قليلاً، وأهل الله في غاية الندرة والقلّة، وهم العارفون بأن ماعند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة ومن الدنيا ومستلذاتها ومن الجنّة ومشتهياتها. وهم الذين لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلوة لعلمهم بأنّ ماعند الله خير لأولي الألباب.

﴿الإشراق الثاني﴾

[مراتب الذكر والذاكر]

قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [٧٣/٨] وقال نبيّه صلّى الله عليه وآله: ألا أُنبّئكم بخير أعمالكم،وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم،وخير لكم من إعطاء الورق والذهب،وخير لكم من أن

(٩) في الجامع الصغير (باب الميم ج٢ ص ١٤٤) عن انس : ما اوذي أحد ماأوذيت في الله.

تلقوا أعدائكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟

قالوا: وما ذلك ـ يارسول الله ؟ قال: ذكر الله عزّ وجلّ[١٠].

وعنه صلّى الله عليه وآله أيضاً: سبق المفرِدون، سبق المفرِدون. قيل: ومَن هم ـ يارسول الله ؟ قال: المستهترون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً[١١].

واعلم إنّه قد انكشف لأرباب البصائر المستنيرة بنور المعرفة أنّ ذكر الله أفضل الأعمال الروحيّة والقلبيّة والنفسيّة والبدنيّة، ولكنّ له مراتب بعضها قشور وبعضها لبوب. وللذاكر أيضاً مراتب بحسبه، ولكلّ ذكر نتيجة أيضاً، فإنّ نتيجة ذكر العبد لله ذكر الله له، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [٢/١٥٢].

وقيل: في هذه العبارة تقديم وتأخير، لأنّ الله أمرهم بالذكر مع فاء التعقيب، كقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [٥/٥٤] وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [٥/١١٩] وذلك لأنّ ذكر العبد لله نتيجة ذكر الله له، كما أنّ محبّتهم له ورضاهم عنه تعالى نتيجة محبّته إيّاهم ورضوانه عنهم.

والحقّ إنّ لكلّ من القولين وجهاً وجيهاً، لأنّ التقدّم في الأول على سبيل الإعداد والتهيئة، وفي الثاني على سبيل العليّة واللزوم، لأنّ جميع حالات العبد تابعة لما في علم الله وقضائه الإجمالي، ثمّ التفصيلي، فذكرنا له تعالى مسبّب عمّا في اللوح المحفوظ والذكر الحكيم، فافهم هذا.

---

(١٠) الترمذي: كتاب الدعاء، الباب ٦ ج٥ ص ٤٥٩. المحاسن: كتاب ثواب الأعمال، ص ٣٩ مع فرق يسير.

(١١) الترمذي: كتاب الدعوات، الباب ١٢٩ ج ٥ ص ٥٧٧ مع فرق يسير.

وأيضا ـ فإنّ ذكر العبد لله ومحبّته له ورضائه عنه وسائر صفاته الحسنة وأعماله الصالحة مؤديه له إلى أمثال هذه النتائج على وجه أكمل وأعلى، فإنّ لكلّ شيء حادث كماله مبدأ كذلك قد يكون له غاية، والمبادىء للأشياء ذوات الغايات هي نفس الغايات بالذات وغيرها بالإعتبار ـ كما حقّق في مظانّه ـ أولاترى أنّ تصوّر كلّ فاعل مختار لنتيجة فعله وكمال عمله متقدّم علمًا على ثبوت تلك الغاية، وهي متأخّرة عنه عيناً.

فإذا كان هذا هكذا فنقول: لّما كان الله سبحانه مبدأ كلّ شيء وغايته وأوّل كلّ فكر وذكر ونهايته وظاهر كلّ موجود وباطنه، فالأوّل فيه عين الآخر، والباطن عين الظاهر، والعلم هناك عين العين. فقد صحّ كلّ من الوجهين في الذكر له، وهذا أيضا من العلوم المختصّة بأحبّاء الله ومشتاقيه المجذوبين إليه ـ هذا ـ.

ولنرجع إلى ماكنّا فيه من بيان مراتب الذكر والذاكر ونتيجة كلّ مرتبة فنقول: أمّا مراتب الذكر والذاكر: فذكر اللسان، وذكر الجوارح والأركان، وذكر النفس، وذكر القلب، وذكر الروح، وذكر السرّ.

وأمّا تعيينها وتعيين[١٢] نتائجها:

فذكر اللسان: الإقرار ونتيجته احتقان الدم والمال بالأمان ـ فاذكروني بالايمان أذكركم بالأمان.

وذكر الأركان باستعمال الطاعات والعبادات للوصول إلى المثوبات فاذكروني بالطاعات أذكركم بالمثوبات.

وذكر النفس بالإستسلام للأوامر والنواهي للفوز بنور الإسلام ـ

---

(١٢) تعينها وتعين ـ نسخة.

فاذكروني بالإستسلام أذكركم بنور الإسلام.

وذكر القلب بتبديل الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الكريمة للتشبّه بالحقّ والإنخراط في سلك أحبّائه والإتّصال بجنابه ـ فاذكروني بالأخلاق أذكركم بالاستغراق.

وذكر الروح بالتفريد والمحبّة لحصول المعرفة والحكمة ـ فاذكروني بالتفريد والمحبّة، أذكركم بالتوحيد والقربة.

وذكر السرّ ببذل الوجود لوجدان المعبود ـ فاذكروني ببذل الوجود والفناء، أذكركم بنيل الشهود والبقاء.

وهذا حقيقة قوله في الحديث القدسي[١٣]: «وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي». وهذا هو لبّ الألباب(وهو الذكر الحقيقي،والغاية الأخيره لما في الخطاب؛ وهو يجعل الذاكر مذكوراً، والمذكورذاكراً، بل الذكر والمذكور والذاكر واحداً، كما قال سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [٤٠/١٦].

كما قال قائلهم:

رقّ الزجاجُ ورقّت الخمرُ فتشابَها وتشاكَل الأمرُ
فكأنّه خمرٌ ولاقدحٌ وكأنّها قدحٌ ولاخمرٌ

فافهمه واعلم قدره.

فإذا تقرّر ذلك فقوله: ﴿واذكُروا اللهَ كَثيراً﴾ يحتمل الجميع، وكذا قياس ماهو نتيجة له بحسب الأقسام من قوله: ﴿لَعلَّكُمْ تُفلِحُونَ﴾ فلكلّ ذكر من أقسام الأذكار فلاح يناسبه معناه، فاذكروا الله باللسان لعلّكم

---

(١٣) المحاسن للبرقي (١/٣٩): «اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي».

تفلحون بالاحتقان والأمان، وبعمل الأركان لعلّكم تفلحون بالوصول إلى مثوبات الجنان، وبالنفس بالاستسلام لعلّكم تفلحون بنور الإسلام، وبمحبّة القلب لعلّكم تفلحون بالاستغراق في محبّته، وبالروح لعلّكم تفلحون بمعرفته وحكمته، وبالسرّ من جهة الفناء فيه لعلّكم تفلحون بنيل شهوده وجماله والبقاء به بعد الفناء فيه.

﴿ هداية عرفانية ﴾

[المراتب المختصة بهذه الأمّة من الذكر]

اعلم إنّ مراتب الذكر كمراتب الحكمة إمّا متعلّقة بذات الله أوصفاته أو أفعاله. فنقول: ذكر الذات من بين فضيلة مختصّة بفضلاء هذه الأمّة دون غيرهم، وكذا جزاء الذكر بالذكر المستفاد من قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فضيلة مختصّة بهم دون سائر الأمم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [١٢٢/٢]. فقد أمر هذه الأمّة بذكر الذات كما أمر الله موسى عليه السلام بذكر النعماء.

وذلك لأنّ معارج الفكر والذكر والشهود لم يتجاوز في الأمم السابقة من طبقات الأفلاك ومافيها، ومثوباتهم اقتصرت على نيل درجات الجنان، وأمّا فضلاء هذه الأمّة ـ رضوان الله عليهم ـ فلهم أن يتّخذوا مع الرسول سبيلا ويتجاوزوا بمتابعته عن عالَم الخلق، بل الأمر، إذاً لهم هادياً ودليلا.

بهمراهي خواجه انس وجان توان برشدن تابسأقصى الجنان

فافهم وتدبّر.

﴿الإشراق الثالث﴾

[أعلى مراتب الذكر]

لما قرع سمعك مراتب الذكر ودرجات الذاكر ونتيجة كلّ مرتبة وأنّ بعضها فوق بعض فوقيّة الشرف والذات إلى حيث يصير الذكر والذاكر والمذكور شيئاً واحداً، فاعلم أنّ ذلك إنّما يتصوّر بأن يتمكّن[١٤] المذكور في القلب تمكّنـاً شديداً وحصولا مشرقاً نوريّا، بحيث يمنحي الذكر أو يخفى ولايلتفت القلب إلى الذكر أصلا ولا إلى الذاكر ـ أي القلب نفسه ـ بل يستغرق جملته في المذكور.

ومهما ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر يكون ذلك حجاباً عن المقصود وهويّته بالنسبة إلى الغاية الأصلية،وذلك بأن يغيب عن نفسه حتّى لايحسّ بشيء من ظواهر جوارحه ولامن العوارض الباطنة فيه، بل يفنى عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك ذاهباً إلى ربّه أوّلا، كما قال الخليل ـ على نبيّنا وعليه السلام ـ فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ ثمّ ذاهباً فيه كما يومي إليه قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ [٣٧/٩٩] فإن خطر له في أثناء ذلك إنّه ذهب إلى ربّه وفنى عن نفسه وغاب عن ذاته،فذلك سكون عن الذهاب في الجملة ووقوف مع النفس، فهو شوب وكدورة، بل الكمال في أن يفني عن نفسه ويفني عن الفناء أيضاً، فالفناء عن الفناء غاية الفناء ونتيجته البقاء[١٥]. والغيبة عن الغيبة كمال الغيبة وفائدته الحضور.

وهذا يظنّه الفقيه الرسمي أنّه مجرّد ألفاظ بلا طائل، أو طامات غير

(١٤) يستمكن ـ نسخة. (١٥) نتيجة البقاء ـ نسخة.

معقـولة ـ وليس كذلك ـ بل هذه الحالة للعرفاء الكاملين بالإضافة إلى مقصودهم كحالته بالقياس إلى أكثر مطالبه مّما يحبّه كثيراً من جاه أو مال، أو تقرّب سلطان، أو تفوّق في البحث على مشارك أو غير ذلك، فإنّه قد يصير مصروف الهمّ مستغرقاًلشدّة الغضب بالفكر في عدوّ أومنازع له في علمه أوجاهه عند النـــاس،أومستغـــرقـــاًلشـدة الشهـوة بالفكـرفيماهـو معشـوقـه حتّى لايكـون فيه متّسع لإدراك آخر، فعند ذلك الحال ربما يخاطب ولايفهم ويجتاز بين يديه غيره فلايراه وعيناه مفتوحتان، ويتكلّم عنده ولايسمع وما بأذنه صَمَم[١٦]، وهو في هذا الاستغراق غافل عن كلّ شيء، وعن الاستغراق أيضا، فإنّ الملتفت إلى الاستغراق غافل عن المستغرق فيه.

وإنّـما سمّـوا هذه الحـالة فناء وإن كان الشخص والظلّ باقياً لأنّ الأشخاص والأظلال ـ بل سائر المحسوسات ـ ليس لها حقيقة الوجود، بل وجـودهـا كحكـايات المـرائي والظلال، وإنّما الوجود الحقيقي لعالم الأمر والملكوت، والقلب من عالم الأمر، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [١٧/٨٥] والقوالب من عالَم الخلق، وليس هذا إشارة إلى قدم الروح وحدوث القالب، بل هما جميعاً حادثان، وإنّما أعني بعالَم الخلق مايقع التقدير والمساحة وهي الأجسام وصفاتها، وبعالَم الأمر مالايتطرّق إليه التقدير والمساحة.

ونحن خاصّة قد بيّنّا ذلك وبرهنّا على أنّ المقدار الإتّصالي جوهراً كان أو عرَضاً غير موجود في نفسه، وعلى أنّه مناط الجهالة والنسيان،كما أنّه مناط العدم والفقدان،لزوال كلّ جزء عن كلّ جزء،وغيبة كلّ بعض عن كلّ بعض وعن الكلّ أيضاً. فالعالم الجسماني ليس وجوده إلّا كوجود الظلّ، فهو من

(١٦) صميم ـ نسخة.

العالَم العقلي كالظلّ من الشخص، فكما ليس لظلّ الشخص حقيقة الشخص،فليس للشخص-أي الجسم-حقيقة الوجود، بل هو ظلّ حقيقة الوجود، والكلّ من صنع الله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [١٣/١٥] وسجود عالم الأمر لله طوعٌ، وسجود الظلال كره، وتحت هذا سرٌّ، بل أسرار يحرّك أوائلها سلسلةالمجانين والحمقى فضلا عن أواخرها.

﴿ الإشراق الرابع ﴾

[أحوال الذاكر ومراتب سلوكه]

إذا فهمت معنى مراتب الذكر والذاكر وفناء الذاكر بحسب المرتبة الأخيرة في المذكور، فإيّاك والإستنكار والتكذيب بمالم يحط به علمك ولم تحط بعلمه، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [١٠/٣٩] وقال أيضا: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [٤٦/١١].

واعلم [إن] أوّل الأمر هو الذهاب إلى الله، وإنّما الهدى بعده، كما مرّ ذكره في قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [٣٧/٩٩] فأوّل الأمر ذهاب إلى الله، ثمّ ذهاب في الله تعالى، وذلك هو الفناء والاستغراق به، ولكن هذه أوّلا يكون كالبرق الخاطف قلّما يدوم ويثبت، فإن دام وصار ملكة راسخة وهيئة ثابتة عرج به إلى العالم الأعلى وطالع الوجود الحقيقي للمولى، وانطبع فيه نقش الملكوت، وتجلّي لذاته قدس اللاهوت.

وأوّل مايتمثّل له من ذلك العالَم جواهر الملائكة وأرواح الأنبياء

والأولياء عليهم السلام، في صوَر جميلة يفيض بواسطتها عليه بعض الحقائق، وذلك في البداية إلى أن يعلو درجته عن المثال فيكافح بصريح الحقّ في كلّ شيء. فإذا ردّ إلى العالم المجازي وجواهره التي هي كالظلال ينظر إلى الخلق نظر مترحّم عليهم، لحرمانهم عن مطالعة جمال حضرة القدس، ويعجب من أصحاب الفهوم الفكريّة وأرباب العلوم والعقائد الجزئيّة وقناعتهم بالظلال وانخداعهم بعالَم الغرور والخيال، مع ماكان لهم أوّلاً من الاستعداد لطلب الكمال والإرتقاء إلى عالَم الحقّ المتعال، فأفسدوه بانكبابهم إلى أغراض هذا الأدنى، وإعراضهم عن الطريق المثلى، وانحرافهم عن مطالعة آيات الله الكبرى، ومع ذلك فيعاشرهم ويخالطهم بالظاهر، ويكون البُعد بينه وبينهم بحسب الباطن كما بين المشرق والمغرب، فيكون معهم حاضراً بشخصه، غائباً بقلبه، تعجب هو من حضوره ويتعجبون من غيبته لو تفطّنوا.

* *

فهذه ثمرة لباب الذِكر، وإنّما مبدئها ذِكر اللسان، ثمّ ذكر النفس تكلّفاً، ثمّ ذكر القلب طبعاً، ثمّ استيلاء المذكور على الروح، ثمّ انمحاء الذكر عن السرّ حقيقه. وهذا سرّ قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾.

وسرّ قوله صلّى الله عليه وآله: «من أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليكثر ذكر الله»[١٧].

بل سرّ قوله صلّى الله عليه وآله: «فضل[١٨] الذكر الخفيّ على الذكر الذي يسمعه الحفظة سبعين ضعفاً».

---

(١٧) جاء مايقرب منه في المسند: ٣/١٥٠، ومعاني الاخبار: ٣٢١.

(١٨) تفضل ـ نسخة.

فإنّ كلّ ذلك يشعر به قلبك فيسمعه الحفظة، وذلك لأنّ شعورهم يقارن شعورك كما يعلمه الراسخون في الحكمة، حتّى إذا غاب ذكرك من شعورك بسبب ذهابك في المذكور بالكلية ، فيغيب ذكرك عن شعور الحفظة، ومادام القلب يشعر بالذكر ويلتفت إليه فهو معرض عن الله وغير منفكّ عن شرك خفيّ حتّى يصيرمستغرقاً بالواحد الحقّ، فذلك هو التوحيد، كذلك المعرفة،إذ هما واحد كما علمت.

قال بعض العـارفـين في مقاماته: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني، ومن وجد العرفان كأنّه ماوجده بل وجد المعروف به فقد خاض لّجة الوصول، أي هو الذي استمكن من حقيقة الوصال وحلّ بحبوحة القُدس.

فهذه أُمور نبّهت عليه لتكون متشوّقاً إلى أن تصير من أهل الذوق والمحبّة بها، فإن لم تكن فمن أهل العلم بها، فإن لم تكن فمن أهل الايمان بها ايماناً بالغيب: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [٥٨/١١].

وإياك وأن تكون من المنكرين لها فتلقى العذاب الشديد، إذا كوشفت بالحقّ عند ملاقات سكَرات الموت الذي كنت منه تحيد، وقيل لك: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَائَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [٥٠/٢٢].

المطلع الحادي عشر

في قوله سبحانه

وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا

وفيه إشراقات

الأوّل: فيما قيل في معنى الآية

قالـوا: أخبر الله عن جماعة عادلين. قابَلوا أكرم الكرمَ بألومَ اللُوم، وباعوا أنفَس النَفيس بأخَسّ الخسيس، فقال: ﴿إِذا رَأَوا تِجارَةً أَوْ لَهْواً﴾ اي إذا عاينوا ذلك أو علموا بعلامة وهي الطبل ـ عن مجاهد ـ أو المزامير ـ عن جابر ـ.

﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ اي تفرّقوا عنك خارجين إليها. وعن الفرّاء: مالوا إليها. والضمير للتجارة وإنّما خصّت بإرجاع الضمير إليها لأنها كانت أهمّ إليهم وهم بها أسرّ وأفرَح من الطبل، لأنّ الطبل إنّما دلّ على التجارة.

وقيل عاد الضمير إلى أحدهما اكتفاء به، وكأنّه على حذف والمعنى وإذا رأوا تجارة انفضّوا إليها وإذا رأوا لهوا انفضّوا إليه، فحذف «إليه» لأنّ «إليها» دالّ عليه.

وروي أنّ أهل المدينة أصابهم جوعٌ وغلاء شديد، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام، والنبيّ صلّى الله عليه وآله يخطب يوم الجمعة، فقاموا

إليه خشوَ أن يسبقوا إليه، فما بقي معه إلّا يسير، قيل: ثمانية ـ عن الكلبي ـ وقيل: أحد عشر ـ عن ابن كيسان ـ وقيل: إثنا عشر ـ عن جابر بن عبد الله، قال: «أقبلت عيرٌ ونحن نُصلّي مع رسول الله صلّى الله عليه وآله الجمعة، فانفضّ النـاسُ إليهـا، فما بقي غير إثنـا عشر رجلاً أنا فيهم». ـ وقيل: أربعون، فقال: ـ «والذي نفس محمّد صلّى الله عليه وآله بيده لوخرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»[19].

وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالـطبـل والتصفيق، فهو المراد باللهو. فعلى هذا تعيّن إرجاع الضمير إلى التجارة لأنّها كانت مقصودهم الأصلي وكان الطبل طريق اطّلاعهم عليها.

وعن قتادة ومقاتل: فعَلوا ذلك ثلاث مرّات في كلّ يوم لعير تقدّم من الشام وكلّ ذلك وافق يوم الجمعة.

وقال المقاتلان: بينا رسول الله صلّى الله عليه وآله يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، ثمّ أحد بني الخزرج، ثمّ أحد بني زيد بن مناة بتجارة من الشام، وكان إذا قدم لم يبق بالمدينة الّا آتيه، وكان يقدم إذاقدم بكل مايحتاج إليه من دقيق أو برّ أو غيره، فينزل عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة، ثمّ يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه،فيخرج إليه الناس ليبتاعوا معه، فقدم ذات جمعة-وكان ذلك قبل أن يسلم-ورسول الله صلّى الله عليه وآله قائمًا على المنبر يخطب، فخرج الناس،فلم يبق في المسجد إلّا إثني عشر رجلا أو إمرأة، فقال صلّى الله عليه وآله: «لولا هؤلاء

---

(١٩) راجع الأحاديث والأقوال في الدر المنثور: ج٦ ص ٢٢٠ و٢٢١.

لسومت لهم الحجارة من السماء» وأنزل الله هذه الآية.[٢٠].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام إنّه قال: «انصرفوا إليها وتركوه قائمًا يخطب على المنبر»[٢٠].

وقال جابر بن سمرة: «ما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله يخطب إلّا وهو قائم فمن حدّثك أنّه خطب وهو جالس، فكذّبه»[٢٠].

وسُئل عبد الله بن مسعود: أكان النبي صلّى الله عليه وآله يخطب قائمًا؟ فقال: أما تقرء: وتركوك قائمًا؟

وقيل: أراد قائمًا في الصلوة[٢٠].

﴿ الإشراق الثاني ﴾

[ايمان الأكثرين عادة وتقليد]

اعلم إنّ الغالب على الخلق حبّ التلذّذ بالدنيا والتمتّع بطيّباتها التي هي خبيثات العالَم الأعلى، لأنّ التجسّم غالب على طباع الناس إلّا الأقلّين،كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلَّا الذينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا ٱلصَالِحَاتِ﴾ [١٠٣/٢].

وقلّ من الإنسان من آمن بوجود المبدء والمعاد ايماناً حقيقيّاً وصدّق بالله واليوم الآخر إذعاناً يقينيّاً. وأكثر الذين يدّعون الايمان لهذه الأركان إذا فتّشت عن ايمانه يكون مرجعه إمّا القول باللسان فقط، وإمّا هو مع التقليد المحض بالمشايخ والآباء من غير برهان ولاحجّة إقناعيّة كالعميان، وإمّا التعصّب لمذهب نشأ فيه مع الأصحاب والرفقاء والخلّان وإلف وعادة حصلا

---

(٢٠) مجمع البيان في تفسير الآية: ج٥ ص ٢٨٩.

له بسبب المعاشرة مع المسلمين، أو التشبّه بأهل العلم واليقين بصور أعمالهم وألفاظهم الدائرة على ألسنتهم،من القول بوجود الإله والملك والنبي والإمام والكتاب والوحي والقبر والبعث والحشر والنشر للصحائف والتطاير للكتب؛ أو مجرّد الظنّ والتخيّل لهذه المسموعات على سبيل التجويز العقلي من غير وصول إلى حقيقة الأمر أو حصول طمأنينة قلبيّة توجد للنفوس السليمة عن الأمراض الباطنيّة،كما للسعداء من أصحاب اليمين.

وشيء من تلك الأمور لايؤثر في قلب الإنسان أثراً يوجب انتزاع نفسه عن الدنيا وحسم مادّة الميل إلى شهواتها بحيث ينزجر بلا زاجر خارجي ويرتدع من غير رادع يجبره بحكومة عرفيّة أو شرعيّة، فمتى وقعت مسامحة أوتوهّمت من طرفها أو انبعث داع مجدّد يحرّك سلسلة الحرص والهوى فيرجع مسرعاً إلى ما اقتضته طبيعته وأ دعته[٢١]. وينقلب إلى ما يميل إليه ذوقه وهواه، كالحجر المستكنّ في الهواء قسراً إذا خلّي وطبعه يميل إلى أسفل السافلين، وأمّا المؤمن الحقيقي العارف بالحقّ، المصدّق لما أتى به النبيّ صلّى الله عليه وآله،والمشاهد لليوم الآخر كشفاً،والموقن بأنّ الآخرة خير له من الأولى؛ فهو في غاية الندور. وقد وقع التصريح به في كثير من الآيات القرآنيّة بأنّ أكثر المتسمين بالمؤمنين كافرون ضميراً وقلباً، منافقون بالله ورسوله، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [٤/١٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[١٢/١٠٦] وقوله تعالى:﴿وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١٢/١٠٣] وقوله:﴿يَاحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ

(٢١) في نسخة: ادعيه. والظاهر ان الصحيح: دواعيه.

إلاّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ [٣٦/٣٠] وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ [١٦/٨٣] وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [١٢/١٠٥].

﴿ الاشراق الثالث ﴾

[النور الفائض على القلب]

اعلم إنّ كلام الرسول الخارجي لايسمع مَن لم يكن له في الباطن رسول قلبي بوارد من واردات الحقّ سبحانه ويكون القلب به حيّاً،كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [٢٧/٨٠] وقال: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾ [٣٦/٧٠] فالقلب الحي [٢٢] بنور وارد الحق يسمع بذلك النور كلام الرسول الخارجي ويفهمه ويقبله، فسرُّ القلب-الذي هو قابل لفيض نور وارد الحقّ-يكون الرسول بين الحقّ والعبد، فيأخذ الأسرار والمعاني والحِكم والمواعظ من نور وارد الحقّ،ويبلغها إلى قواه الداخلة والخارجة وسائر الاُمّة المسلمة،من الأوصاف والأخلاق الحسنة.

كما روى عنه صلّى الله عليه وآله:واعظ في قلب كلّ مؤمن.

وقال بعضهم: حدّثني قلبي عن ربّي.

وتحقيق ذلك إنّ كلّ إنسان يلاقي الاُمور الغيبيّة والشهاديّة بما في نفسه وطبعه، بل كلّ قوّة تدرك وتنال شيئاً إنّما تدركه وتناله بما في ذاتها. فالبصر مثلا إنّما يدرك الأضواء والألوان لأنّه من جنسها، لكونه مشفّاً نورانيّاً والسمع يدرك كيفيّة تموّج الهواء الحاصل من المقروع والمقلوع، لأنّ من شأنه

(٢٢) المحيي ـ نسخة.

أن ينقرع وينقلع حامله بتموّج مايجاوره من الهواء الراكد، وكذا القوّة الشميّة القائمة بعصب اللسان تنفعل عن المذوقات بسبب تكيّف آلتها التي هي رطوبة لعابيّة بكيفيّة المطعومات، ونسبة تلك الرطوبة إلى كيفيّة الطعوم كنسبة الجرم المشف إلى كيفيّة الضوء واللون، وهكذا قياس سائر الحواس الظاهرة والباطنة.

فالوهم يدرك الموهومات والعقل الذي هو جوهر مفارق يدرك الحقائق المجرّدة عن الغواشي الماديّات، فالإنسان بكلّ قوّة وبكلّ نشأة تكون له وفيه حصّة منها يدرك ما في تلك النشأة من الأمور الغريبة.

ولهذا قال بعض الحكماء: العقل نور الله، ولا يهتدي إلى النور إلّا النور ، ولايظهر صورة فردانيّة إلّا في مرآة فردانيّة، والنفس مرآة العقل ومرآة العقل لا تشبه مرآة الأجسام، ومرآة الله لاتشبه مرآة غير الله ـ انتهى.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [٢٤/٤٠].

فإذا علمت ماذكرناه ـ فاعلم إن من جملة القوى المودعة من أمرالله في العالَم الإنساني هو نور فائض من الله على قلب المؤمن المجاهد في سبيل الله، وهو إنّما يجيء إليه من عالَم الملكوت، ويقذف في قلبه بعد استكماله بمراتب الحسّ والخيال والوهم والعقل بالعلوم الرسميّة والآداب الشرعية، وطور ذلك النور فوق أطوار سائر المدارك والمشاعر والعقول الجمهوريّة، وهو من أنوار النبّوة والولاية.

فبذلك النور يقبل الأحكام النبويّة ويفهم الأسرار الإلهيّة وينال الحظّ

الوافر من العلوم الربّانيّة. فيتبع الرسول الخارجي والمبلغ العيني بالرسول الداخلي والمبلغ الغيبي، فبالرسول يدرك الرسول، وبالنور ينال النور، كما أنّ بالعقل يعقل العقل والمعقول،وبالحسّ يحسّ الحسّ والمحسوس؛ فمن لايكون له وارد من الحقّ ولا نصيب من نوره فلا يفهم لسان النبي الوارد من الحقّ إلى الخلق،ولا يدرك النور الذي معه والكتاب الذي أُنزل إليه ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمالَه مِنْ نُورٍ﴾.

* * *

وهكذا حال أكثر الناس ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ [٣٦/١٠] ولـذلك لم يبق مع الرسول من العدد الكثير لأصحابه في ألطف وقت من أوقات صحبته وأنور ساعة من ساعات خدمته معدّة لمرافقتهم إيّاه وصحبتهم له صلّى الله عليه وآله وعروجهم معه إلى العالم الأعلى، وهو وقت ذكر الله والصلوة التي هي معراج المؤمن وعمود الدين ومناجات العبد للربّ. فخلّوه وتركوه قائمًا ايثاراً لهذا الخسيس الدني على الشريف العلّي.

نظير ذلك ما وقع لهم في ترك النجوى مع الرسول صلّى الله عليه وآله حين أوجبت عليهم الآية صدقة يسيرة ـ حبّة أو شعيرة ـ ففوّتوا ذلك الأمر العظيم بامساك هذا التراب الرميم، لما روي إنّهم أكثروا مناجاة الرسول صلّى الله عليه وآله بما يريدون، حتّى ألموه وأبرموه، فنزلت: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجواكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ [١٣/٥٨] وأُمروا بأنّ من أرا د أن يناجيه قدّم قبـل مناجاته صدقة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لّما نزلت دعاني رسول الله صلّى الله

عليه وآله فقال: ما تقول في دينار؟ قلت: لايطيقونه. قال: كَم؟

قلت: حبّة أو شعيره. قال: إنّك لزهيد. فلمّا رأوا ذلك اشتدّ عليهم فارتدعوا؟ وكفّوا عن النجوى حتّى نسخت»[٢٣].

وعنه عليه السلام: «إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، و لا يعمل بها أحدٌ بعدي. كان لي دينار فصرفته، فكنت إذا ناجيته تصدّقت بدرهم»[٢٤].

فانظر في هذه الحكاية بنظر التأمّل حتّى تعلم أنّ أهل المودّة الاُخرويّة في غاية القلّة والندرة بالنسبة إلى أهل المودّة الدنيويّة، وأنّ عدد طالب الحقّ بالنسبة إلى طالب الهوى كعدد الشَعرة البيضاء في جلد البقرة السوداء.

(٢٣) الدر المنثور: ج٦ ص ١٨٥. الترمذي: كتاب التفسير الباب ٥٩ ج٥ ص ٤٠٦ مع فرق يسير.

(٢٤) تفسير القمي: في تفسير الآية ص ٦٧٠. الدر المنثور: الصفحة السابقة.

المطلع الثاني عشر

في قوله سبحانه

قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

وفيه إشراقات: الأوّل:

[إجمال معنى الآية]

قل ـ يامحمّد صلّى الله عليه وآله ـ لهذه النفوس المحجوبة عن عالم الربوبيّة وما يليه من سكّان عالم الجبروت والملكوت ـ وهي مبادي الصوَر الفائضة على موادّ هذا العالم بعد نزولها ومرورها على المراتب، وينابيع اللذات والخيرات النازلة منها على قوابل الأجساد وطبائع الأجرام بعد تكدّرها بالشوائب، ومفاتيح خزائن النعمة والرحمة والايمان وأبواب الوصول إلى الجنّة والرضوان ـ :

إنّ ما عند الله أحمد عاقبة وثواباً وأجلّ مرجعاً ومآبا من اللهو والتجارة، وهما هوسان زائلان: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾ يرزقكم من حيث لاتحتسبون وإن لم تتركوا الخطبة والجمعة ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ عَلَى ٱللهِ رِزْقُهَا﴾ فمن ابتغى زاد الآخرة كان له نعمة الدنيا والآخرة،ومن ابتغى تحصيل الدنيا حرم عن الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيد ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [١٣٤/٤] أي: من

كان دنّي الهمّة، قصير النظر، خسيس الطلب حتّى يطلب من الله الدنيا الدنيّة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فللإنسان أن يطلب منه ما هو أعظم من الدنيا، فإنّ الله من سعة كرمه وبسطة جوده وفيض وجوده الذي هو ينبوع ينابيع الخير والرحمة، ومفتاح مفاتيح الجود والنعمة، يحبّ أن يسأل العبد منه عوالي الأمور ومعالي الأشياء، ويبغض أن يطلب منه دنيّاتها وسفسافها، فلا يرضى أن يقتنع منه بالدنيا لأنّها دنيّة، بل لاشيء، لأنّ وجودها وجود تبعي ظلّي.وعند الله ثواب الدنيا والآخرة،لأنّ إحديها من أشعّة ذاته وأضواء جماله وجلاله، والأخرى من ظلال أنوار كماله.

فمن يكون منزلته عند الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ فقد وجد الله،ووجد ماعنده من الدنيا والآخرة،وكان الله عطوفاً رحيماً على عباده، سميعاً لحاجات طالبيه ومناجاة مشتاقيه، بصيراً بمصالح دينهم ودنياهم. فلكمال رأفته ورحمته أمرهم بالرجوع إليه في الأمور، ونهاهم عن الانكباب إلى عالم الدثور، والانخراط في سلك أصحاب القبور.

﴿الإشراق الثاني[1]﴾

[أقسام الرزق ومستحقيه]

اعلم إنّ للإنسان أرزاقا مختلفة سوى رزق المعدة، وهي رزق القلب ورزق الروح، ورزق السرّ.

وكلّ إنسان في هذا العالم يستحقّ بجسميّته رزق القالب، لأنّ هذا أدنى درجات الحيوان بما هو حيوان،والإنسان بحصّة حيوانيته يكون من أهل استحقاق الجحيم، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[١٩/٧١].

لأن معـدة الإنـسان تنور، وجائت حرارته من فوخ نار جهنّم التي قيل لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. وهي التي ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكافِرِينَ﴾ المجرمين.

ولبعض الناس رزق القلب ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزقاً حَسَناً﴾ [١٦/٧٥] وإلى هذين الـرزقين أُشير بقـوله: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ ﴾ [٢٧/٦٤] ولقوله: ﴿وَلَوْ انهُمْ أَقَامُوا ٱلتورية وَٱلانْجِيلَ وَما أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوقِهِم وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [٥/٦٦].

وأمّا رزق الروح فلقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [٢٠/١٣١].

وأمّا رزق السرّ فكقوله صلّى الله عليه وآله «أبيت عند ربّي يطعمني ويسقيني»[١].

فقـولـه تعـالى: ﴿وَٱللهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾ يحتمل الجميع، فإنّ الرازق الحقيقي في كلّ رزق إنّما هو ذاته، وأمّا في القسم الأخير فدرك معناه يحتاج إلى لطف قريحة ـ فافهم ـ.

﴿ الإشراق الثالث ﴾

[الرزق المخصوص بالإنسان]

اعلم إنّ الرزق والنعمة ومايجري مجريها قد يعبّر بها عن كلّ مطلوب ومستلذّ،والمطالب والمستلذّات للإنسان على ثلاثة أجناس، لأنّها إمّا عقليّة

(١) الفقيه: كتاب الصوم، النوادر ج٢ ص ١٧٢: «أظلّ عند ربي... ورواه العامة بالفاظ مختلفة راجع المعجم المفهرس ج٣ ص ٥٤٧.

وإمّـا نفسيّة وإمّـا بدنيّة، والأوّل كلذّة العلم والحكمـة، والثاني كلذّة الجاه والحكومة، والثالث كلذّة الأكل والمجامعة.

وفي الأخيرين يقع الإشتراك بينه وبين سائر الحيوانات.

وأمّا المطالب العقليّة فهي أقلّها وجوداً وأشرفها رتبة. أمّا قلّتها فلأنّ المعرفة لايستلّذها إلاّ العلماء والحكمة لاينالها إلاّ الحكماء، وما أقلّ أصحاب العلم والحكمـة، وما أكثر المتسمين بإسمهم والمترسّمين برسمهم، وأمّا شرفها فلأنّها لذّة لاتزول أبداً ـ لا في الدنيا ولا في الآخرة ـ ودائمة لا تمل، والطعام والشراب يشبع منه، وشهوة الوقاع يفرغ ويستثقل، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني أقرب الاماد فهو سفيه في عقله محروم بشقاوته وإدباره.

ثمّ العلم لذيذ ونافع وجميل في كلّ حال، والمال والأولاد تارة تجذب إلى الهلاك، وتارة تجذب إلى النجاة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [١٥/٦٤].

وأمّـا قصـور أكثـر الخلق عن إدراك لذّة العلم فإمّا لعدم الوجدان والذوق، فمن لم يعرف لم يذق، ومن لم يذق لم يشق، إذ الشوق تابع للذوق. وإمّا لفساد فطرتهم الأصليّة ومرض قلوبهم بسبب اتّباع الشهوات،كالمريض الذي لايدرك حلاوة العسل ويراه مرّاً، وإمّا لقصور فطرتهم إذ لم يخلق بَعدُهم الغريزة التي بها يستلذّ العلم، كالطفل الرضيع الذي لايدرك لذّة الطعوم الذيذة إلاّ اللبن.

فالقاصر عن لذّة المعرفة والحكمة ثلاثة: إمّا من لم يحي باطنه كالجنين بل كالمني وإمّـا من مات بعد الحيوة باتّباع الشهوات، وإمّا من مرض بسبب

الصفات المكتسبة مثل العصبيّة والعناد واللجاج والعُجب وسوء الظنّ والتكبّر وحب الرياسة.

وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إشارة إلى مرض القلوب ولذا قال: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٢/١٠] لأنّ مرض القلب ممّا يشتدّ يوماً فيوماً ويرسخ حتّى يؤدّي إلى الهلاك السرمد والعذاب الأبد، وقوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾ [٣٦/٧٠] إشارة إلى من لم تمت حيوته الباطنيّة، وكلّ حيّ بالبدن ميّت بالقلب فهو عند الله من الموتى؛ وإن كان عند أهل الحجاب من الأحياء، وكذا كلّ ميّت يميت بالبدن حيّ بالقلب فهو من الأحياء، لأنّ العبرة في عالم الحقيقة بالقلب لا بالقالب، ولذلك كان الشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ بالأرزاق المعنويّة ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَيهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهي اللذات العقلية ـ وإن كانوا موتى بالأبدان.

وأمّا اللذّة التي يشارك الإنسان بها بعض الحيوانات فهي كلذّة الغلبة والاستيلاء والرياسة، أو كلّها فهي كلذّة البطن والفرج، فإنّ الأولى موجودة في الأسد والنمر وأشباهها، والثانية موجودة في سائر الحيوانات،فهذه أكثرها وجوداً وأخسّها رتبة، ولذلك اشترك فيها كلّ ما دبّ على الأرض ودرج،حتّى الديدان والحشرات.

ومن جاوز هذه الرتبة يستثبت[٢] فيه لذّة الغلبة وهي أشدّها التصاقاً بالمتعاقلين.

فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالث،فصار أغلب اللذات عليه لذّة العلم والحكمة، لاسيّما معرفة الحقّ الأوّل ومعرفة صفاته وأفعاله من الجواهر الملكيّة

(٢) يثبت ـ نسخة.

والفلكيّة والنفوس الأرضيّة وما بعدها من جهة مباديها وغاياتها وهذه رتبة الصدّيقين، وهي المسمّاة عند الحكماء والعرفاء بالخير الحقيقي، وباقي الخيرات خيرات بالإضافة.

وإلى الخير الحقيقي أشار بقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ﴾ [١٩٨/٣] وإلى الخير الإضافي أشار بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِجَارَةِ﴾ لما بيّنّا أن عند الله يوجد كلّ نعمة ورزق دنيوي وأُخروي لأنّ الجميع ظلال أنواره ورشحات بحاره.

﴿ الإشراق الرابع[٣] ﴾

[معرفة الله أجلّ اللذات]

اعلم إنّ دعوى كون ماعند الله خيراً من اللهو الذي هو لذّة القوّة الحسّية وشهوة النفس البهيميّة، ومن التجارة التي هي لذّة القوّة الخياليّة والنفس السبعيّة إذ بها يحصل الجاه والحشمة، ممّا يشكل إثباته على أكثر الناس لغلبة التجسّم عليهم وكثافة الحجاب فيهم.

.فإنّ كون معرفة الله وصفاته ومعرفة ملكوت سماواته وأسرار ملكه أعظم من لذّة الرياسة وسائر المرغوبات ممّا يختصّ دركه بمن نال رتبة المعرفة وذاق مشرب الحكمة،ولايمكن إثباته على من لاقلب له، لأن القلب معدن هذه القوة؛كما لايمكن إثبات لذة الرياسة ورجحانها على لذّة الوقاع عند الأداني والسفهاء، ولا إثبات لذّة الوقاع على لذّة اللعب بالكرة والصولجان عند

(٣) من هنا الى آخر الاشراق السادس مقتبس مما جاء في احياء علوم الدين (٣٠٩/٤ الى ٣١١) بتغييرات واضافات من المؤلف (ره).

الصبيان، ولا إثبات لذّة الروائح عند فاقد الشامّة، كالجُعَل؛ أو مريضها كالمزكوم لفَقدهم القوّة التي بها تُدرك هذه اللذّة أو سلامتها.

ولكن من كان ذا ذائقة وسلمت ذائقته عن الأمراض والآفات فيدرك لا محالة ما يناسبه من اللذات، وعند هذا ينبغي أن يقال لفاقد تلك الغريزة الباطنيّة: «إنّ من ذاق عرف».

وممّا ينبهك أنّ معرفة الله ألذّ الأشياء أنّ طلّاب العلوم ـ وإن لم يشتغلوا بطلب المعارف الإلهية واللطائف الربوبيّة ـ قد استنشقوا رائحة من روائح هذه اللذّة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلب العلوم التي يطلبونها فإنّها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة، لأنّ كلّ علم فهو حضور صورة مجرّدة عن مادّتها عند الذهن، والصورة المجرّدة أصفى وألذّ من الصورة الماديّة.

فإذا كانت هذه هكذا، فما ظنّك بلذّة من طال فكره في الملكوت حتّى انتهى إلى معرفة الله وقد انكشف له شيء من أسرار ملك الله وملكوته؟ أوَ لم يصادف في قلبه عند حصول ذلك طرباً عقليّاً وفرحاً قدسيّاً، ما يكاد يترك به عالَم الأجسام كلّها ويطير إلى عالم القدس، نعم يوجد من يصادف ذلك في كثير من أوقاته، ويتعجّب من نفسه في ثباته واحتماله، لقوّة طربه وسروره، وهذا ممّا لايدرك إلا بالذوق، والحكاية قليلة الجدوى فيه.

﴿الإشراق الخامس﴾

[حب التفرد عن الخلق]

لذّة معرفة الله والنظر إلى وجهه الكريم والمطالعة لجمال الحضرة الربوبيّة

والشهود لأسرار الأمور الإلهيّة ألذّ اللذات الباطنيّة من الرياسة والحكومة وأعلى الشهوات الغالبة على أنفس الناس وخير الأرزاق الصوريّة والمعنويّة، يرزق بها من يشاء من عباده المقرّبين وأوليائه الصالحين.

ولهذا ترى العارف الربّاني تؤثر التفرّد عن الخلق والخلوة مع الحقّ بالتبتّل والفكر والذكر على الدوام، ويترك الرياسة ويستحقر الخلق ويستهزء بهم كما هم يستهزؤون به، لعلمه بفناء شهوتهم وانقطاع رياستهم وانفساخ أرزاقهم الصوريّة الحسيّة والخياليّة، وكونهم مشوبة بالكدورات، منغصّة بالمزاحمات، مقطوعة بالموت الذي يهدم اللذات ويقطع الرياسات، ولابدّ منه مهما ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ الآية [١٠/٢٤].

فيشغله بالإضافة إلى هذه اللذات المحقّرات لذّة الحكمة والمعرفة بالله، والمطالعة لصفاته وملكوت أفعاله ونظام مملكته، الآخذة من أعلى علّيين إلى أسفل السافلين، فإنّها خالية عن المزاحمات والمكدّرات، متسّعة للمتواردين، لاتضيق عليهم بكثرتها، وإنّما عرضها من حيث التقدير عرض السموات والأرضين، لأنّه إذا خرج النظر عن عالَم المساحة والخلق والتقدير فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنّة عرضها السموات والأرض، يرتع في رياضها، ويقتطف من ثمارها، وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنّة غير مقطوعة ولا ممنوعة، ثمّ هي أبديّة سرمديّة لايقطعها الموت، إذ الموت لايهدم محلّ معرفة الله تعالى، لأنّ محلّه الروح الذي هو أمر نورانّي سماويّ، وإنّما يغير الموت أحوالها ويقطع أفعالها الدنيويّة وشواغلها وعوائقها ويخليها وعالَمها.

فأمّا أن يعدم ذاتها وصفاتها وكمالاتها الذاتيّة فلا، لقوله تعالى ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَيهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [١٦٩/٣ - ١٧٠].

ولاتظنّن أنّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة، فإنّ للعارف بكلّ نفَس درجة ألف شهيد. وفي الخبر: «إنّ الشهيد يتمنّى في الآخرة أن يُردّ إلى الدنيا ليقتل مرّة أُخرى،لعِظم مايراه من ثواب الشهداء»[٤]. وإنّ الشهـداء يتمنّون أن يكونوا من العلماء، لما يرونه من علّو درجة العلماء.

وفي الحديث أيضا: «إذا كان يوم القيمة يوضع الموازين، فيوزن مداد العلماء مع دماء الشهداء فيرجّح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٥].

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان الحكيم العارف يتبوّء منها حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه، فهو من ملاحظة جمال الملكوت في جنّة عرضها كعرض السموات والأرض، وكلّ عارف فله مثلها من غير مزاحمة بينهم،إلاّ أنّهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر سعة معارفهم ﴿وَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾ وهكذا حالهم في الدنيا وفي الآخـرة قبـل الموت وبعده،إلاّ أنّ الموت يزيدهم انكشافاً وظهوراً وجلاء ووضوحاً لمعارفهم ومقاصد هم ـ فافهم واغتنم ـ.

---

(٤) الترمذي: كتاب فضائل الجهاد الباب ١٣ ج٤ ص ١٧٦ و١٧٧. واورده الغزالي في الاحياء (٣٠٩/٤) وقال العراقي في تخريجه: متفق عليه من حديث انس وليس فيه: وان الشهداء يتمنون ان يكونوا علماء ... الحديث.

(٥) الامالي للصدوق (ره) المجلس الثاني والثلاثون ص ١٦٨.

﴿ الإشراق السادس ﴾

في تأكد أنّ ماعند الله خير الخيرات وأبهج اللذات
وأنّ كلّ لذّة وبهجة ينطوي في إدراك ذاته وشهود صفاته.

فإذا علمت أنّ لذّة العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ألذّ اللذات عند العارف الربّاني، فلا تتعجّب من ايثار هذه اللّذة على سائر اللذّات، واستيحاشه عن صحبة الخلق ومستلذّاتهم إلى حيث يصير طرده الناس واستحقروه، خصوصاً المشعوفين بالعقول الناقصة الدنيويّة والعلوم الجزئيّة المعروفة عند الناس، التي توجب مراجعة الخلق لهم.

ولهذا قال بعضهم: إذا بلغ الرجل إلى غاية يستغرق في العلم بالله رماه الناس بالحجارة. أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون مايقوله جنوناً.

وقصد العارفين كلّهم ملاحظة لقائه ومشاهدة ملكوته فقط، فهي قرّة عينهم[٦] التي لا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين، فصارت الهموم كلّها فيهم همّاً واحداً، بل من عرف الله عرف أنّ اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلّها تنطوي تحت هذه اللذّة كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرقّة فاستجمعت اذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرتُ مولى الورى إذ صرتَ مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يادين ودنيائي

وقال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنّته

---

(٦) اعينهم ـ نسخة.

فمن عرف الله انمحقت عنه الهموم والدواعي، سواء كانت من باب الدرهم والدينار، أو من باب الجنّة والنار، أو من باب البحث والتكرار والصيت والاشتهار، واضمحلّت عنه الشهوة والغضب وقهر تشويشهما. فغلبة المعرفة بالله مبدء كلّ حبّ وطلب، فلا داعي له سوى الله جلْب منفعة أو دفْع مضرّة، فلو أُلقي في النار لم يحسّ بها، ولو عرض عليه نعيم الجنّة لم يلتفت إليها، فكيف إلى هذه اللذات المخدجة.

ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك.

وقال بعض العرفاء: إن أدخلني الله الجنّة بمرادي فويل لي، وإن أدخلني النار بمراده فنعم الحبس.

وقال أبو سليمان الداراني: إنّ لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ورجاء الجنّة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟

وقال بعض إخوان المعروف الكرخي له: أخبر أيّ شيء أهاجك إلى العبادة والتفرد عن الخلق؟ فسكت.

فقال: ذكر الموت؟ فقال له: وأيّ شيء الموت؟

فقال: ذكر القبر والبرزخ؟ فقال: أيّ شيء من هذا؟

فقال: خوف النار ورجاء الجنّة؟ فقال: وأيّ شيء من هذا ـ فقال إنّ ملكاً بيده هذه كلّها إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينه وبينك معرفة كفاك جميع هذا[٧].

(٧) راجع الاقوال المنقولة في احياء علوم الدين ٤/٣٦٠ و٣٦١، وقوت القلوب، ٢/٥٦ و٥٧.

﴿ خاتمة ﴾

في ذكر نبذ من مواعظ حكميّة ونصائح قرآنيّة ينتفع بها من له قلبٌ سليم، مأخوذة بعضها من كلام الله تعالى وأحاديث نبيّه صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وبعضها من أقوال العرفاء ونصائح الحكماء في هذا الباب، طمعاً في أن يصير سبباً لتنبيه القلوب الراقدة في مراقد الغفلات، وباعثاً على ايقاظ النفوس النائمة في مضاجع الجهالات.

وإن كان معلوماً أنّ أهل هذا العصر ممّن قال في حقّهم الشاعر:

«ولن يصلح العطّار ما أفسد الدهرُ»

إلّا أنّ أرض الله لايخلو عن مؤمن تقي وصالحٍ نقيّ، وبلاد الله لايكون ذات حبوب وثمار وأشجار لأجل الدواب والأنعام كالفرس والحمار بل لابدّ لوجود ذوي الألباب ليكون معاني صور هذا الكتاب.

قال الله تعالى ناصحاً لرسوله وحبيبه صلّى الله عليه وآله هادياً له طريق الفلاح ليهتدي اُمّته بهداه ويتنوّر باطنهم بنور ورعه وتقواه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [٢٠/١٣١]. فنهى سبحانه رسوله عن النظر إلى متاع الدنيا وزهرة حيوتها الفانية كيلا يتلوث طهارة ذاته المجرّدة وعينه المقدّسة بكثافة مستلذّاتها وخبائث مشتهياتها.

وأمثال هذه الآية من الآيات والنصوص الدالّة على ذمّ الدنيا وتهجين

أهلها ومدح الآخرة وتحصين أهلها أكثر من أن تحصى، مثل قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [٣٠/٥٣] وكقوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَه عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [١٨/٢٨] إلى غير ذلك.

قال المولوي في المثنوي:

گفت حق بارهـــا به پيغمـبر   كه بدنـيا وأهـــل او منـگـــر

وفي كتاب الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لايجد الرجل حلاوة الايمان في قلبه حتّى لايبالي من أكل الدنيا. ـ ثمّ قال ـ: حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الايمان حتّى تزهد في الدنيا».[١]

وعنه عليه السلام إنّه قال: «من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه ونطق بها لسانه، وبصّره بعيوب الدنيا دائها ودوائها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام»[٢].

وعنه عليه السلام: «جُعل الخيرُ كلّه في بيت وجُعل مفتاحه الزهد في الدنيا»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «خرج النبي صلّى الله عليه وآله وهو محزون. فاتاه ملك ومعه مفاتيح خزائن الأرض، فقال: يامحمّد هذه مفاتيح خزائن الأرض، يقول لك ربّك افتح وخذ منها ماشئت، من غير أن ينتقص [٤] شيئاً

(١) الكافي: كتاب الايمان والكفر باب ذم الدنيا ج٢ ص ١٢٨.

(٢) الكافي: الصفحة السابقة وفيه:.. وأنطق بها لسانه...

(٣) الكافي: الصفحة السابقة.

(٤) المصدر: تنقص.

عندي. فقال صلّى الله عليه وآله: الدنيا دار من لادار له، ولها يجمع من لا عقل له. فقال الملك: والذي بعثك بالحقّ لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرابعة حين أُعطيت المفاتيح»[٥].

* * *

وروى الشيخ الجليل عماد الإسلام أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني في هذا الكتاب مسنداً إلى جابر ـ رضي الله عنه ـ عن أبي جعفرعليهماالسلام حديثاً طويلا في باب ذمّ الدنيا والزهد عنها ذكر فيه:

«ـ ياجـابر ـ الآخرة دار القرار، والدنيا دار فناء وزوال، ولكنّ أهل الدنيا أهل غفلة، وكان المؤمنون هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة.لم يصمّهم عن ذكر الله ـ جلّ اسمه ـ ماسمعوا بآذانهم، ولم يعمهم عن ذكر الله ما رأوا من الزينة بأعينهم،ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم».

ـ وفيه إشعار بأنّ الفقه ليس معناه في عرف الأئمّة ولسان السابقين الأوّلين هذه الصناعة المشهورة، بل العلم الذي يوجب الاستغراق في أمر الآخرة وأحوال الباطن والإعراض عن الدنيا بالكليّة.

ثمّ قال فيه: «واعلم يا جابر إنّ أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة وأكثرهم لك معونة [تذكر فيعينونك وإن نسيت ذكروك][٦] قوّالون بأمر الله. قوّامـون على أمـر الله، قطعوا محبّتهم بمحبّة ربّهم، ووحشوا الدنيا لطاعة مليكهم، ونظروا إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وإلى محبّته بقلوبهم».

---

(٥) الكافي: باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، ج٢ ص ١٢٩.

(٦) الاضافة من المصدر.

ثمّ قال عليه السلام: «فانزل الدنيا كمنزل نزلته ثمّ ارتحلت عنه، أو كمالٍ وجدته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء، إنّي إنّما ضربت لك هذا مثلا لأنّها عند أهل اللبّ والعلم بالله كفيء الظلال»[٧].

***

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها في قلبه آثرها على الله تعالى فانقطع إليها وصار عبداً لها ولقد كان في رسول الله صلّى الله عليه وآله كاف في الأسوة ودليل لك على ذمّ الدنيا وعيبها و كثره مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها وفطم عن رضاعها وزوي عن زخارفها.

وإن شئت ثنّيت بموسى كليم الله عليه السلام إذ يقول: ﴿ربِّ إنّي لِمَا أنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [٢٨/٢٤] والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه.

وإن شئت ثلّثت بداود عليه السلام صاحب المزامير وقاري أهل الجنّة، فلقد كان يعمل سفايف الخوص بيده ويقول لجلسائه: «أيّكم يكفيني بيعها» ويأكل قرص الشعير من ثمنها.

وإن شئت قلت في عيسى عليه السلام [فلقد كان] يتوسّد الحجر ويلبس الخشن[٩] وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ماتنبت الأرض للبهائم، ولم يكن

---

(٧) الكافي: الباب السابق، ج٢ ص ١٣٢.

(٩) ويأكل الجشب ـ نسخة.

له زوجـة تفتنه ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولاطمع يذلّه، ودابّته رجلاه، وخادمه يداه.

قياس نبيّك[١٠] الأطيب الأطهر ـ صلوات الله عليه ـ فإنّ فيه أُسوة لمن تأسّي، وعزاء لمن تعزّي. قصم الدنيا قصمًا[١١]، ولم يعرها طرفاً، أهضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصهم من الدنيا بطناً، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها وعلم أنّ الله أبغض شيئاً [فابغضه، وحقّر شيئاً فحقّره، وصغرّ شيئاً فصغّره، ولو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغّر الله ورسوله لكفي به][١٢] شقاقاً ومحادّة عن أمر الله.

ولقد كان ـ صلوات الله عليه ـ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقـع بيده ثوبه. ويركب الحمار العاري يردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته، فيكون فيه التصاوير فيقول لإحدى أزواجه: «يافلانة غيّبيه عنّي، فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها» فأعرضَ عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبَّ أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتّخذ منها [رياشاً] ولا يـعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده.

ولقد كان في رسول الله صلّى الله عليه وآله ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاعَ فيها مع خاصتّه، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته. فلينظر ناظر بعقله: أكرم الله محمّداً صلّى الله عليه وآله بذلك أم أهانه؟

---

(١٠) في نهج البلاغة: فتأسّ بنبيّك...

(١١) في نهج البلاغة: قضم الدنيا قضماً ولم يعرها.

(١٢) الاضافة بين المعقفتين من نهج البلاغة.

فإن قال: «أهانه» كذب والله العظيم، وأتى بالافك القديم. وإن قال: «أكرمه الله» فليعلم أنّ الله قد أهان غيره، حيث بسط الدنيا [له]، وزواها عن أقرب الناس منه، فتأسى متأسّي نبيّه[١٣]، واقتصّ أثره وولج مولجه. وإلاّ فلا يأمن الهلكة، فإنّ الله جعل محمّدا صلّى الله عليه وآله علَما للساعة، ومبشّرا بالجنّة، ومنذِرا بالعقوبة. خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليمًا. لم يضع حجَرا على حجَر حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه. فما أعظم منه[١٤] عندنا حين[١٥] أنعم علينا به سلفا نتّبعه وقائداً نطأ عقبه.

والله لقد رقعت مدرعتي حتّى استحييت من راقعها، ولقد قال [لي] قائل ألا تنبذها؟ فقلت: اعزب[١٦] منّي فعند الصباح يحمد القوم السرى.

انتهى كلامه عليه من الله سلامه وإكرامه[١٧].

* *

وفي كلام بعض الحكماء على طريق الرمز ما قال: لكلّ قهوة سكارى، ولكلّ بحر مغرقون، كم بين حاير في الظلمات زحزح عن نور الشمس وبين حاير أغرقه ضوئها في قربها الأقرب.

وقال أيضا: بباب الحقّ قوم لا يشغلهم صدمات الأسباب ولا يجزعون من البـلاء، فإنّ البـلاء صراط الله به عبرت قوافل الرجال، ولو سلكته لوجدت عليه آثارهم ولعرفت فيه أخبارهم، فكلّ أرض لم يصبها صيّب من المصائب أبت أن تنبت نبت النجاح.

---

(١٣) نهج البلاغة: متأس بنبيّه.

(١٤) نهج البلاغة: منّة الله.

(١٥) حتى ـ نسخة.

(١٦) في نسخة: غرب.

(١٧) نهج البلاغة: الخطبة: ١٦٠ وما جاء بين [] اضافة منه. وفيه اختلافات يسيرة.

وقـال: إن تعبد الله حبّـاً خير لك من أن تعبـده خوفاً، فإنّ التعبّد بالتخويف دين اللئام.

وقال: نقش [١٨] نفسك ياإنسان بأفضل مايمكن، ونزّهها عن خبيثات الاُمور، فإنّ قيم الموادّ بصورها.

وقال: اُسلك سبيل الله أيّها الفكور بقلب يقظان وقِفْ موقف التعظيم واطلب باريء الكـلّ في القـرب الأقرب، وإن كان في العلّو الأعلى قهراً وشرفاً، فقال أمر الله لايتعطّل بما توانيت أيّها المتخلّف، ولكنّك تبقي عريّاً عن الفضـائـل، مدّعينك مدّا وابسطها بسطا،واترك الشاغلات من نيات الظلمة لترى القيّوم قائما بالقهر على رأس الوجود كلّه بالمرصاد.

وقال: لايترك أهل السيف الجاهلين أن يدنو، ولا المرأة الشهويّة الملقية بالجسد في الطريق أن تشبّث بذيلك، وطوائف من النيران التي قلّ ضوئها وكثر دخانها طفقت ينطفي بهبوب ريح زعزع، إنّ عبدة البطن والفرج في الدارين لعنوا لعنا يقطع أدبارهم ويردهم إلى سواء البرازخ المشحون بالعذاب.

وقال يحيى بن معاذ: مثقال ذرّة من الحبّ أحبّ إلّي من عبادة سبعين سنة بلا حبّ.

قال أبو القاسم القشيري: الشوق: نار الله أشعلها في قلوب أوليائه ويحرق ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات.

ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم، فقال: ما فعل أبو نصر التمّار وعبد الرحمن الوراق [١٩]؟ فقال: تركتهما الساعة بين يدي الله يأكلان

(١٨) تقتش ـ نسخة.

(١٩) في الاحياء (٣٦٠/٤): عبد الوهاب الوراق.

ويشربان. قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه.

وعن عليّ بن موفّق إنّه قال: رأيت في النوم كأنّي أُدخلت الجنّة فرأيت رجلا قاعداً على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيّبات وهو يأكل، ورأيت رجلا قائمًا على باب الجنّة يتصفّح وجوه قوم، فيدخل بعضهم ويردّ بعضاً ـ قال ـ ثمّ جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله لا يطرف، فقلت لرضوان: مَن هذا؟ فقال: معروف الكرخي، عبَد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنّته، بل حبّاً له، فأباحه الله النظر إليه إلى يوم القيمة.

وقال: أبو سليمان: من كان اليوم مشغولا بربه يكون غداً ناظراً إليه.

وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة ايمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً لناره ولا حبّاً لجنّته فأكون كالأجيرالسوء، بل عبدته حبّا له وشوقاً إليه.

وقالت في معنى المحبّة نظمًا:

أُحبّك حبّين: حبّ الهوى ... وحبّا لأنّك أهلٌ لذاك
فأمّا الذي هو حبّ الهوى ... فشغلي بذكرك عمّن سواك
وأمّا الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب[20] حتّى أراك
فلاالحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

قال بعض أكابر العلماء في[21] معنى نظمها: لعلّها أرادت «بحبّ الهوى»

---

(٢٠) للحب (نسخة) وفي الاحياء: «فكشفك لي الحجب...» وما في المتن يطابق ما جاء في قوت القلوب. وجاءت هذه الاشعار في اعجاز البيان للقونوي (ص ٣٧٤) باختلاف مع المتن.

(٢١) القائل الغزالي في الاحياء: ٣١١/٤.

حبّ الله، لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظها العاجلة وبحبّه لأنه أهل له، حبّه من حيث جماله وجلاله الذي انكشف لها. وهو أعلى الحبّين وأقواهما، ولذّة مطالعة جمال الربوبيّة التي عبّر عنها النبيّ صلّى الله عليه وآله حيث قال حكاية عن الله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لاعين رأت ولا أُذُن سمعت» ـ الحديث ـ.

واعلم إنّ عباداً ممّن قديعجلّ لهم بعض هذه اللذات العلي ـ وهم بعد في حيوتهم الدنيا ـ لأنّه قد انتهى صفاء قلوبهم ولطافة أذهانهم إلى الغاية، ولذا قال بعضهم إنّي أقول «ياربّ يا الله» فاجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال، لأنّ النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه؟

وحكي إنّ رجلا جاء إلى أبي يزيد فقال: «بأيّ شيء أستعين على عبادة ربّي؟» فقال: «بالله إن كنت تعرفه» لأنّ أدنى منازل العارف علمه بأنّه ليس به شيء من الحول والقوّة، فإذا علم بذلك، صارت الأشياء كلّها له .

وقال فضيل: مَن عرف الله حقّ معرفته صارت جميع حركاته طاعة، وجميع أنفاسه ذِكرا، وجميع أحَواله أُنسا، وجميع إراداته هويّة (هديّة).

وسئل بعض أصحاب القلوب عن حقيقة المعرفة فقال: طيران القلب في علّيين، وجولانه في حجب القدرة التي لا يعرفها إلّا من أصمّ أُذنيه عن سماع الباطلات، وأعمي عينيه عن النظر إلى الشهوات، وأخرس لسانه عن التكلّم بالفضولات. وهو ما قيل في حقيقة المعرفة: والعارفون صمّ بكم عمي، وقيل: من عرف الله كَلَّ لسانه ودهش عقلُه ودام تحيّره.

وقال بعضهم: إنّ للعارفين ناراً ونوراً، نار الخشية ونور المعرفة فالدنيا تبكي عليه بعين الفناء، والآخرة تضحك إليه بعين البقاء . فكيف يقدر

الشيطان أن يدنو من ظاهره و باطنه إلّا كالبرق الخاطف والريح العاصف فيستعيذ بالله من الشيطان بعينه بلسان العبرة، وبنفسه بلسان الخدمة، وبعقله بلسان الفكرة، وبقلبه بلسان المحبّة، وبسرّه بلسان المؤانسة. فإن أتاه من قبل العين أحرقه نور العبرة، وإن أتاه من قِبل النفس أحرقه نور الخدمة، وإن أتاه من قِبل العقل أحرقه نور الفكرة، وإن أتاه من قِبل القلب أحرقه نور المحبّة، وإن أتاه من قِبل السرّ أحرقه نور المؤانسة. وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [١٥/٤٢].

قال رويم للجنيد: «كم تنادي على الله بين يدي العامّة؟» فقال: «أنا أنادي على العامّة بين يدي الله».

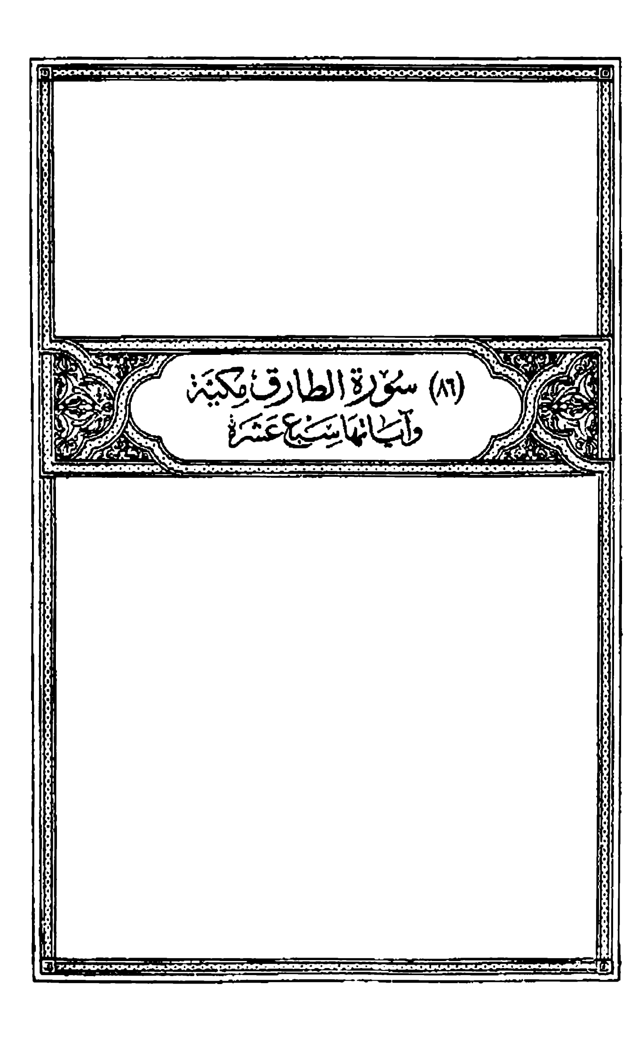
قال عبّاس بن يوسف: إذا رأيت رجلا مشتغلا بالله فلا تسئل عن ايمانه وإذا رأيته مشتغلا بالدنيا فلا تسئل عن نفاقه.

وقال رويم: قوم فنوا أسراراهم بالحظوظ، وأفنوا أبصارهم باللحوظ أنّى لهم إلى ذكر الحقّ سبيل.

قال حسين بن منصور: «بسْم الله» منك بمنزلة «كُنْ» منه فإذا أحسنت أن تقول: «بسْم الله» تحقّقت الأشياء بقولك: «بسْم الله» كما تحقّق بقوله «كُنْ».

تمّ تفسير سورة الجمعة

والحمد لله ربّ العالمين


(٨٦) سورة الطارق مكية
وآياتها سبع عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هو الله ثقتي، وعليه توكلي وبه اعتصامي وفيه عن شرّ خلقه احتجابي، وهو ملجائي عند اضطراري ومآبي[1].

أمّا بعد حمد الله ملهم الحقّ[2] والصواب ووليّ الجود في المبدء والمآب، والصلو ة على نبيّه محمّد المبعوث بفصل الخطاب، وآله المعصومين عمّا يوجب الاحتجاب، الفائزين بالكرامة والإمامة، الحائزين رتبة[3] الولاية والهداية - عليهم سلام الله في البداية والنهاية.

وبعد: فيقول الفقير المسكين - محمّد المعروف بصدر الدين الشيرازي -: هذه نكت ورموز وجواهر بديعة من كنوز متعلّقة بسورة الطارق، أفاضها الله على قلب هذا العبد الآبق، وهي قطرة من بحرها الزاخر، ولمعة من بدرها الزاهر. فرأيت أن انظمها في سلك نظائرها من المسائل المتعلّقة ببعض سور القرآن وآيات الفرقان، واجمعها مع سائر ما رفعت الحجب عن وجوه فرائدها وزواهرها، وكشفت قناع الإجمال عن جمال عرائسها وأبكارها - التي لم يطمثهنّ إنس ولاجانّ .

---

(١) مآلي - نسخة.

(٢) الخير - نسخة.

(٣) مرتبة - نسخة

على أنّ سرّ كلام الله أجلّ من أن يحيط به تقرير وبيان، وأن يجمع أكنافه وأطرافه لسان وبنان، لكنّ محرّك الكلّ حرّكني بقدرته إلى حيث أراد، ومقلّب القلوب قلّبني بإصبعيه نحوَ ماشاء وأجاد، ولا بُعد في أن يطلع الله أحداً على بعض أسرار كتابه، ويشرق على قلبه نبذاً من أنوار خطابه، فإنّ لكلّ نفس طالبة قسطاً من نور الله ـ قلّ أو كثر ـ ولكلّ قلب هارب عن غيره حظّ من سرّ الله بطن أو ظهـر، لأنّ رحمة الله واسعة وخزائن جوده مملوّة، وينابيع وجوده نابعة، يفيض على من يشاء من عباده من غير مانعة و لا دافعة

تمهيد:

اعلم-وفّقـك الله لفهم أسرار القرآن، وجعلك متخلّصاً عن أسر عالم الحـدثان:-إنّ المقصد الأقصى والعمدة الوثقى في كمال الإنسان الذي هو أشرف ما يوجد في عالم الحيوان، معرفة أحوال المبدء والمعاد، ولأجلها بعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين إلى العباد. وأنزل الكتاب نوراً يهتدي به الناس في سبيل النجاة والرشاد، وإليها يرجع فائدة الحثّ على الطاعات المنوّرات للقلب بالترغيب، والزجر عن المعاصي المظلمات المكدّرات للنفس بالترهيب.

وإنّ للإنسان في الجملة أحوالا ثلاثة يعبّر عنها بالأيّام الثلاثة: وهي حال المبدء والمعاش والمعاد، المشار إليها في قـول أمير المؤمنين وإمام الموحّدين ـ عليه السلام والإكرام ـ: «رحم الله امرء أعدّ لنفسه، واستعدّ لأمسه[٤]، وعلم من أين وفي أين، وإلى أين»[٥].

---

(٤) لرمسه ـ نسخة. (٥) مضى الخبر في الصفحة: ٢٦٤.

فذكرها الله[٦] سبحانه في هذه السورة الكريمة على ترتيبها بألطف وجه وأمتنه، وأوضح بيان وأبينه، فبيّن في أوّل السورة إلى قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أمر المبدء، ومنه إلى قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أمر المعاش، ومنه إلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أمر المعاد.

ثمّ أكّد ثبوت هذه الأحوال بالقسم وتكريره كما هو دأبه تعالى في إثبات الأمور العظيمة المهمّة معرفتها للإنسان، ليتنبّه بها وينبعث عن نوم الغفلة ورقدة الطبيعة في عالم الجهل والنسيان، ثمّ أشار إلى جلالة قدر كتابه المنزل وعلّو منصب نبيّه المرسل صلّى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ و ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فإنّ الأوّل مثبت لحقيقة القول[٧]، والثاني مشيرٌ إلى صدق الرسول وتعظيم شأن النبي صلّى الله عليه وآله.

إذا علمت هذا، فاعلم إنّه لّما كان أمر خلق السموات[٨] من أقوى الدلائل على وجود الواجب الوجود ـ عزّ شأنه وبهر برهانه ـ وأوضح الأسباب الموصلة إلى معرفة توحيده ودوام عظمته وسلطانه، وكمال جلاله وجماله وعلّو شأنه، ورفعة مكانه عن أن ينسب إلى مكان ويقترنه[٩] زمان: أقسم الله سبحانه بها فقال:

---

(٦) فذكرها الحق ـ نسخة.

(٧) لحقيقة القول ـ نسخة.

(٨) لما كان خلق السموات ـ نسخة.

(٩) يعتريه ـ نسخة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾

لما فيها من الشواهد الجليّة والخفيّة على معرفة ذاته وصفاته، ولهذا عظّم الله أمر السماء والنجوم في كتابه المجيد، فأقسم بهما في كثير من الآيات كقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [٨٥/١] وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [٩١/١ ـ ٢] وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [٨١/١٥ ـ ١٦] وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [٥٣/١] وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [٥٦/٧٥ ـ ٧٦] كلّ ذلك تنبيهاً على أنّها صومعة القدوسين، ومعبد الروحانيّين، ودلائل صُنع خالق السموات والأرضين، وآيات عظمة أوّل الأوّلين، هو الذي نوّرها وصوّرها ودوّرها ورقصها في دوام إشراقاته عليها، وشوّقها إلى مزيد إفاضاته ورسالاته إليها، وحرّكها بالتسبيح والتهليل، وهداها التوسّل إلى الربّ الجليل.

فما من شخص من أشخاص السماء إلّا وله نفس وعقل يحرّكانه شوقاً وطرباً إلى حضرة الباري ربّ الملأ الأعلى، وما من جرم كُريّ نوراني إلّا وفيه شواهد وآيات عظيمة دالّة على عظمة مبدعها ومنشأها، ولهذا كرّر الله ذكرها وأشار إلى شواهدها وآياتها الدالّه عليه سبحانه في مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [٢/١٦٤] وقد مدح الناظرين فيها وأثنى على المتفكّرين في خلقها بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣/١٩١].

وقال رسوله صلّى الله عليه وآله: «ويلٌ لمن قرء هذه الآية ثمّ مسح بها سبلته»[١٠]. أي تجاوزها من غير فكر[١١].

وذمّ المعرضين عن التدبّر فيها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [٢١/٣٢]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوَاتِ﴾ [٧/ ١٨٥]

ولا يتوهّمنّ أحد أنّ معنى النظر إلى عالم ملكوت السماء بأن تميد البصر[١٢] إليه، فيرى زرقة السماء وضوء الكواكب وصوَر البروج، فإنّ البهائم يشارك في هذا النظر للإنسان، فإن كان هذا هو المراد فلِمَ مدح الله به إبراهيم ـ على نبيّنا وآله وعليه السلام ـ في قوله: ﴿وَكَذٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمٰوَاتِ﴾ [٦/٧٥] بل المقصود منه التفطّن لما فيها من الدلائل والآيات العجيبة الشأن والشواهد العظيمة البرهان، المنبئة عن أزليّة الحقّ الأوّل ووجوب وجوده وكمال قدرته وإرادته وتمام حكمته وجوده.

﴿ فصل ﴾

[وجوه دلالات وجود السماء على وجود الباري جل مجده]

أمّا دلالتها على وجود الباري جلّ اسمه فمن وجوه: من حيث الوجود، والإمكان، والجسميّة، وطلوع الكواكب وأفولها ـ إلى غير ذلك ـ وككونها مركّبات[١٣] الوجود من مادّة وصورة، وككونها ذوات نفوس لها إرادة وعلم وصلوة وتسبيح.

---

(١٠) البرهان: ١/٣٣٦ (شبكته) وفي الدر المنثور: ٢/١١١ (ولم يتفكر فيها).

(١١) + وذكر ـ نسخة.

(١٢) يمتد البصر ـ نسخة.

(١٣) مركب ـ نسخة.

أمّا الأوّل: فلأنّ وجودها الممكن[١٤] هو المحوج إلى السبب، إذ الإمكان لكون معناه سلب ضرورة طرفي الوجود والعدم بالنظر إلى الذات المتّصفة به هو علّة الحاجة إلى المؤثّر، لأنّها لمّا استوى طرفاها امتنع وجودها إلّا لمرجّح ـ وهو الله تعالى ـ.

أمّا أنّ الممكن ما يستوي طرفاه فلاستحالة أن يكون أحد طرفيه أولى به لذاته، لأنّه حينئذ إن أمكن طريان الطرف الآخر فهو إمّا بسبب، أو لا بسبب، فإن كان الاوّل فيفتقر الأوّليّه إلى عدم ذلك السبب، وإن كان الثاني فيلزم إمكان ترجيح المرجوح من غير مرجّح ـ وهو باطل ـ.

وإن لم يمكن طريان الطرف الآخر كان ذلك الطرف ممتنعاً، وهذا الطرف واجباً فيقدح في إمكانه ـ وهو خرق الفرض ـ.

وإذ قد علم استواء طرفي الممكن فلابدّ من مرجّح يرجّح وجوده على عدمه،وهو الله سبحانه دفعاً للدور والتسلسل.

* * *

وأمّا الوجه الثاني: فإنّ[١٥] الممكن ما لم يتعيّن وجوده عن وجود مؤثّره لم يوجد،وهو الوجوب السابق؛ وإذا وجد فحال وجوده لا يمكن عدمه،وهو الوجوب اللاحق؛ وكل ممكن محفوف لا محالة بالوجوبين السابق واللاحق، وهما صفتان عرضيّتان له ـ لا من ذاته بل من غيره ـ وهو الصانع جلّ اسمه.

ولأنّ الممكن يستصحب الإحتياج إلى المؤثّر حال البقاء لبقاء الإمكان المقتضي للحاجة إلى المؤثّر، فلابدّ له من علّة مبقية تحفظه ولايؤدها حفظه وإدامته وهو الحقّ تعالى.

---

(١٤) الممكني ـ نسخة (١٥) فلأن ـ نسخة.

فظهـر إنّ إمكـان السـماء يدلّ على وجـود الحقّ تعالى؛ولولا إرادة الإختصار لأطنبنا الكلام فيه.

وأمّا الدليل على إمكانها فجسميّتها الباعثة للتركيب عن مادّة وصورة أو عن جسميّة مطلقة وأمر يخصّصه[١٦] ولعدم خلّوها عن الانفعالات[١٧] والحركات.

* * *

وأمّـا الوجه الثالث وهو من حيث جسميّتها: فلأنّه قد دلّ البرهان عنـدنا على أنّ الأجسام من حيث جسميّتها حادثة، أي واقعة في هويّتها الشخصيّة تحت جنس الحركة والزمان،لأنّ الزمان من جملة مشخّصاتها وهو ـ أي الزمان ـ إتّصال التجدّد والتقضّي،وعدد التغيّرات بأجزائه المنفصلة عند الوهم كالأيّام والشهور والسنين، والسماء[١٨] بهويّتها الشخصيّة الواقعة تحت الحركة والحدوث تحتاج إلى محدث غير حادث ولا متجدّد يحدثها، وإلّا ننقل الكلام إلى علّة حدوث ذلك المحدث وتجدّده ويفضي إمّا إلى التسلسل أو الـدور ـ وهما باطلان ـ وإمّا إلى علّة قديمة لا يكون متغيّرا أصلا ـ وهو الواجب جلّ ذكره ـ.

فالله سبحانه هو قيّوم السماوات والأرض وإليه تنتهي سلسلة الأسباب والمسبّبات، وليس لغيره رتبة الإفاضة والايجاد، بل التهيئة والإعداد.

لا يقال: الأفلاك والكواكب أحياء ناطقون بأدلّة القرآن والعقل، وهي مؤثّـرة في أحـوال العنصريّات بدليل ارتباط الحوادث العنصريّة بالحركات السماويّة والاتّصالات الكوكبيّة.

---

(١٦) يخصه ـ نسخة. (١٧) الانفعال ـ نسخة. (١٨) فالسماء ـ نسخة.

لأنّا نقول: هذا تمسّك بالدوران وهو لايفيد الظنّ فكيف البرهان ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ والمتّبع هو البرهان النيّر الوارد من الحقّ في القلب، على أنّ لنا دلائل قطعيّة على أن لا مؤثّر في الوجود إلّا الله، وما زعمتم فذلـك مبني على علم الهيئة والنجوم، وهو لا يدلّ على الربط العقلي بين الأشياء، بل على الارتباطات الوضعيّة، والتأثير أمر عقلّي لا يستنبط إلّا بالبرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

* *

فإن قلت: إسناد الحوادث إليها كفر أم لا؟

قلت: نعم، كفر. لكن لو قيل: إنّ المؤثّر هو الله سبحانه، وهو قد أجرى حكمته على هذا النظم والترتيب وربط هذه الآثار بهذه الأسباب فلا بأس. إذ نسبـة الآثار إليها كنسبة القطع إلى السكّين والكتابه إلى القلم، لأنّها بمنـزلـة الصحائف المكتوبة فيها آجال الخلق وأرزاقهم، وعقولها ونفوسها المحرّكة إيّاها بمنزلة أقلام الحقّ الأوّل، والقدرة بمنزلة يد الرحمن، والكاتب هو الله، ومن انكشف له أمر العالَم كما هو علِمَ إنّ الأفلاك والكواكب لا يتحرّك ما لم يحرّك، وكذلك محركها، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له، ولا هو متحرك في نفسه، فهي كلّها مسخّرات بيده كتسخير القلم والقرطاس بيد الكاتب.

فالتفات العبد في النجاة إلى السماء والكواكب يضاهي التفات من أُخذ للحبس أو القتـل فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه، فيرى نجاته من القلم والقرطاس، لا من محرّك القلم عليه، فأخذ يشتغل بالحمد والشكر لهما، وهذا غاية الجهل، ومن علم إنّ القلم ـ بما هو قلم ـ لا حكم له في نفسه، وإنّما هو

مسخّر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلّا الكاتب. فالشمس والقمر والنجـوم والسحاب والمطر كلّها مسخّرات في قبضة القدرة كتسخير القلم والقـرطـاس في يد الكاتب، والمفتاح في يد مفتّح الأبواب. كما في الأدعية السجّاديّة في الصحيفة الكاملة حيث قال الداعي بها عليه السلام في مخاطباته للقمر وقت الهلال: «جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث»[١٩].

وإذا انكشف لك أنّ جميع ما في السموات والأرض مسخّر له تعالى كما أشـار إليه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [١٣/١٥] انصرف عنك الشيطان خائباً وأيس عن مزج توحيده الأفعالي بهذا الشرك المستكنّ[٢٠] في طبع المنجّم والطبيب، فيأتيك لأن يوقعك في المهلكة الاُخرى ـ وهي الشـرك في الـوجـود والبقاء لغير الله ـ فتحتاج إلى سلوك طريق الموحّدين لتنجو عنها، ولنا بفضل الله وملكوته طريقة خاصّة لوّحنا إليها في مواضع تليق به.

* * *

وأمّا الوجه الرابع ـ وهو من حيث طلوعها واُفولها ـ فلأنّ التغيّر والحركة من خواصّ الأجسام ولواحقها ممّا يستدعي مؤثّراً غير الجسميّة المشتركة يخصّ بعض الأجسام بها دون بعض، إذ لو كانت الحركة مثلا من مقتضيات الجسميّة بما هي جسميّة لم يوجد جسم إلّا متحرّكاً. وكذلك تخصّصها بوجوه مخصوصة وأنحاء مختلفة من السرعة والبطؤ والتشرق والتـغرّب وغيرها يحتاج إلى صانع يخصّصها بها.

لايقال: لكلّ واحد منها طبيعة خاصّة تحرّكها على الوجه المخصوص.

---

(١٩) الصحيفة السجادية. الدعاء الثالث والأربعون.

(٢٠) المسكن ـ نسخة.

لأنّا نقول: الطبيعة المختصّة غير كافية في إفادة الحركة وتعيينها[٢١] على هذا الوجه كما سنشير إليه، بل تحتاج إلى مؤثّر غير متناهي القوّة والتأثير - وهو الله سبحانه -.

كيف وكلّ من أنصف مِن نفسه يعلم إنّ التغيّر والحركة - ولو باعتبار المادّة والمحلّ والمتعلّق به بوجه - يناديان عليه بالإمكان والحدوث والحاجة إلى مؤثّر مقدّس عن التغيّر والتجدّد.

ولهذا أعـرض إبراهيم على نبيّنا وعليه السلام عِن الأجسام النيّرة وطبايعها المختصّة لما ظنّ فيها الربوبيّة وقال فيها: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ بصيغة الجمع بالياء والنون الدالّة على كونها ذوي العقول، فإنّه عليه السلام مع علمه بأنّ لكلّ منها باطناً ملكوتيّاً له قوّة نفسانيّة وأُخرى عقليّة - نفى عنهم الإلهيّة،وحكم بأنّ درجتهم لكونهم واقعة في هوى[٢٢] الحدوث وأُفول الإمكان منحطّة عن استحقاق نسبة الإلهيّة إليها، فتوجّه بوجه قلبه إلى فاطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً من غير إشراك كما حكي الله عنه بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [٦/٧٩].

* * *

وأمّا الوجه الخامس: فهو أنّ الهيولي لا فعل لها، وإلّا لزمت في ذاتها جهتـا قبـول وفعل، ثمّ ننقل الكلام على تقدير عدم بساطتها إلى هيولي الهيولي، وهكذا إلى لا نهاية - هذا محالٌ - والصورة دون الهيولي لا تفعل، بل يختصّ آثارها بما لها معه علاقة وضعيّة، فلابّد من توسّط الهيولي في فعلها، بل

---

(٢١) تعينها - نسخة.
(٢٢) مهوى - نسخة.

في تعيّنهـا، ومـع ذلك لكلّ منهما حاجة إلى الأُخرى من غير استقلال كما علمت. أمّـا الهيولي ففي وجـودهـا وبقـائها، وأمّا الصورة ففي تشخّصها وتشكّلها، فهما متلازمان في الوجود، معان في التحقّق. فلابّد لهما من مقيم يقيّم كلاًّ منهما بالأُخرى، وهو غير جسم ولا جسماني. فيكون هو الواجب الوجود أو ملكاً مقرّباً عقلانياً يديم كلاًّ منهما بالأُخرى بإذن الله تعالى دفعاً للدور والتسلسل.

* *

وأمّا الوجه السادس: فهو إنّ لكلّ من السماويّات محرّكاً نفسانياً لها قوّة عقليّة، وذلك لأنّ حركة السماء والكواكب ليست طبيعيّة لوجوه ثلاثة:

أحدها: إنّ الحركه الطبيعيّة تصدر عنها عند حالة غير طبيعيّة، فهي مؤدّية إلى حالة طبيعيّة هي سكونها، وذلك عند ارتفاع الحالة الغير الطبيعيّة، والأفلاك وما فيها دائمة الحركات ما دام وجودها بإذن الله.

وثانيها: إنّ الحركة الطبيعيّة تطلب أمراً تسكن عنده طلباً على أقرب الـطرق، فهي إذن مستقيمـة، وحـركاتها مستديرات ـ كما يشاهد ـ ولأنّ المستقيمة لا تصلح لأن يحفظ بها وجود الزمان المتّصل الذي يستحيل أن ينفصل أجزاؤه في الوجود، اللهّم إلاّ في الوهم ـ كما قرّر في موضعه ـ.

وثـالثهـا: إنّ الـطبيعـة لاتقتضي مهروباً عنه مطلوباً ولا تهرب عن مطلوبها، والمستدير بخلاف ذلك.

فهي إذن غير طبيعيّة ولا قسريّة ـ إذ القسر خلاف مقتضى الطبع؛ فهي نفسانيّة حيوانيّة. وليست مجرّد الحيوانية المطلقة منشأها، إذ مطلوب الحيوان ـ بما هو حيوان ـ في حركته الإراديّة إمّا جلب منفعة وهو الشهوة أو دفع مضرّة

وهو الغضب، وهما مختصّان بالأبدان القابلةللنمـوّوالذبول، وجسميّة الأفلاك لم تحصل من استكمالات الأجسام الناقصة الخلقة العنصريّة الفطرة، كالمني والبذور ونحوهما، بل هي كظلال الأنوار العالية، الحاصلة من بعض الجهات للمبادي الفاعليّة ـ كالإمكان ونحوه ـ على طريق الإقتضاء لا الاستعداد، ولهذا موضع تأمّل يغفل عنه الأكثرون. لأنّها لو كانت حسيّة من باب الشهوة أو الغضب فلا محالة تسكن عنده، وإذ ليس فليس.

فهي إذن ليست إراديّة حسيّة، فلا تخلو إمّا أن يكون غرضها شيئاً واقعاً فيما طلبته بالحركة، أو مطلوباً دفعيّ الحصول فسكنت إن نالت أو قنطت إن لم تنله في مدد متطاوله، فلها مطلب كلّي، فيلزمها إرادة كليّة موجبة لعلم كلّي دالّ على نفس ناطقة محرّكة لها مبطلة لجحود الجاحدين المنكرين لإرادتها وعلمها.

فالنفس النـاطقـة علّة دورانها، وحافظة زمانها من زيادتها ونقصانها، وممسك عنانها في جادّة الحقّ، ومُجري سفينتها باسم الله في بحر الحقيقة.

ثمّ ليس غرضها أمراً مظنوناً من الثناء والمدح، فإنّ الحركات الكلّيّة الدائمة لابدّ وأن تكون لأمرٍ مقطوع به واجب الدوام ـ وليس المظنون كذا ـ فمبدء حركتها ليس أمراً وهميّاً.

ثمّ هذا العالَم الذي موطن الأوهام وماينبعث عنها أحقر بالنسبة إلى تلك الأجرام الشريفة النوريّة من أن يتحرّك لأجلها، وصاحب الحدس الصحيح يحكم بهذا قبل المراجعة إلى البرهان.

فحـركتها لمعشوق، إمّا لينال ذاته، أو لتشبّه بـصفة رفيعة، أو لتشبّه تجدّدي، والأوّلان يوجبان ما سبق من الوقفة، فتعيّن الثالث وليس المتشبّة به

جرماً فلكيّاً،وإلّا لكانت الحركات متّفقه، ولا نفسها،وإلّا لتشابهت التحريكات ولا شيئاً واحداً،وإلّا لاتّفقت. بل المتشبّه به إمّا الواجب سبحانه بواسطة أمور عقليّة صادرة عنه مكثّرة[٢٣] لجهات التحريكات والتشبهات[٢٤] كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [١٢/٤١] وإمّا تلك الأمور العقليّة، ولابدّ من انتهائها إلى الله تعالى ـ كما علمت.

ولأنّها لّما اشتركت في دوريّة الحركات فلها معشوقٌ واحد هو مبدء الكلّ وغاية الكلّ وهو الموجود المطلق والوجود الحقّ.

وإذا اختلفت في الجهات والسرعة والبطؤ فلكلّ منها ذات عقليّة هي بالفعل من جميع الوجوه تتشبّه بها، وبواسطتها تتشبّه بالحقّ الأوّل، فعدد حركاتها بعدد محرّكاتها العقليّة، ثمّ النفسيّة، لأنّ في الحركة لابدّ من إدراكات جزئيّة بقوّة نفسانيّة تتخيّل الحدود المسافيّة، لأنّ نسبة المراد العقلي إلى جميع الحدود والمرادات الجزئيّة نسبة واحدة، فلا يقتضي تقديم بعضها على بعض. فلكلّ سماء وكوكب محرّك مزاول متشوّق منفعل هو نفسه، ومحرّك غير متحرّك بل مفارق، ومعشوق غير منفعل بل فاعل هو عقله، وللكلّ محرّك واحد ومعشوق واحد هو إله الكلّ ومبدء الكلّ وغاية الكلّ.

فثبت أنّ الأفلاك وما فيها متقرّبات إلى الله تعالى بوسيلة الحركات،إذ بها يحصل الإستكمالات اللائقة بها، والكمال مّما يوجب قرب المستكمل به من الكامل بالفعل في جميع الوجوه.

* * *

فإن قلت: لِمَ صارت الحركات منشأ استكمالاتها دون شيء غير الحركة؟

---

(٢٣) تعلم كثرة ـ نسخة.

(٢٤) التشبيهات ـ نسخة.

قلت: لأنّ الفلكيّات في جواهرها وصورها وكيفيّاتها وكمّياتها اللائقة بها وسائر الأمور الممكنة في حقّها بالإمكان العامّ كانت بالفعل بحسب أوّل فطرتها، ولم يبق فيها شيء بالقوّة إلاّ أمر ضعيف الوجود سهل الحصول من باب النسب والإضافات، وهي أوضاعها، فيقصر وجودها عن الجمع بينها. فلو دامت على واحد لدامت الباقيات على القوة العدميّه، والقاصر عن استبقاء ذات ما[٢٥] يسعي في استبقائها[٢٦] النوعي، فأخرجت أشخاصها إلى الفعل بما أمكنها من التبادل التعاقبي، الجالب لإفاضة الأنوار من العوالي، الراشح للخير الدائم على السوافل، قصداً إلى تحصيل هذا الكمال، الموجب لضرب من التقرّب إلى المبدء الفعّال، والتشبّه به مهما تيسّر من الأحوال والأفعال. لا قصداً إلى نفع السوافل إلا على نحو التبع والإستجرار وإلاّ لزم كون المعلول علّة لكمال الفاعل.

ومن ظنّ أنّ المتشبّه به واحد ولكن الأفلاك جمعت بين غرضها ونفع السوافل[٢٧] عند استواء الجهات، كرجل خيّر اختار سلوك أحد الطريقين المتساويين له لنفع محتاج، فما درى إنّه لو صحّ هذا في اختيار الجهة لصحّ في أختيار أصل الحركة على السكون، فيقال: تساويا عندها، فاختارت الحركة لنفع السافل، فلمّا لم يجز ذلك في أصل الحركة لتعاليها عليه لم يجز لتعيين الجهة.

وليس علينا أن نعلم كنه ذلك التشبّه إلاّ بقدر ما نرى من أنفسنا عند أهتزازنا وابتهاجنا بأمور روحانيّة عند سماع آيات قرآنيّة أو قرائتها مشيرة إلى أحوال العاكفين حول جناب الحقّ،كيف يستتبع ذلك تغيّراً واحمراراً في

(٢٥) الذات بالعدد ـ استيفاء الذات بالعدد ـ نسخة. (٢٦) استيفائها ـ نسخة. (٢٧) السافل ـ نسخة.

وجوهنا وقياما في شعورنا وقُشعريرة في جلودنا،كما قال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ [٢٣/٣٩] فهي أيضا في حركاتها كالمناجي مع ربّه بأمور عقليّة يتحرّك[٢٨] شيء من أعضائه بحسب ما يتفكّر فيه، فحركاتها إذن عبادةٌ ما فلكيّة، وصلوة ما ملكيّة، لاستجلاب شوارق النور وبوارق الحضور.

﴿ لمعة إشراقية ﴾

[المراد من السماء]

يمكن أن يراد بقوله: «والسماء والطارق» سماء العالَم الصغير أو سماء العالَم الكبير لصحّة اطلاقهما عليهما بحسب المفهوم ـ وهو الفوقيّة والإحاطة.

فإن كان الأوّل فيكون إشارة إلى رأس الإنسان بما فيه من أنوار القوى الظاهرة، والطارق إشارة إلى النفس الناطقة.

او يكون السماء إشارة إلى النفس الناطقة لأنّها محلّ الواردات الغيبيّة الإلهيّة؛ كما أنّ السماء محلّ عجائب صنع الله في سير الكواكب وحركاتها المختلفة سرعة وبطوء، ورجوعاً واقامة واستقامة، ونسب بعضها إلى بعض بالمقارنة والمقابلة والتثليث والتربيع والتسديس والخسف والكسف وساير أوضاعها وحالاتها على شبه أحوال الصور الإدراكيّة للنفس والأحكام العلميّة لها ـ كاقتران بعضها مع بعض، ومقابلة بعضها لبعض والتعاكس بينها والتباعد والتقارب في المقدّمات القياسيّة وانتقاض بعضها ببعض واحتجابه

---

(٢٨) بتحريك ـ نسخة.

بذلك. فيكون «الطارق» إشارة إلى ما يرد عليها من العالم الإلهي والفيض القدسي من السوانح الملكوتيّة والمواهب الربّانيّة.

وإن كان الثاني فيكون المراد من السماء مجموع الأفلاك بما فيها ومن «الطارق» إمّا جنس الكواكب وإمّا المفارقات النوريّة المتعلّقة بها تصريفاً وتدبيراً أو تشويقاً وإفاضة وتنويراً.

قوله جلّ اسمه

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾

ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾

كما أنّ حقيقة الإنسان هي روح معناه ونفسه الناطقة وعقله المدبّر له؛ كذلك حقيقة كلّ ذي روح عقلّي، كما يصحّ إطلاق اسم الإنسان على كلّ من النفس والبدن وعلى المجموع ايضا كلّ باعتبار كما حقّق في موضعه، كذلك القياس في اطلاق اللفظ في كل ما له روح وجسد، فحقيقة كلّ كوكب هي نفسه المدّبرة له وعقله الفيّاض عليه.

فإذا كان الطارق إشارة إلى جنس المفارقات العقلية ينبغي ان يراد بالنجم الثاقب عقله الذي يثقب ظلام عالم الإمكان بتنويره وإشراقه على مادّة الكواكب، ويطرد العدم عن مهيّته بإفاضة وجوده عليها، كما أنّ جسميّة الكواكب بصورتها النوعيّة وطبيعتها النوريّة الحسيّة تثقب ظلام عالَم الأجسام بضوئه فينفذ فيه.

ولذلك أيضا يقال للكوكب: «درّيٌّ» لأنّه يدرء الظلمة، أي: يدفعها.

وأمّا وصفه: «بالطارق»: فلأنه يبدو بالليل في عالم الحسّ عند احتجاب الشمس عن الأبصار كما أنّ [الـ] حقيقة العقليّة تبدو على العقل في ظلمة ليل[٢٩] الإمكان وجهة التعين الإمكاني[٣٠] قبل إشراق شمس الحقيقة على البصائر الماحية لأنوار التعينّات الإمكانيّة الظاهرة[٣١] على آثار الوجودات الأعيانيّة، ولذلك يقال في اللغة للآتي ليلاً: «طارق».

وقيل: لأنّه يطرق الجنّي، اي: يصكّه.

وبالجملة المراد بحسب عالَم الحسّ جنس النجوم أو جنس الشهب التي يطرد بها الظلام أو يرجم بها الشياطين، كما يرجم شياطين النفوس الوهمانيّة عن بلوغ سماء عالَم الحكمة بأنوارها العقليّة.

* * *

وفي الكشّاف «فإن قلت: مايشبه قوله: ﴿وَما أَدْرٰيكَ مَا الطارقُ * النَجمُ الثاقِب﴾ إلاّ ترجمة كلمة بأُخرى، فبيّن لي: أيّ فائدة تحته؟

قلت: أراد الله ـ عزّ من قائل ـ أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيمًا له لما عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة وأن ينبّه على ذلك، فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره وهو: الطارق. ثمّ قال: ﴿وَمَا أَدْرٰيكَ مَا الطَارق﴾، ثمّ فسّره بقوله: ﴿النَجْم اَلثَاقب﴾ كلّ هذا إظهار لفخامة شأنه كما قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [٥٦/٧٥ ـ ٧٦]».

---

(٢٩) ليلة ظلمة ـ نسخة.

(٣٠) التعيين الامكاني ـ نسخة.

(٣١) القاهرة ـ نسخة.

قوله جلّ اسمه

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾

هذا جواب القسم سواء كانت «إنْ» نافية وذلك في قرائة «لمّا» مشدّدة بمعنى إلاّ، أو كانت مخفّفة من الثقيلة ـ وذلك في قرائتها مخفّفة ـ على أنّ «مَا» صلةٌ، إذ على أيّ التقديرين وأيّة القرائتين هي ممّا يتلقّى به القسم، اي: ما كلّ نفس إلاّ عليها حافظ مهيمن عليها رقيب، أو انّ كلّ نفس لعليها قائم مقيت.

وإنّما اُدخل سور الموجبة الكليّة في الشقّ الأوّل على النفس ليعمّ جميع النفوس من المفارقات والفلكيّات والعنصريّات والحافظ الرقيب لها على وجه العمـوم هو الله سبحانه لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [٥٢/٣٣] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [٨٥/٤].

ولكلّ نفس رقيبٌ خاصّ وهو ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ماتكسب من خير وشرّ.

وروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «وُكلّ بالمؤمن مأة وستّون ملكاً يذبّون عنه كما يذبّ عن قصعة العسل الذباب، ولو وكلّ العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين»[٣٢].

وللنفوس الإنسانيّة رقيبٌ واحد عقلي يسمىّ بـ «روح القدس» عند أهـل الشرع، وبـ «العقل الفعّال» عند الحكماء، وبـ «روان بخش» عند الحكماء الفارسيّين ـ وسيأتي ايضاحه.

(٣٢) في الدر المنثور (ج٤ ص ٤٨) ثلاثمأة وستون ـ وفيه اضافات اخر ـ.

فإن قيل: إذا حملت «إن» على إن المخفّفة كان ذلك صحيحا، وأمّا إن حملت على النافية فيكون المعنى: «ليس كلّ نفس » فيكون السور سور السلب الجزئي فلا يعمّ. فما وجه التوفيق بين القرائتين؟

قلنا: نجيب عنه من وجهين: الأوّل: أنّ السور وأمثاله من المصطلحات المحدثة ولا يجب تطبيق كلام الله عليه، واللفظ في جوهره يفيد العموم لأنّه نكرة وقعت في سياق النفي ـ على ما هو مبيّن في كتب الأُصول والعربيّة.

والثاني: أنّه لّما تبيّن بالدلالة العقليّة أنّ لكلّ نفس حافظاً وقد عبّرت عنه القراءة الأُولى. فالقراءة الثانية وإن دلّت على السلب الجزئي: فالاولى أن يحمل على العموم مجازاً. ولصدق السلب الجزئي على السلب الكلّي صدق العامّ على الخاصّ، وذلك اذا اخذ لا بشرط شيء[٣٣] كما تقرّر في علم الميزان ليحصل التوافق بين القرائتين والجمع بين الدلالتين.

﴿ هداية عقلية ﴾

[أدلة تجرد النفس]

من تأمّل في حال النفوس الإنسانية لعلم يقيناً أنّ لها حافظاً عقليّاً هو ملك من الملائكة المقرّبين، وله جنود وأعوان من جنس الملائكة الذين مرتبتهم دون مرتبة المقرّبين كما دلّ عليه الحديث المنقول آنفاً. وذلك لأنّ النفس جوهر مجرّد. أمّا جوهريّتها فلكونها محلّ الصفات المتعاقبة عليها مع بقائها وهو من خواصّ الجواهر، وأمّا تجرّدها عن الموادّ فبأدلّة كثيرة.

منها: أنّها تدرك المعقولات، وهي معان مجرّدة عمّا سواها وكلّ إدراك فهو

---

(٣٣) بشرط شيء لا بشرط لا شيء ـ نسخة.

بحصول صورة المدرَك أو حضور ذاته عند المدرِك، كل ما يحصل في جسم فإنّه يؤثّر فيه ما يلزم الجسم في وجوده الإنفعالي وتشخّصه المادّي ـ مثل الشكل والمقدار والوضع وغيرها، فلو حصل معقول في جسم لكان يحصل له مقدار وشكل ووضع، فكان يخرج من أن يكون معقولا، بل يكون محسوساً ينفعل عنه الحواسّ عند المصادفه.

ومنها: أنّها تشعربذاتها، ولوكانت موجودة في جسم أو آلة لم تشعر بذاتها لعدم حضورها لذاتها، بل لمادّة ذاتها.

ولذلك أشار مقدّم الفلاسفة أرسطاطاليس الحكيم: كلّ راجع إلى نفسه فهو روحانيّ. إذ لو كانت في آلة لاتدرك ذاتها إلاّ عند إدراك آلتها فكانت بينها وبين آلتها آلة ويتسلسل، أو لا ترى أنّ البصر لا تدرك إلاّ ذاتها، ولا تدرك آلة ذاتها إلاّ بآلة أُخرى متوسّطة بينها وبين آلتها، والنفس تدرك ذاتها بذاتها، وتدرك آلاتها ايضا بذاتها ـ لا بالآلات ـ لحضورها[٣٤] بذ واتها حضوراً إشراقيّاً عند النفس من غير حاجة إلى صورة أُخرى.

وبالجملة: فكلّ موجود في آلة فذاته لغيره، وكلّ ما ينال ذاته فذاته له لا لغيره، فيكون مجرّداً عن الأغيار.

ومنها: أنّها تدرك الأضداد معاً بحيث يمتنع أن يوجد على ذلك الوجه في المادّة.

ومنها: أنّ البدن في التحلّل والذوبان دائمًا لاستيلاء الحرارات الغريزيّة والغريبة الداخلة والمطيفة[٣٥] عليه، والنفس ذاتها غير متبدّلة، لأنّك أنت

(٣٤) بحضورها ـ نسخة.
(٣٥) والمطبقة ـ نسخة.

الذي كنت صبيّاً وشابّاً بعينك، فتعاليت عن الانطباع وأن تكون نفس المزاج.

ومنها: انّك تذهل عن كلّ عضو من أعضائك أحياناً ـ من قلب أو دماغ أو غيرهما ـ وعن البدن مجموعاً وخصوصاً وقت النوم أو السكر، ولا تذهل عن ذاتك، فأنت وراء ذلك كلّه، فأنت أنت لا ببدنك، ولا بجزء بدنك، فاعرفها ولاتكوننّ من الذين ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

* *

ولهذا المطلب وجوه كثيرة من البراهين والاقناعيات لا نطول الكلام بذكرها، وفيما ذكرناه كفاية لما نحن بصدده ان شاء الله تعالى.

[مراتب النفس]

واذا ثبت انّها جوهر غير جرميّ وهي قابلة لادراك العقليّات بالقوّة أوّلا، ثمّ بالفعل أخيراً، فلها مراتب أوّلها الاستعداد المحض سميّت به العقل الهيولاني.

ثمّ استعداد آخر قريب عند حصول أوائل العلوم المهيّئة لإدراك الثواني، اما بالفكر او الحدس، سميت به العقل بالملكة.

ثمّ يحصل لها بعد ذلك قوّة وكمال، أمّا القوّة فهي أن يكون لها حالة عقيب الأنظار وتكرار المشاهدات بها تحضر المعقولات متى شاءت من غير طلب وتعمّل، وهذا هو أقرب الاستعدادات، وسميّت به العقل بالفعل ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [٢٤/٣٥].

وأمّا الكمال فهو أن تكون المعقولات لها حاصلة بالفعل مشاهدة،

سمّيت به العقل المستفاد، وعند ذلك شبّهت بالمبادي العالية، صائرة عالماً عقليّاً يضاهي العالم العيني في الصورة لا في الموادّ.

[مخرج النفس من القوة الى الفعل وحافظها]

فإذا علمت هذا فأعلم أنّ مخرج النفس من القوة إلى الفعل في كمالها العقلي ليست ذاتها، إذ الشيء لايخرج ذاته من النقص إلى الكمال، وإلّا لكان الشيء أشرف وأكمل من ذاته، ضرورة أنّ المعطي للكمال لايقصر عنه، ولأنّ جهة الفعل غير جهة الإنفعال، وهي ليست جسماً مركباً من مادّة وصورة ـ حتّى تفعل باحديها وتنفعل بالاُخرى ـ ولا إيضا الجسم هو مكمّل النفس لأنّ مرتبتة دون مرتبتها، ولا نفس اُخرى من نوعها إذ لا اولوّية لبعض أفراد طبيعة واحدة بحسب ذاته النوعيّة، ولأنّ النفس ـ بما هي نفس ـ لاتؤثّر إلّا بمشاركة الجسم وساطة الوضع وإلّا لكانت عقلا محضاً، وكم من نفس شريفة رامت اخراج نفس من القوّة إلى الفعل فسمعت من الحقّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [٢٨/٥٦].

فمخرجها إلى الكمال ملك كريم كريم روحانيّ عنده صور الأشياء بالفعل، وهو فعّال المعقولات ومفيضها على قلب من يشاء بإذن الله تعالى.

وايضـا: إنّ النفس إذا غابت عنهـا صورة عقليّة كانت أدركتها ولها الرجوع إليها متى شاءت دون كسب؛ فلا بدّ لها من خزانة عقليّة تحفظ لها المعقولات عند ذهولها، وليست الخزانة فيها أو في جسمها.

أمّـا الأوّل: فلعـدم تجزّئها بجزئين، بأحدهما تدرك وتتصرّف وبالآخر تحفظ وتخزن.

وأمّا الثاني: فلما علمت من أنّ المعقول لا تحلّ الجسم المنقسم بالمقادير الـوضعيّة، فإذ ن لها مكمّل؛ وهو ملك مقرّب عقلّي لم يكن فيه جهة القوّة والإستعداد أصلا، وإلاّ لكانت نفساً محوجة إلى مخرج آخر إيّاها ومكمّل لها، فيتسلسل أو يدور ـ وكلاهما محال ـ أو ينتهي إلى أمر عقلّي بالفعل وهو مطلوبنا.

فكـلّ نفس لها حافظ من جواهر الملائكة المقرّبين يحفظ لها وعليها كمالاتها، إذا اتّصلنا بها[٣٦] ايّدنا بالأنوار وكتب في قلوبنا الايمان لأنّه قلم الحقّ الأوّل وإذا أعـرضنا عنه بالتوجّه إلى المحسوسات انمحت الكتابة. ونفوسنا كمرآة إذا أقبلت إليه عند نقائها عن الكدورات والمعاصي قبلت، وإذا أعرضت أو احتجبت تخلت. ونسبته إلى نفوسنا كنسبة الشمس إلى الابصار.

وليست المقـدّمـات بذاتها موجدة للنتيجة لأنّها أعراض والعرض لا يوجد شيئاً بل المقدّمات وغيرها معدّات، والواهب غيرها.

فان قلت: ما الحاجة الى اثبات هذا المبدء العقلي بعد اثبات الحقّ الأوّل؟

قلت: النفوس كثيرة: لابدّ لها من مبدء ذي جهات كثيرة في الفاعليّة، والجهات الكثيرة مرتبتها منحطّة عن مرتبة الذات الأحديّة الصرفة بمراحل كثيرة، فلابّد من وسائط بيننا وبينه لغاية مجده وعلّوه ونهاية عجزنا وقصورنا، فلانصل إلى جنابه إلاّ بعد طيّ مراتب حجابه.

---

(٣٦) كذا. والظاهر: به.

وفي الحـديث: «انّ لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كلّ ما انتهى إليه نظره»[٣٦][٣٧].

* * *

فإذا تحقّق ذلك فاعلم أنّ الله سبحانه خلق للإنسان جنوداً وحَفظَة غائبـة عن عالم الحواسّ، تخدمه وتحفظه عن الآفات، وتكتب عليه أعماله وتضبط له آجاله. فبعض هذه الجنود مبادي الإدراكات والإنفعالات وبعضها مبادي التحريكات، وبعضها كتبة الأعمال، وبعضها حفَظة الأقوال، ولكلّ صنف منها رؤساء ومرائيس وخُدّام ومخاديم.

فمخدوم المبادي الإدراكيّة مبدء نظريّ شهيد عليها، ثمّ بعده مخاديم عشرة مرتبتها دون مرتبته هو ينظر إليها ويستخدمها كما يستخدم هي غيرها من صور أشياء تكون من نوعها وجنسها، ولبعضها جنود وأعوان لايمكن إحصاؤها كثرة، انبثّت في مملكة البدن ليس فيه موضع قدم يخلو عنها.

ومخدوم المبادي التحريكية ـ أيضا ـ مبدء شوقيّ مخدوم لها،وله جندان خادمـان له، أحـدهما يخدمه لجلب مايشتهيه من الأشياء الكثيرة الملائمة لطبعه، والآخر يخدمه لدفع ما يكرهه من المضارّ والمنافيات لطبعه، ولهما جنود غير محصورة تخدمها، سبعة منها بمنزلةالدعائم والرؤساء للبواقي، لكلّ منها أسم خاصّ عند الله وصفة خاصّة وفعل خاصّ ، ولكلّ منها محل خاصّ هو موضع سلطانها، ومحلّ عام هو مواضع تصرّفاتها، وقد مكّن الله جميعها على التصرّف في موادّ الأجسام الحيوانيّة والنباتيّة وغيرها ممّا في الأرض بالجذب والدفع

---

(٣٦) جاء ما يقرب منه في مسلم: ج٢ ص ١٣ و ابن ماجة: ج١ ص ٧١.
(٣٧) بصره ـ نسخة.

والقبض والبسط، والحبس والإمساك، والإحالة والتبديل، والنضج والإلصاق والتصوير والتشكيل.

كما أشار إليه بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [٢/٢٩].

كما قد مكّن الله جميع الصنف الأوّل على التصرّف في صور تلك الموادّ وغيرها بنزعها وإدخالها وإحضارها في صُقع النفس وعالمها وتقديمها وتأخيرها وتأليف بعضها ببعض وانتاجها ـ إلى غير ذلك من أنحاء التصرّفات كالحفظ والاسترجاع ـ كلّ ذلك بأمر الله المطاع وعنايته بتعمير هذه النشأة الإنسانيّة في هذا العالم كما دلّ عليه الحديث المنقول آنفاً.

فإنّ معنى قوله صلّى الله عليه وآله: «لو وكلّ العبد إلى نفسه لا ختطفته الشياطين» أنّه لولا أفادة الله له هذه الجنود الباطنيّة الطبيعيّة والنفسانيّة حتّى يقيمه ويديمه مدّة في هذه الدنيا ليتزوّد للآخرة بالأعمال الصالحة ويكتسب المعارف الحقيقيّة بتأييد الملك المفارق المكمل له:لاختطفتهشياطين هذا العالم من الجواهر الطبيعيّة النفسانيّة المستولية على الأجسام بالإفساد والقطع والتحليل والقتل والإهلاك، فإنّ بدن الإنسان في معرض الآفات ومعدن البليّات، كالحرق بالنار والغرق في الماء والتسخين والتبريد المفرطين من الهواء، والخسف والزلازل من الأرض وشرب السموم والأدوية الضارّة الجماديّة والنباتيّة ومصادفة العدوّ الحيواني كالسبع الضاري والكلب العقور والأفاعي ومواجهة الخصماء الإنسيّة وغير ذلك.

فكلّ هذه ـ من توابع الشياطين ـ بصدد اختطاف العبد في هذا العالم إن وكلّ إلى نفسه ولم تحفظه الحفظة بأمر الله.

ولولا إفادة الله ايضا لعباده المخلصين جنوداً أُخرى تحفظونه وتدبّون

عنه في طريق الآخرة عن اختطاف ضرب آخر من مردة الشياطين وهم الذين يريدون أن يسّمّعوا﴿إلى الملأ الأعلى وَيُقذَفُونَ من كلّ جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾ ويقول سفيههم ﴿على الله شططا﴾[٣٨] من اثبات الصاحبة والولد له سبحانه ويحكم على غير المحسوس بالمحسوس، وإلاّ فمن الذي خلص من شرّ إضلالهم وإفسادهم ووساوسهم ووعدهم بالشرّ وإيعادهم على الخير وإراتهم الباطل على صورة الحقّ، والحقّ على صورة الباطل: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قوله جلّ اسمه

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾

لّما قرّر سبحانه أنّ على كلّ نفس حافظاً ومُبقياً لوجوده، وهو علتّه الفاعليّة أراد أن يهديه سبيل معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله، إذ بها تتمّ حيوته الكاملة في النشأة الدائمة، وبدونها موت الجهالة وهلاك السرمد وعذاب الأبد، وهي متوقّفة على معرفة النفس، لأنّ النفس سُلّم المعارف كلّها والمرقاة إلى الحضرة الإلهيّة، فمعرفتها منشأ معرفة الحقّ ذاتاً وصفة وفعلاً، والشيء ذوي الأسباب لايمكن العلم به إلاّ من جهة العلم بأسبابه.

والأسباب أربعة في المركّب: فاعل، وغاية، ومادّة، وصورة، وفي الأمر الصوري ـ كالنفس ـ ثلاثة: لأنّ صورته ذاته، بخلاف المركّب فإنّ صورته ليست ذاته بل جزئه وعلّة جزئه الآخر بمعنى آخر، كما أنّ المادّة جزئه الآخر

---

(٣٨) يشير الى الآيات: ٣٧/ ١٠، و٧٢/ ٤.

ـ وهي أيضا ـ علّة الصورة لا بهذا المعنى، بل بمعنى آخر.

فالإنسان صورته نفسه الناطقة،ومادّته حاصلة من الطين اللازب، ثمّ من المني المركّب من العناصر الحاصل منه الأخلاط الأربعة، ومن لطافتهـا ودخانيّتها الأرواح البخاريّة، ومن كثافتها ورماديّتها الأعضاء. ويتوسّط بينها الأعصاب والعروق والاوردة والشرائين والعضلات، ومجموعها البدن، وهو المادّة القريبة للانسان المأخوذ منها جنسه، وفصله مأخوذ من النفس التي صورته، وفاعله الملك المتصرّف فيه بأمر الله بامداد ملائكة أُخرى موكّلة على السموات والأرضين، كما أشار إليه بقوله: ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

وغـايتـه عبـادة الله وطاعته كما أشار إليه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلاِنْسَ اِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ﴾ [٥١/٥٦].

فلذلك أمَره ووصّاه بالنظر في أسباب مهيّته ووجوده في نشأته الأُولى؛ ليعلم ويستدلّ بها على قدرته تعالى على النشأة الثانية كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلاُوْلَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [٥٦/٦٢] اي: حال نشأتكم الثانية والنظر في ترتيب أُمور معلومة للتأدّي إلى مجهول، فمادّته خِلقة الإنسان وصورته من حيث هو صورته من هذه النشأة. وأمّا فاعله وغايته فلهما النشأة الأُخرى.

والمادّة أقدم في الزمان، فقدّمت معرفتها وسبيل النظر إليها والإستدلال بها على غيرها. فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلاِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أتى بالماء الإستفهاميّة المستعملة لطلب تمام حقيقة الشيء أو شرح ماهيّته، ومرتبتها بأوّل الوجهين بعد «هل البسيطة» الطالبة للتصديق بوجوده وبالثاني قبلها، إذ ما لم نعلم شرح اسم الشيء لا نطلب معرفة وجوده فأجاب بقوله جلّ اسمه:

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦
يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾

والدفق: صبٌّ فيه دفع. ومعنى الدافِق إمّا المدفوق، كعيشة راضية ـ بمعنى مرضيّة ـ والغرض فيه الإنتساب إلى الدفق الذي هو مصدر، لا قيام المصدر به كالحدّاد والمشمّس. وإمّا الإسناد المجازي لأنّ الدفق للمني كالقطع لصاحب السكّين، قال الفرّاء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم، نحو: سرٌّ كاتم.و: هَمٌّ ناصب. و: ليلٌ نائم.

وانّما قيل: «مِنْ مَاءٍ» ولم يقل: «من مائين» ـ مع أنّ أصل المولود منهما جميعاً ـ لا متزاجهما واتّصالهما ماء واحداً في الرحم حين ابتداء الخلقة.

وأمّا قول بعض الأطبّاء إنّ ماء المرئة هو الأصل كاللبن، وماء الرجل للانعقاد كالأنفحة[٣٩] فهو قول مرجوح لايُصار إليه، على أنّ الدفق لا يلائمه بل الحمل على منيّ الرجل أولى لأنّه كالصورة للمركّب ومنيّ المرئة كالمادّة له، والشيء بالصورة هو بالفعل وبالمادّة هو بالقوّة، أو لا ترى أنّ نسبة المولود إلى الأب أوكد من نسبته إلى الأُمّ.

* * *

﴿يَخْرُجُ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرئة، وهي عظام الصدر و «الصُلْب» فيه أربع لغات: بفتحتين، وبضمّتين، وبالضمّ والسكون، وبصيغة الفاعل.

---

(٣٩) في النسخ: الانفخة. والصحيح ما اثبتناه.

وفي الكشّاف: «قيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرئة».

وهذا ايضا مؤكّد لمامرّ من كون منيّ الرجل هو الأصل، إذ قد ثبت أنّ مثل العظم والعصب من الأعضاء الأصليّة متكّونة من المنيّ، والزائدة كاللحم وغيره متكّونة من الغذاء.

فإن قلت: إنّ النطفة متكّونة من فضلة الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتّى تستعدّ أن يتولّد منها تلك الأعضاء، فلَم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ﴾ التي هي عظام الصدر؟

قلت:[٤٠] اختلف الحكماء والأطبّاء في انفصال المني عن جميع الأعضاء أو عن الاُنثيين فقط، وفي كون المني متشابه الأجزاء أو مختلف الأجزاء:

فأرسطو وشيعته ذهبوا إلى تشابه الأجزاء لانفصاله عن الاُنثيين، وذهب أبقراط وشيعته إلى أنّه ليس متشابه الأجزاء،لأنّه يخرج عن كلّ البدن، فيخرج من اللحم شبيه به ومن العظم شبيه به[٤١] وهكذا من جميع الأجزاء، فأجزائه غير متشابهة الحقيقة، بل حقائقها متخالفة حسب اختلاف حقائق ما ينفصل عنها. فهو غير متشابه الأمشاج، بل متشابه الامتزاج متّصل عند الحسّ.

ولكلّ من الطرفين حجج كثيرة مسطورة في كتب الطبّ.

أمّا ما تمسّك به أبقراط في تصحيح مذهبه فمنها: عموم اللذّة لجميع البدن، ومنها المشاكلة الكليّة، فلولا أنّ كلّ عضو يرسل قسطاً لكانت

(٤٠) راجع الشفاء، الحيوان: ٣٩٢ طبعة مصر.

(٤١) لان المخرج عن اللحم شبيه به، والمخرج عن العظم شبيه به ـ نسخة.

المشاكلة[٤٢] بحسب عضو واحد. ومنها مشاكلة عضو الولد لعضو ناقص من والديه أو عضو ذي شامة أو زيادة.

وقدح أرسطو في هذا المذهب وأبطله بوجوه:

أحدها أنّ المشابهة تقع في الظفر والشعر وليس يخرج منها شيء.

وثانيها أنّ المني لا يرسله الأعضاء الآليّة مع أنّ المشابهة تقع فيها.

وثالثها لزوم كون المولود في الرحم إنسانين.

ورابعها جواز تكون الولد من مني المرئة وحدها لانفصاله من جميع أعضائها.

وخامسها أنّ الحيوان قد يسفد سفاداً واحداً فيتولّد منه أكثر من واحد، فلو لم يكن منيّه متشابه الأجزاء لم يتولّد منه إلّا واحداً.

وسادسها مشابهة الولد لجدّ بعيد، لا لوالديه. وقد حكى أبو علي في حيوان الشفاء[٤٣] إنّ واحدة ولدت من حبشيّ بنتاً بيضاء، ثمّ هي ولدت بنتاً سوداء.

وسابعها كثير من الحيوانات يلد من غير جنسه.

وثامنها لزوم كون المني حيواناً صغيراً.

فهذه حجج الفريقين وفي الكلّ نظر ذكره يؤدّي إلى التطويل، وعلى أيّ المذهبين يتأتّى الجواب عمّا قلت.

أمّا على مذهب أرسطو وتابعيه: فلقُرب الموضعين من أوعية المني خصّا بالذكر.

وأمّا على مذهب الأخيرين فلورود هذه الفضلة من الأعضاء إلى

(٤٢) المشابهة ـ نسخه.

(٤٣) الشفا، الحيوان: طبعة مصر ٣٩٢.

الأُنثيين بعد ورودها على هذه العظام ـ صلب الرجل وترائب المرئة ـ ولذلك ورد استحباب وضع اليد على ثدي المرئة عند إرادة المجامعة معها قبل الدخول لتشتدّ رغبتها بسبب تهيّج مادّة الشهوة وتحريكها من ذلك الموضع.

وفي الكشّاف: «الترائب: هي عظام الصدر حيث تكون القلادة».

وقيل[٤٣]: الترائب: اليدان والرجلان والعينان ـ عن الضحّاك ـ. وسئل عكرمة عن الترائب فقال: هذه ـ ووضع يده على صدره بين ثدييه ـ. وقيل: ما بين المنكبين والصدر ـ عن مجاهد ـ. وقيل: المشهور من كلام العرب أنّها عظام الصدر والنحر.

﴿ شك وتحقيق ﴾

[كيف تتولد الأعضاء المختلفة من المني]

قيل: إنّ المني متشابه الأجزاء، والقوة المولّدة لاشكّ إنّها قوّة عديمة الشعور والإدراك، وعلى تقدير شعورها وإدراكها فسبيلها سبيل البسائط المؤثّرة على نهج واحد وسنّة متشابهة، والتي هذا شأنها إذا فعلت في مادّة متشابهة الأجزاء وجب أن يفعل فيها فعلا واحداً متشابهاً. فكان يلزم أن يكون المولد من المني كرة واحدة لها طبع واحد والمشاهَد خلافه، وهذا هو الحجّة في إثبات كرويّة البسائط.

وهذا الشكّ مدفوع لا بما ذكره صاحب التفسير الكبير من أنّ اللازم المذكور ـ وهو كون المتولّد كرة ـ لازم على تقدير كون المني مختلف[٤٤] الأجزاء أيضا، لأنّا إذا فرضنا مركباً فلابدّ وأن يكون الأجزاء البسيطة

---

(٤٣) مجمع البيان: ١٠/٤٧١.

(٤٤) منخالف ـ نسخة.

حاصلة فيه بالفعل، ولكلّ منها قوّة بسيطة تفعل في مادّة بسيطة، فيجب أن يكون كلّ واحد منها كرة،والمتولّد من المني كرات مضمومة بعضها ببعض » فإنّه أيضا فاسدٌ لأنّه جدلّي كما لا يخفى ـ.

بل[٤٥] لا يلزم من اقتضاء القوّة البسيطة استدارة الجسم المتشابه الأجزاء المقداريّة التي لم تتألّف من أجسام مختلفة الصور كالبسائط العنصريّة والفلكيّة، اقتضاؤها لاستدارة الجسم المتشابه الأجزاء المقداريّة التي تألّفت من أجسام[٤٦] مختلفة الصور؛ لظهور الفرق القادح. فإنّ القوّة البسيطة يمتنع[٤٧] اختلاف تأثيرها في الأوّل دون الثاني[٤٨]. لاختلاف المادة المتصرّف فيها بتهيئة المغيّرة لكلّ عضو مادّة تليق به، ثمّ بإفادة المصوّرة ما يحسن لها من التصوير والتشكيل.

تذكرة

ولبعض الحكماء كلام في هذا الباب ليس ببعيد عن الصواب لا بأس بذكره، وهو إنّ المادّة المنويّة تستعدّ لأمر واحد هو النفس، ولكنّ النفس لها آلات ولوازم وقوى متخالفة تتحّد نوعاً من الإتّحاد، فيجب أن يكون في المادّة استعدادات بالقوّة مختلفة متّحدة على ضرب من وجوه الوحدة، وهي كيفيّة المزاج، كاتّحاد أشياء بالانتساب إلى مبدء واحد لأنّ اختلاف الاستعدادات في المادّة أُمورٌ بالفعل فكانه[٤٩] أشياء فيها تركيب، ثمّ كلّ قوّة يجب أن تكون قد تركّبت فيها هيآت هي لوازم لتلك القوى بها تصير فعّالة.

---

(٤٥) لانه ـ نسخة.
(٤٦) اجزاء ـ نسخة.
(٤٧) تمنع ـ نسخة.
(٤٨) لا في الثاني ـ نسخة.
(٤٩) فكان ـ نسخة.

فبسبب هذه الآلات ينقسم عضو واحد إلى أعضاء كثيرة،وبسبب اختلاف ترتيبات القوى يختلف أوضاع هذه الأعضاء، كما أنّ بالعلوم والمعقولات التي وجدت للأوّل والعقول وجد ما بعده، وكما ينتقش في العقول تلك الصور على سبيل اللزوم من دون شركة المادّة واستعداداتها، فكذلك ينتقش في القوّه المصوّرة من النفس هيئات تنبعث منها صورة شكل الإنسان بشركة المادّة لوجود هذه القوّة في المادّة.

﴿ تتمة ﴾

[القلب رئيس أعضاء الحيوان]

يجب للمتفكّر أن يعلم إنّ النفس إذا تعلّقت بأوّل عضو كالقلب صار البدن نفسانيّاً. فالنفس تحيي الحيوان بالقلب،وإن فرض مجرّداً عن باقي الأعضاء مادام صلوحه للتعلّق باقياً، وهو كونه ذا بخار لطيف في تجويفه. ولكن إنّما يتمّ مزاج الروح الذي يصلح لحمل قوى الحسّ والحركة في الدماغ لحصول الإعتدال هناك على وجه الكمال، كما أنّ قوى التغذية يتمّ فعلها بالكبد،وينشأ حاملها من القلب، فجميع هذه القوى أولا تنفذ من القلب إلى غيره، كما أنّ عند مخالف هذا القول مبدء الحسّ في الدماغ لكنّ أفعال الحسّ لاتتمّ به بل بأعضاء أُخرى.

وانّما وقع هؤلاء فيما وقعوا لغفلتهم عن أن القلب هو بالحقيقة العضو الرئيس الذي به يصير الجسم حيواناً ذا نفس وما سواه خدّام له.

والكلام في تفصيل الآلات والقوى النفسانيّة وكيفيّة ظهورها وكيفيّة تكون الجنين خروج عن ظهور هذا المقام ـ والله وليّ الأنعام ـ.

قوله جلّ اسمه

إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

بيّن الحقّ سبحانه في الأوّل حال المبدء وأمر الإنسان بأن ينظر بدء أمره ومادّة وجوده.

وأشار ثانياً إلى أن يعلم من أصل خلقته ومادّة طينته ما يتسبب به أمر معاشه ومعاده وليكتسب الحكمة الخُلقيّة والمنزليّة والمدنيّة،ويعلم أنّ محلّه العجز والإفتقار ومقا مه النقص والاضطرار، ليس له على شيء يدٌ، ولا له على نفسه سلطان، ويستفيد من ذلك العلم بقدرة الحق وسلطانه وباهر حكمته ببرهانه وتفرّده بوجوب الوجود واستغنائه عن كلّ موجود.

وأشــار ثالثاً إلى معاده وأنّه ممكن مقدور عليه ولايتقاصر عنه القدرة الإلهيّة والمكنة الجبروتيّة.

ولّما كان العلم بالموت من اليقينيّات التي لا شبهة فيها أعر ض عن ذكـره صفحـاً؛ وذكر المعاد الذي هو من مزالّ الأقدام ومداحض العقول والأفهام، وتعرّض لبيانه على وجه التعريض والتلويح ـ وربّ تعريض أبلغ من التصـريح ـ فقـال: ﴿إنّــهُ﴾ الضمـير للخـالق لدلالـة «خَلْق» عليه ﴿لَقادِرٌ﴾ لبيّن القدرة لا يتأبّى عنه شيء من المقدورات ولايعجز، يعني أنّ الذي خلق الإنسان ابتداء،من نطفة هي أمر بالقوّة في غاية الوهن والسخافة وقبول الآفة والفساد، فهو قادرٌ على إعادته.

والتنكير في قوله: «لَقادِرٍ» للتفخيم، أي لقادرٌ وأيّ قادرٍ. ونظيره «إنّي لَفَقيرٌ».

ومعنى «الرجع» ردّ الشيء إلى أوّل حاله. فعن الحسن والجبائي وقتادة: إنّ الذي خلقه ابتداء ومن هذه الماء يقدر على أن يرجعه حياً بعد الموت.

وعن عكرمة ومجاهد: إنّه لقادر على ردّ الماء في الصلب.

وعن الضحّاك: إنّه على ردّ الإنسان ماء كما كان قادر.

وقال مقاتل بن حيّان: كأنّه يقول: «إنّه» قادرٌ على ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب،ومنه إلى الصبي،ومنه إلى النطفة،ومنه إلى الإحليل،ومنه إلى الصلب، فكيف لايقدر على إحيائه بعد الموت[٥٠].

والأصحّ القول الأوّل، لأنّ قوله جلّ اسمه:

يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾

منصوب بـ «رَجْعِه»، اللهمّ إلاّ أن نصب ـ من جعل الضمير في رجعه للماء وفسّره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل، أو للإنسان وفسّره بردّه ماء، أو بما فسّره مقاتل ـ بمضمر الإبتلاء والإختبار.

و السرائر: جمع السريرة. وهي ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيّات، أو في النفوس من الأخلاق والصفات.

و بلاؤها: تعرفّها.والتمييز بين حقّها وباطلها،وحسنها وقبحها،وطيّبها وخبيثها. قال الشاعر:

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا   سريرة ودّ يوم تبلى السرائر

(٥٠) راجع الاقوال في مجمع البيان: ٤٧٦/١٠.

وعن الحسن: إنّه سمع رجلا ينشد هذا البيت فقال: ما أغفله عمّا في ﴿والسماء والطارق﴾[٥١].

﴿ تبصرة ﴾

[العوالم الثلاثة وسير الإنسان فيها]

اعلم إنّ الله خلق الوجود ثلاثة عوالم: دنياً وبرزَخاً وأُخرى. ويعبَّر عن كلّ منها بيوم، فكلّ يوم من أيّام الدنيا مدّة دورة الفلك الأعظم، وربما يطلق على زمان دورة القمر، بل على زمان دورة الشمس أيضا، ومجموعها سبعة آلاف سنة،وكل يوم من أيام البرزخ ألف سنة مما تعدّون، أو سبعة آلاف سنين ممّا تعدّون، وكلّ يوم من أيام الأُخرى وهي أيّام الله يكون خمسين ألف سنة لقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَ ٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوم كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ﴾ [٧٠/٤].

فخلق الله الجسم عن الدنيا والنفس عن البرزخ والروح عن الآخرة، وجعل الوسائط الحاكمة الناقلة لتنوّعات عوالِم الإنسان ثلاثة: ملك الموت ونفخة الفزع ونفخة الصعق.

فالموت للأجسام، والفزع للنفوس، والصعق للأرواح، فإذا كان الإنسان في هذه الدار كان الحكم فيها ظاهراً للجسم، وهو المشهود بمَشاهد الحسّ والمباشر للأحكام والأفعال التي تناسبه وتليق به، والنفس وأحوالها والروح

---

(٥١) الكشاف في تفسير الآية: ٣٢٩/٣. ونسبه شارح شواهد الكشاف الى مجنون بني عامر وقبله.

اذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلو المقابر

ولم أجده في ديوانه.

وأسرارها مندرجتان في وجوده، مختفيتان تحت حجابه وحجب صفاته وآثاره والإمدادات متّصلة بهما بواسطته.

فإذا شاء الحقّ تعالى نقل النفس والروح إلى دار البرزخ أمات الجسم بواسطة ملك الموت وأعوانه. ثمّ ينشأ النفس في البرزخ النشأة النفسانيّة الثانويّة وتكون في عالمها البرزخي، وكانت هي المشهود بحواسّها ومشاعرها، فإنّ للنفس في ذاتها سمعاً وبصراً وذوقاً وشمّاً وهذه الحواس الدنياويّة ظلال تلك الحواسّ وحجاباتها، أولا ترى أنّها تنفتح وتعمل فعلها عند رقود هذه الحواسّ، كما في المنام ـ والنوم أخ الموت ـ.

وهي أيضا هناك مباشرة للأحكام وقادرة على الأفعال بنفس تلك الحواسّ ،لأنّ مبادي الحواسّ ومبادي الأفاعيل هناك متّحدة،والإمدادات يومئذ متّصلة بالجسم والروح بواسطتها وصورتها في البرزخ. على صورة ما غلب عليها من الأعمال والأخلاق والنيّات.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي: على رجع النفس والتذكير، بتأويل أنّها عين الإنسان المذكور صريحاً. أو المخلوق المذكور ضمناً.

و «اليوم» في قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ﴾ يوم البرزخ، وهو القيامة الوسطى،إذ فيه تختبر سرائر النفس، لأنّه يوم علنت الضمائر النفسيّة وخفيت الظواهر الجسميّة، وفيه يحشر الناس على صُور نيّاتهم ـ كما ورد في الحديث ـ. وورد أيضا: «يُحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القردة والخنازير».

وذلك لاستيلاء الصفات الشهويّة والغضبيّة على نفوسهم أكثر ممّا يستولي على نفوس تلك الحيوانات. وفيه يتميّز الخبيث من الطيّب المشار إليه

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ ـ الآية [٣/١٧٩] وفيه امتياز المجرمين عن المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [٣٦/٥٩].

فالبرزخ عالم مستقلّ بين عالَمي الدنيا والآخرة المحضة، كالشفق والفجر بين الليل والنهار، وهو مستقرّ الأنفس والأرواح المنتقلة عن هذه الدار من بدؤ الزمان إلى حين انقضائه لقيام الساعة الكبرى والقيامة العظمى، وله آيات نشير إليه:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [٢٣/١٠٠] ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [١٩/٦٢] وقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [٤٠/٤٦] يعني دار البرزخ.

ونبّه عن الدار الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [٤٠/٤٦] لأنّ فرعون وآله كانوا من أهل الشقاوة العقليّة والحجاب السرمدي عن رؤية ربّهم، كما أُشير إليه في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [٨٣/١٥].

وذلك لمكنة استعداداتهم وعلّو فطرتهم بسبب مزاولتهم العلوم الجدليّة والمحاجات السفسطيّة.

وممّا يدلّ على عالم البرزخ أيضا قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ﴾ الآيتان [١١/١٠٦] يعني ـ والله أعلم ـ جنّة البرزخ وجحيمه، لأنّ مدّة الخلود فيهما مقدر بدوام السموات والأرض، فإذا انقضى حكمها جسمًا و نفساً بالتبديل الأُخروي إلى عالم العقل والجبروت وموطن الأرواح العقليّة؛ انقضت مدّة الخلود فيهما، فخلودهما لأمد وجوده بشرط غيره.

وليس كذلك دوام أهل الآخرة الكبرى إذ لا أمد لها ولا وجودها مقدّر بوجود غيرها.

وممّا يدلّ على البرزخ قوله صلّى الله عليه وآله: «القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران»[٥٢].

وما روي أيضا عنه صلّى الله عليه وآله: «إن أرواح المؤمنين في حواصل طير بيض، وأرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترتع في الجنّة وتأوي إلى قناديل معلّقة بالعرش»[٥٣]. وهذه حالة الروح في جنّة البرزخ حين تصوّر النفس بالصور الإنسانيّة البرزخيّة، فهي في هذه الحالة في عالَم بين العالمين: عالَم الأجسام وعالَم الأرواح. فإذا أراد الله تعالى نقل الأنفس من الدار البرزخ حين كمل اليوم الدنيوي، نقلت الأنفس من البرزخ بنفخة الفزع ويعاد إليها الأجساد الدنيويّة كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّوْرِ فَفَزِعَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللّٰهُ﴾ [٨٧/٢٧].

ثمّ بيّن أنّ نفخة الفزع مختصّة بنقل الأنفس من دار البرزخ بقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوهُ دَاخِرِينَ﴾ [٨٧/٢٧].

وقال أيضا مخبراً عن النشأة الأخرويّة الروحانيّة بقوله: ﴿ثُمَّ ٱللّٰهُ يُنْشِيءُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [٢٠/٢٩]. وهذه نشأة تكون بعد صعق الأرواح حين يقول سبحانه: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه لنفسه

---

(٥٢) الترمذي: كتاب صفة القيامة، الباب ٢٦، ج٤ ص ٦٤٠.

(٥٣) في الكافي (ج٣ ص ٢٤٤): عن أبي بصير: قلت لأبي عبد الله (ع) انا نتحدث عن أرواح المؤمنين انها في حواصل طير خضر ... فقال: لا اذن ما هي في حواصل طير. قلت فأين هي؟ قال: في روضة كهيئة الأجساد في الجنّة.

فيقـول: ﴿لِلّٰهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [٤٠/١٦] وذلك لأنّ المجيب قبل ذلك هو الروح السامعة المجيبة المقرّة الطائعة، فلمّا أُجريت عليها هذه الوفاة المميزّة لها بصفة الحدوث، المنزّهة لبارئها بصفة القِدم،لم يجب. وهذا الصعق هو نهاية الأجل المسمّى عنده، المعبّر عنه بخمسين ألف سنة.

ثمّ يحيى من هذا الصَعق بالنفخة الثانية بمزيد اختصاص[٥٤] التجلّي الأكمل في المظهر الأعظم، المظهر للأسماء الباطنيّة التي نبّه عليها بقوله صلّى الله عليه وآله على ما روي عنه: «فأحمده بمحامدٍ لا أعرفها الآن»[٥٥].

ففي هذه النشـأة الأُخـرويّة الـروحانيّة كانت الروح هي المشهودة المباشرة للأحكام الأُخرويّة، والنفس والجسم مندمجان فيها، مختفيان تحتها.

وفي قولـه تعـالى: ﴿اللّٰهُ يَبْـدَؤُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُـوْنَ﴾ [٣٠/١١] إشارة إلى هذه النشآت الثلاث، والله أعلم بسرائر الأُمور.

قوله جلّ اسمه

فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

«القوّة» كالسمع والبصر والنامية والغاذية. و «الناصر»: كالأهل والولد والخيل والبغال. وكلاهما مسلـوبان في النشأة الثانية عن الإنسان، وذلك لأنّ وجودهما بامداد الأسباب العرَضيّة والعلل الخارجيّة الإتفاقيّة التي تختصّ وجودها بهذا العالَم، وهو عالم الموادّ والاستعدادات الناشية عن جهات القابلة والحركات.

---

(٥٤) اقتضاء ـ نسخة.

(٥٥) جاء الخبر مع اختلاف يسير في البخاري: ج٩ ص ١٤٩ وص ١٧٩.

وأمّا النشأه الآخرة فالمبادي هناك ذاتيّة لا اتّفاقيّة، والجهات منحصرةٌ في الجهات الفاعلية الآخذة من المبدء الأعلى، فيكون الحقّ متفرّداً في ذلك اليوم بالحكم والاقتدار،وبه التمكّن[٥٦] والاقدار[٥٧]، والنصرةوالانتصار، فلا قوّة ولا منعة[٥٨] للإنسان في ذلك اليوم يمتنع[٥٩] بها، ولا ناصر ولا دافع يمنع ويذّب عنه؛ لارتفاع النسب الوضعيّة والأنساب العنصريّة البشريّة، فالأمر يومئذ لله، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، ليس لأحد غيره ملك ولا سلطان ولا قدرة ولا قوّة على شيء، بل الكلّ يكونون يومئذ مشغولين بأنفسهم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أخيهِ * وَأُمِّهِ وَأبيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنيهِ * لِكُلِّ آمْرِءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنيهِ﴾ [٨٠/٣٧].

فإن قيل: هل فيه دليلٌ على نفي الشفاعة؟

يقال: لا، لأنّ الضمير في «لَهُ» راجع إلى الإنسان، وهو كالمهملة في قوّة الجزئيّة ـ هذا ما قيل ـ ويخدشه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ آمْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنيهِ﴾ [٨٠/٣٧] لأنّه يدلّ على العموم.

والحقّ أنّ الشفاعة لا تثبت إلا بعد تحقّق المناسبة الذاتيّة بين الشافع وما يشفع له،وكون الشافع من الوسائط العقليّة لا الوضعيّة، فعلى هذا لاينافي ثبوتها كليّة الحكم المذكور، إذ السلب من جهة والايجاب من جهة أُخرى كما علمت

(٥٦) التمكين ـ نسخة.

(٥٧) الاقتدار ـ نسخة.

(٥٨) صفة ـ نسخة.

(٥٩) يمنع ـ نسخة.

قوله جلّ اسمه

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾

وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾

هذا قَسَم آخر منه سبحانه تأكيداً لأمر القيامة.

و الرَّجْع: المطر. سُمّي «رَجعْا» كما سمّي «أوْباً» لأنّه يرجع ويؤب كلّ حين ـ من باب اطلاق المصدر وإرادة المشتقّ، أو من باب حمل معناه عليه مبالغة، أولإرادة التفأل ـ فسمّوه رجْعاً وأوبا ليرجع ويؤب.

ولايبعد أن يقال: سمّي بالرجع لأنّ الريح يرفع الأبخرة والأدخنة من البحر والأرض،ويسير بهما إلى الجوّ وتنعقد سحاباً ماطراً فيمطر، والمطر يرجع إلى حيث رفع منه، لأنّ السيول والأودية تجريان وتنصبّان إلى البحر أخيراً.

وقيل: رجْع السماء اعطاؤها الخير الذي يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الأزمان، فترجع بالغيث وأرزاق العباد.

ولأحد أن يقول: ﴿السماء ذات الرجع﴾ لاستدارة حركتها، فهي في كلّ آنٍ ترجع إلى موضع فارقته. أو إنّها ذات الرجع لكونها ذات كواكب راجعة في سيرها، وسمّي الكوكب «رَجْعاً» بأحد الوجهين المذكورين، وهي الخمسة المتحيّرة التي يكون كلّ منها في فلك غير شامل للأرض يسمى بالتدوير يحمله فلك شامل لها يسمّى: بالحامل، نسبة حركة أحدهما ـ وهو التدوير ـ

إلى حركة الآخر سرعة أعظم من نصف قطر الآخر إلى نصف قطره، ونسبة حركــة الآخـر إلى الأوّل بطؤاً بالعكس ـ كما بُرهن عليه في علم الهيئـة بمقدّماتٍ هندسيّة ـ.

وهذا يوافق ما نقل عن ابن زيد في مجمع البيان[٦٠]: «إنّ المعنيّ بالرجع شمسها وقمرها ونجومها لأنّها تغيب ثمّ تطلع».

وهيهنا وجهٌ آخر وهو إنّ الإنسان لّما كان عالَماً صغيراً فيه جميع ما في هذا العالَم فلا يبعد أن يراد بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ الدماغ وما فيه من القوى المدركة والمتصرّفة وما يحصل له من الأحوال المذكرة والإلهامات والعلوم الراجعة المتكرّرة.

وإن شئت خصّصت الرجوع بالقوّة المذكّرة ويقال لها: «المسترجعة» ومحلّها التجويف المؤخّر من الدماغ فأعرفها فإنّها دقيقةٌ نفيسةٌ. وعند تأويل السماء بالدماغ ينبغي أن يأوّل الأرض بمثل المعدة أو الكبد حيث تتصدّع عمّا ينبعث منه من الأغذية والأبخرة.

و الصَدْع: اسم ما يتصـدّع عنـه الأرض من النبات أو تنشقّ من الأشجار والعيون وغيرهما.

ولا يبعد أن يراد من الأرض والنبات قلب الإنسان، أعني نفسه الناطقة ومراتب استعداداتها الناشية منها بامداد العقل الفعّال الذي هو كالسماء، فانّ النبات له أزواج متفاوتة وأصناف مختلفة، فيكون بعضها إشارة إلى المرتبة الأولى للإستعداد وهو العقل الهيولاني الذي هو أوّل مراتب النفس القابلة للمعاني الكلّية.

---

(٦٠) مجمع البيان: ١٠/٤٧٢.

وبعضهـا تلويحـاً إلى ثاني مراتبهـا المسمّى بالعقـل بالملكة الحاصـل باستعمال الحواسّ وحصول الأوّليات، وهو مناط التكليف.

وبعضها ايماء إلى المرتبة الثالثة ويسمّى حينئذ عقلا بالفعل عند تحصيل النظريّات لها بمعنى أنّها متى شاءت والتفتت إليها حصّلتها بلا كسب وتعملّ.

وبعضها إشارة إلى المرتبة الرابعة وهو حصول العلوم الكليّة والحقائق العقليّة لها مشاهدة، ويسمّى العقل المستفاد المضيء في دار المعاد.

وعند هذا التأويل يكون معنى ﴿السماء ذات الرجع﴾ العقل الفعال لأنّه يسترجع النفوس من هذا العالَم إلى ما هبطت منه من المحلّ الأعلى كما قال بعض الحكماء[٦١]:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّع

وما أشبه حال هذه المراتب الحاصلة من أرض النفس الناطقه بتاثير سماء عالَم العقل بحال المواليد الحاصلة من الأرض ، فإنّ الجماد بإزاء العقل الهيولاني، لما فيه من قابليّة كونه غذاء للإنسان، والنبات بإزاء العقل بالملكة وفيه استعداد تغذيته. والحيوان-وخصوصا الحصة من الجنس التي تكون في الإنسان-بإزاء العقل بالفعل،لأنّه قريب التهيّؤ لأن يصير إنساناً. والإنسان الحسّي بإزاء العقل المستفاد الذي هو الإنسان العقلي. ـ فاعلمه فإنّه كثير الجدوى ـ

(٦١) هو الفيلسوف الشهير ابن سينا، والبيت مطلع قصيدة مشهورة له.

قوله جلّ اسمه

إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾

وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾

هذا جواب القسم، والضمير للقرآن، يعني إنّ القرآن يفصل بين الحقّ والباطل بالبيان عن كلّ واحد منهما، ولذلك يقال له: «الفرقان» وهذا هو المرويّ عن الصادق عليه السلام[٦٢].

فإن قلت: لم يسبق ذكر القرآن ليصح إرجاع الضمير إليه.

قلت: الأمن من الالتباس مسوّغ هذا الإضمار، لأنّ وصف كونه فصلا ليس بهزل مشعر بأنّ المراد هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقيل معناه: إنّ الوعد بالبعث والإحياء بعد الموت قولٌ فصلٌ، أي مقطوع به،لاخلاف ولا ريب فيه.

ولا يبعد أن يراد بالقول ما هو بمعنى التكوين ـ على إرادة المفعول ـ ويكون إشارة إلى تحقّق البعث، وفيه يتميّز المحقّ عن المبطل، ولهذا يكون يوم القيامة « يوم الفصْل» لأنّ الآخرة دار الفصْل والتميز والافتراق، يتفرّق فيهاالمختلفات معنى، ويتميّز فيها المتشابهات صورة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [١٤/٣٠] والدنيا دار اشتباه ومغالطة يتشابك فيها الحقّ والباطل،ويتعانق فيها الخير والشرّ والنور والظلمة.

---

(٦٢) مجمع البيان: ٤٧٢/١٠.

وإن صدق على الآخـرة إنّها «يوم الجمع» لأنّ هذه الأزمنة والأمكنة الدنياويّة سببان لاحتجاب الكائنات بعضها عن بعض، فإذا ارتفعا في القيامة ارتفعت الحجب بين الخـلائق فيجتمـع الخلائق كلّهم، الأوّلون والآخرون ﴿قُـلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِـينَ وَٱلْآخِـرِينَ لَمَجْمُـوعُـونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْـلُومٍ﴾ [٥٦/٥٠] فهي يوم الجمع، ويوم الفَصـل، ولا منافاة بين هذا الجمع وذلك الفصل، بل هذا يوجب ذلك كما قال سبحانه ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [٣٨/٧٧].

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾ بل هو جدٌّ كلّه. أو القول بوقوع الساعة ليس مجازفة، بل أمر يقينيّ. وعلى هذا التأويل الذي ذكرناه يكون معناه،إنّ تكوين القيامة ليس عبثاً، بل لغرض المجازاة وإصابة كلّ أحد بما قدّمت يداه، نحـو قولـه تعـالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [٢١/١٦] وذلك لأنّ الهزل والجزاف والعبث ينبيء عن نقصان قابله أو قصور فاعله، وإنّه سبحانه هو الكامل المطلق والقيّوم[٦٣] بالحقّ والعزيز العليم، الذي لا يحوم حول سرادقات عزّته وجلاله نقصان.

كيف ـ وليست إرادته ومشيّته ناشيتان عن داعٍ زائد على ذاته يقهره وغرض يجبره، لأنّ كبرياؤه أرفع من أن يتطرّق إليه تمثال[٦٤] أحد، وجنابه أشمخ من أن يتخطّاه قدم ممكن، فقد «جلّ جناب الحقّ عن أن يكون شريعة لكلّ وارد، أو أن يطلع عليه إلّا واحداً بعد واحد».

---

(٦٣) القائم ـ نسخة.

(٦٤) بمثال ـ نسخة.

مناجاة

فانتهي ـ يا نفس ـ عن الهزل واللدد، وتخلّقي بأخلاق الله الواحد الأحد، واستيقظي عن نوم الغافلين، وانتبهي عن رقدة الجاهلين، الذين لا يهمّهم إلا هواهم، ولا يحركهم إلاّ مُناهم ومشتهاهم ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وما نزل من الحقّ.

يا نفس دع الهوى واسلكي سبل ربّك بالهدى، ألم يأن لكِ وقد شِبتِ وما انتبهت،وبلغت سنّـكِ إلى خمسين وما خرجت عن باب عتبتك قدماً إلى منازل القدّيسين[٦٥].

اللهم اتمم لنـا نورنـا، واغفـر لنا ذنوبنا، إنّك على كلّ شيء قدير، وبإغاثة[٦٦] الملهوفين جدير.

قوله جلّ اسمه

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾

وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

الضمير راجع إلى مشركي مكّة لأنّ السورة مكيّة، أي: يعملون المكايد والحيل في ابطال القرآن وإطفاء نور الله ـ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ـ فيكايدهم ويقابلهم بكيده، أي: يدّبر ما ينقض تدابيرهم ويهدم مكائدهم.

---

(٦٥) الصديقين ـ نسخة.

(٦٦) باعانة ـ نسخة.

وسمّي ذلك كيداً من حيث خفائه عليهم أولا، وظهوره أخيراً على نحو الاستدراج ونحوه.

ولا يبعد أن يراد بالكائدين القوى النفسانيّة وخصوصاً الوهميّة المكّارة المنازعة للقوة[٦٧] القدسيّة في طريق الحقّ، فإنّها وإن كانت منازعة إيّاها إلّا أنّ الله بإفاضته نورالهدى على قلب عبده المؤمن وإعطائه له البرهان النيّر القدسي والتأييد التامّ الحدسي يغلبها على قواها كلّها ويظهرها عليها ويخلصها من كيد القوى ـ سيّما الوهم الذي هو خليفة الشيطان في عالَم الانسان ـ ويجذبها إلى عالم القدس بابطال كيد جنود الشيطان وجعلها مسخّرة خادمة للقوّة القدسيّة، مطيعة منقادة مشايعة معها إلى جناب الحقّ، مسلّمة مسالمة، بعد ما كانت أنفة منازعة متأبّية عن طاعة الحقّ كافرة جاحدة.

كشف [معنى إسناد الكيد إليه تعالى]

إسناد الكيد إليه سبحانه من باب المجاز ـ كما هو الظاهر ـ فتكون العلاقة هي المزاوجة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [٤٢/٤٠] وإطلاق اسم الضدّ على الضد، أو ترتّب الغاية؛ فإنّ أوصافه تعالى الفعليّة في أكثر المواضع إنّما توجد باعتبار الغايات لا باعتبار المبادي، كالرحيم والمنتقم وغيرهما ـ ممّا لا ينفكّ مباديها عن انفعال وتأثير في الموصوف بها ـ فكيده تعالى عبارةٌ عن إنزال المكروه بالمكيد من حيث لا يشعر، استعارة من فعل الكايد بمن يكيده.

---

(٦٧) للقوى ـ نسخة.

فالمعنى: إنّه تعالى يجازي الذين شمّروا لإبطال القرآن،أو إطفاء نور الرسول الذي هو هدى للناس ورحمة، أو إبطال نور القوّة القدسيّة التي هي نور يهتدى به في ظلمات برّ المحسوسات وبحر المعقولات؛بكيد منه.

فيظهر الكتاب على سائر الكتب السماويّة،ويظهر الدين الذي صدع به على الدين كلّه ولو كره المشركون، ويقهر النور القدسيّ على ظلمات سائر القوى الوهمية والخياليّة والحسيّة التي بعضها فوق بعض.

ثم أن تقييد الفعلين بالمصدر المؤكّد وتنكيره إشعارٌ بأنّ الأمر ذو شأن عظيم وخطب جليل. «الحق أبلَج والباطل لجلَج»[٦٨].

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾.

قوله جلّ اسمه:

فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴿١٧﴾

أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله أن يمهلهم ولا يتصدّي للإنتقام منهم ولا يشتغل بمكايدتهم ومماراتهم ولا يقدم على مجادلتهم ومباراتهم، وأن يستظهر بكيد الله عنه ومناضلته دونه، ومن ثمّ جاء فاء السببيّة[٦٩] ليدلّ على أنّه إذا علم إنّ الله يكيد له ويذبّ عنه لزمه صلّى الله عليه وآله امهالهم والوثوق بصنع الله.

ويعلم من قوله: «رُوَيْداً» أنّ النصرة تأتيه عمّا قريب، فإنّه اسم للإمهال

(٦٨) ابلج: واضح مشرق. ولجلج: ملتبس.

(٩٦) في جميع النسخ التي بايدينا: «باء السببية» والظاهر ان الصحيح ما اثبتناه.

اليسير. فإن كان المراد عذاب يوم بدر فالمعنى «لا تعجل عليّ في طلب هلاكهم، بل اصبر عليهم قليلا، فإنّ الله يجزيهم لا محالة بالقتل والذُّلّ في الدنيا». وإن كان المراد عذاب يوم القيامه ونكال الآخرة فالمعنى «قلّل الإمهال ولا تعاجلهم بعذاب الله وانتظر بهم، وارضَ بتدبير الله فيهم وقضاؤه عليهم، لأن ما هو كائن آتٍ لا محالة فهو قليل».

والنكتة في تكرير أصل اللفظ مع تغيير الهيئة إفادة زيادة التسكين منه والتصبير عليه.

وقال ابن جني[٧٠]: قوله: ﴿فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلهم﴾ غيرُ اللفظ لأنّه آثر التوكيد وكره التكرير، فلمّا تجشّم إعادة اللفظ انحرف عنه ببعض الإنحراف بتغيير المثال، فانتقل عن لفظ «فعّل» إلى لفظ «أَفعل» فقال: أَمهِلهم، فلمّا تجشّم التثليث جاء بالمعنى وترك اللفظ قطعاً فقال: «روَيداً».

﴿ لمعات قرآنية عن أنوار رحمانية: ﴾

إنّ في الآية تنبيهات على علّو منصب الرسالة وكمال عناية الله في شأن الرسول صلّى الله عليه وآله:

أحدها: إنّه لم يأمره بمكائدتهم ومماكرتهم ايذاناً بأنّهم ليسوا بمراتب معارضته، بل هم أقلُّ وأخسُّ وأحقرُ وأذلُّ من أن يتصدّى صلّى الله عليه وآله لمدافعتهم وممانعتهم.

وثانيها: إنّه قابَل كيدهم بكيده تعالى إشعاراً بأنّه تعالى للرسول بمنزلة

(٧٠) مجمع البيان في تفسير الآية: ١٠/٤٧٢.

المحبّ الموافق للحبيب، أو الأب الشفيق للولد، حتّى يكون مخاصمتهم له مخاصمتهم لله تعالى.

وثالثها: الإشارة إلى أنّ كلّ من خالف أمره ونهيه آذن بحربٍ من الله كما إليه الإشارة بقوله: «مَنْ آذىٰ وَليًّاً فقد آذنتُه بالحرب»[٧١] وفي رواية: «من بارَز وليّاً فقد بارزني»[٧٢]. فكيف بإيذاء من هو سيّد الأنبياء وأكمل الأولياء صلّى الله عليه وآله ومبارزته؟

ورابعها: انّه تعالى أمره صلّى الله عليه وآله بأن يمهلهم ويهملهم ولا يشغل سرّه بدفعهم ومنعهم[٧٣] فلا يشوّش ضميره المنير ولا يكدّره ولا يوزع خاطره الشريف بالتفكّر في خصومتهم، بل يلتجي في استدفاع مضرّتهم واستكفاء مؤنتهم إلى جناب الحقّ ليجازيهم على مكائدهم وساير أفعالهم السيّئة أسوء الجزاء، من غير أن يسعي هو في ذلك، تعظيمًا لشأنه وإجلالا لمكانه واسترفاهاً لبالِه وتصفية لضميره الذي هو محلّ الواردات القدسيّة ومورد السكينات الإلهيّة.

وخامسها الدلالة بطريق المفهوم على تسلية خاطره صلّى الله عليه وآله بأنّه تعالى يبيد أعدائه، فإنّ المعنى أمهلهم[٧٤] أنت ولا تكايدهم فإنّي أكفيكَ كيدهم وأدفع شرّهم، فاكتف بكفايتنا واستظهر بعنايتنا فإنّا نعصمك من الناس ونكفيك الناس ونعيذك من شرّ الوسواس الخنّاس، كلّ ذلك طمأنينة له وتسكيناً لقلبه المقدّس .

---

(٧١) البخاري (من عادى لي...) ج٨ ص ١٣١. ابن ماجه: ج٢ ص ١٣٢١.

(٧٢) التوحيد (من أهان لي...) ص ١٦٨.

(٧٣) قمعهم ـ نسخة. (٧٤) مهلهم ـ نسخة.

وفيه ايماء إلى أنّه ينبغي أن يرفق بالدعوة[٧٥] ويدرج في التكميل ويمهل المدعوّين ريثما ينظروا ويتفكّروا، فعسى أن يهتدي فيهم من قدرّت هدايته.

* * *

وبلفظ الهداية نختم الكلام، رجاء أن يجعلنا من المهتدين، حامدين لله على نعمه وسوابغ منحه، ومصلّين على ملائكته وأنبيائه وأوليائه،خصوصاً على حبيبه محمّد خاتم النبيّين صلّى الله عليه وآله وأهل بيته وعترته الطاهرين، جعلنا الله من الذين لاخوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ـ بفضله وكرمه ومنّه وجُوده ونعمه.

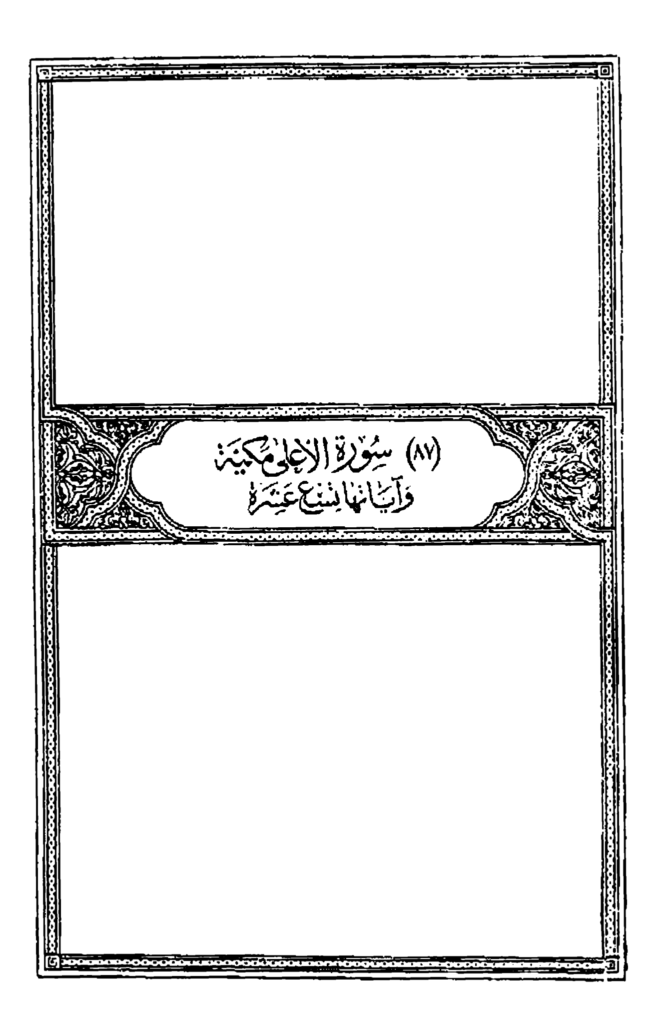
* * *

[٧٦ـ] وحرّر هذه السطور مؤلّفه ـ محمدـ المشهور بصدر الدين الشيرازي، جعل الله عين عقله مكحّلة بنـــور الهـــدى، وكشف عنهـــا غشـــاوة الامـــتراء، في آخـــر يوم الجمعة من شهر الله الأصبّ، رجب المرجّب لعام ألفٍ وثلاثين، حامداً لله مستغفراً، مصلّياً على نبيّه وآله أجمعين [٧٦].

---

(٧٥) في الدعوة ـ نسخة.

(٧٦ ـ ٧٦) غير موجودة في النسخة المطبوعة.



(٨٧) سُورة الأعلى مكية
وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سبحانك اللهم وتبارك اسمك وتعالى ذكرك، وعظمت قدرتك وعلت كلمتك، أشهد أنّ كلّ إشارة إلى غير وجهك الكريم باطلة، وكلّ حركة وطلب دون تحصيل مرضاتك عاطلة، أنت الغاية القصوى والمبدء والمنتهى. صلّ على وسائل جودك ودلائل وجودك، ورؤساء قوافل طريقك وهُداة سالكي سبيلك، خصوصاً سيّد الكلّ وسابقهم ورئيس الخلق وسائقهم إلى مبدعهم وخالقهم، محمّد المصطفى ـ صلّى الله عليه وآله ـ المطهّرين عن أرجاس العلائق، المقدّسين عن أدناس العوائق.

* * *

وبعد فهذه جملة قريضة من نكاة قرآنيّة ذوقيّة،، ودقائق فرقانيّة كشفيّة شوقيّة، من أذواق السالكين إلى الملكوت الأعلى، وأشواق الساعدين إلى الدرجة[1] القصوى، متعلّقة بتفسير سورة الأعلى، واردة على قلب أقلّ العباد من فيوضات ربّه الجواد، أثبتها لكلّ من له حيوة عقليّة وسمع باطني وبصر معنوي، وفرضت صونها عن أصحاب القبور، وحرمت بذلها للكمه والأعمى الحيارى كالبهائم في عالم الدثور، ومورداً جملتها في عدّة تسبيحات، مشتملة على دلائل وحدانيّة خالق الأرض والسموات، وفاطر الحقائق والماهيّات.

---

(١) دريجة ـ نسخة.

التسبيح الأوّل

في الاستدلال على تقدّس ذاته وتجرّده بخلق الحيوان

قوله تعالى

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾

ليس المراد من صيغة الأمر في مثل «سبّح» و«احمد» و«اشكر» و«اذكر» بحسب الوضع العرفي مجرّد التلفّظ بما يدلّ على وقوع معنى حدثي[١]، بل المراد ايقاع معانيها وإدخالها في الوجود بوجه يتأتى من المخاطب المأمور. وكذلك ليس المطلوب في لفظ «سبّح» هيهنا مجرّد قولك «سبحان ربّي الأعلى» ولا في آخر الواقعة مجرّد قولك «سبحان ربّي العظيم» فقط ـ نظراً إلى ظاهر ما روي في الحديث: إنّه لّما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [٥٦/٧٤] قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إجعلوها في ركوعكم، فلمّا نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم[٢]. وكانوا يقولون في الركوع «اللهم لك ركعت» وفي السجود: «اللهمّ لك سجدت» ـ.

بل المقصود الأصلي منه تحصيل العلم والمعرفة بتنزيهه تعالى عمّا لا يصحّ فيه من النقائص الإمكانيّة، وتقديسه عمّا لا يجوز له من المثالب الجسمانيّة،

---

(١) معناه الحدثي ـ نسخة.

(٢) الوسائل: ابواب الركوع الباب ٢١، ج ٤ ص ٩٤

وكل ما يوجب ثلمًا لوحدانيّته الحقّة ويلزم نقصا[٣] على وجوب وجوده ـ من التكثّر والتغيّر والتجسّم والتصرّم وساير مذاهب الجاهليّة في ذاته أو في صفاته والالحاد في عظمـة أسـمائه وحيثيّاته، كالجبر والتشبيه والسفه والتعطيل، الناشئة من قصور أو خلل أو فساد في البصيرة الباطنيّة ـ كحول الفلاسفة، وعور المعتزلة، وعمه الأشاعرة، وكمه الحنابلة، ونحو ذلك. مثل أن يفسّر «الأعلى» في هذه الآية بمعنى الإرتفـاع عن درجـةالإمكـان والعلّو عمّا يصـل إليه العقول والأذهان بقوّة الدليل والبرهان، لا بمعنى العلّو في المكان والإستواء على العرش حقيقة.

* * *

وهيهنا سرّ آخر وهو أنّ المراد بالتسبيح في عرف المتألهين كون المسبّح ذاتاً مجرّدة عن الموادّ وعوارضها، والأجسام وصوَرها، لأنّ مبدء كلّ صفة على وجه الكمال يجب أن يكون في مرتبة ذاته متحقّقاً بها على وجه آكد وأقوى

فمعنى قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: جرِّد ذاتك عن الدنيا وغواشيها حتّى تعرف تقدّس اسم الله عن النقائص الإمكانيّة، واجلِ مرآة قلبك عن مطالعة الكائنات حتّى يمكنك ملاحظة ذاته وصفاته وأفعاله من غير شوب تشبيه في ذاته وتعطيل في صفاته، وتغيير وتبديل في سنن أفعاله.

ويحتمل أن يكون المراد من ﴿اسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ المعلول الأوّل، وهو الملك المقـدّس الـروحاني، فإنّ اسم الحقّ ـ جلّ شأنه ـ ليس من جنس الأصـوات، وعـلامـة ذاتـه لا تكـون كعـلامة سائر الذوات من الهيئات والتشكيلات[٤] العارضة للهواء، الخارج من المخارج، بل علامة ذاته واسمه

---

(٣) نقصاً ـ نسخة.

(٤) التشكلات ـ نسخة.

المقدّس ما يناسب ويليق لحقيقة الحقّة الأحديّة.

والعبارة أيضا لا تساعد غير هذا، إذ الأمر بتسبيح الاسم - بمعنى الصوت - غير مناسب، لأنّه يسبَّح به، لا يسبّح له. بل المأمور به هو الاعتقاد بأنّ الفعل الربّاني والاسم الإلهي موجود روحانيّ مقدّس عن الأجسام والجسمانيّات، مجرد عن الأحياز والمكانيات.

وذلك لأنّ الصادر الأوّل عن الحقّ سبحانه يجب أن يكون أمراً واحداً بالفعل، مستقلا في الوجود والتأثير. وغير الجوهر العقلي لا يكون كذلك لانتفاء الوحدة من الجسم، والفعليّة من الهيولي، واستقلال الوجود من الصورة والعرض، والتأثير من النفس.

ويؤيّد ما ذكرناه قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَالِ وَٱلإِكْرَامِ﴾ [٧٨/٥٥] لأنّ وصف الشيء بذلك يدلّ على أنّه عاقل لذاته.

واعلم إنّ «اليمين» و «اليَد» و «الأمر» و«القلم» في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [٦٧/٣٩] وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [١٠/٤٨] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [٤٧/٥١] وقوله ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [٥٠/٥٤] وقوله: ﴿إِقْرَءْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [٣/٩٦] كلّها عبارات عن هذا الملك المقدّس الروحاني الذي هو يمين الله وواسطة فيضه وقلم كتابته الحقائق على ألواح النفوس، وحجاب ذاته وسرادق غيبه الذي ينتهي إليه سير السالكين إلى الله تعالى. فلهذا أمر سيّدهم وقائدهم بتسبيحه وتمجيده الدالين على علّو الحقّ ومجده.

* * *

فمن جملة الطرق الموصلة إلى معرفة علوّه ورفعته في كونه تعالى رفيعاً

في وجوده عن درجة الأجسام الاستدلال عليه بخلق الحيوان الذي هو أشرف ما في العناصر والأركان بنوعين من البيان حسب تركّب حقيقته من النفس والبدن.

أمّا الاستدلال على علوّ ذاته وسموّ صفاته عن درجة الأجرام بخلقة الحيوان، فهو الذي أشار تعالى إليه بقوله تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ فَسَوّىٰ﴾.

وذلك: أنّ بدن كلّ حيوان مقدّر بمقدار معيّن وكميّة خاصّة يتعيّن له ويختصّ به، لأجل صدور أفعاله المختصّة و حركاته وانفعالاته الناشئة عن قوّته التحريكيّة والإحساسيّة، فلا جرم قدّر الباري بعنايته المحكمة لكلّ حيوان مقداراً من التجسّم الصالح لصدور أفعاله وآثاره الحيوانيّة، وهذا التقدير هو الخلق، لأنّ الخلق في اللغة هو التقدير.

وأيضا كلّ بدن حيواني مركّب من عناصر وأجزاء بعضها حارّ خفيف وبعضها بارد ثقيل وبعضها رطب لقبول الهيئة والتشكّل وبعضها يابس لحفظ ما افيد من التقويم والتعديل، ويجب أن يكون لكلّ منها قدر معيّن ليقع بينها التصالح والتقاوم،حتّى يتولّد عن كيفيّاتها المتعادلةالمتفاوتة[٥] المزاج المخصوص، ولو زادت تلك الأجزاء أو نقصت كان الحادث غير مزاجه الخاصّ به، وهذا هو التسوية.

فعلم من ايجاده قدراً معيّناً من أقدار الجسم لائقاً بخلقة نوع من الحيوان، وقدراً معيّناً آخر منها لائقاً بخلقة نوع آخر منه تساوي نسبته إلى جميع الأجسام، وكلّ ما يكون كذلك لا يكون جسمًا ولا جسمانيّاً.

أمّا الأوّل فلظهور أنّه لو كان جسمًا لكان فرداً خاصّا منه له مقدار معيّن

(٥) المتفاوتة ـ نسخة.

ـ إذ العام لا وجود له في الخارج ـ وقد ثبت تساوي نسبته إلى سائر الأجسام فيلزم الترجيح من غير مرجّح، ولأنّه لو كان جسمًا لامتنع كونه موجداً لجسم، لامتناع تقدّم بعض أفراد طبيعة واحدة على بعض واولويّته منه ـ حسبما تقرّر في مقامه ـ.

وأمّا الثاني فلأنه لو كان أحدهما لزم إمّا اختصاصه بفرد من الجسم، أو افتقاره إليه ـ وقد نفيناه عنه.

وقد عُلم أيضا من التسوية تصرّفه في الأجسام كيف يشاء في التركيب والتفصيل، والنضج والتحليل[٦]، فلا يكون جسمًا ولا جسمانيّاً.

* * *

وأمّا الاستدلال على ذلك بنفس الحيوان فهو قوله: ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لأنّ معناه إنّه سبحانه قدّر لكلّ واحد من أعضاء الحيوان وأجزائه المخصوصة قوّة مختصّة بذلك العضو، مصدراً لأفاعيله، ومبدء لآثاره ومنافعه ومصالحه، مثل القوّة الباصرة للعين، والسامعة للاُذن، والهاضمة للمعدة، والنفسانيّة للدماغ، والحيوانيّة للقلب، والطبيعية للكبد، فقدّر لكلّ مزاج حيوانيّ نوعاً من القُوى، وجعل كلّ مركّب مزاجي آلة لقوة نفسانيّة أو طبيعيّة، وهداها إلى خصائص أفاعيلها وخصوصيّات ما ينفعل منها، وألهمها وأوحيها إلى ما ينتفع منها.

فانظر إلى النحل كيف أوحى الله تعالى إليها في وضع بيوتها على هيئة المسدّسات، وإلى العنكبوت كيف هداها إلى وضع المشبّكات لاقتناص ما يتقوّت به من الذباب والبعوضة.

---

(٦) والتنقيح والتحليل ـ نسخة.

ومّما يحكى فيها: إنّ الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عُميت، وقد ألهمها الله إن مسَح العين بورق الرازيانج الغضّ يُرد إليها بصرها، فربما كانت في برية بينهـا وبين الريف مسيرة أيّام، فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتّى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج ـ لا تخطئها ـ فتحكّ بها عينها وترجع باصرته بإذن الله تعالى.

وهـدايات الحقّ وإلهـامـاته للحيوانات ـ نواطقها وعجمها وطيورها وبهـائمها، وهوامها ـ إلى ما لا يحد من مصالحها ولا يعدّ من حوائجها في أغذيتها وأدويتها، وفي باب أُوليها وأُخريها ودنياها، باب واسع من معرفة الله تعالى لا يحيط به العقول والأوهام، بل إن لكل جسم طبيعيّ أو فلكيّ مبدء فاعليّاً وجوهـراً نفسانيّاً وصورة محرّكة طالبة لفعل خاصّ يكون بصدوره منها على كمالها الخاصّ بها محصّلة به، وكونها على أشرف حالها مهتدية[٧] به إلى ما يقرّبها إلى باريهـا وجاعلها، ومتشبّهة في إفاضة الخير والمنفعة على الغير بغايتها وفاعلها ـ جلّت عظمته وعظمت إلهيّته ـ.

فايجـاده بعلمـه وحكمته لكلّ جسم من الأجسام أمراً ملكوتيّا وقوة باطنيّة تكـون مقـوّم نوعه وحافظ كماله، خدمة لبارئها وطاعة لربّها وعبادة لمعبـودها، دليل واضح على علّو ذاته من المُلك والملكوت، وسمّو درجته عن الخلق والأمر، وبُعد سمكه عن عالَم السموات والأرضين، وارتفاع حضرته عن جملة الأجسام والجسمانيّين.

فسبحان ربّي الأعلى من العلّيين، وأعظم من عوالي القدّيسين[٨] والكرّوبين.

---

(٧) مبتدية ـ نسخة. (٨) القدوسين ـ نسخة.

التسبيح الثاني:

في الاستدلال على عنايته وحكمته وتنزيهه وتمجيده بوجود النبات وأحواله

وإنّما قدّم الإستدلال بأحوال الحيوان على أحوال النبات لأنّ الحيوان أشرف فكان اولى بالتقديم.

قوله تعالى

وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾
فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

الغُثاء: ـ بالضمّ ـ: الدّرْن اليبس الذي يحمله السيل.

والأحـوى: الأسود. فأحوى صفة لغثاء، أي: أخرج المرعى وأنبت العشب، فجعله بعـد طراوته وخُضرته هشيماً درينا أسود، ويحتمل أن يكون «أحوى» حالا من «المرعى» أي: أنبته أسود، لشدّة الخضرة والرعي[٢] فجعله غثاء بعد حوية.

* * *

ووجـه الاستدلال به نوعان: الأوّل: هو أنّ النبات جسم مؤلّف من عناصر متضادّة متداعية إلى الإنفكاك والإفتراق إلى أمكنتها الطبيعيّـة،

(٢) كذا ـ والظاهر ان الصحيح «الري» كما في الكشاف.

فلابدّ في اجتماعها في مكان واحد من قاهر مختار يجبرها على الإلتيام ويحفظها عن الافتراق، وليس هو نفسها النباتيّة،لأنّ حدوثها مسبوق بحدوث المزاج، المسبوق بحدوث الاستحالات النباتيّة في كيفيّاتها المتضادة، والحركات لا تقع إلاّ في زمان مسبوق بحالة اجتماعها ـ.

فلو كان الجابر لها على الالتيام والحافظ لها عن الافتراق هو النفس النباتي لزم تقدّم الشيء على نفسه بمراتب.

ولا نفس حيوانيّة لتقدّم النبات على الحيوان طبعاً، فلو كان نفسه سبباً لاجتماعها لزم الدور ـ وهو محال ـ.

فثبت أنّ الموجد لأجزاء النبات، والمتصرّف فيها بالجمع والحفظ عن الافتراق والانبثاث[٣] موجود مقدّس عن التركيب والامتزاج، مرتفع عن عالَم الأجسام والأحياز، وعن التخصّص بالأمكنة والجهات.

* * *

النوع الثاني في الاستدلال باختلاف أحوال النبات من ريعانه وطراوته أوّلا، ويبسه وفنائه أخيراً، فإنّ المحيل له من حال إلى حال والمتصرف فيه من جهة الحدوث والزوال؛موجود باق متعال عن التجدّد والانتقال، إذ لو جاز فيه التحوّل والتغيّر ـ وكلّ متحوّل لا بدّ فيه من محوّل يحوّله وهكذا ننقل الكلام من حال إلى حال ـ فلو لم تنته السلسلة إلى محوّل غير متحوّل وإلى مغيّر غير متغيّر[٤] يلزم الدور أو التسلسل ـ وكلاهما مستحيلان.

فثبت وجود موجود مقدّس عن التغيّر والزمان، ومتعال عن التجسّم والمكان، إذ الزمان والمكان متلازمان.

---

(٣) الانبثات ـ نسخة. (٤) كل متغير ـ نسخة.

فإن قال قائل: لِمَ لا يجوز أن يكون المؤثّر في خلْق الحيوان وتوليد النبات شيء من طبائع الأفلاك والكواكب بحسب الأوضاع والأنوار، لا الفاعل المختار؟

قلنا: هذا مستحيل عند العقل، لأنّ المني الذي يتولّد منه الحيوان والبذر الذي يتكون منه النبات جسم متشابه في نفسه وبحسب وضعه عند الفلك وقبوله لنور الكواكب، لكونه مع سائر أجزاء الأرض والمركّبات التي فيها وعليها كنقطة واحدة بالقياس إلى الجرم الأثيري البسيط المتشابه طبعاً وتأثيراً. فالجسم البسيط المتشابه إذا أثر في جسم متشابه الذات متشابه النسبة الوضعيّة والاستعداديّة تأثيراً متشابهاً فيستحيل أن يتولّد ويتكون منه أحوال مختلفة وأعضاء متباينة في الصورة والكيفيّة.

ألا ترى إذا وضع أحد شمعاً مضيئاً، وكان ما يستضاء منه[٥] خمسة أذرع من جانب، وجب أن يضيء بهذا المقدار من سائر الجوانب؟ وأمّا أن يضيء من أحد الجوانب خمسة أذرع ولا يضيء من الجانب الآخر إلا نصف ذراع ـ من غير حاجز ولا مانع ولا اختلاف في الجسم الذي حوله بالشفيف وعدمه واللطافة والكثافة ـ فهو غير معقول.

* * *

فثبت إنّ مؤثّرات الطبائع الجسمانيّة يجب أن تكون تأثيراتها متشابهة، فلمّا رأينا أن تولّدت من بعض أجزاء النطفة العظام، ومن بعض أجزائها أعصاب وعضلات وعروق ورباطات، ورأينا أن تكوّنت من بعض أجزاء

(٥) وكان مايضيء ـ نسخة.

البـذر الأوراق، ومن بعضها الأغصان والعيدان[٦] والقشور والثمار؛ علمنا وتيقّنّا إنّ التأثير فيها ليس تأثير مؤثّر يفعل بالطبع والايجاب والإجبار، بل تأثير مؤثّر قادر يفعل بالعلم والاختيار، وحكيم يؤثّر بالجهات والحيثيّات حسبما اقتضاه علمه بوجوه المنافع والخيرات، وأفاد حكمته الداعية إلى إخراج ما في عنايته وقضائه من المكنونات الى القدَر بحسب مصالح الممكنات في المواد والأوقات. فسبحان العليم القدير الذي حكمته أفادت هذه المكونات، وقدرته أوجـدت هذه المركّبات،ليعلم المتوقّد الزكي إنّه مقدّس عن عالَم الأجسام والجسمانيّات، متعالى المنزلة عن الأمكنة والمكانيّات.

---

(٦) العود كل خشبة دقت. وقيل خشبة كل شجرة دق او غلظ. وقيل هو ما جرى فيه الماء من الشجر. وهو يكون للرطب واليابس. والجمع أعواد وعيدان (لسان العرب ـ عود).

التسبيح الثالث:

في الاستدلال على تمجّد ذاته وتنزّه صفاته. عن النقائص الإمكانيّة،فضلا عن المثالب الجسمانيّة من جهة تقرير النبوات.

قوله تعالى

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾

أعلم إنّ هذا المطلوب يتوقف على معرفة مقاصد ثلاثة : الأوّل صفة النبي صلّى الله عليه وآله في ذاته وصفاته وجوهره. والثاني كيفيّة تكميل الناقصين منه. والثالث اختلاف الناس في قبول هذا الكمال منه.

أمّا الأول: فاعلم إنّ النبي ـ من حيث هو نبيّ ـ إنّما يتحقّق نبوّته بكمال وشرف يتعلّق بنفسه وروحه، لا بقوّة وحشمة تتعلّق ببدنه وجسمه. وكمال النفس يكون بوجهين: أحدهما توجّهه إلى الحقّ،وهو الذي يعبّر عنه بالقوّة النظريّة، وهو مايكون كمالا لها بحسب هويتّها وذاتها وعند رجوعها إلى باريها وعودها إلى عالمها ونشأتها. الثاني توجّهه إلى الخلق الذي يعبّر عنه بالقوّة العملية، وهو ما يكون كمالاً لها بحسب نسبتها إلى أمور خارجة عنها

بتأثيرها فيها وعدم انفعالها عمّا دونها وبتكميلها وإمدادها ونفعها فيما سواها، وعدم قبول النقص والآفة والشرّ من أضدادها وأعدائها

فنفس النبيّ لكونه متوسّطاً بين الحقّ والخلق لابدّ وأن تكون كاملة في هاتين القوّتين جميعاً، وإن كان الكمال الحقيقي والقرب من الحقّ[1] يمكن أن يتحقّق بمجرّد استكمال القوّة العقليّة مع التوسط في العمليّة كبعض أولياء الله المقرّبين.

وأمّا الكاملين في العمل ـ دون العلم ـ فهم ليسوا من الكاملين في الحقيقة، بل لهم نوع نجات وصلاح حال في الآخرة،وليس لهم رتبة النبوّة والخلافة عندنا ـ خلافاً لجماعة من المتكلّمين،حيث لم يشترطوا إلّا العلم بما يتعلّق بالأحكام والسياسة الجمعيّة والحكومات الفصليّة في الخصومات وسائر ما يتعلّق بحفظ الحيوة الدنياويّة ـ.

وذلك لذهولهم عن أنّ الغرض الأصلي من بعثة الأنبياء وإنزال الكتب السماويّة والصحف الملكوتيّة سياقة الخلق إلى جوار رحمة الله وجوده[2]، بتعليمهم[3] طريق المعرفة،لتتنوّر ذواتهم وتصير مناسبة للعالم الآخرة ومجاورة الباري، لا مجرّد حفظ حيوتهم الدنياويّة مدّة، بل الدنيا مزرعة الآخرة، والغرض من تعيش الإنسان مدّة أمهله الله تعالى فيها هو تحصيله زاداً للآخرة[4] بالعلم بحقائق الأمور بشرط قطع علائقه وعوائقه من عالم الغرور بالتقوى.

فبالتقوى يحصل الخلاص والنجاة، وبالعلم يحصل القرب والمنزلة عند الله، والمتوسّط بينه وبيننا لابدّ وأن يكون كاملا في العلوم الحقيقيّة بإلهام الحقّ

(١) الله ـ نسخة. (٢) وفوزهم ـ نسخة. (٣) بتعلمهم ـ نسخة. (٤) زاد الاخرة ـ نسخة.

تعالى بوساطة بعض ملائكة العقليّة لا بالتعلّم، وإلاّ لم يكن متوسّطاً بين الحقّ والخلق، بل بين الخلق والخلق، فلم يكن ما فرضناه نبيّاً نبيّاً - هذا خلف ـ.

ولا بدّ أن يكون كاملا فيما يتعلّق بالأحكام والسياسات الدينيّة، مؤيّداً بالمعجزات الظاهرة، ليكون دعوته للخلق مسموعاً لهم خوفاً من سطوته وسياسته. وإلاّ فالجحود والإنكار والإستنكار عن سماع الحقّ والاشتغال بطلب الشهوات غالب على أكثر الخلق، فلا يمكن ايصال المعاني اللطيفة إلى قلوبهم إلا بعد أن تلين قلوبهم ويسكن إنكارهم ويزول استكبارهم.

فثبت إنّ النبي لابدّ وأن يكون كاملا في القوّتين، العقل والعمل، قويّاً في النشأتين؛ الأخذ من الحقّ والتبليغ إلى الخلق.

ولّما ثبت بالبرهان أنّ القوّة العاقلة وكمالها أشرف من القوّة العاملة وكمالها لا جرم وجب تقديم العاقلة من جهة شرفها في الذكر على العاملة وإليه وقعت الإشارة بقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ والمعنى إنّه سبحانه بشّره بإعطاء قوّة ملكوتيّة ونور عقلانيّ يتقوّى بها جوهر روحه ويكمل بحيث يصير نفساً قدسيّة ونوراً شعشعانيّاً مشرقاً بالعلوم الحقيقيّة والمعارف الإلهيّة، ويصير بحيث إذا عرف شيئاً لاينساه،ويكاد زيت نفسه الناطقة يضيء بنور عقله المستفاد من الجوهر المفارق العقلاني الذي هو نار معنويّة من نور الله، ولو لم تمسسه نار التعليم البشري.

***

وهذا هو الذي فهمناه، من قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ لما روي إنّه صلّى الله عليه وآله كان يعجل بالقرائة إذا لقنه جبرئيل عليه السلام، فقيل له: لا تعجل، فإنّ جبرئيل مأمور بأن يقرء عليك قرائة مكرّرة، إلى أن

تحفظه ثمّ لا تنساه[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل: الغرض منه نفي النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه: أنت سهمي فيما أملك إلاّ فيما شاء الله.ولا يقصد إستثناء شيء. وهو من استعمال القلّة مكان النفي.

وقيل: قوله: ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ على النهي، والألف مزيدة للفاصلة يعني فلا تغفل قرائته وتكريره فتنساه إلاما شاءالله أن ينسيكه بنسخه، من رفع حكمه وتلاوته. وعلى هذا فالإنساء نوع من النسخ.

وقيل: إن جوهر النفس الإنسانيّة مادامت في هذه النشأة الظلمانيّة الهيولانيّة لا تصير عقلا صرفاً لا يكون فيه ما بالقوّة، فلا جرم قد يلحقها فتور في قدرتها وضعف في حفظها وإمساكها للمعقولات.

وأقول: يمكن أن يقال: إنّ المعقولات التي هي بمنزلة الدعائم والأُصول في المعارف الإلهيّة كانت بحيث لا يتطرق إليها الغفلة والنسيان عنها في نفس النبي صلّى الله عليه وآله،وهي التي لم يجز النسخ في حكمها ولا الخلاف بين ملل الأنبياء عليهم السلام بحسبها. وأمّامالم تكن[٦] بهذه المثابة فهي المعقولات التي بمنزلة الفروع والفضول، فيجوز فيها الإهمال والنسيان والاختلاف في ثبتها ونسخها بحسب اختلاف الأزمنة وأحوال الأُمم.

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ فهو إشارة إلى إثبات العلم له تعالى والتخلص [٧] عن ذميمة الجهل والنقص.

وبيانه: إنّه لّما وعد نبيّه صلّى الله عليه وآله أن يجعل جوهر نفسه

---

(٥) الكشاف: ٣٣١/٣. وجاء ما يقرب منه في مجمع البيان: ٤٧٥/١٠ والدر المنثور: ٣٣٩/٦.

(٦) واما التي ـ نسخة.

(٧) والتجرد ـ نسخة.

الشريف عالما بحقائق المعلومات، متّصفاً بالعلوم الحقة المطابقة لما هي عليها في الواقع، محيطاً بها؛ وقد حقّق في الصنايع الكلّية والمقامات العقليّة أنّ المؤثّر في كلّ كمال وجمال للموجود بما هو موجود لابدّ وأن يكون كماله وجماله أقوى وأجلّ ممّا في الأثر، والعلم لا شبهة في كونه كمالا للموجود من غير أن يلزم فيه تجسمّ[٨] أو تركّب، فإذا وجد وتحقّق في الخلق فلا بدّ وأن يتحقّق في الخالق بوجه أعلى وأشرف .

فلولا كون الباري سبحانه عالِماً بالمعلومات كلّها لما قدر على جعل روح النبي صلّى الله عليه وآله مبرءاً عن السهو والنسيان، مقدّساً عن الجهل والنقصان.

وقد ثبت في العلوم الحقيقيّة أنّ كلّ من كمل في العلم الحقيقي لا بدّ وأن يكون كاملا في جميع الصفات الكماليّة للموجود بما هو موجود،مبرّءاً عن جميع النقائص التي بإزائها، فيعلم من هذا أنّ الباري منزّه عن جميع النقائص ـ فسبحان من تقدّست كبرياؤه وتعظّمت آلاؤه ـ.

وفي الكشّاف[٩]: «يعني إنّك تجهر بالقرانة مع قرائة جبرئيل عليه السلام مخافة التفلّت،والله يعلم جهرك معه وما في نفسك ممّا يدعوك إلى الجهر، فلا تفعل فأنا أكفيك ما تخافه. أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم،وما ظهر وما بطن من أحوالكم وما هو مصلحة لكم في دينكم ومفسدة، فينسى من الوحي ما يشاء، ويترك محفوظاً ما يشاء».

وأقول: كلا الوجهين لا يخلو عن بُعد، والأولى المصير إلى ما ذكرناه.

---

(٨) منه تغير ـ نسخة.

(٩) الكشاف: في تفسير الآية.

وأمّـا الإشارة إلى تكميل نفس النبي صلّى الله عليه وآله في القوّة العمليّة وبحسب نسبته إلى الخلق فهو المراد في قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ لانّ معناه ونوفّقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، ووجه ذلك أنّ الناس كلّهم مشتركون في أصل القدرة على الفعل الحسَن والفعل القبيح، والعفّة والفجـور، والورع والفسوق إلاّ أنّ من الإنسان من يكون وجه تحصيل الملكات الفاضلة عليه أسهل، وطبعه عن الصفات الرذيلة أميل ونفسه على سلوك طريق الخير والسعادة أقدَر، والاجتناب عن طريق الشرّ والشقاوة عليه أيسر،لكونه شريف النفس نجيب الطبع.

وهـذه السهولة في الطبع عبارة عن الصفه المسمّاة بالخُلق، فمن كان سعيداً، لطيف الذات، شريف النفس، طاهراً زكيّا نقيّاً؛ كانت نفسه سهل القبول للسعادات، يسير التفهّم لوجوه الخير في الأعمال والأفعال، سريع الانقياد لطاعـة الحقّ، شديد الأنفصـال عن المبـدء الفعّال، قويّ الاتّصال بالواهب الفيّاض المتعال، فلا محالة يكون بما استفاض وتعلّم من الجنبة العالية من الخـيرات والعلوم والكـمالات مفيضاً على بني نوعه،ومعلّما لقومه وهادياً ومرشداً لمن دونه من أُمّته، فقوله تعالى﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إشارة إلى هذه الـدرجة، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٦٨/٤] إشعار باستحقاق نبيّنا بحسب خاصيّة ذاته وقوّة نفسه وصفاء فطرته وتنوّر عقله مرتبة النبوّة والرسالة.

فقـد وقعت الإشارة إلى اتّصاف النبيّ صلّى الله عليه وآله بمجموع الكمالين الذين لا بدّ للنبيّ من حيث هو نبيٌّ أن يجتمعا فيه،وأُشير أوّلا إلى كمال القـوّة النظريّة التي بحسب حاقّ جوهر نفسه، ثمّ إلى كمال القوّة العمليّة

بحسب نسبته إلى غيره وتدبيره لما دونه، فقوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معطوف على قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ إعتراض.

وقيل: المراد من اليسرى: الشريعة السمحة التي هي أيسر الشرايع وأسهلها مأخذا. وقيل: نوفّقك لعمل الجنّة. وهذين الوجهين مرجعهما إلى ما ذكرناه فتأمّل فيه ـ.

* * *

وأمّا المقصد الثاني من النبوّة فهو الاشتغال بدعوة الخلق إلى طريق الحق. وسياقهم إلى جوار الله وعالَم الملكوت.

وقد أشرنا إلى أنّ من كان كاملا في مجموع القوّة النظريّة والقوّة العملية في الغاية، بحيث يقدر على تكميل غيره فهو النبي، وإن لم يكن كاملاً في المجموع بل في النظريّة فقط، مستغرقاً في شهود جمال الحقّ وجلاله بحيث لا يسعه الاشتغال عنه إلى ذاته المستنيرة بنور الله ـ فضلا عمّا هو خارج عنه وعن مولاه ـ فهو الوليّ الكامل والفاني المضمحل.

ومقام النبي صلّى الله عليه وآله أعلى من مقام الوليّ المحض مجرّداً عن الرسالة، لأنّ الكمال المطلق إنما يتحقّق بأن يكون الشيء تامّاً وفوق التمام، وضيق الصدر عن أحد الجانبين ـ وهو جانب الخلق مع سعته لجانب الحقّ ـ نوع قصور، والكامل المطلق من كان جالساً في الحدّ المشترك بين عالَم الأمر وعالَم الخلق، واسعاً صدره الخلق والحقّ، ويكون تارة مع الله بالعبوديّة والحبّ له، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة عليهم، فإذا رجع من ربّه إلى الخلق صار كواحد منهم كأنّه لا يعرف الحق، وإذا خلا بربّه مشتغلا بذكره وخدمته فكأنّه

لا يعرف الخلق. فهذا سبيل المرسلين والصديقين.

فلمّا حصل تمام نفس النبيّ بحسب كمال الجانبين وتمام القوّتين ـ العمليّة والعلميّة ـ وجب أن يصير فوق التمام بإفاضة الكمالات على الناقصين، وإشراق الأنوار على وجوه المستعدّين، وذلك هو دعوة العباد إلى طاعة المبدء والمعاد، وسياقتهم[(١٠)] إلى سبيل النجاة من آفة النقص، والوصول إلى منبع الحيوة ـ وهي المسمّاة بالرسالة ـ وملاكها التذكير والتعليم المشار إليه بقوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ ـ وهو أمر، فالنبي صلّى الله عليه وآله مأمورٌ من الله تعالى بفعل الرسالة، اي تكميل الناقصين على قدر استعدادهم، وتعليمهم على قدر قوّتهم وطاقتهم لدرك العلوم الحقيقيّة.

وأكثر الخلق لا يدرك الحقائق الكليّة وأُصول الموجودات إلّا على سبيل التمثيل والتشبيه، والأنبياء مأمورون بدعوة الخلق والتكلّم معهم على مبلغ[(١١)] عقولهم، لقوله: «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلّم الناس على قدْر عقولهم»[(١٢)].

وعقول أكثر الناس بمنزلة الخيال والوهم، ولذلك كان تعليمهم الحقائق الايمانيّة على رتبة التمثيلات التي تناسب طبائعهم الغليظة ـ خصوصا الأعراب والبدويّين ـ وربما بلغ بعضهم في الغباوة والبلادة حيث لا ينجع لهم نصح ،ولا ينفع فيهم وعظ، وخوطب النبيّ صلّى الله عليه وآله لأجلهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [٢٨/٥٦] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [٢٧/٨٠].

فقوله سبحانه: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ وإن كان بحسب الظاهر شرطاً

(١٠) سياقتهم ـ نسخة. (١١) قدر ـ نسخة. (١٢) الكافي: كتاب العقل والجهل، ج١ ص ٢٣.

للتذكير لكن ليس الغرض منه أنّ تذكيره صلّى الله عليه وآله إيّاهم مشترط بالنفع، بل الرسول مأمورٌ بالوعظ والتذكير مطلقاً ـ سواء نفع أو لم ينفع ـ كما أنّ الشمس من شأنها الإضائة والتنوير، سواء قبلت الأجسام التي تحاذيها أم لم يقبل.

فنفس النبي صلّى الله عليه وآله في إفاضة الأنوار العلميّة على النفوس بمنزلة الشمس في إفاضته الأنوار الحسيّة على الأجسام المختلفة الاستعداد لقبول النور، ونفوس الناس بعضها بمنزلة القمر، وبعضها بمنزلة الأجسام المستنيرة كالمرائي الصقيلة، وبعضها بمنزلة الأجسام المظلمة الكدرة، بل الغرض منه الإشعار بغباوة بعض النفوس وتعصّيهم عن إدراك الحقائق والإخبار عن غلظة طبائعهم وجمود قرايحهم، والاستبعاد لتأثير الذكرى فيهم، والتسجيل على قلوبهم بالطبع والرين، كما تقول للواعظ: «عِظ فلانا إن سمع منك الوعظ وقبِل النصيحة». قاصداً بهذا الشرط مجرّد الاستبعاد لذلك وأنّه لن يتحقّق، لا غيره.

* * *

فظهر من هذه المباحث إنّ الله تعالى كما يعلم الكليّات والعقليّات يعلم الجزئيّات والحسيّات. وكما يعلم الجهريّات النوريّة العقليّة يعلم الخفيّات الظلمانيّة الحسيّة. وكما أنّه واقف بأسرار القلوب ومطّلع على ضمائر العقول كذلك بصيرٌ بأعمال العباد، سميع بأقوال خلقه في البلاد.

فسبحان الذي لايجري شيء في ملكه وملكوته إلّا بقضائه وقدَره، وسبحان من تقدّستْ ذاته عن أن يغفل عن ما يفعل عباده من خيره وشرّه ونفعه وضرّه.

التسبيح الرابع

في الإشارة إلى اختلاف نفوس الخلق في
السعادة والشقاوة بحسب الكمال العلمي وعدمه
ليستنبط به العارف الذكي علمه تعالى وقدرته.

أمّا علمه فمن جهة ايجاده العلماء[1] المتذكّرين، وأمّا قدرته فمن جهة خلْقه الجُهّال[2] والأشقياء المتجبّرين.

قوله تعالى

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾
وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾
ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

وبيان ذلك:إنّ الخلق في كيفيّة قبول دعوة النبوّة وتبليغ الرسالة وإخراجهم بتعليم الهداية عن ورطة الضلالة ينقسمون إلى قسمين:

منهم من ينتفع بتعليم الأنبياء ويتذكّر بتذكير المرسلين لأجل رقّة قلبه ولين طبعه وخوفه وخشيته عن سوء العاقبة.

ومنهم من لا ينتفع ولا يتذكّر، وذلك لغلظة قلبه وجمود طبعه وغفلته عن

---

(١) للعلماء ـ نسخة.

(٢) للجهال ـ نسخة.

عواقب الأمور ونسيانه أمر الآخرة وأمر النفس وكيفيّة عوده إلى النشأة الثانية.

فالقسم الأوّل هو المشار إليه بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ فإنّ الخشية والتذكّر متلازمان، كلّ منهما يوجب الآخر. فإنّ من سمع دعوة الأنبياء ثمّ خطر بباله أنّ هذه الدنيا واهية فانية داثرة فاسدة على كلّ حال: فلو لم يشتغل بعمارة النشأة الآخرة فربما وقع في الهلاك السرمدي، فقد حصل له الخوف. فإذا حصلت له هذه الخشية تحمله على النظر في دعوة الأنبياء والتأمّل في أمور الآخرة ومراتب سعادة النفس وشقاوتها ومابه نجاتها أو هلاكها، وهذا التذكّر وهذا التذكير يبعثه على الإجتناب عن المعاصي والرذائل،والاكتساب للطاعات والفضائل خوفاً من الهلاك والعذاب وطمعاً للنجاة والراحة، فهو الذي ينتفع بدعوة الأنبياء.

وأمّا القسم الثاني الذين لاينتفعون بدعوتهم ولا يحملهم الخشية على تحصيل الدرجات وطلب التخلّص عن العقوبات، فإليهم الإشاره بقوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَىٰ * ٱلَّذِي يَصْلَىٰ ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وذلك لأنّ من أعرض عن ذكر الآخرة لأجل تسلّط الشهوات الدنياويّة على قلبه واستيلاء الحرص في طلب المآرب الحيوانيّة من المال والجاه والنساء والبنين وغيرها على طبعه ، لا يكون بصدد استكمال النفس بالعلم والعمل ولا يشتغل بفعل الطاعات وترك المعاصي والشهوات فيتوغّل في الدنيا الدنيّة ويخلد إلى الأرض ويستحكم علاقته مع البدن والشهوات ويقوي محبّته لها.

وكلّ من اشتدّت محبّته وعلاقته لشيء فإن زال اشتدّت محنته ومصيبته عند مفارقته ومزايلته عنه، فإذا مات الإنسان الذي تأكّدت علاقته الشوقيّة

مع الدنيا ولذّاتها، فقد فارق ما كان محبوباً وذهب إلى موضع ليس له به معرفة ولا له بأهل الآخرة أنس ومعارفة، فبالضرورة كان له أذى عظيم أعظم من احتراق هذه النار الدنياويّة التي هي النار العنصري[٣]. كل ذلك لأجل إعراضه عن الذكر في أمر آخرته عند رجوعه إلى بارئه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [٢٠/١٢٤].

* * *

وقد ظهر بالمشاهدة الروحانيّة ـ للأنبياء ومن تبعهم حقّ المتابعة ـ ظهوراً أوضح من المعاينة الحسيّة إنّ أصناف الآلام الأُخرويّة المتعاقبة[٤] على روح من آثر الحيوة الدنيا ثلاثة كلّها روحانيّة، واقعة قبل مقاساة عذاب النار الجسمانيّة، التي تكون في آخر الأمر وهي حرقة المشتهيات، وخزي خجلة المفضّحات، وحسرة فوت المحبوبات.

وبيان كلّ منها يحتاج إلى بسط في الكلام لا يسعه هذا المقام.

ـ وبالجملة ـ العذاب والألم ليس منحصراً في الإحراق بالنار والتجميد بالزمهرير، الذين مرجع التألّم فيهما إلى تفرّق الاتّصال في جوهر مباين لجوهر الروح، التي لها نوع تعلّق جسمي وارتباط شوقيّ به وبأحواله بسبب ذلك يتألّم بفقد حالة من حالاته، وبالحقيقة منشأ هذا التألّم الحاصل من النار الجسمانيّة ـ الذى يكون أشدّ مراتب الآلام الحسيّة ـ هو المحبّة والإلف بالبدن، وهو جسم، والأجسام خارج عن حقيقة الروح.

فإذا كان هذا حال الروح لأجل فقد الإتّصال أو الامتزاج بين أجزاء هذا المحبوب المباين عن ذات الروح، فيكف يكون حالها عند وجدان الخلل

---

(٣) الصغرى ـ نسخة. (٤) المعاقبة ـ نسخة.

والقصور والافتراق[٥] في جوهر ذاتها عند فقد آلات الوصول إلى مشتهياتها ومحبوباتها كلّها كما في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [٥٤/٣٤].

* *

فهذه هي نار الله المعنويّة ﴿الموقدَةِ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلأفئِدَةِ﴾ التي نسبة ايلامها إلى ايلام هذه النار الجسمانيّة نسبة الروح إلى البدن في الوجود والإدراك وسائر الأشياء التي يتّصف بها الروح بالإصالة والذات والبدن بالتبعيّة والعرض، فقوله سبحانه: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى النار المعنويّة التي ملاكها عدم الايمان مع الجحود والجهل المضادّ للعلم بالمعارف الحقّة الإلهيّة التي بها قوام الروح الإنسانيّة ووجودها الإستقلالي[٦] ـ كما برهن عليه في مقامه ـ مع اكتساب الرذائل في ايثار الدنيا على الآخرة.

وهي غير النار الجسمانيّة الصغرى التي ينضمّ ايلامها إلى ايلام الكبرى. فإنّ ألم الكبرى يتعلّق بالروح لأجل ترك التذكّر لمعرفة الله بالجهل المركّب والرذائل النفسانيّة،وألم الصغرى يتعلّق بالجسم لأجل المعاصي البدنيّة والمظالم الحسيّة التي يشهد بها الجوارح والأعضاء.

ويؤيّد ذلك ما قيل: الكبرى نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا.

* *

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ يرجّح ما ذكرناه وأشرنا إليه، وبيانه بوجه إجمالي أنّ الحيوة الأُخرويّة وما به قوام الروح في

---

(٥) والافة ـ نسخة.

(٦) بالاستقلال ـ نسخة.

النشأة الآخرة إنّما تكون بالمعرفة بأحوال المبدء والمعاد وكيفيّة إنزال الكتب وإرسال الرسل والإعتقاد بحقيقة[٧] ما جاء به النبي صلّى الله عليه وآله، كما يدلّ عليه النصوص الشرعيّة والأحكام العقليّة، وقد بسطنا القول فيه في بعض كتبنا الحكميّة الإلهيّة.

وهذه الحيوة الحاصلة للروح لأجل المعارف حيوة روحانيّة وما به يزول هذه الحيوة عنها ـ وهي الجهل المضادّ لها ـ هي نار معنويّة لا محالة: فأقلّ مراتب الحيوة المستقرّة للروح الإنسانيّة عند الآخرة إنّما يحصل بتحصيل هذه المعارف الايمانيّة على وجه يطمئنّ به القلب وإن لم يبلغ إلى درجة البرهان القطعي ولم يتجاوز عن الظنّ الغالب ـ كما في أكثر عوام أهل الإسلام ـ بشرط السلامة عن الهيآت الخبيثة الشديدة والرذائل الراسخة في القلوب وذلك أقلّ مراتب النجاة.

ثمّ كلّما ازداد يقيناً وانكشافاً ازداد ت حيوته قوّة واستقراراً حتّى يلتذّ بلذّات النعيم الأخرويّ على وجه الكمال،كإنسان تامّ الأعضاء،صحيح المزاج قويّ القوى الإدراكيّة.

وأمّـا فاقد أصل الايمان أو العلم[٨] راسا،فهو بمنزلة إنسان مقطوع الأعضاء والأطراف الذي لا استقرار لحيوته الجسمانيّة. فكما أنّ من هذا حاله في الدنيا يقال: «إنّه متوسّط بين الحيوة والموت في الدنيا» فكذلك حال الروح التي ليس لها معرفة حقيقيّة ولا اعتقاد حقّ؛ حالها في الآخرة إنّها: ﴿لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيىٰ﴾.

* * *

(٧) الظاهر ان الصحيح: بحقية. (٨) العمل ـ نسخة.

فقد ظهر أنّ الله تعالى لسابق قضائه الأزلي نظّم ترتيب العالم الاُخرويّ على وفق نظامه للعالم الدنيوي، فكما أنّ بعض الناس بحسب الحالة الدنياويّة سعيد وبعضهم شقيّ، فهكذا في الآخرة بعضهم سُعداء أخيار وبعضهم أشقياء أشرار. كلّ ذلك يدلّ على علمه بوجه النظام الأوفق وقدرته على ايجاد كلّ مرتبة من الوجود واعطائه لكلّ شخص ما هو له أليق.

وكما أنّ السعادة قسمان: دنيويّة وأُخرويّة. والدنيويّة قسمان: داخليّة ـ كالصحّة والسلامة ـ وخارجيّة ـ كترتّب أسباب المعاش وحصول ما يحتاج إليه من المال والجاه ـ.

والاُخرويّة أيضا قسمان: علميّة ـ كالمعارف والحقائق ـ وعمليّة ـ كالطاعات والخيرات ـ.

فكذلك يتعدّد أقسام الشقاوة بإزائها، لكنّ السعادة والشقاوة بحسب العلم والجهل ذاتيّتان أزلا وأبدا، مخلّدتان دائمًا وسرمداً: وأمّا بحسب الأعمال الحسنة والسيّئة فيترتّب عليها المجازاة والمكافات، ويتقدر بحسبها المثوبات والعقوبات، كقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٨٢/٩] فلا يكون أصحاب هذه الشقاوة مخلّدة إلاّ ما شاء الله، ويتركّب بعضها مع بعض ويتفرّد، إلاّ أن أكثر السيّئات وأكبرها يتبع الجهل المركب، وأغلب الحسنات وأعظمها يتبع العلم.

ولهذا قد وقعت أوّلا الإشارة إلى قسمة الخلق بالسعادة والشقاوة اللتين بحسب العلم والجهل ـ المعبّر عنهما بالتذّكر والتجنّب ـ إلى من يخشى بسبب تذكّره الاُمور الآخرة، وإلى من لا يخشى بجهله وغفلته عنها، وبيّنت وخامة عاقبة الموصوف بشقاوة الجهل بأشدّ وجه حيث عبّر عنه بصيغة التفضيل،

المشعر بأنّ شقاوة الجهل أعظم من شقاوة المعاصي البدنيّة، وأوعَد عليه بصُليّ النار الكبرى المعنويّة التي ايلامها أشدّ مراتب الايلام.

ثمّ أخبر بأنّه لا رتبة له في الوجود لكونه كسائر الأشياء الضعيفة القوام والوجود ـ كالهيولي والزمان والحركة التي لا قوام لها في أنفسها إلّا بأمر خارج عن ذاتها كالمحلّ وغيره ـ وذلك لأن قوام الدار الآخرة بالمعارف، فمن لا معرفة له لاحيوة له ولا موت أيضا، لأنّ الروح الإنسانيّة الناطقة لا تفسد بالكلّية ـ كما برهن عليه ـ فلها عند قصورها عن درجة التمام حالة متوسطّة بين الحيوة المستقرّة والوجود الاستقلالي، وبين الموت والعدم المحض.

وأهمل بيان عاقبة[٩] الموصوف بسعادة العلم لعدم إمكان تفهمّ الناس كيفيّة ما وعد للعرفاء الإلهيّين ـ وأعدّ لهم ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر ـ فبعد ذلك وقعت الإشارة منه إلى قسمة الناس بالسعادة والشقاوة بحسب العمل، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى.

(٩) عافية ـ نسخة.

التسبيح الخامس

في الإشارة إلى اختلاف الخلق بحسب
السعادة والشقاوة العمليتين في الآخرة.

قوله تعالى:

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾
بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾

تزكّي أي: تطهّر من الشرك والمعاصي، والمراد تنقية القلب والباطن عن الرذائل لا ستعداد الصلوة العقليّة واستفاضة المعارف الحقيقيّة بالتكلّم الحقيقي مع الله، فإن «الصلوة معراج المؤمن» و «المصلّي مناج ربّه» أو تطهّر للصلو ة، وهذا بحسب تنظيف الثوب وتهذيب البدن عن الأخباث والأحداث لاستعداد الصلوة الجسمانيّة التي هي رياضة جسدانيّة للمؤمن بحسب حيوته الحيوانيّة.

ونسبة الصلوة المعنويّة إلى هذه الصلوة الظاهريّة نسبة الروح إلى البدن، حيث يحتاج كلّ منهما إلى الآخر ما دامت الحيوة الدنيا باقية، وأمّا عند الآخرة فلا ينقطع عن العارف تلك الصلوة الروحانيّة أبداً.

وقيل: معنى: «تَزكّى» تكثّر في التقوى، لأنّه من الزكاء، وهو النماء. أو «تفعّل» من الزكاة كتصدّق من الصدقة.

فَصَلَّىٰ ـ أي: فصلّي الصلوات الخمس وغيرها، كمثل قوله: ﴿أَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [٢/١٧٧].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: أي: «أعطى زكوة الفطر، فتوجّه إلى المصلّي، فصلّى صلوة العيد. وذكر اسم ربّه فكبّر تكبيرة الافتتاح»[١].

وبه يحتجّ على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنّها مغايرة للصلوة لأنّها معطوفة عليها[٢]، وعلى أنّ الافتتاح جايز بكلّ اسم من أسماء الله تعالى.

وعن ابن عبّاس: ذكر معاده وموقفه بين يدي ربّه فصلّى له.

* * *

والوجه العرفاني في هذه الآية أنّ الصلوة الجسمانيّة وإن كانت عبادة بدنيّة، لكن صحّته موقوفة على معرفة المعبود وتذكّره بأسمائه وصفاته التي تليق به، بل الأعمال كلّها لايتمّ شرعيّتها وصحّتها إلاّ بنيّة التقرّب إليه[٣] والطاعة لأمره ونهيه، وخصوصاً الصلوة من جملتها، لأنّها عماد الدين، وبها يمتاز هيئة الإنسانيّة في ظاهر الأمر عن هيئة الحيوانات التي لا خضوع لها ـ فذكر «الذكر» هيهنا من باب المقدّمة لما ذكرنا أنّ سوق الآية لبيان قسمة حال الإنسان إلى السعادة العمليّة والشقاوة التي بازائها فيما تقدّم.

والوجه في اختصاص الصلوة والزكوة من بين الأعمال الصالحة هو أنّ الغرض من الأعمال الرياضة البدنيّة، لتحصل للروح هيئة التنزّه عن الأعراض الحسيّة[٤] والتجرّد عن الأمور الكثيفة المادّية الظلمانيّة، وصفة

(١) الكشاف: في تفسير الآية، ج٣ ص ٣٣١.

(٢) الا انها مغايرة للصلوة لان الصلوة معطوفة عليها ـ نسخة.

(٣) الى الله تعالى ـ نسخة.

(٤) الاغراض الخسيسة ـ نسخة.

الا ستعلاء لها على القوى الإدراكيّة والتحريكيّة،لتجرها[٥] بالتعويد[٦] من عالم الغرور إلى عالم السرور، ومن معدن الجور والزور والثبور إلى منبع الحيوة والرحمة والنور، حيث لاتزاحمها في مطالبها بل تشايعها في مآربها وتهتدي بهداها وتطيعها وتسلم لها في أوامرها وزواجرها،حتّى تنخرط معها في سلك طاعة الله وعبوديّته.

ثمّ لا شبهة في أنّ بناء تمرّد القوى وعصيانها عن طاعة النفس[٧] إنّما يكون بأحد أمرين: أحدهما ميلها إلى الشهوات والمرغوبات الحسيّة المضادّة للأمور الروحانيّة والأغراض العقليّة. وثانيها الكسل والتبطّي عن طاعة العقل.

وإزالة كلّ منهما إمّا بقطع سببه[٨] وحسم مادّته أو بورود ضدّه عليه، وعمدة أسباب الوصول إلى الشهوات هو المال لأنّ بالمال يتمكّن الإنسان من تناول كلّ لذيذ ومباشرة كلّ شهيّ، فبترك المال يقطع جميع أسباب الشهوات الدنياويّة، وهو المراد بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾.

ومنشأ الكسالة في الطبع هو إنّما يكون لأجل استيلاء السكون والضعف وعدم النشاط والانبعاث في القوى المحرّكة، فيعالج هذا المرض والآفة فيها بفعل ضدّه، وهو التحريكات البدنيّة كالصلوة والصوم والحجّ.

فالصلوة عمدة الجميع،فاكتفى بذكرها،إذ مع كونها متضمّنة للأذكار والأوراد، مشتملةً على الحركات البدنيّة عن القيام والقراءة والركوع والسجود.

حتّى قيل:إنّ بدن الإنسان لأجل قواه النفسانيّة بمنزلة خشبة جامدة

(٥) لينحرها ـ لتجردها ـ نسخة.

(٦) بالتعديد ـ نسخة

(٧) طاعة الله ـ نسخة.

(٨) لا تكون الا بقطع سببه.

يراد انعطافها ولينها، فعرضت على النار فلانت، فلذلك يجعل البدن منحنياً بالركوع،ثمّ يترك ليستقيم مرة اُخرى ثمّ يجعل أشدّ انحناء بالسجود مرّتين، فإنّ هذا الدين متين فاوغل فيه بالرفق ولا تبغّض طاعة الله على نفسك.

وقيل أيضاً: إذا وقعت السجدة الثانية فقد حصل ثلاثة أنواع من الطاعة: ركوعٌ واحد وسجدتان. فبالركوع ينجو من عقبة الشهوات، وبالسجود الأوّل من عقبة الغضب ـ الذي هو رئيس المؤذيات، وبالسجود الثاني من عقبة الهوى الداعي إلى كلّ المضلّات، فإذا تجاوزت نفس الإنسان عن هذه الدركات،وتخلّصت عن هذه المهلكات،وصلت إلى الدرجات العاليات، وملكت الباقيات الصالحات.

وأمّا الحجّ فلاشتماله على الحركات الشديدة في البراري والرياضات البدنيّة وغيرها ـ لا يحتاج إلى البيان لظهوره.

وأمّا الصوم: فإنّه وإن كان في ظاهر الأمر من باب السكون إلّا إنّه يحرّك الباطن تحريكاً شديداً ويشوقه إلى طلب المعارف والسلوك إلى الجنبة العالية كما يحكم به الوجدان.

فالحاصل أنّ فعل الصلوة وايتاء الزكوة عمدتا الأعمال الصالحة البدنيّة، وهما مستلزمان لسائر الخيرات والطاعات العمليّة التي بها تحصل للإنسان السعادة الاُخرويّة.

* * *

وأمّا الشقاوة التي تكون بإزائها فهي إنّما تحصل للإنسان لأجل فعل المعاصي وترك الطاعات، ومنشأ ذلك انقياد القوّة العقليّة وطاعتها للنفس الأمّارة، وهواها الشيطانيّة، وقواها الشهويّة والغضبيّة. والعقل الإنساني في

طاعته وخدمته لهذه القوى الثلاثة ـ أي الهوى والشهوة والغضب ـ بعينه بمنـزلـة إنسان يخدم شيطاناً مَريداً وكلباً عقوراً وخنزيراً نجساً، ويردّد في تحصيل مطالبها، ويصرف عمره في تيسير ملاذّها ومرغوباتها.

ومثل هذا الإنسان لو بقي هكذا مدّة عمره ولم يرجع إلى طاعة الله[9] بالتوبة والإنابة والتدارك فيما فرّط في جنب الله تعالى ولم يسع[10] في تلافي ما وقع منه،فمنزلته أخسّ من منزلة الحيوانات الهالكة لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [١٧٩/٧] لأنّ خادم الشيء ووسيلته أدون منزلة من المخدوم والغاية.

* * *

فسبحـان من أفـاد الخـير والسعـادة برضائه ومنّته، وأحدث الشرّ والشقـاوة بقضـائه وحكمته، جلّ جنابه عن النقص والقصور في الصفات والأفعال، وتقدّس ذاته عن تخيلّ الأشباه والأمثال، وتمجّد جنابه عن تصوير الأضداد والأندا د ـ وغير ذلك ممّا يتوهّمه الفكر والخيال من المحال،تعالى عمّا يصفه العقلاء فضلا عن الجهّال.

پاك از آنها كه عاقـلان گفتنـد
پاكـتر زانكـه غافـلان گفتنـد

(٩) طاعة الحق ـ نسخة.

(١٠) ولم يسمح ـ نسخة.

التسبيح السادس

في تقرير أمر المعاد واختلاف حال الناس بحسبه لأجل اختلاف هممهم في طلب اللذّات، إذ النفوس الخسيسة الدنيّة يطلبن[1] العاجلة والدنيا، والعقول العالية الزكيّة الشريفة يطلبون الآجلة والقصوى.

قوله تعالى

وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾

فهذة الآية إشارة إلى مطلبين:

الأوّل: أنّ سبب إعراض أكثر الخلق عن اكتساب المعارف الإلهيّة واقتناص الحقائق العقليّة ايثارهم الحيوة الدنياويّة وشهواتها على الآخرة وخيراتها، وذلك لاستيلاء الدواعي الجسمانيّة من القوى الوهميّة والشهويّة والغضبيّة على القوّة العاقلة، فبحسب تسلّط القوّة الجسمانيّة على القوّة العقليّة تكون قوّة الرغبة إلى الدنيا وشدّة النفرة عن الآخرة.

ولا يخفى عليك أنّ دنياك ليس إلاّ حالتك قبل الموت من جهة استعمال آلة الحسّ والحركة في جلب المنافع البدنيّة ودفع المضارّ الجسمانيّة بقوّتي الشهوة والغضب، وآخرتك ليست إلاّ حالتك بعد الموت وقطع علاقتك عن هذا البدن المظلم من جهة استعمال المشاعر الأُخرويّة ـ من السمع والبصر وغيرهما ـ حسبما يناسب أعمالك وأفعالك ـ وشرح ذلك ممّا يطول ـ.

(١) في النسخ: يطلبون.

ـ وبالجملة ـ كلّ من غلب عليه الميل إلى المزخرفات الدنياوية لابدّ وأن يكون أعمى القلب عن إدراك الاُمور الاُخرويّة، بعيداً عن تذكّر الآيات الإلهيّة، ولذا لا ينفع التذكير والنصح لهم ـ كما أشير[٢] إليه سابقا ـ.

المطلب الثاني:

في أنّ نيل السعادة الاُخرويّة ودرك اللذات الآجلة التي تنال بمشاعر ذلك العالم أجلّ وأدوم.

والدليل على هذا المطلب اُمور:

أوّلها: إنّ كلّ واحد من اللذات العاجلة ـ كالفوز بالشهوات البهيميّة والرياسات الحيوانية لا تخلو من نقائص جمّة، كشوب مكروه ووصمة انقطاع وتقضّي وتعقّب إملال إمّا في ذواتها، أو في الخصائص الحاصلة منها.

الأوّل: كما في تقاضي الشهوة وداعية الغضب فإنّهما سيزولان[٣] سريعاً.

والثاني: كالملك فإنّ الملك وإن لم يمل بذاته لكن لا ينفكّ عن الإملال في المقاصد التي يطلب لأجلها الملك ـ وذلك ظاهر ـ.

واللذّة الاُخرويّة بالخلاف في جميع ما ذكر لبرائتها وخلوصها عن شوب مكروه أو وصمة نفاد، أو تعقّب إملال لا في ذاتها ولا فيما يصحبها.

وثانيها: إنّ كلّ مرتبة نيلت من لذات الدنيا أن يقنع المطمئن الى زخارفها دون البدار إلى[٤] الإحاطة بما فوقها، والتشوّق إلى الوصول إلى

(٢) كما اشرنا ـ نسخة.

(٣) يزولان ـ نسخة.

(٤) لم يقنع المطمئن الى زخارفها دون التذاذ الى... (نسخة).

ما ورائها، مع استحالة الوصول إلى لذّة لا يكون ورائها لذّة فوقها،وهذه بخلاف لذّة الآخرة، إذ فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، ولكلّ واحد من أهل الآخرة ما يبلغ إليه همّته ويصل إليه قصده وشهوته.

وثالثها: إنّ اللذّة الدنياويّة مشتركة فيها بين الناس والبهائم والديدان والخنافس، واللذات الاُخرويّة مشتركة فيها بين أفاضل الناس من الأنبياء والأولياء والسعداء وأفاضل الملائكة.

ورابعها: إنّ هذه اللذات الدنياويّة لو كانت خيرات حقيقيّة وسعادات لكانت كلّما كانت أكثر، كانت الفائز بها أكمل وسعادتها أكثر،ومعلوم إنّه ليس كذلك، لأنا لو فرضنا رجلا من العقلاء لا همّ له[٥] إلا الأكل والشرب والوقاع، وكان مدّة عمره مقصوراً على تحصيل هذه المهمّات لكان عند العقلاء منسوباً إلى الخسّة والدناءة، وإلى أنّه كالبهيمة. وأمّا من كان إعراضه عن هذه الأحوال أشدّ وبُعده عنها أكثر كان إلى الكمال والشرف أقرب،وإلى الروحانيّات وأهل الله أنسَب،وبهم أشبَه.

فعُلم من ذلك أنّ اللذات الاُخرويّة وما عند الله خير عند أولى الألباب وذوي الآراء الصحيحة من اللذات الدنيويّة، ولهذا السبب كان الإنسان لا يقدم على الجماع عند حضور الناس، فلو كانت تلك اللذات من باب الكمال لكان إظهاره أولى من إخفائه لا محالة.

وكذا لا يفتخر العاقل بكثرة الأكل والشرب ويفتخر بالعلم ـ ولو في شيء خسيس ـ ويفرح به، ويغتمّ بالجهل ـ ولو في شيء حقير ـ وحتّى أنّ الإنسان لا يكاد يتجاوز عن التحدّي بالعلم والافتخار به في الأشياء الحقيرة.

---

(٥) لايتم له ـ نسخة.

والعالم بالشطرنج على خسته لايطيق السكوت عن التعليم وإظهار المعرفة فيه، كلّ ذلك لفرط لذّة العلم وما يستشعر من كونه كمالا حقيقيّاً، فإنّ العلم من أخصّ صفات الربوبية ـ وهو منتهى الكمال ـ أما ترى أنّ الإنسان كيف يرتاح إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم، لأنّه يستشعر عند ذلك جمال ذاته وحسن نفسه،حسناً لازما أبديّاً، فيتعجّب بنفسه ويلتذّ بها.

ثمّ ليس لذّة العلم بالمتغيّرات والعلوم الجزئيّة والصنايع-كالنحو والصرف والعروض وصنعة الصراثة والخياطة-كلذّة العلم بالله وصفاته وملائكته[٦] وملكوت السموات والأرض، لأنّ لذّة العلم بقدر شرفه، وشرفه بقدر شرف المعلوم. وليت شعري هل في الوجود شيء أجلّ وأشرف وأعظم من الحقّ المعبود وصفاته وملائكته[٦] وملكوت سماواته وأرضه وكتبه ورسله.

وبهذا يتبيّن أنّ العلم لذيذ، وأنّ ألذّ العلوم العلم بالله وصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته، ولهذا اعتنى بتحصيله الأنبياء والحكماء والعرفاء، وهو الذي به يتحقّق شرفهم وكمالهم وفضيلتهم على سائر الخلق،لا بنفس الأعمال الجزئيّة والأفعال البدنيّة، والعلوم التي يتعلّق بإصلاح تلك الأعمال والأفعال التي وجودها بقدرتنا واختيارنا.

ـ وبالجملة ـ العلم كمال الروح، والعمل كمال البدن وكما أنّ جوهر الروح أشرف من جوهر البدن كان لذّتها وكمالها أشرف وألذّ من كمال البدن، فالابتهاج بمعرفة الله ـ وهي أصل المعارف ـ أشرف من الابتهاج بالمطعَم الهني والمنكح الشهيّ والملبس البهيّ والظفر بالاستيلاء على العدوّ الدنيّ الحيوانيّ.

(٦ ـ ٦) ساقطة من بعض النسخ.

والمعرفة من الأُمور الأُخرويّة التي يظهر للنفس بقدر ظهور سلطان الآخـرة عليها. وكما إن الدارالآخرة موجودة الآن ـ كما عليه المحقّقون ـ وظهـورهـا يتوقّف[7] على رفع الحجاب بالموت، فكذلك المعرفة وإن كانت حاصلة للعـرفـاء؛ ولكن قدر اللذة[8] بها فانية في الـدنيا لأجل الحجاب، والحجاب بينك وبين الله هي الدنيا، ودنياك اشتغالك وتعلّقك بعلايقك الدائرة الفانية ـ «مَن ماتَ فقد قامت قيامته» ـ أي القيامة الصغرى.

فعُلم ممّا ذكَرنا أنّ حصول أصل المعرفة بالله تعالى في الدنيا يوجب اللذة العظيمة الوافرة الدائمة عند رفع الحجاب ـ أي في الآخرة ـ.

بل التحقيق أنّ نفس المعرفة الحاصلة هيهنا بالبرهان اليقيني هي التي تستكمل بعينها في الوضوح والجلاء عند زوال الغشاء وكشف الغطاء، وتنقلب بمشاهدة، ولايكون بين المعلوم في الدنيا بالعلم البرهاني والمشاهَد في الآخرة [فرق] إلاّ من حيث شدّة الوضوح وضعفه. ولهذا قيل: «المعرفة بَذْر المشاهدة».

وكما أنّ اختلاف البذر يوجب اختلاف الزروع والثمرات، حيث يحصل من البرّ البرّ، ومن الشعير الشعير. فكذلك الدنيا مزرعة الآخرة. ومعارف الناس في الدنيا مختلفة، فتكون مشاهداتهم في الآخرة مختلفة نوعاً وعدداً وقوّة وضعفاً، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة بالشهود القلبي والبصيرة العقليّة؟

وكما أنّك ترى في الدنيا من يؤثر لذّة الرياسة على المنكوح والمطعوم وترى من يؤثر لذّة العلم لانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض

---

(٧) موقوف ـ نسخة. (٨) لكن اللذة ـ نسخة.

وسائر الأمور الإلهيّة على الرياسة وعلى المنكوح والمأكول ـ جميعاً ـ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذّة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنّة[٩] إذ يرجع نعيمها إلى المنكوح والمطعوم، وهؤلاء بأعيانهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من ايثار لذّة العلم والمعرفة والاطّلاع على أسرار الربوبيّة وقالوا: «الجار ثمّ الدار». فلا التفات لهم إلى الجنّة بل إلى ربّ الجنّة.

فكلّ من لم يعرف الله في الدنيا فلا ينظر إليه في الآخرة، ولا يتجلّى الله له أصلاً، إذ ليس يستأنف لأحد شيء في الآخرة ما لم يستصحبه في الدنيا، فلا يحصد إلّا ما زرع: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [١٧/٧٢].

هركه امروز نبيند أثر قدرت دوست   غالب آنست كه فرداش نبيند ديدار

فقد عُلم من جميع ما ذكرناه وفصّلناه في مواضع من كتبنا ورسائلنا أنّ «العيش عيش الآخرة»، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لأنّها دار العلم ودار الحيوة العقليّة، وأنّ منشأ ايثار الحيوة الدنيا على الآخرة إنّما يكون الجهل بلذّة المعارف والعمى والحرمان وكثافة الطبع وغلظة القلب وتجسّم النفس، حتّى أنّ نفس بعض الآدميّين بمنزلة بدن مقطوع الأعضاء الذي لا ثمرة له في الحيوة ولا حاصل له في الكون، وكلّ من انتهى حاله إلى إدراك المعرفة الإلهيّة فلا بدّ أن يلتذّ بالمعرفة ويحبّ لقاء الله ومشاهدة ذاته بالبصيرة العقليّة، فيحبّ الموت ولا يكرهه البتّة، إلّا من حيث ينتظر زيادة استكمال فيها، لأنّ بحر المعرفة لا ساحل لها، والإحاطة بكنه جلال الله وعظمته ممّا لا مطمع فيها.

(٩) نعيم الاخرة.

وعلامة عدم العرفان عدم حبّ اللقاء: وعلامة عدم الحبّ كراهة الموت وإيثار الحيوة الدنيا، مع كون الآخرة خير وأبقى في نفس الأمر وعند أولي الألباب.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوْا اِنْ زَعَمْتُمْ اَنَّكُمْ اَوِلِيَاءُ لله مِنْ دُونِ اَلنَّاسِ فَتَمَنَّوا اَلْمَوتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٦/٦٢] فجعل سبحانه تمّني الموت علامة صدق الولاية والمعرفة.

وقال سيّد الموحّدين وإمام العارفين علّي بن أبي طالب عليه السلام: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه»[١٠].

وقال عليه السلام عند وقوع الضربة عن ابن ملجم (لعنه الله) على رأسه الشريف «فزت وربّ الكعبة»[١١]. لعلمه اليقيني بأنّ الآخرة خير له، إذ بهايظفر بالمقصود ويشاهد جمال المعبود.

فسبحان من تجلّى لقلوب أوليائه بنور الجمال، وكشف عن بصائر أحبّائه حجب الجلال، فتاهت أرواحهم من الملكوت،وبقوا حيارى في كشف الجبروت، فخاضوا في بحر اليقين، وأصبحوا في جمال الذات هائمين وبحقّ العبادة الذاتيّة قائمين. قائلين: اللهمّ الطفْ أسرارنا بإشراق المحبّة في أرجائها، وشوّق أرواحنا إلى شهود جمالك بفنائها،حتّى تحيّرت في سبحات وجهك الكريم وطاشت، ودهشت عند تجلّيات حسنك وتلاشت، فحكَم الشهود عليها بنفي[١٢] الوجود،وألزمها الإعتراف بـ «لا اِله اِلّا الله الواحِد الأحد المعبود المشهود».

---

(١٠) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٥.

(١١) المناقب لا بن شهر آشوب، فصل مقتله عليه السلام: ٣/٣١٢.

(١٢) ينفي ـ نسخة.

التسبيح السابع

في أنّ هذه المعارف المذكورة في هذه السورة التي هي أصول الحقائق ودعائم المطالب أعني معرفة الإلهيّات أوّلاً، ثمّ معرفة النبوّات وسطاً، ثمّ معرفة المعاد أخيراً هي الدين الإلهي والصراط المستقيم إليه، المتفّق عليه جميع الموحّدين، والمجمع عليه كلّ الأنبياء والمرسلين ولا يختلف باختلاف الأعصار والنحل ولا يتغيّر بتعاقب الأديان والملل.

قوله تعالى

إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

يعني إنّ هذه المعارف المسطورة في هذه السورة والمشار إليها في طيّ هذه الآية الكريمة الإلهيّة واردة من الله في الصحف الأُولى للأنبياء، فائضة على صفحات ضمائر الأولياء، لأنّ سعادة الإنسان وكرامة نفسه لا تحصل إلاّ بالاشتغال بهذه المطالب، وخلاصه عن شقاوة الجهل منوط بالإعراض عن الدنيا وساير الرغائب[1].

---

(١) صاحب الرغائب ـ نسخة.

وروى صاحب الكشّاف[٢] مرفوعاً عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: إنّه سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله: «كمْ أنزل الله من كتاب؟». فقال صلّى الله عليه وآله: «مأة وأربعة كتب. منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفة، وعلى أُخنوخ ـ وهو إدريس ـ ثلاثون صحيفة،وعلى ابراهيم عشر صحائف، والتورية، والزبور، والإنجيل، والفرقان».

وجميعها مشتركة في طريق واحد ومسلك جامع هو العلم بالله وأسمائه وأفعاله وكتبه ورسله واليوم الآخر،مع الخلوص عن غشاوة الدنيا بإصلاح الجزء العملي من النفس; وهذه سبيل الموحّدين جميعاً من الأنبياء والأولياء والعرفاء.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾ [٢١/٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [١٢/١٠٨].

* * *

وسُلّم هذه المعارف هو علم حقيقة النفس وكيفيّة استكمالاتها وتطوّراتها من لدن حدوثها وكونها عقلا هيولانيّاً إلى غاية تمامها وكمالها عقلا فعّالا متّصلا بعالم القدس والحضرة الإلهيّة، والغرض الأصلي[٣] من بعثة جميع الأنبياء والمرسلين هو يرجع إلى أمرين: التجرّد عن العلائق، والاستكمال بالحقائق.

(٢) الكشاف: ج٣ ص ٣٣٢. وانظر الخبر مع اضافات في الدر المنثور: ٦/٣٤١.

(٣) الاعلى ـ نسخة.

قال بعض العـرفـاء[٤]: «وكما أنّ الاسم الإلهي جامع لجميع الأسماء مشتمل عليها مع أحديّته، كذلك طريق عرفانه ودعوته جامع طرق جميع الأسماء كلّها ودعوتها، وإن كان كلّ من تلك الطرق مختصّا بالاسم الذي يرب[٥] صاحبـه ومـظهـره ويعبده للظهور من ذلك الوجه ويسلك سبيله المستقيم الخاصّ بذلك الاسم».

«وليس الجامع لها إلّا ما سلك عليه[٦] المظهر المحمّدي صلّى الله عليه وآله والنشأة الجامعة الأحديّة ـ صلوات الله وسلامه عليه وآله وأتباعه إلى يوم القيامة ـ وهو طريق التوحيد الذي عليه جميع الأنبياء والأولياء ومنها يتفرّق الطرق ويتشعّب».

«روي إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لّما أراد أن يبيّن ذلك للناس خطّ خطّاً مستقيماً، ثمّ خطّ من جانبيها خطوطا خارجة من ذلك الخطّ،وجعل الأصل الصراط المستقيم الجامع، والخطوط الخارجة منها سُبل الشيطان[٧] كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [٦/١٥٣].

واعلم انّ الحقائق والمعارف التي بها يستكمل الإنسان ليس عند جمهور النـاس شيء منهـا إلّا الخيالات والأشباح، ولذلك لا يحصل لهم منها بعد تقليدهم من الأنبياء واعترافهم بها تسليمًا وانقياداً إلّا شبح الكمال ومثاله، دون حقيقته، لأنّها علوم وأسرار لطيفة لا تنكشف لأحد إلّا بعد تلطّف نفسه

(٤) راجع شرح فصوص الحكم للقيصري: الفص الهودي: ٢٤١.

(٥) يريد ـ نسخة.

(٦) عليها ـ نسخة.

(٧) ابن ماجة: المقدمة، ج١ ص ٦.

وتنـوّر روحه وتقدّس جوهره وصفاء ذهنه،إمّا بحسب الفطرة كما للأنبياء والأولياء، أو بحسب الرياضة كما للحكماء والعلماء.

ولهذا قال بعض الحكماء: «من أراد الحكمة الإلهيّة فليستحدث لنفسه فطرة أُخرى».

فالأنبياء لغاية نقاء أذهانهم وفرط ذكاء عقولهم أخذوا هذا العلم عن الملائكة الفعّال وحياً وإلهاما بتأييدالله ـ عزّ وجلّ ـ وأمّا الجمهور من الناس فليس لهم طريق إلى هذه المعـرفـة إلاّ ايمانـاً وتسليمًا وتصديقاً بما جاء به المخبرون الصادقون عن الله تعالى.

وأمّا الذين لا يرضون أن يأخذوا هذا العلم تسليمًا وتصديقاً، بل يريدون طريق الكشف والـبرهان،والوصول إلى الحقائق واستيضاحها بالبصائر[٨] العقليّة ـ التي نسبتها إلى العقليّات الحقيقيّة المنوّرة بنور الحقّ نسبة البصر إلى الحسيّات الماديّة المستنيرة بنور الشمس ـ فهم يحتاجون إلى أن يكون لهم نفوس زكيّة وقلوب صافية وآذان واعية وأخلاق طاهرة، وأن يكونوا غير متعصبّين لمذهب دون مذهب في هذه الآراء التي لا تختلف باختلاف الأديان والملل، كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَاۤ اُنْزِلَ اِلَيهِ مِن رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقَالوا سَمِعْنَا وَاَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَاِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً اِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [٢/٢٨٥ ـ ٢٨٦].

فهذه الآية إشارة إلى هذه المراتب الثلاثة للإنسان في الاعتقاد بالمعارف الإلهيّة.

(٨) بالبصيرة ـ نسخة.

فقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى مرتبة الأنبياء، وهي الدرجة العليا في الايمان والمعرفة،لأنّها حاصلة من جهة نزول المعارف الإلهيّة وفيضان الحقائق الربّانيّة على عقولهم الزكيّة النوريّة التي يكاد يضيء زيت نفوسهم الناطقة لفرط استعداد ها نوراً عقلانيّاً، ولو لم تمسسه نار التعليم البشري، كالكبريت الذي ربما يشتعل بنفسه بأدنى وصول حرارة إليه ناراً محرقاً تمامه من غير تخلّف مادة رماديّة لا يقبل الناريّة والنور، كذلك حكم نفوس الأنبياء حيث أنّ أبدانهم المكتسبة لها خاصيّة الروح من جهة الإدراك والصعود إلى عالم الأفلاك والولوج في عالم الجنان ودار الحيوان مع الأبدان.

وقوله:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾إلى قوله:﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾إشارة إلى مرتبة الحكماء والعرفاء والعلماء الربّانيّين حيث بلغوا إلى مراتب العلم والعرفان، ووصلوا إلى حقائق الايمان من العلم بأحوال المبدء وكيفيّة الصنع والابداع،وكيفيّة خلقة الملائكة الروحانيّين، وإفاضة العلوم والمعارف الحقّة على الألواح العقليّة المحفوظة عن الفساد، ثمّ على الكتب السماويّة المحروسة عن النسخ والآفات، ثمّ على قلوب أنبيائه الصالحين المعصومين عن الخطأ بحسب مصالح العباد على وجه كلّي يؤدّي إلى سعادتهم في المعاد، من غير اختلاف لأحد من الرسل وأصحاب الأديان في وصول الحقائق الحاصلة لهم من الله سبحانه بقوّة ملكوتيّة،ولخواصّ أمّتهم بقوّة الذكاء والوجدان وتصفية الباطن بالرياضات العملية[٩]والعبادات القلبيّة، واتّباعهم للأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ في طريق السلوك إليه تعالى بتكميل ذواتهم بصفة

(٩) العلمية ـ نسخة.

الكمال الذي ينحصر في المعرفة بالله وصفاته بعد إصلاح الجزء العلمي من نفوسهم بسماع الآيات والذكر الحكيم وأفعاله واستمداد[١٠] الملكوت في تسخير القوى الشهويّة والغضبيّة والوهميّة واستخدامها في أوامر الله ونواهيها بحسب ما تقتضيه الشريعة الحقّة؛ ابتغاء لغفران الله ورضوانه عند المصير إليه والانقطاع عنها وعمّا تعلّقت بها.

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إشارة إلى النفوس الساذجة التي ليس فيهم ما يوجب التمرّد والاستكبار عن قبول الحقّ من دواعي الشرّ والفساد، وطلب الرياسة والعناد[١١] واللداد، كعوام أهل الإسلام،حيث أجابوا دعوة الحق انقياداً وتسليمًا،وقبلوا النصائح والمواعظ في فعل الطاعات البدنيّة والعبادات الجسمانيّة وترك المعاصي والإفراط في اللذّات والشهوات، لئلّا يكونوا هائمين غافلين بالكلّية عن الله واليوم الآخر، غير مقرّين بالثواب والعقاب والجزاء في الأعمال والأفعال يوم الحساب.

فلا محالة لهم نصيب من الرحمة الإلهيّة التي وسعت كلّ شيء،فإنّ الاستحقاق للرحمة المبذولة إنّما يتحقّق بمجرّد عدم المضادّة للرحمة المنافي للمغفرة ـ أي الهيئات الرديّة والأخلاق الظلمانيّة الحاصلة للنفوس بسبب تكرّر الأعمال القبيحة والتمرّد عن طاعة الحقّ والاستكبار عن سماع الآيات والإعراض عن تكلّم الكلمات[١٢].

والداء العضال الذي لا نجات معه يوم الآخرة حبّ الرياسة وطلب

(١٠) وطاعة ـ نسخة.

(١١) العناد ـ نسخة.

(١٢) تعلم الكلمات ـ نسخة.

الدنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة، فبقدر قوّة ذلك يكون الإنسان بعيداً عن درك الحقّ ونيل السعادة الأُخروية.

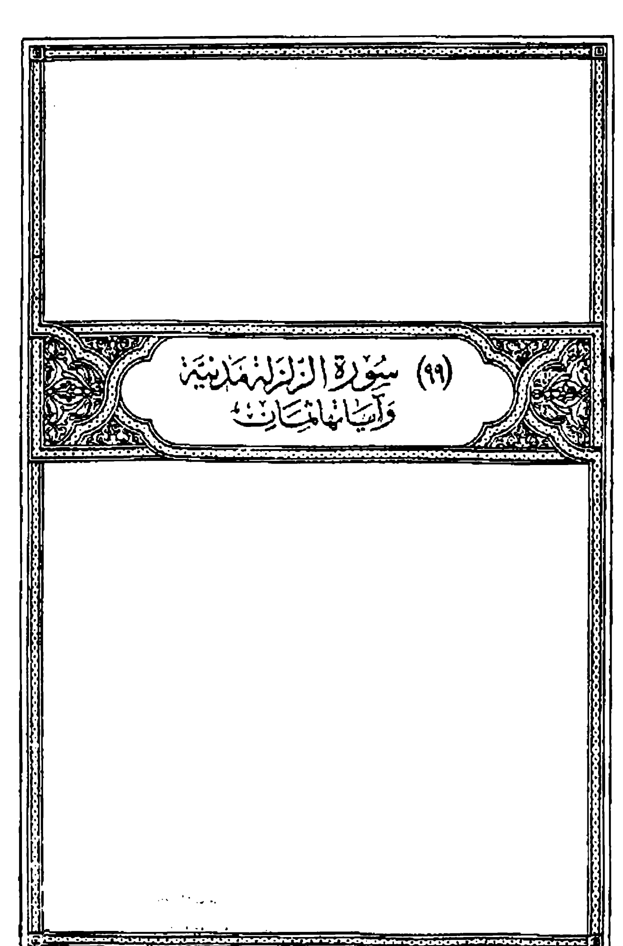
* *

أعاذنا الله تعالى ـ سبحانه ـ عن الانكباب إلى عالم الغرور والزور، ونجّانا عن صحبة الموذيات والظلمات في معدن الآفات والشرور، وصعد بنا بمساعدة العلم والتقوى إلى منبع النور ودار الرحمة والسرور ـ إنه وليّ الجود وغاية الوجود.

* * * *

وصلّى الله على مظهر الاسم الأعظم وصاحب القيل الأقوم
ـ محمّد ـ وأهل بيته المقدّسين عليهم أجزل تسليمات المصلّين.

وكتب هذه السطور مؤلّفها الفقير المحتاج إلى رحموت
الحقّ تعالى ربّ الملك والملكوت ـ محمّد بن إبراهيم
المشتهر بصدر الدين الشيرازي ـ مسلّما
مستغفرا.


(٩٩) سورة الزلزلة مدنية
وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ اهدني من عندك فهمًا جديدا، وعلّمني من لدنك علمًا مزيداً، وصلّ وسلّم شرائف صلواتك ولطائف تسليماتك على أشرف من عنده علم الكتاب، محمّد وآله الذين هم خير من أُوتي الحكمة وفصل الخطاب.

وبعد فيقول العبد المسكين ـ مُحَمّد بن إبراهيم المعروف بصدر الدين ـ هداه الله صراط الحقّ واليقين، وجعل له لسان صدق في الآخرين:

هذه نكات متعلّقة بسورة الزلزلة، مشيرة إلى بعض أسرارها[1] المنزلة، أفاضها الله من لدنه على قلب هذا الملتجي ببابه من كلّ باب، المنصرف بفكره إلى كتابه من كلّ كتاب ـ وبالله التوفيق، وبيده أزمة التحقيق في طلب كلّ جليل ودقيق، والخروج إلى شطر كعبة الحقّ من كلّ فجّ عميق.

---

(١) اسرار آياتها ـ نسخة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

كلمة «إذا» يراد بها الوقت، ووقت الآخرة ليس كهذه الأوقات الدنيويّة، كما أنّ يومها وساعتها ليس كأيّام الدنيا وساعاتها المضبوطة بحركات هذا الفلك الأقصى، إذ نسبة يوم الآخرة إلى هذه الأيّام كنسبة الروح الأعظم إلى هذه الأرواح الجزئيّة، وذلك اليوم الحقّ الذي فيه يمترون.

ومن خواصّ ذلك اليوم أنّ مقداره بالقياس إلى طائفه خمسون ألف سنة ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٧٠/٣] وبالقياس الى طائفة كلمحة واحدة: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [١٦/٧٧] ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [٧٠/٧].

فهذا الوقت المدلول عليه بكلمة «إذا» هيهنا يستوعب سائر الأوقات والأزمنة والساعات، وهو بعينه قد وقع ظرفاً لزلزلة الأرض، والأصل في الظروف الزمانيّة والمكانيّة أن تطابق مظروفاتها ولوازمها من الحركات والأجرام.

وقد بيّن في العلوم القرآنيّة والمعالم البرهانية أنّ الأرض وما فيها دائمة الحركة فقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ من قبيل قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [١٢/١٠٤] فكما أنّ طيّ السماء لايختصّ وقوعه بزمان

الدنيا ـ بل بيوم القيامة، ولايمكن لأحد مشاهدة ذلك إلّا من كان من أهل النشأه الآخرة كما قال سبحانه ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٦٧/٣٩] فلذلك زلزلة الأرض هذه غير مختصّة الوقوع بزمان معين من هذه الأزمنة، بل ظرف تحقّقها يوم الآخرة، وشاهد وجودها أهل الآخرة وأصحاب اليمين، فهي مطويّة بيمين الحقّ بالقياس إلى أصحاب اليمين.

وأمّا من كان من أصحاب الشمال وأهل الجحيم والنكال فليسوا مفتوحي العين ولا حديد البصر، حتّى يقرؤا الكتب السماويّة وينظروا إلى سجلّ دوراتها وطومار أوقاتها دفعة، إلّا حرفا بعد حرف وكلمة غبّ كلمة، ولايمكنهم أيضا مشاهدة آيات الأفلاك والأنفس بالحقيقة إلّا كمشاهدة الدوابّ والأنعام خلف أغشية حجب العزّة والجلال، وأغطية الظلمة والوبال والبعد عن عالَم النور والجمال، فيتوارد عليهم الأوضاع والتغيّرات ويتحكّم عليهم الأزمنة والأوقات.

وأمّا من قوى نظره وحدّ بصره ـ كما هو عند القيامة ـ فيطلع على جميع ما في هذا الكتاب الجامع للأكوان دفعة واحدة لا يغادر حرفاً منه، مثل من يطوي عنده السجلّ الجامع للكلمات والحروف، كما قال النبي صلّى الله عليه وآله «أُوتِيتُ جَوامِع الكَلِم»[٢].

إنّما قال: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ لأنّ أصحاب الشمال وسكّان دار الظلمات لا نصيب لهم من طيّ السموات لأنّهم أهل الحجاب ـ كما مرّ ـ فهكذا حال هذا الزلزال للأرض ليس ممّا يدركه كلّ أحد، لأنّه غير مختصّ الوقوع بوقت جزئيّ من أوقات الدنيا، فلا يشاهده الإنسان بمشاعر

(٢) الخصال، باب الخمسة: ٢٩٢/١: اعطيت جوامع الكلم.

هذا الأدنى، لأنّ هذه الحواسّ التي يشارك فيها الدوابّ والأنعام مع الناس تختصّ بمشاهدتها بما يحدث هيهنا من الحوادث الجزئيّة والأكوان الزمانيّة والقيامة وأحوالها من عظائم الأمور الكليّة ليست من جزئيّاتها ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [٢٢/١].

فكما أنّ أرض القيامة غير هذه الأرض بوجه ـ لأنّها يومئذ مبدّلة مقبوضة ـ وسماؤها غير هذه السماء بوجه ـ لأنّها مطوّية كما قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [١٤/٤٨] وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِ﴾ [٣٩/٦٧].

فكذلك زلزلة الأرض يوم القيامة غير هذه الزلازل[٣] الجزئيّة.

تنبيه

إنّ أهل الحجاب وأصحاب الارتياب ذاهلون عن كون الأزمنة والحركات منطوية يوم القيامة منشورة هيهنا، ولا يمكن لهم أن يعرفوا بهما جميعاً، والعجب أنّهم كما لم يؤمنوا هيهنا بطيّ السموات وما فيها يوم القيامة لاشتغال قلوبهم بأحوال الدنيا، فكذلك إذا بعثوا إلى الآخرة أنكروا زمان مكثهم في الدنيا ونشر الحركات فيها، إذ يشغلهم أهوال يوم القيامة عن ذلك، كما قال جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٠/٥٥ ـ ٥٦].

(٣) الزلزال ـ نسخة.

حجة كلامية

إنّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١/٢٢ ـ٢] دليلا واضحاً على ما ذكر، لدلالة الكليّة على الشمول العمومي لجميع المرضعات وذوات الأحمال، متى كان وأين كان.

تنوير قرآني وتذكير برهاني

إنّ نسبة البعث إليه تعالى كنسبة الخلق: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [٢٨/٣١] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [٢٩/٧] فكما أنّ الله من جهة الخلق أوجد جميع الخلائق ـ على كثرتها واختلاف أزمنتها ـ بايجاد واحد وإفاضة واحدة ـ وحدة غير زمانيّة ـ وهي في أنفسها وبقياس بعضها إلى بعض أمور متكثّرة متجدّدة ومختصّة بأزمنتها وأوقاتها، وله تعالى أيضا شأن واحد في شؤون كثيرة،إذ كلّ يوم هو في شأن ولا يشغله شأن عن شأن، فكذلك من جهة البعث يبعث الخلق كلّها في ساعة واحدة على صعيد واحد كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [١٤/٧٩].

فهذه الساعة: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [٧٧/١٦] من جهة. ومن جهة المخلوقات واختلاف قوابلها واستعداداتها: ﴿مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٤/٧٠] وعليها يقاس حكم الحركات والأمكنة فإنّ لها هاتين الجهتين.

قال تعالى نظراً إلى الزمان من جهة القرب والوحدة: ﴿اقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ

وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [٥٤/١] ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [٢٢/٧] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً﴾ [١٠/٤٥].

ومن جهة البُعد بالقياس إلى أهل الحجاب والظلمة: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [٢٣/٣٦] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [١٠/٤٨ ـ ٤٩] ﴿إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ [٢١/١٠٩] ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ [٧٢/٢٥].

وقال نظرا إلى المكان من جهة القرب: ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [٣٤/٥١] ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ﴾ [٢٩/٥٤] ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [٨٢/١٦] ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [٧٨/٤٠] ومن جهة البُعد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٣٤/٥٢].

وقال نظراً إلى الوجهين: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [٧٠/٧] فالأوّل بالقياس إلى المحبوسين في سجن المكان، المقيّدين بقيد الزمان، والثاني بالقياس إلى المتخلّصين عن رقّ الحدثان الناظرين إلى حقائق الأشياء بعين العيان.

اشارة نورية

إنّ إضافة الزلزال إلى الضمير العائد إلى الأرض، الدالّة على الاختصاص تُشير إلى أنّ هذه نوع حركة معهودة من الأرض مختصّة بها، واقعة منها على حسب الجبلة والغريزة، وإنّما هي مركوزة في طبيعتها، والأُمور

الفـريزيّة للأشياء غير منسلخـة عنهـا ولا متراخية إلى حين ـ إذا خلّيت وطبايعها ـ فهكذا حكم هذا الزلزال.

وقـد حقّق في المعالِم الإلهيّة بالبراهين النورانيّة أنّ الأرض والأرضي كالسماء والسماوي في أنّ لها حركة ذاتيّة جوهريّة لاتفتر عنها لحظة، وما من طبيعة أو ذي طبيعة إلاّ وهو أبداً في الحركة الاستكماليّة الجوهريّة، وبها تطلب الحقّ الأوّل وترجع إليه كما في قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوعَاً أَو كَرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [١١/٤١].

فالإتيان لله سبحانه أمّا من السماء وما فيها، فكان في أوّل الأمر على جهة الطوع لكونها مفطورة على كمالها الأتمّ في أوّل النشأة مطيعة لله تعالى بحسـب فطرتهـا الأولـى، وأمـا مـن الأرض ومـن عليهـا؛ فكـان علـى جهـة القسر أولا لأنهـا ناقصـة الفطـرة الأولـى، وإنّمـا اكتسـب الكمـال والـتـقـرّب إلى الله بحسب فطرة أخرى ونشأة ثانية. فالأرضيّات بعد استكمالها بالنفوس الكاملة الإنسانيّة صارت مطيعة لله تعالى بلا إكراه كالسماويّات، فاتّفقتا في سلوك طريق الحقّ والسير إلى الله والإتيان إليه و لهذا قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

وفي الكشّاف: «معنى هذه الإضافة زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة، وهو مشيّة الله، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده، ونحوه قولك: أكرم التقيّ إكرامه، وأهِن الفاسق إهانته. تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كلّه وجميع ما هو ممكن منه»[٤].

وقـد أجـرى الله على لسـانه من الحقّ ما يمكن أن يراد منه مجموع

(٤) الكشاف: سورة الزلزلة، ج٣ ص ٣٥٢.

الانتقالات الأرضيّة الواقعة[٥] من جملة الأرض ومافيها من ساير المركّبات التامّة والناقصة وبسائطها، إذا اخذت دفعة واحدة وشوهدت شهوداً أخروياً، وما يختصّ بأهل الآخرة وبأهل المعرفة وإن لم يحشروا بعد بحسب قالبهم إلى الله، وذلك لأنّهم قد حشروا إلى الله بحسب قلوبهم.

وهذه الحركة إذا أُخذت هكذا فهي حركة عقليّة شوقيّة، من الله مبدئها وإلى الله منتهاها، وباسمه مجريها ومرسيها، كما قال تعالى ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَيٰهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَيٰهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [٧٩/٤٢ ـ ٤٤].

وقد بين أيضا في المعالم الإلهيّة إثبات العقل والإرادة للأرض بالبرهان المنوّر بأنوار القرآن، مثل قوله: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [٤١/١١] ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [٣٩/٦٩] وقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [٤١/٣٩] ومن اكتحلت عين بصيرته بنور الحكمة الحقة يعلم إن كل جرم ـ غليظاً كان أولطيفاً ـ فله حيوة ونفس وعقل، إذ مامن جسم إلّا وله صورة طبيعيّة هي مبدء حركته القريب، وكلّ جسم من شأنه التفرّق والانقطاع والتكثّر، وعند القطع والتكثير ينعدم ذاته ويزول اتّصاله، وكلّ طبيعة من شأنها الاستحالة والسيلان دائما ـ كما حقّق في مقامه ـ فالنفس الروحانيّة هي علّة إتّصال الأجرام ووحدانيّته، فالوحدة والاتّصال مستفادان في كلّ جرم من النفس، وكذا البقاء والاستمرار له،لسيلان طبيعته واستحالتها ـ لما مرّ ـ.

والنفس لايتمّ وجودها إلّا بالعقل، لأنّها أيضا من حيث الفعل والتدبير

---

(٥) الواقعية ـ نسخة.

طبيعـة، ومن حيث الـذات والحقيقـة عقل، فثبت أنّ الأرض ذات حيوة نفسانيّة، ولها كلمة فعّالة روحانيّة.

واستدلّ معلّم أسلاف الحكماء على أنّ الأرض ذات حيوة بأنّها تنمو وتنبت الجبال ـ فإنّها نبات أرضي ـ وفي داخل الجبال حيوانات كثيرة ومعادن، وإنّما تتكون هذه منها لأجل الكلمة ذات النفس، فإنّها هي التي تصوّر في داخل الأرض هذه الصورة. وهذه الكلمة هي صورة الأرض الفاعلة فيها هذه الأفـاعيل، ولا يمكن أن تكـون ميتة وتفعل هذه الأفاعيل العجيبة العظيمة، فإن كانت حية فانها ذات نفس لا محالة.

فإن كانت هذه الأرض الحسيّة حيّة ـ وهي صنم ـ فبالحريّ أن تكون الأرض العقليّة حيّة ـ انتهت حكاية كلامه[٦].

وبناؤه على أنّ لكلّ طبيعة جسمانيّة صورة عقليّةٌ في عالَم الأرواح العقليّة ـ وهي المسمّاة بالمثل النوريّة والصور المفارقة عند شيخه أفلاطون ومن تقدّمه من الرجال، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعرجوا بنفوسهم الصافية وقلوبهم الطاهرة إلى عالم القدس، وشاهدوا هذه الصوَر الإلهيّة مظاهر أسماء الله تعالى، فهم أهل بيت الحكمة، كما أنّ أئمّتنا أهل بيت النبوة والولاية ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ

وما ذكروه من وجود تلك الصور هو الحقّ الذي لا ريب فيه عند أُولي البصائر، فما من شيء إلاّ وله طبيعة يحرّكه، ونفس تدبّره، وعقل ينوّره، وإسم إلهي يوجده، وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده، فسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه ترجعون.

---

(٦) اثولوجيا: الميمر العاشر، ص ١٥٤، وفيه فروق مع ما في هنا.

تذكرة

هذه الحركة الأرضيّة التي قد مرّت الإشارة إلى أنّها إراديّة شوقيّة عقليّة ليست واقعة في إحدى المقولات الأربع العرضيّة، لما مرّ أنّها غير محسوسة ولا قابلة لأنّ يحسّ بإحدى هذه الحواسّ، بل هي حركة ذاتيّة واقعة في مقولة الجوهر، والمقتصرون على البحث البحت من النظّار وذوي الأفكار لم يجوّزوا الحركة في مقولة الجوهر ولم يمكنهم أن يتفطّنوا بدقّة أفكارهم وحِدّة أنظارهم بهذه الحركة الذاتيّة لأنّ إدراكها يحتاج إلى تأييد إلهي وإلهام نوري ربّاني تختصّ بأصحاب المكاشفات للقلوب المنورة بنور الايمان ثمّ العرفان.

فهُم قد رأوا بالمشاهدة العيانيّة أنّ الأعيان الجوهريّة دائمة التوجّه إلى الله تعالى توجُّهاً معنوياً وحركة ذاتيّة، وما من جوهر عينيّ له صورة وجوديّة إلّا وله هذا السير الحثيث إلى الحضرة الإلهيّة، وهو أبداً في الانتقال من صورة إلى صورة ومن طور إلى طور ـ حركـة رجـوعيّة وسيراً استكماليّاً كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [٢٧/٨٨].

فهكذا حكم الإنسان، فإنّه أبداً بحسب غريزته في التبدّل والميلان من نشأة إلى نشأة وطور إلى طورومن هويّة إلى هويّة، ومن تبدّل هذه الهويّات عليه يستمرّ له هويّة ثابتة يحكم بها عليه أنّ ذاته هي التي كانت موجودة أوّلاً، فله هوّية ثابتة هي التي بعينها متبدّلة، فانظر ماذا ترى.

* * *

وعلى هذه الحركة الانقلابيّة للإنسان شواهد كثيرة من القرآن مثل قوله

جلّ اسمه: ﴿يا أيُّها ٱلانْسانُ انَّكَ كادِحٌ الىٰ ربِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيه﴾ [٨٤/٦] وقوله: ﴿وَيَنْقَلِبُ الىٰ أهْلِه مَسْرُوراً﴾ [٨٤/٩] وقوله: ﴿إنّا لله وَإنّا الَيْهِ رَاجِعُوْنَ﴾ [٢/١٥٦] وقوله: ﴿كُلٌّ الَيْنا رَاجِعُوْنَ﴾ [٢١/٩٣] وقوله: ﴿هُوَ خَلَقَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٤١/٢١]. ونظائرها مّما هي غير محصورة.

وهـذه الحركة الجبليّة إليه تعالى و الى الدار الآخرة لاتنافي الشقاوة والكفـر، بل تعمّ السعيد والشقيّ والمؤمن والكـافـر، كما بيّن. وكذا لاتنافي الذبول الطبيعي والموت الطبيعي، لأنّ توجّه النفس إلى جهة الآخرة بعد تمام الأستكمال البدني يوجب انصراف تدبيرها عن البدن شيئاً فشيئا، حتّى إذا تمّ التوجّه إليها والانصراف عنه بالكليّة عرض له الموت، فلهذا المعنى يكون الذبول طبيعيّاً والموت طبيعيّاً، لا كما اشتهر فيما بين الناس من أن سببها نقصان القوّة في الأوّل وفنائها في الثاني.

فاذن قد بزغ الحقّ وانكشف الأمر في أنّ الأرض بما فيه دائمة التحوّل والحركة من جوهر محسوس أدنى الى جوهر محسوس أعلى، ثمّ تتحرّك بعد طيّ مراتب المحسوسات الجوهرية إلى الجواهر الغير المحسوسة، فتتحرّك من الأخسّ منها وجوداً والأقلّ آثاراً إلى الأشرف منها وجوداً والأكثر آثاراً وهكذا تتدرّج في الاستكمال وتسير في الأطوار السلوكيّة والأحوال من صورة إلى صورة حتّى تنتهي نوبة الإنتقال والإرتحال من الجواهر النفسانيّة إلى الجواهر العقلانيّة.

فاذا وصلت إلى الحضرة الإلهيّة وعالَم الأسماء بعد عالَم الأرض والسماء فتحشر إلى اسم من أسمائه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأرْضُ غَيْرَ ٱلْأرْضِ وَٱلسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لله ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهّارِ﴾.

تذكرة

هذه الحركة المعنويّة للأرض التي تعود بجملة ما فيها ومعها إلى الدار الآخرة وترجع بها إلى الله تعالى،قد وقعت الإشارة إليها في آيات كثيرة من الكتاب الإلهي مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [٢٢/٥ ـ ٧].

وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلى قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [٣٩/٧١ ـ ٧٣].

قوله عزّ من قائل

وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

إذا فهمت ما مرّ من الكلام علمت أنّ هذا مؤكّد لما ذكرناه ومنوِّر لما قرّرناه، إذ فيه إشارة إلى غاية هذه الحركة الأرضيّة، فإنّ الحركة لا بدّ لها من غاية، بل ليس معناها إلاّ التأدّي إلى غاية،والطلب لكمال،والخروج من قوّة إلى فعال، ولهذا حُدت بأنّها: «كمالٌ أوّل لما بالقوّة من حيث هو بالقوّة».

فغاية زلزلة الأرض ظهور أواخر ما في مكامن استعداداتها وبروز نهايات

كمالاتها الجوهرّية يوم القيامة من أفراد طبايع النفوس الإنسانيّة السعيدة أو الشقيّة، وكذا أفراد نفوس الشياطين والجنّ المعبّر عنها جميعاً بالأثقال ـ جمع الثقل وهو متاع البيت ومتاع المسافر ـ.

شبّه إخراج الطبيعة المحرّكة الأرضيّة ما في مكمن قوّتها ومخزن استعداداتها الى الفعليّة والبروز بشخص أخرج أمتعته من داخل البيت إلى عرصة التميّز وموقف الإشهاد، ليظهر رايجها من كاسدها، وصحيحها من فاسدها، ويميّز خبيثها من طيّبها، وكذلك يوم عرض الخلائق في عرصة القيامة ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فتعرف أعمالهم وأفعالهم وضمائرهم ونيّاتهم، ثمّ يجزون بما كانوا يعملون فيثابون أو يعاقبون.

هداية حكمية

ليس لأحد أن ينكر صحّة اجتماع الخلائق كلّهم من الأوّلين والآخرين في وقت واحد على ساهرة واحدة،بعد ما بليت أجسادهم ورمت عظامهم،كما حكى الله سبحانه عن المنكرين الجاحدين لأمر المعاد، وأمَر نبيّه بالقول الهادي إلى طريق السداد وسبيل الرشاد فقال: ﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [٥٦/٤٨ ـ ٥٠] وذلك لأنّ القدرة واسعة والعناية داعية، والحكمة مقتضية والموانع ساقطة، إذ زمان الآخرة تَسَع الأزمنة كلّها، وكذا مكانها تَسَع الأمكنة، والله سبحانه يمدّ الأرض ذلك اليوم بقدرته مدّ الأديم ـ كما ورد في الخبر عنه صلّى الله عليه وآله[٧] وكما قال

(٧) المستدرك للحاكم: كتاب الأهوال، ج٤ ص ٥٧٥.

سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [٨٤/٣ ـ ٥].

* * *

وممّا يثبت ذلك عقلاً أنّ الزمان بكمّيته الإتّصاليّة شخص واحد موجود في وعاء الدهر، وكذا الحركة القطعيّة بامتدادها الاتّصالي لها هويّة ومقداريّة حاضرة عند الباري ـ جلّ ذكره ـ وعباده المقرّبين المقيمين عنده ـ من الملائكة والنبيّين والشهداء ـ وكذا كلّ ما تقترن الزمان والحركة لها حضور جمعيّ يوم الجمع ـ لا ريب فيه ـ.

فسطح الأرض وإن كان في كلّ زمان بجملة ما عليه غير ما هو في زمان آخر ـ سابقاً كان أو لاحقاً ـ لعدم اجتماع أجزائه كلّها، ولعدم حضور ما يقارنها ويوازيها من المتجدّدات والمتغيّرات، عند المحبوسين في سجن المكان، المقيّدين لقيود الزمان ـ بل في كلّ زمان يَسع وجه الأرض عدداً معيّناً محصوراً من الخلائق، ثمّ يفرغ عنها ويسَع خلقاً جديداً غيرها ـ إلّا أنّه إذا انكشف الغطاء واخذت جملة الزمان متّصلا واحداً ـ كما هو عند المرتفعين عن قيود الزمان والمكان ـ كان يجب أن يتصوّر شكل وجه الأرض على هيئة سطح واحد متّصل يتضمّن جميع السطوح الأرضيّة الموجودة كلّ منها في زمان معيّن من الأزمنة، الكائنة من ابتداء وجود العالم إلى انتهائه، ويكون جميع هذه السطوح ـ التي لا يمكن احصاؤها ـ سطحاً واحداً يسَع الخلائق كلّها يوم القيامة الموجودة في الآزال والآباد.

وإذا أُخذ ذلك السطح على هذا الوجه لم يكن من ذوات الأوضاع الحسيّة، إذ ليس حاصلاً في جهة معيّنة من الجهات ولا في زمان معيّن من

الأزمنة، ولا محسوساً بإحدى هذه الحواسّ. بل إنّما يدرك بالحواسّ الآخرة.

وهكذا بمجموع الأمكنة إذا أُخذت جملة واحدة لم يكن موجوداً حسّيّاً له وحدة حسيّة، بل موجوداً عقليّاً له وحدة عقليّة، وهكذا مجموع عالم الأجسام ـ بما هو مجموع ـ ليس ممّا يناله الحسّ، بل يشعر به إمّا العقل بذاته أو بآلة أُخرى من مشاعر عالم الآخرة، إذ ليس لعالم الأجسام كلّه وضع خاصّ ولا إليه إشارة حسيّة، ولا له جهة ولا مكان.

فإذا كان وجود سطح الأرض على هذا الوجه من مقدورات الله تعالى من غير شبهة فيه ولاريب ـ فإنّه ممّا قاد إليه البرهان ويحكم به الوجدان، ولاتنازع فيه لأحدممّن له قدم راسخ في المعارف العقليّة،وقد راض نفسه بالرياضات الحكميّة،وحقّق الأمر في نسبة المتغيّرات والمتجدّدات إلى الثابتات والكلمات التامّات، وعلم معنى الدهر والسرمد ونحو وجود الحركة بهويّته الإتّصاليّة، والزمان بكمّيته الامتداديّة التجدّديّة، وما انطبقا عليه ووجدا معه وبه ـ بالذات أو بالعرض ـ:

فكيف يقصر قدرته ـ جلّت كلمته ـ عن جمع الخلائق كلّها دفعة واحدة في ساهرة واحدة، وكما قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [١٤/٧٩] وكذا قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [١٤/٦٩] وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [٥٣/٣٦].

قوله عزّ من قائل

وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾

هذا القول منه يحتمل أنّ يكون بلسان الحال طبق لسان المقال، بمعنى أنّ وجود الإنسان يكشف عمّا طرء لها في الزلزال من الأحوال وشدايد الأهوال، وذلك عند النفخة الثانية لمّا لفظت ما في بطنها وأخرجت أمواتها أحياء. فيعلم إن الغرض الداعي لها في هذه الزلزلة خروج الأموات من بطنها أحياء، كما يخرج الجنين من بطن[8] الأمّ عند اضطرابها وانزجارها.

وقد روى محمّد بن علي بن بابويه القمّي ـ رحمه الله ـ في كتاب «من لا يحضره الفقيه» بسنده المتّصل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله إذا انقطع الرزق المقدّر للولد من سُرّة أُمّه زجره الملك زجرة، فانقلب فزعاً من الزجرة، فصار رأسه قِبل الفرج[9]، فإذا وقع إلى الأرض دفع إلى هولٍ عظيم» ـ في حديث طويل[10] ـ.

فالمعنى ـ والله أعلم ـ إنّ حضور الخلائق يوم القيامة وحشر النفوس الإنسانيّة إلى الله ـ بعد انقضاء تكونها التدريجي وانقطاع حيوته الدنيويّة المسبوقة بالتكوينيات المادّية والاستحالات الأرضيّة والتطورات الاستكماليّة؛ يكشف الغطاء عن لِمّيّة حركات الأرض وزلازلها ويفصح عنها، لأنّ هذا اليوم يوم كشف الغطاء ويوم بروز الحقائق وظهور السرائر، فعلى هذا يكون «ما» موصولة، ويؤيّد هذا.

(٨) رحم ـ نسخة.

(٩) المصدر: المخرج.

(١٠) الفقيه: ج٤ ص ٤١٣ الحديث رقم ٥٩٠١.

قوله عزّ من قائل

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾

هذا التحديث منها على سبيل الحقيقة، لأنّ حقيقة الكلام إبداء ما في الضمير وإعلام المكنونات مع الإرادة، سواء كان بغير لسان مثل كلام الله وكلام الملائكة، أو بلسان.

فالأوّل بأن ينكشف عنها يوم القيامه دقائق صنع الله فيها وعجائب حكمته في خلقها والغايات التي خلقت لأجلها وسبقت إليها وبعثت لها.

وأمّا الثاني فبعد صيرورتها جوهراً ناطقاً أنطقه الله الذي أنطق كلّ شيء، إذ ما من شيء إلّا وهو ناطق ـ إمّا بالفعل أو بالقوّة ـ فتخرج من حدّ القوة إلى حدّ الفعل بالحركة الاستكماليّة المعنويّة التي مرّت إليه الإشارة، كما قال جل ذكره: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [٢٠/٥٠].

فهذه الهداية الإلهيّة هي التي يُخرج الله بها الخلائق إلى رحمته ويسوق بها عباده إلى رضوانه،وذلك بعد إدخال كلّ من المكوّنات في باب الإنسانيّة،إذ هو باب الله المؤتي منه، وصراطه المستقيم إليه، فيؤخذ كلّ شيء إليه بالنواصي والأقدام و ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١١/٥٦] والدابّة كل ماشٍ، وما من كائن في العالم إلّا وهو ماش ـ كما مرّ ـ وله حيوة وتسبيح خاصّ، ويذكر الله باسم خاصّ يمشي به إلى جانب الحقّ، وهكذا عند صاحب الكشف والشهود.

***

وكلّ ماشٍ فهو على صراط الإنسانيّة، والحقّ آخذ بناصيته يتصرّف

فيه ويجرّه إليه بحسب أسماء يسلك بها إليه، والكلّ مهتدٍ من هذا الوجه، والضلال من العوارض الطارية، كما أنّ الرحمة واسعة كلّ شيء، والغضب عارض، فالمآل إلى الرحمة التي وسعت كلّ شيء.

وقد انساق الكلام هيهنا إلى مقام يدقّ عن دركه خواطر الأنام، بل يضيق عن تحقيقه حواصل أفهام الفضلاء الكرام ـ فضلا عن أصحاب القلقة والكلام.

وفي الكشّاف[11]: «هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان، حتّى ينظر من يقول: «ما لها؟» إلى تلك الأحوال فيعلم لِمَ زلزلت ولَمِ لفظت الأموات، وإنّ هذا ما كانت الأنبياء ينذورنه ويحذّرون منه.وقيل: ينطقها الله على الحقيقة وتخبر بما عمل عليها من خير وشرّ. وروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله: «تشهد على كلّ أحد بما عمل على ظهرها»[12].

وهذه الأحوال غير منافية لما ذكرنا، بل مؤكدة لما بيّنّاه.

وقوله سبحانه: ﴿يَومَئِذٍ﴾ بدل من: ﴿إِذَا﴾ واقع في حيّزه، فتكونان معمولي فعل واحد ينصبهما وهو ﴿تحدّث﴾، ويجوز أن ينتصب الأوّل بعامل مضمر مثل «أذكر» أو ما يجري مجراه. والثاني بتحدّث، ومفعوله الأوّل محذوف والثاني: «أخبارَها».

وفي قرائة ابن مسعود: تُنبّيء أخبارها. وسعيد بن جبير: «تنبيء» ـ بالتخفيف ـ.

---

(١١) الكشاف في تفسير الآية: ٣/٣٥١.

(١٢) الترمذي: كتاب التفسير، سورة الزلزال ج ٥/٤٤٦. المسند: ٢/٣٧٤.

قوله عزّ من قائل

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾

الباء للسببيّة، وهي متعلّقة ـ بـ «تحدّث»، أي: تحدّث أخبارها بسبب ايحاء ربّك-يا محمّد-لها وأمره إيّاها بالتحديث بألسنة ناطقه بإذن الله من مواضع النطق والإعلام،ومشاهد الإظهار والإخبار، وذلك بحسب صور كمالاتها الأُخرويّة وغايات استكمالاتها المؤديّة إلى النشأة الثانية، نشأة الأرواح والنفوس، وموطن المجازاة على الأعمال والحركات.

ومثل هذا التحديث من الأرض في ذلك اليوم شهادة الأيدي والأرجل والجلود بما كانوا يعملون، فكما أنّ الأعمال البشريّة والأفعال الصادرة من أفراد الإنسان مدّة كونهم في هذه الدار تتأدّي بهم يوم الآخرة إلى صور وهيئات تقتضيها الأخلاق والنيّات الحاصلة من تكرّر تلك الأعمال والأفعال، وبحسبها يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [٢١/٤١].

فكذلك حكم زلزلة الأرض واندكاك الجبل وانشقاق السماء، ينطق كلّ منها بلسان يخصّه، ويفصح بوحي يوحي إليه عن أحواله وأفعاله بنطق حسّي أو عقلي كما أوحاه الله إليه وأنطقه به.

* * *

وقوله: ﴿أَوحَى لَهَا﴾ بمعنى: أَوحَىٰ إِلَيْها. وقيل: «الباء» للصلة، ويكون المعنى: يومئذ تحدّث بتحديث أنّ ربّك أوحى لها أخبارها، على أنّ تحديثها «بأنّ

ربّـك أوحى لها» تحديث بأخبـارها، كما تقول: «نصحتني بكلّ نصيحه بأن نصحتني في الدين».

وقيل: يجوز أن يكون «بأنّ ربّك» بدلا من «أخبارها» كأنّه قيل: يومئذ تحدّث بأخبارها بأنّ ربّك أوحى لها. لأنّك تقول: حدّثته كذا وحدّثته بكذا.

قوله عزّ من قائل

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا

صدورالناس: خروجهم من مكامن قبورهم وأجداث أجسادهم الأرضيّة إلى الله تعالى، كما في قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[٥١/٣٦] وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [٤٣/٧٠] وبـروزهم من أغشيتهم المـاديّة وأغـطيتهم الهيولانيّة إلى عالم الآخرة كما في قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [٢١/١٤] أشتاتا متفرّقين وأنواعا متكثّرين.

فحشـر الخـلائق على أنحـاء مختلفـة حسب أعمالهم وأفعالهم ونيّاتهم ومعتقداتهم، فلقوم على سبيل الوفد ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [٨٥/١٩] ولقـوم على نهج سياق الـدوابّ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [٨٦/١٩] ولقوم: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [٧١/٤٠]. ولقوم: ﴿نَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [١٠٢/٢٠]. ولقـوم: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [١٢٤/٢٠]. وقـوم مكبّـون على وجـوههم: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [٢٢/٦٧].

وبالجملة يحشر كلّ أحد إلى غاية سعيه ونهاية عمله، وما كان يحبّه في الدنيا ويعمل لأجله حتّى أنّه «لو أحبّ أحدكم حجرا لحشر معه»[١٢].

فإنّ تكرّر الأفاعيل يوجب حدوث الملكات، وكلّ ملكة وصفة نفسانيّة تغلب على باطن الإنسان تتصوّر في الآخرة بصورة تناسبها ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [١٧/٨٤] ولاشكّ إنّ أفاعيل الأشقياء المردودين المدبرين إنّما هي بحسب هممهم القاصرة النازلة في مراتب البرازخ الحيوانيّة، وتصوراتهم مقصورة على أغراض بهيميّة أو سبعيّة تغلب على نفوسهم، فلاجرم يحشرون على صور تلك الحيوانات المناسبة لأفعالهم وملكاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [٨١/٥].

وفي الحديث: «يحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القردة والخنازير».

حكمة إلهية

إنّ الإنسان من حيث بدنه الدنيوي ونفسه المتعلّقة بها نوع واحد وله حدٌّ واحد، ولكن من جهة نشأته الثانية والصورة الأخرويّة والفائضة على موادّ النفوس بحسب هيأتها النفسانيّة سيصير أنواعاً كثيرة.

والسبب اللمّي في ذلك أنّ النفس الإنسانيّة لها جهتان: جهة قوّة وجهة فعل، فهي من حيث فعليتها صورة فائضة على مادّة البدن، وهي من هذه الحيثيّة أمر واحد هو مبدء فصل الإنسان، يمتاز به عن سائر المركّبات الحيوانية وغيرها، وأمّا من جهة كونها بالقوّة فلها استعداد كلّ صفة من

(١٢) الأمالي للصدوق (ره): المجلس ٨٢ ص ١٢٠.

الصفات النفسانية، ولها قوّة كلّ صورة من الصوَر الأُخروية، فتخرج من القوّة إلى الفعل في كلّ أمر تغلب عليها صفاته وهيآته وهاتان الجهتان لا تكثّران داته ولا توجبان تركّبه من مادّة وصورة لأنّهما بحسب نشأتين، فما هوصورة في هذهالنشأة فهو بعينه مادّة النشأة الثانية، فهي كأنّها واسطة بين الطرفين وبرزخ بين العالمين وحاجز بين البحرين، وسورٌ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ولهذا المعنى سمّاها بعضالمحقّقين «طراز عالم الأمر» لأنها نهاية الجسمانيّات وبداية الروحانيات.

***

فثبت بالحكمة الموضحة والبرهان النيّر أنّ الإنسان وإن كان بحسب النشأة الحسيّة نوعاً متشابهاً أفراده، متماثلا أعداده؛ إلاّ انّه عند خروج أعداد نفوسها من القوّة الهيولانيّة إلى فعل الصور الباطنيّة سيصير أنواعا متخالفة بحسب غلبة الصفات ورسوخ الملكات، كلّ نوع من جنس ما يغلب عليه من صفات البهائم أو السباع أو الشياطين أو الملائكة، إذ قد خمّر في طينه الإنسان من جهة قوته العلميّة المتشعبّة إلى العاقلة المدركة للكليّات بذاتها، والواهمة المدركة للجزئيّات بآلاتها الخياليّة الحسيّة والعمليّة الشوقيّة المتشعبة إلى قوّة الشهوة لطلب الملائم، وقوّة الغضب لدفع المنافر.

فهذه رؤساء القوى المركوزة في جبلة الآدمي، وبكلّ قوّة منها يشارك جنساً من أجناس الملائكة والشياطين والبهائم والسباع، وليس في جواهر الممكنات شيء خارج عن هذه الأربع، فإذا صارت القوّة فعلا، والاستعداد صورة، وبرزت الإعتقادات والسرائر، وظهرت النيّات والضمائر، و ﴿بعثر مَا فِي ٱلْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [١٠٠/١٠] ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن

يَرَىٰ﴾ [٣٦/٧٩] ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّـةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٩٠/٢٦] فكلّ إنسان يوم القيامة إما بهيمة من البهائم إن كان الغالب عليه صفة الشهوة والحرص وما يجري مجراهما من فروعات النفس الشهويّة.

وإما سُبعاً من السباع ـ إن كان الغالب عليه صفة المكر والخديعة والغرور وأشباههما من دواعي النفس الشيطانية.

وإمّا شيطاناً من الشياطين ـ إنّ كان الغالب عليه صفة المكروالخديعة والغرور، وأشباههما من دواعي النفس الشيطانيّة.

وإمّا ملكاً من الملائكة ـ إن كان الغالب عليه إدراك المعقولات والتجرّد له عن الجسمانيّات والسلامة عن هذه الأمراض النفسانيّة.

فأفراد الإنسان وإن كانت متماثلة في عالم الشهادة وبحسب الظاهر إلّا أنّها متخالفة الحقائق بحسب الباطن عند الحشر، فهيهنا يصدق عليها حدّ الإنسانيّة ـ وهو الجوهر الناميّ الحسّاس المميّز المتفكّر ـ وما هو مبدء فصله الأخير معنى واحد ـ وهو الجوهر النطقي والعقل المنفعل منه ـ وهو بعينه يصير مادّة صورته الأُخرويّة، والمعنى الواحد وإن لم يجز أن يكون فصلا أو صورة لحقائق مختلفة، ولكنّه يجوز أن يكون جنساً أو مادّة لحقائق مختلفة، وذلك لاعتبار التعيّن والتحصّل في الأوّل، والإبهام والنقص في الثاني؛ والنفس صورة تماميّة لهذه الأجسام الحسيّة الدنيويّة،ومادّة منفعلة للصوَر الأُخرويّة والنشآت الثانويّة.

وهـذا المعنى أمر ثابت محقّق عند أئمّة الكشف والشهود والمعتضد بإشارات قرآنيّة، ورموز نبويّة، دلّت عليه آيات كثيرة وروايات غير يسيرة:

* * *

أمّا الآيات: فمثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [١٤/٣٠]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [٨٣/٢٧]. وقوله: ﴿وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [٥٩/٣٦]. وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [٣٥/٦٨] وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [٢٨/٣٨]. وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٩/٣٩]. وقوله: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [٢١/٤٥].

كلّه على سبيل الإستفهام الإنكاري ـ وهو أبلغ ـ.

وممّا يدلّ على كون الإنسان متّحد الماهيّة في النشأة الدنيا والفطرة الأُولى؛ متخالف الحقائق في النشأة الأُخرى والفطرة الثانية من جهة سبق أعمال واعتقادات وملكات قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا﴾ [١٩/١٠]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [٩٣/١٦] وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ [١٨/٧٨].

ومن هذا الباب الآيات الدالّة على النسخ، فإنّ المراد منها نسخ البواطن ـ وقد أوّلها أهل التناسخ إلى انتقال النفوس إلى أبدان أُخرى حيوانيّة في هذه النشأة، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، وقد بيّنا فساد ما ذهبوا إليه في موضعه ببرهان خاصّ عرشي لانطوّل الكلام بذكره[١٣] ـ و هي مثل قوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [٣٨/٦].

وكقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [٤٨/٥٤] وقوله:

---

(١٣) راجع الاسفار الاربعة: ٢/٩.

﴿أفَمَنْ يَمْشي مكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أهْدَىٰ أمَّنْ يَمْشي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم﴾ [٢٢/٦٧] . وقوله: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمْ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأضَلُّ سَبيلاً﴾ [٣٤/٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهم يَومَ القِيَامَة عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأوِيهُمْ جهَنَّم كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [٩٧/١٧]. وقوله: ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكم الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٢٢/٨]. وقـوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [٨٤/١٧]. وقوله: ﴿إنْ هُمْ إلاّ كَالأنْعَام بَلْ هُمْ أضَلُّ﴾ [٤٤/٢٥]. وقوله في حَقِّ بلعم وأمثاله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [٧ /١٧٦] ـ الآية ـ.

* * *

وأمّا الحديث فكما مرّ، وكقوله: «يُحشر الناس يوم القيامة على صوَر نيّاتهم»[١٤].

وقوله صلّى الله عليه وآله: «يُحشر الناس على وجوه مختلفة»[١٥].

وقـولـه صلّى الله عليه وآلـه في صفـة أقوام: «إخوان العلانية أعداء السريرة، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمَرُّ من الصبر، يلبسو ن للناس مسوك الكباش من اللين، وقلوبهم كقلوب الذئاب»[١٦].

وقو ل أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس أبناء ما يحسنو ن»[١٧].

---

(١٤) المسند: ج٢ ص ٣٩٢.

(١٥) حشر الناس في صور مختلفة جاء في كثير من الروايات منها: البحار ١٩٢/٧.

(١٦) جاء ما يقرب منه في الترمذي: ج٤ ص ٦٠٤ كتاب الزهد الباب ٥٩.

(١٧) راجع مختصر الجامع لابن عبد البر، ص ٥٠. وفي نهج البلاغة الحكمة رقم: ١٨ «قيمة كل امرء ما يحسنه». الكافي: ج ١ ص ٥١.

فهذه الأحاديث ايضا دالّة على نسخ البواطن وانقلابها، وهذا كثير في هذه الأمة، فترى الصورة أُناسي، وفي الباطن غير تلك الصورة من ملَك أو شيطان أو كلب أو أسد أو ذئب أو قرد أو خنزير وغير ذلك، كما كثر المسخ في الصورة الظاهرة في بني إسرائيل، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ [٥/٦٠] وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [٢/٦٥].

وقد بيّنّا في الشواهد الربوبيّة منشأ[١٨] الفرق بين مسخ الظواهر على هذا الوجه الجايز الذي كان في قوم موسى عليه السلام،وبين التناسخ على الوجه المستحيل الذي ذهبت إليه التناسخيّة، والعلة في جواز ذلك وبطلان ما ذهبوا إليه، وهذا أيضا من العلوم الشريفة التي تختصّ بأهل القرآن، وهم أهل الله خاصّة-كما ورد في الحديث.

قوله عزّ من قائل

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦﴾

قيل: أي جزاء أعمالهم - بحذف المضاف - ولا حاجة إليه لما تحقّق عند أهل الحقيقة إنّ الصورَ الأُخرويّة هي صوَر الأعمال القلبيّة والنيّات الباطنيّة، وهذه الصوَر - سواء كانت مؤلمة كما للأشقياء أو ملذّة كما للسعداء - موجودة الآن في باطن كلّ إنسان،إلاّ أنّها مستورة مختفية عن الأبصار، غير مترقّبة عليها الآثار لخفائها وضعفها، وإنّما موطن ظهورها وإلذاذها وايلامها هو

---

(١٨) الشواهد الربوبية: ص ١٢٣ الى ٢٣٨.

الدار الآخرة. فلا فرق بينها في الدنيا والآخرة إلّا من جهة الخفاء والظهور، ولهذا قال: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ [١٨/٤٩].

* *

وقرائة النبي صلّى الله عليه وآله «لِيَرَوا» ـ بالفتح ـ وهذا أصرح في المعنى وأشدّ ملائمة لما بعده.

وقرأ ابن عبّاس وزيد بن علي عليه السلام «يُره» ـ بالضمّ. وهو إنّه قد مرّ أنّ أفراد الإنسان بحسب مزاولة الأعمال الحسنة والسيئّة يحشرون على وجوه مختلفة وأنّهم أبناء ما عملوا وثمرات ما فعلوا، فيصدق على المحشور من كلّ واحد إنّه صورة عمله، كما قال سبحانه في حقّ ابن نوح النبي عليه السلام: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [١١/٤٦] وقال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ [١٧/٨٤].

وفي الخبر: «خلق الله الكافر من ذنب المؤمن».

تذكرة

هذه اللام للغاية، أي يصدر الناس أشتاتاً من مقابرهم وأجسادهم إلى عالَم الآخرة، ويخرجون يوم القيامة أشتاتاً متفرّقين على صوَر مختلفة وهيآت متبـاينة؛ليشاهدوا صور أعمالهم وغاية سلوكهم وحركاتهم ومنتهى قصودهم ونيّاتهم، وجزاء حسناتهم وسيّئاتهم، فيُثابون أو يُعاقبون بحسبها.

قوله عزّ من قائل

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾

الذَرَّة: النملة الصغيرة. وقيل: الذرة: ما يرى في شعاع الشمس من الهباء المنثور في الهواء.

أي: كلّ أحد إذا بُعثر ما في القُبور وحصّل ما في الصدور يرى ما عمله في الدنيا من خير أو شرّ مُحضراً، ويصادف دقيق ذلك أو جليله مسطراً في ميزان عمله وكتاب ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إلاَّ أحْصَيهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [٤٩/١٨]

وذلك الكتاب إمّا صحيفة ذاته أو صحيفة أعلى منها، فكلّ إنسان يكون بعد كشف غطائه ورفع حجابه وحدّة بصره مبصراً لنتائج أعماله ومشاهداً لآثار أفعاله، قارياً لصفحة كتابه، مطّلعاً على حساب حسناته وسيّئاته، قال الله سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَومَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَيهُ مَنْشُوراً * اِقْرَءْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [١٣/١٧ ـ ١٤].

* *

فمن جملة أحوال القيامة نشر الصحائف وتطاير الكتب لأنّ صحائف الأعمال وكتب القلوب وألواح النفوس وأقلام العقول كلّها مكنونة هيهنا مطويّة مستورة عن الأبصار في الدنيا، وهي بارزة منشورة يوم القيامة مكشوفة

على الأبصـار. كما أنّ منشورات هذا العالم تصير مطويّة في الآخرة، لأنّ الأرواح منغمرة هيهنا في هذه الأجسام، وفي القيامة على عكس هذه الحال، فكل ما يدركه الإنسان هيهنا بحواسّه ويعلمه بجوارحه وآلاته. يرتفع منه أثر إلى الـروح، ويجتمع في صحيفة قلبه، ويختزن في خزانة معلوماته. كما قال سبحـانـه: ﴿هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٤٥/٢٩].

وهـو كتـاب منطو اليوم عن مشاهدة الأبصار والحواسّ، فإذا ارتفع الحجاب وانكشف الغطاء وزال غبار الطبيعة عن لوح النفس وانجلى؛ يشاهد كلّ أحد في ذاته ما يغيب عن بصره في الحيوة الدنيا مسطوراً مكشوفاً. فيطالع صحيفة ذاته، ويقرء كتاب نفسه، وإذا حان وقت أن يقع بصره إلى وجه ذاته عند فراغه عن أشغال الحيوة الدنيا وما يورده الحواسّ والتفاته إلى صفحة باطنه ووجه قلبه، وهو المعبَّر عنه بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [٨١/١٠].

ومن كان في غفلة عن أحوال نفسه وروحه يقول عند حضور ذاته لذاته وكشف غطائـه وحِـدّة بصـره عند البعث ومطالعة صفحة كتابه﴿ مَالِ هٰذَا ٱلْكِتَـابِ لَا يُغَـادِرُ صَغِـيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصِيٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [١٨/٤٩] ﴿يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَو أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [٣/٣٠].

* * *

وممّا يجب أن يعلم إنّ الإنسان إن كان الغالب عليه التصوّرات العقليّة والتأمّلات القدسيّة وفعل الخيرات والطاعات فيكون كتابه في علّيين، وعلّيون

هم الملائكة المقرّبون المرتفعون عن حضيض الأجرام ﴿إنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرٰيكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [٨٣/١٨ ـ ٢١].

وإن كان الغالب عليه فعل الخيرات والحسنات وسلامة الصدر عن الأمراض النفسانيّة ومبادي السيّئات، فهو من أصحاب اليمين، ويأتي كتابه من جانب اليمين: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ [٨٤/٨].

وإن كان من الفجّار المنافقين، الذين قرأوا كتاباً لمكنة استعدادهم ودارسوها، ثمّ لم يعملوا به لمرض قلوبهم، وأهملوه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا ـ فبئس ما يشترون ـ فيأتي كتابه من وراء ظهره ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً وَيَصْلَىٰ سَعِيراً﴾ [٨٤/١٠ ـ ١٢].

وإن كان من الجهّال والمردودين إلى أسفل السافلين المجرمين المنكوسين فهو من أصحاب الشمال، ويأتي كتابه من الجهة[19] السافلة وعالَم النكال والوبال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ اوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [٦٩/٢٥ ـ ٢٦].

* *

فالطائفة الأُولى من أهل البرهان واليقين، وهم السابقون السابقون، أولئك المقرّبون، درجتهم في أعلى علّيين، وكتابهم في صحُف مكرّمة مرفوعة عن النَسخ والتغيير، لا يمسّه إلّا المطهّرون عن أدناس الطبيعة: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ عن مسّ الشياطين المضلّين.

(١٩) الجنبة ـ نسخة.

وأمّا الثانية فهم أهل السلامة: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [٥٦/٩١] وحسن الظنّ بربّهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [٦٩/١٩ ـ ٢٢].

وأمّا الثالثة فهم أهل الشكّ والجحود والعداوة لأهل الله والنفاق،وهم الذين يكذّبون بيوم الدين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [٨٣/١٤ ـ ١٥] ولا كتاب للمنافق يوم القيامة إذ كتابه هو الذي نبذه وراء ظهره واشترى به ثمناً قليلا، وإنّما قرينه الشيطان بتسويلاته وتخييلاته المضلّة، وأغاليطه الكاذبة: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٤٣/٣٦].

فإذا كان يوم القيامة قيل له:خذ كتابك عن وراء ظهرك من الموضع الذي نبذته فيه في حياتك الدنيا ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [٥٧/١٣] فإنّه حين نبذه وراء ظهره ﴿ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ - أي جزم كما قال الشاعر:

فقلت لهم ظنّوا بألفي مدجج[٢٠] -.

أي: أجزموا -.

وأمّا الرابعة فهم أهل الجهل والظلمات المحترقين بنار الشهوات المختوم علي قلوبهم ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾- كالمنافقين عذاب أليم - مرجعهم أسفل سافلين،وكتابهم في سجّين ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾

(٢٠) القائل: دريد بن الصمّة. وتمام البيت: سراتهم في الفارسي المسرد. (لسان العرب).

[٨٣/٧ ـ ٩] بالكلمات الباطلة والنقوش المعطلة صالح للاحتراق بنار الجحيم، فإنّ أصل كلّ سعادة هو العلم واليقين، ومادّة كلّ شقاوة هي الجهل بالله وبيوم الدين، والنفوس الساذجة بمنزلة صحيفة[٢١] خالية عن ذكر الحسنات والسيّئات، فإذا انتقشت بالعلوم والحكمة والأدب صلحت لأن تكون خزانة أسرار الملك، وإذا انتقشت هي بعينها بالكلمات الواهية المعطّلة المزخرفة لم تصلح إلاّ للإحتراق بالنّار والانمحاق.

حكمة قرآنية

اعلم إنّ القول والفعل مادامت حقيقتها في أكوان الأصوات والحركات فلاحظّ لها من البقاء والثبات، فإذا تكوّنت بالوجود الكتبي حصلت لها مرتبة من البقاء والثبات. وكذا كلّ من فعل فعلاً وتكلّم بكلام حصل منه أثر في نفسه وحال تبقى زماناً، وإذا تكرّرت الآثار في النفس فصارت الأحوال ملكات تصدر بسببها الأفعال بسهولة من غير رويّة وقصد وحاجة إلى تجشّم اكتساب ومزيد اعتمال. فالحال والملكة في عالم النفس بإزاء التكلّم والكتابة في عالم البدن، ومن هذا النمط يستنبط الصنايع ويتعلّم المكاسب العلميّة والعمليّة.

ولو لم يكن للآثار الحاصلة في النفس من الأعمال والأقوال دوام وثبات وقوّة واشتداد يوماً فيوماً إلى حدّ يصير ملكة راسخة؛ لم يكن لأحد تعلّم شيء من الصنايع والحرَف، ولم ينجع فيه التأديب والتهذيب، ولم يكن في تأديب الأطفال وتمرينهم فائدة، ولاهم تفاوت من أوّل الحداثة إلى آخر حدّ الكمال،

(٢١) قرطاس ـ نسخة.

ويكون التكاليف الشرعيّة عبثاً لا فائدة فيها في العاقبة.

فعلم إنّ الآثار الحاصلة من الأفعال[٢٢] والأقوال في القلوب والأرواح بمنزلة النقوش الكتابيّة في الألواح ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [٥٨/٢٢].

وتلك الألواح النفسيّة يقال لها: «صحائف الأعمال». وتلك الصور والنقوش الكتابيّة تحتاج في حصولها إلى مصوّر وكاتب لأنّها ممكنة معلولة، والمعلول لا ينفكّ عن علّته القريبة، فالمصوّرون والكُتّاب ـ كتابة غائبة عن هذه الأبصار ـ هم الكرام الكاتبون، المرتفعون عن الوقوع في نقائص هذا العالم، الغائبون عن إدراك حواسّ الناس إلّا أهل الله، وهم ضرب من الملائكة المتعلّقة بأعمال العباد وأقوالهم ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [٥٠/١٨].

وإنّهم طائفتان: إحديهما ملائكة اليمين، وهم الذين يكتبون أعمال أصحاب اليمين، والأخرى ملائكة الشمال وهم الذين يكتبون أعمال أصحاب الشمال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [٥٠/١٧].

وفي الحديث: «من قال «سبحان الله العظيم» غرست له نخلة في الجنّة»[٢٣].

وفي الخبر: «إنّ من عمل حسنة كذا يخلق الله منها ملكاً يثاب به، ومن عمل سيّئة كذا يخلق الله منها شيطاناً يعذّب به».

(٢٢) الاحوال ـ نسخة.

(٢٣) الترمذي كتاب الدعوات: الباب ٦٠ ج٥ ص ٥٥١. ابن ماجه كتاب الأدب: الباب ٥٦ ج٢ ص ١٢٥١.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ إلى قوله: ﴿نَحنُ أَولِيَاؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [٤١/٣٠ ـ ٣١].

وفي الطرف الآخر قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [٢٦/٢٢٢].

وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٤٣/٣٦].

***

واعلم إنّ هذا المبدء الداعي للنفوس إلى الخير أو الشرّ هو المسمّى عند الحكماء باسم الملكة، وعلى لسان الشريعة باسم الملك والشيطان أحدهما الملهم للخير، والآخر الملهم للشرّ. ولو لم يكن لتلك الملكات من البقاء والثبات ما يبقى أبد الآباد لم يكن لخلود أهل الطاعات في النعيم وأهل المعاصي في الجحيم وجه ـ كما أشرنا إليه ـ فإنّ منشأ الثواب أو العقاب على وجه الإستيجاب لو كان نفس العمل والقول ـ وهما زائلان ـ فكيف يتصوّر بقاء المعلول مع زوال السبب الموجب؟ وكيف يكون الفعل الجسماني الواقع في زمان معيّن قليل المقدار باعثاً للجزاء السرمدي؟ ومثل هذه المجازاة لا يليق بالحكيم وقد قال: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [٥٠/٢٩] وقال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [٢/٢٢٥].

ولكن إنّما تخلد أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار بالثبات والدوام الحاصلين للأخلاق والملكات.

وفي كلام بعض أوائل الحكماء: «إنّه ستعارض لك في أقوالك وأفعالك، وسيظهر لك من كلّ حركة قوليّة أو فعلّية » إلى آخره[٢٤].

ومنشأ ذلك أنّ موادّ الصور الأُخرويّة هي التصوّرات الباطنة والتأويلات[٢٥] الفكريّة والأفكار[٢٦].

وفي الحديث: «إنّ الجنّة قاعٌ صفصف، وإنّ غراسها «سُبْحَانَ اللهِ»».

فالإنسان إذا انقطع وانكشف عنه الغطاء وتجرّد عن غشاوة الطبيعة كان الغيب له شهادة والعلم عيناً والخبر معاينة.

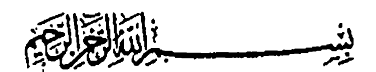
تمّ تفسير سورة الزلزال وبه تم ما وجد من هذا التفسير الشريف. والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(٢٤) الكلام منسوب الى فيثاغورس .كما ذكره المصنّف في الأسفار ج٩ ص ٢٩٤. انّك ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك وسيظهر لك من كلّ حركة فكريّة او قوليّة او عمليّة صورة روحانيّة وجسمانيّة. فان كانت الحركة غضبيّة او شهويّة صارت مادّة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك. وان كانت الحركة عقليّة صارت ملكا تلتذّ بمنادمته في دنياك، وتهتدي به في اخراك الى جوار الله ودار كرامته.

(٢٥) التأملات ـ نسخة.

(٢٦) الاذكار ـ نسخة.



ص١٤٢ س ٩ قوله: والإرتباط بغيره ـ فله تعالى نسبة إلى الأشياء وارتباط بها، ولكن لا كنسبة شيء إلى شيء، ولا كارتباط شيء بشيء، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والأشياء إن هي إلّا آيات وجوده ومرايا شهوده (نوري ـ قده ـ).

ص١٤٢س ١٥ قوله: يسقط أوليته ـ خلاصة بيانه في الكشف عن بطن من بطون المعنى المقصود من اسمه القدّوس : هو كون الحق الحقيقي الغني المطلق القيّوم الواجبي منزّهاً عن الارتباط والانتساب بشيء من الأشياء، بأن يكون بينه وبين غيره من الأشياء نسبة يكون من مقولة نسبة الشيء إلى الشيء، التي يتوقّف تقرّرها على تقرر الطرفين، ويلزمها كون الطرفين متساويين في كونهما من حقيقة الشيئية، وهما متساوقان في أصل الوجود، بمعنى اشتراكهما في حقيقة الموجوديّة وحقيقة الهويّة ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ.

فلو لم ينزّه ذات الحق عن النسبة المتحققة بين طرفي النسبة المتوقفة على تقرّرهما، لزم أن يكون محدوداً، له قرين في الشيئية، فيكون القرين شريكاً له في أصل الشيئية، مشاركاً له في أحكام الشيئية، بما هي شيئية ـ تعالى عن ذلك علواً عظيماً ـ (نوري ـ قده ـ).

ص١٤٤ س ١٦ قوله: في الشهادة ـ ينبغي أن يعمّ معنى الشهادة بحيث يشمل أنحاء الدلالات كلّها ـ طبيعية وفطرية كانت أو وضعية معروفة ـ.

وهـذا التعميم قاعـدة موروثة من أساطين الحكمة والمعرفة، وموجهة بالـبراهين الباهرة، هذا مع أن التعميم في معنى الوضع والدلالة الوضعية، بحيث يدخـل فيه الأوضـاع الإلهية والدلالات الذاتية الفطرية للأشياء، المفطورة المجبولة على تلك الدلالة بالوضع الإلهي العدلي، الذي يضع كلّ شيء في موضعه ولموضعه، بموجب الحكمة البالغة، والرحمة الواسعة، ضابطة مضبـوطـة معمـولـة بها، مقبولة مسلمة عند أهل العلم، فينبغي أن يعمل بموجبها، ولا يحمل كلمات الله تعالى وعبارات رسله وأنبيائه وأوليائه سلام الله عليهم على المجازات الجزافية والتوسعات العامية ـ فلا تغفل ـ (نوري ـ قده).

ص١٤٥ س ٩ قوله: في بحر وجوده ـ توحيده تمييزه عن خلقه، وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة. والبينونة في الحكم والصفة هو بينونة القدم والحدوث، والربّ والمربوب، والقاهر والمقهور، وبينونة العزلة كبينونة جسم من جسم آخر، مع تشاركهما واشتراكهما في الأحكام والصفات ـ ذاتيّة كانت أو غير ذاتيّة ـ.

وهـذا على خلاف حكم البينـونـة الصفتيّة، فإنّـه ينـاقض التشارك والإشتراك والتشابه، وينافيها وينفيها ولا يبقى منها لا عيناً ولا أثراً، كيف لا والتشارك والاشتراك والتشابه مما يقتضي المغايرة والمزايلة بين المتشاركين، والتمايز في الإشارة، وانفراد كل منهما عن الآخر وانفرازه عنه في الإشارة والملاحظة. وبينونة الحكم والصفة لا تبقي أثراً من تلك الأحكام وتنفيها رأساً ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ فالعاقل تكفيه الإشارة ـ نوري قده ـ.

كل ما في الكـــون وهمٌ أو خيال من جهـــة الإدراك التي هي ملاك الاستعـداد بما فيه عكـوس في المرايا وفي المجالي الاحساسية، وظلال من الصور البرزخيّة المثاليّة التي منزلتها من الاُمور الكونيّة منزلة الحقائق من الأظلّة، والظل ـ بما هو ظلّ ـ شيء وليس بشيء، فهو بين الأيسيّة والليسيّة، فليس بصرف أيس، ولا بصرف ليس، كما هو حكم الأمر الوهمي الخيالي، فهو خيال في خيال ـ هذا ـ.

ولكون الكون خيالاً فيه وجه لطيف شريف غيرماأُشير إليه، إذالاُمور الكيانيّة والصور الهيولانيّة من جهة كونها أظلّة وخيالات بالنسبة إلى اُصولها وحقائقها التي هي الصور البرزخيّة الملكوتيّة المفارقيّة، المسمى عالمها بعالم الخيال الكلّ، وبالخيال الكلّي، مستهلكة فيه بمثل النفس في البدن، فيقال: إنّ النفس في البدن وان قيل في العرف العامي انّ النفس في البدن ـ ولكلّ وجهة ـ.

فكون كلّما في الكون خيالاً في خيال، أي خيالات جزئيّة كائنة تدريجاً، على نعت التجـددّ والاتّصال الغير القار، مستهلكة في الخيال الكلّي ـ وهو خيال الكلّ ـ وراجعة إليه رجوع الدنيا إلى الآخرة يوم تبدّل الأرض غير الأرض فافهم فهم نور واستقِم كما اُمرت (نوري ـ قدس سره ـ).

ص١٥٨س ١١ قوله وهم المحبّون ـ إلى آخره ـ الأصل في الفرق بين السيرين ـ سير المحبّي وسير المحبوبي ـ إنّ سير المحبّي يؤدى سالكه إلى مقام يصير فيه الحق عينه التي بها يبصر، واُذنه الذي به يسمع ـ وهكذا ـ كما ورد في الحديث القدسي في قرب النوافل. والسير المحبوبي يتأدّى بسالكه إلى أن يصير السالك عين الحق وسمعه ويده وجنبه ـ وهكذا ـ كما هو مقتضى قرب الفرايض.

ولقد ورد عنهم عليهم السلام في شأن عليّ عليه السلام: «إنّه عين الله الناظرة وأُذنه الواعية، ويده الباسطة، وجنبه العلي، ووجهه المضيء» وغير ذلك ـ فاعتبروا يا أُولي الأبصار ـ.

ص١٥٩س ١٦ قوله: شيئاً واحداً ـ اعلم ـ يا اخي ـ إنّ سرّ صيرورة العلم والعمل ـ في هذه المرتبة القصوى ـ شيئاً واحداً هو كون علم هذا الوليّ ـ الجامع، الحافظ للجانبين، بصيرورته ذا العينين وجامعاً للاسمين: الاسم الباطن الذي هو عين الظاهر، والاسم الظاهر الذي هو عين الباطن؛ وصيرورة منزلته منزلة الاسم الجامع ـ علماً فعلياً لا انفعالياً. لكونه عالما بعين علمه تعالى، الذي هو عين ذاته عزّ وعلا؛ فيّاضاً لوجودات الأشياء. فيصير حينئذ علمه عين الإفاضة والايجاب والايجاد، وهو عين قدرته وعنايته تعالى ومشيّته التي خلقت الأشياء بها، وهي بنفسها من دون توسّط مشية أُخرى.

هذا هو معنى صيرورة العلم والعمل وهذه المرتبة العليا شيئاً واحداً، لكون هذا الوليّ بحسب هذه المرتبة خليفة الله تعالى وساير الخلق خليقته. ويجب أنّ يعلم إنّ هذا العلم الذي قلنا بأنه عين علمه تعالى ـ وهو بعينه عين فعله تعالى، وايجاده الأشياء ـ إنّما هو عين العلم الفعلي الغير الكمالي، لا عين علمه الذاتي الكمالي الذي هو عين مرتبة كنه حضرة الذات. والعلم الفعلي الإضافي الغير الكمالي لذاته تعالى هو عين قيّوميته تعالى، وعين ايجاده للأشياء وإفاضته لوجوداتها التي يتجلّى بها على الأشياء ويتعرف بها لها، وبها امتنع واحتجب عنها.

ومن هيهنا ظهر سرّ كون بطونه عين ظهوره للأشياء، وسرّ كون الاسم الظاهر عين الباطن، وكون صاحب هذه المرتبة الاسم الجامع وليّه عزّ وعلا.

وهذا هو السرّ الجامع للأسرار التي قد أشار إليها بقوله: «وفي هذا المقام

أسرار عظيمة لا يحتمله العقول المجردة » ـ فافهم واشكر الله تعالى (نوري ـ قده ـ).

ص۱٦٠س ۱ قوله: والايمان في المرتبة الاولى ـ قد يفسر المراتب الثلاث بعلم اليقين ـ والعلم هو الحجاب الأكبر ـ وعين اليقين، وحق اليقين. وهو الشهود العياني بصيرورته نور الله الساري في السموات والأرضين.

ص۱٦٠س ٦ قوله: فصار كل وجوده ـ فهذه المرتبة العلياء والمنزلة القصوى هي الغاية القصوى التي تختصّ بالحضرة الختمية؛ محمدية كانت أو آليّة ـ فلا تغفل.

ص۱٦۱س ۲۰ قوله: ولكن في حجة الوداع ـ أقول: ومن تتمة إكمال دين الله تعالى وإتمامه إمامة حضرة العلويّة وخلافته الحقّة؛ إذ ساير استكمالات أولياء هذه الأُمة المرحومة واستتماماتهم بالإرشادات العلويّة و ساير الأئمّة من ولده المعصومين، الوارثين للكمالات المحمديّة كلّها وجلّها وقلها، بتفاوت درجاتهم عليهم السلام في تلك المرتبة الجامعة لجوامع الكمالات، يكون من تتمة الاستكمالات المحمدية واستتماماتها، لكون ساير أولياء هذه الأُمة في السير والسلوك إلى الحقّ سبحانه من جملة مجالي الاستكمالات العلوية ومظاهر استتمامات ساير الأئمة عليهم السلام كما كانت ساير الأنبياء وأوصيائهم ـ الأولياء الماضين ـ في سيرهم وسلوكهم كذلك.

فالأمر الآن كما كان، لمكان الاستكمالات المهدوية واستتمامات أشياعه الذين هم أشعته، واستكمالات هؤلاء الشيعة أيضا تكون مجالي ومظاهر استكمالاتهم عليهم السلام، وتلك الاستكمالات الماضية والآتية من هذه الأُمة من آثار تامية كمالاته عليه السلام ومن أطوار وصوله إلى الغاية القصوى، مع

كونهما من تتمة استكمالات نوره الذي منه الفتح وبه الختم ـ فافهم واغتنم (نوري ـ قده ـ).

ص١٩٦س ٩ قوله: فهو الحق الذي لا محيد عنه ـ فالعبد باعتبار عينه وتعيّنه الذي يرجع إلى ضرب من العدم ـ وهو وجهه الذي به يلي نفسه ـ لا مدخل له في افعاله إلاّ على وجه الإعداد الذي هو مناط الصحة والجواز والإمكان والاستعداد، وأما باعتبار وجهه الذي به يلي ربّه فهو الفاعل في افعـاله على وجه الإفاضة والايجاد باذن الله تعالى وحوله وقدرته واختياره وإرادته ومشيّته التي خلقت بها الأشياء كلها، ولكن تلك الفاعلية والايجاب والإفاضة والايجاد يكون من مراتب فاعلية الله تعالى التامة وخالقيته العامة التي لا يعزب ولا يخرج عن حيطتها مثقال ذرة من الفاعلية والخالقية، لا في الأرض ولا في السماء فاستبصر أيها الطالب للبصيرة (نوري ـ قده ـ).

فالعبـد فاعـل مختار بمرتبة من اختيار الحق، ومجبور، أي مقهور في اختياره الذي هو ظلّ اختيار الحق القاهر، الذي بان عن الأشياء بالقهر لها، وبانت الأشياء عنه بالخضوع له. وظاهر إنّ الخضوع ذاتي للأظلة ـ فتبصّر ـ (نوري ـ قده ـ).

فالعبد بموجب وجهه الذي به يلي ربه تعالى مجبور من حيث هو مختار، ومختار من حيث هو مجبور. فجهة الاختيار بعينها هو جهة الاضطرار، وهذا هو حقّ للأمر بين الأمرين، الخارج عن الطرفين، الجامع فيهما بضرب أشرف وبوجه أعلى ممّا يتوهمه الجمهور ـ فلا تغفل ـ (نوري ـ قده ـ).

وملاك صدور الشرور عن الأشرار والمعاصي عن العباد مرجعه تعيّن عين العبد الذي هو وجهه الذي به يلي نفسه، وهذا التعيّن هو ملاك النقايص الخلقيّة والنقصانات الإمكانية الظلمانية، فما أصابك من حسنة فمن الله، وما

أصابك من سيئة فمن نفسك؛ أي تعينك المكتسب بسوء اختيارك، ومع ذلك قل: ﴿كل من عند الله﴾ أولاً أو ثانياً ـ فافهم ولا تغفل (نوري ـ قده ـ).

ص١٧٠س٦ قوله: خشية القرب ـ خشية القرب هو ضرب من اندكاك الإنيّة التي يعبّر عنه بالخضوع له تعالى، وخشية العلماء بالعلوم الحقّة الحقيقيّة ناشية من ضرب من التجليات الإلهيّة، وهو التجلّي الجلالي (نوري ـ قده ـ).

ص١٧٧س١٠ قوله: على العالمين ـ وإذ تقرر في محله إنّ الجهل مجعول بعين جعلَ العقل ولكن ثانياً وبالعرض، كما إنّ الماهية ـ وهي ملاك الجهل والظلمة ـ مجعولة بعين جعل الوجود، ولكن ثانياً وبالعرض، والوجود هو ملاك العلم والنور، والوجود مجعول بالإصالة، وهو الوجه الذي به يلي الشيء ربّه، والماهية هي الوجه الذي يلي به الشيء نفسَه. ووجه الرب هو الغالب، ووجه نفس الشيء هو المغلوب. وانعكاس الأمر في أكثر الصور مستند إلى الوهم الغالب حكمه على العقل في الأغلب الأكثر، وإن كان الأمر في نفس الأمر على عكس ذلك كما قال: «سبقَتْ رحمتي غضبي» وبالنظر إلى غلبة حكم الوهم غالباً قال تعالى: وَ الذينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرَابٍ بقيعَة يحسَبه الظمآن ماءً حتّى إذا جَائه لَم يجده شَيئاً وَ وَجَدَ اللهَ عِنْدَه فوَفَّاه حِسَابَه وَ اللهُ سَريعُ الحِساب [٢٤/٣٩] تأمل فيه (نورى ـ قده).

لا يخفى على أُولي الايماء والإشارة أنّ الإثبات يتضمن النفي، تضمن الملزوم للازمه، بل تضمّن الشيء لنفسه. على عكس ما يشار إليه الميم (كذا) في الرحمن الرحيم من النفي والإثبات، إذ التملّك المستفاد من «اللام» الذي هو مدلولها بحسب الوضع الإلهي، مفاده ليس إلا كون جميع الأشياء مقهوراً

لذاته جلّت عظمته ﴿وَ هو القاهرُ فَوقَ عبادِه﴾ كما قال عليه السلام: «بانَ عن الأشياءِ بالقَهرِ لَها، وبانَت الأشياءُ عنه بالخضوعِ له» و ﴿عَنَتِ الوُجوهُ للحيّ القَيومِ﴾ ومحصل ذلك النفي المقصود في هذا المقام الشامخ القمقام وهو هذا القهر الذي لا يبقى معه شيء يكون باينا عنه ـ عمّت رحمته ـ بينونة العزلة التي تقتضي المشاركة في الوجود وكمالات الوجود. تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. وفيه قلت نظمًا بالفارسية:

گويم من وهر كه هست درفن ماهر	مقهور بود كثرت ووحدت قاهر
در مجمع وحدتست كثرت مضمر	در مظهر كثرتست وحدت ظاهر

فـ ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ ﴿ألا الى الله تصير الامور﴾.

تثبّت فيه لأنه قرة عين التوحيد، وهو الولي الحميد (نوری ـ قده ـ).

(ومنه أيضا ـ قده ـ:) لقد أسلفنا وكشفنا لك ـ يا طالب الحقيقة ـ أن النفي والاثبات ههنا صادقين من جهة واحدة، سواء كان مناط الايجاد ومدركه اعتبار التمليك الراجع محصل معناه بالبرهان الباهر إلى القهر الذي هو مفاد قوله عزّ من قائل: ﴿وَ هُو القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِه﴾ أو اعتبار القيّومية التي مرجعها ومحصل معناها إنما هو ذلك القهر الذي لا يبقى معه شيء يكون معه سبحانه أزلا وأبداً، ويكون مشاركاً في الشيئية ومكافياً له تعالى في الوجود والحقيقة وكمالات الوجود وأحكام الشيئية. كما قال عليه السلام: «كان الله ولم يكن معه شيء».

وإذ سمع أبو إبراهيم موسى الكاظم الكريم ـ عليه ألف ألف سلام وتسليم ـ حين تلفّظ وتكلّم بذلك القول المروي عن النبي الختمي الأُمي قال عليه السلام «الآن كما كان». والسرّ فيه هو كونه تعالى داخلاً في الأشياء، لا

كدخول شيء في شيء، وخارجاً عنها لا كخروج شيء عن شيء (نوری ـ قده ـ).

ص۱۷۹ س ۱۳ قوله: ومظاهر القهر قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ﴾ وقال أيضاً: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ﴾ وقال: ﴿وَ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِن اللهِ﴾ إلى أن قال ـ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾. وقال بعض أرباب القلوب في هذا المعنى بالفارسية:

که آدم را زظلمت صد مدد شد زنور ابلیس ملعون أبد شد
عجبتر آنکه این از ترک مأمور شد از الطاف حق مرحوم ومغفور
مر آن دیگر زمنهی گشته ملعون زهی فعل تو بی حد وچه وچون

محصل ما أفاده ـ قدس سره ـ هنا هو ما ورد عنه صلّى الله عليه وآله: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، سرّ الأمر بالعمل مع تحقق «جفّ القلم بما هو كائنٌ» هو إنّه لما خلَق سبحانه القلم ـ أي القلم الأعلى ـ قال له: اكتب، يعني في اللوح الأعظم الذي هو امّ الكتاب المسماة بنفس الكل، وهي «حواء» الأولى، أُمّ الخلايق كلها من العلويات والسفليات جلّها وقلّها. فكتب القلم الأعلى ـ المسمى بعقل الكل والمحمدية البيضاء ـ كل ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الكبرى في اللوح الأعظم، المسمى بالعلوية العليا. فكل ما يتجدد ويتكون وينقضي ويتصرم على نعت الاستمرار التجددي في عالمي القدر العلمي والقدر الخارجي فهو مثبت في اللوح المحفوظ المسمى باللوح الأعظم على وجه الثبات والتقرر السرمدي، والبقاء الغير المتغيّر، المحفوظ عن التغيّرات كلها، وعن التقضيّات والتصرّمات جلّها وقلّها.

وعالم القضاء المكتوب بالقلم الأعلى في اللوح الأعظم هو عالم الحق

الباقي ببقـائـه، ويسمى بالحق الاضافي، الباقي مع البقاء والثبات للحق الحقيقي الأزلي، والعلم الاجمالي ـ تبصّر بالتدبّر فيه فإنه لطيف جداً. (نوري ـ قده ـ).

ص ١٨٠س ١٧ قوله: مسخر للاختيار ـ ومن هنا قال المحقق الطوسي القـدوسي ـ أعلى الله مقامه ـ: «الوجوب بالاختيار لا ينافي الاختيار، بل يؤكده ويقرره، وما جبر إلّا بعد الاختيار» كما أشرنا إليه بقولنا «الوجوب بالاختيار لا ينافي الاختيار» حاصله أنّ اضطراره مستند إلى اختياره.

وأصل السرّ في كل ذلك هو كون العبد الإنساني مضطراً في اختياره، بمعنى أنّه لا يتمكن من أن يصدر أفعاله وأعماله إلّا بإرادته واختياره، ولا يتمكن من أن يريد ويختار من دون فكره واعتباره، فهو مضطرّ في اختياره، وفي اختياره مضطرّ إلى علمه واعتباره، ومن هنا قال ـ عزّ من قائل ـ: ﴿ لَا إكراهَ في الدين قد تبينَ الرُشدُ من الغيِّ﴾ في اعتباره بحسب استبصاره، ومع ذلك كله ﴿مَا تَشاءُونَ إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللَّه﴾ كما لا يتوجدون إلا أن يوجد الله ـ فافهم نور، لا وهم وهم وزور (نوري ـ قده ـ).

ص١٩٢س ١٤ قوله: ثم يفهم يعني لا بد في فهم السرّ في إثبات الرمي له صلّى الله عليه وآله ونفيه وسلبه عنه من إثبات جهة الوحدة بينه صلّى الله عليه وآله وبين الله سبحانه لتصحح إثبات الفاعلية للرمي المعين الشخصي له صلّى الله عليه وآلـه ولـه سبحـانه مع استحالة اجتماع النقيضين والعلتين المستقلتين على المعلول الواحد الشخصي، ومن جهة إثبات الكثرة والمغايرة والبينونة ليصحح سلب الرمي عنه واثباته له ـ جلّ شأنه ـ

والوجه فيه هو انّه صلّى الله عليه وآله بموجب وجهه الذي به يلي ربه تعالى يرجع حكمه إلى حكمه تعالى وفعله إلى فعله عزّ وعلا، كما يرجع ذاته

وصفاته إلى ذاته وصفاته تعالى، وأما باعتبار وجهه الذي به يلي نفسه البشرية الخلقية الـذى هو ملاك إمكانه وكونه بالقوة فاقداً للقوة الايجابية والقدرة النافذة الفياضة لوجودات الأشياء كلها والخلّاقة لها فهو صلّى الله عليه وآله لا يصلح للايجاد والإفاضة، ولا للعلية الايجابية والفاعلية الفياضية، فمن هذه الجهة صح سلب الرمي عنه صلّى الله عليه وآله على وجه الفاعلية والإفاضه، كما أُثبت من تلك الجهة الربانية فاعليته على وجه الايجاد والإفاضة والإفادة.

ومن هيهنا قيل في مدحه صلّى الله عليه وآله بالفارسية:

تقـــدير بيك ناقـــه نشـــانـــيد د ومحـــمـــل

سلماى حدوث تو ولـــيلاى قِدم را

فالحدوث يصحح سلبَ الرمي والقدم اثباتَه ـ فافهم (نوري ـ قده).

قوله: فما معنى أمرهم ـ ص١٩٢س١٨ ومما كشفنا لك في الكشف عن سرّ الجمع بين المتقابلين واجتماع الضدين المتنافيين لو تحقّقت به ينكشف لك سرّ التوحيدات: توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات، وينكشف سرّ الوحدة الحقة والكثرة الحقيقية في الوجود، على خلاف ما توهّمه أكابر الصوفية من كون الوحدة حقة حقيقية والكثرة وهمية اعتبارية صرفة، إذ كون الكثرة وهميّة محضة غير متحققة في نفس الأمر أصلا خلاف البديهة ومخالف الفطرة التي فطر عليها كل الأنفس والعقول.

اللهم الّا أن يعنوا به ما عنى به الراسخون في العلم، من نفي بينونة العزلة بين الخالق والمخلوق، والرب والمربوب، مع إثبات بينونة الحكم والصفة التي هي أتمّ وأكمل أنحاء البينونة، حيث لا يبقى معها جهة مشاركة ومشابهة أصلا ـ فتبصّر ـ (نوري ـ قده)ـ.

ص١٩٤س١٨ قوله: مراتب فهم القرآن ـ يعني إنّ فهم معاني القرآن

بمراتبها الخمسة هو بعينه الايمان، وللايمان مراتب خمس :

أولها: مرتبة الايمان الحسي، الذي هو مجرد الإقرار باللسان من دون أثر وتأثّر في النفس، التي مرتبتها مرتبة الخيال وعالمها عالم الخيال، وهو - أي الايمان بمجرد اللفظ والإقرار باللسان - يجتمع مع النفاق والجحود القلبي.

وثانيتها: الايمان النفسي الخيالي الذي هو ايمان أصحاب التقليد والعوام الذين لهم ضرب من الاعتقاد، وهو عقد القلب على الاقتداء بهدى الله تعالى من دون فهم وتفهّم وتفكر وبصيرة وتبصّر في أمر الدين؛ ولهم درجات متفاوته في هذا العقد النفساني، وهو ملاك نجاتهم من البوار الأبدي والهلاك السرمدي.

والثالثة منها: هوالايمان النفسي، أي النفس الناطقة الإنسانية المدركة للمعاني الكلية، وهو العلم بحقائق الأشياء والمعارف الإلهية والأركان الايمانية، المكتسب بالبراهين العقلية قبل صيرورة النفس في اكتسابها عقلاً بالفعل وعقلاً مستفاداً. وهو مشوب بمداخلة الوهم والخيال.

ورابعها الايمان العقلاني الغير المشوب بالوهم والخيال، لصيرورته عقلاً بالفعل ومستفاداً من دون أن يكون فعّالاً فياضاً ما دامت النفس في هذه النشأة، وهو عقل بسيط مشتمل على تفاصيل الصور العقلية الايمانية بضرب أعلى، وهو الايمان العقلاني، المكتسب بالحجج الباهرة والبراهين القاهرة، الكاشفة عن الحقائق الإلهية والمعارف الربوبية، فأهل هذه المرتبة هم الحكماء بالحكمة التي من تحقق بها ﴿فقد أُوتي خيرا كثيراً﴾ وهم أرباب القلوب وأصحاب الفكر والتفكر، الذين ورد في مديحهم: «تفكّر ساعة خيرٌ من عمل الثقلين» الذي هو المرتبة الثانية من الايمان كما أشرنا إليه.

والخامسة منها لها مرتبتين: مرتبة العين، ومرتبة الحق. ولكلّ منهما مراتب

ودرجات متفاوته في الشدة الضعف، وكمال مرتبة الحق وتمامها الذي هو جامع جوامع الكمالات كلها ومجمع مجامع التمامات جلّها وقلها، وهو خاصة الحضرة الختمية. أصلها للمحمدية، وفرعها للآلية من العلوية والفاطمية إلى المهدوية عليهم السلام.

فالايمان العياني يعبّر عنه في بعض الألسنة بـ «حق اليقين» وبـ «الصحو بعد المحو»، ويكون منزلة صاحبه منزلة الاسم الجامع، الجامع بين الظاهر والباطن، وهو الباطن في عين ظهوره، والظاهر في عين بطونه، سمى أهله بأصحاب الأفئدة، وخاتمهم ـ محمدية كان أو آلية ـ يكون فؤاده فؤاد الأفئدة، ولهم مقام التمكين المنزه عن التلوين والتلوّن، على حال خلاف أصحاب القلوب، الذين هم أهل الانقلاب و منزلة أصحاب الأفئدة، ولاسيما فؤاد الأفئدة (ص) من أصحاب القلوب منزلة الشمس من القمر، والقمر باعتبار اختلاف أنظاره واتصالاته وأوضاعه بالنظر إلى الشمس له أحوال مختلفة وانقلابات في الاستنارة، ولقد قيل: إنّ أصحاب علم اليقين الذين هم أصحاب القلوب ينقلب عند ارتفاع الغشاوة والحجاب بالموت علمهم عيناً، بل يمكن في بعض الموارد القريبة من أن ينقلب عياناً.

كل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن الإنسان الإلهي العياني ـ ولا سيما الختمي منه ـ أصل الأُصول عنها (نوري ـ قده ـ).

ص٢١٦ س١١ قوله: يقال الحكمة في ذلك ذلك وإن كان كذلك، ولكن النفوس الكاملة والمتجردة بذواتها مادامت متعلقة بأبدانها الدنياوية يكون لها ضرب من الاستكمال ونحو من الاستتمام، وهو ما يتعلق بالكيفية وإن كمل وتمّ سيرها بحسب الكمية؛ لأن النفس بما هي نفس مدبرة للبدن ـ وإن تمت وكملت ـ يكون لها ضرب من القوة الامكانية، ويكون لها نحو من

الاستحالات والحالات منتظرة، وطور من الكمالات بالقوة، كيف لا؟ وهي بعد غير خارجة من عالم الحركات والتغيّرات، ولها حركات تدبيرية متعاقبة، وتصرفات تدريجية. والحركة إن هي إلاّ الخروج من القوة إلى الفعلية كمّاً أو كيفاً، والفعل والفعلية ضرب من التمامية والكمال، والقوة نقص ونقيصة يحوج رفعها إلى الاستكمال، والله ولي الفضل والإفضال (نوري ـ قده ـ).

ص٢١٦س ١٣ قوله: فتصير فوق التمام

هذا إنما هو سرّ سرّه وسلوكه إلى الغاية القصوى، التي ينظر إليه قوله تعلى: ﴿أَو أَدْنَىٰ﴾ كما إنّ التمام والتمامية التي مرتبتها دون مرتبة فوق التمام أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوسَيْنِ﴾ وهذا صقع من الجبروت والملكوت الأعلى، وذلك صقع من اللاهوت الّذي يصير السالك بوصوله إليه عين الله الناظرة وأُذنه الواعية ويده الباسطة، وهكذا، «وليس وراء عبّادان قرية فتبصرّ» (نوري ـ قده ـ).

ص٢١٨س ١٥ قوله: بجذب لطائف الاخلاط ـ وهو كذلك لكن بوساطة من النفس النباتية بجنودها، التي هي بجنودها مجبولة على خدمة النفس الحسّاسة المحركة بالإرادة، إذ الأرواح البخارية ـ التي هي موضوع المباحث الطبية ـ غير خارجة عن الاحتياج إلى تصرفات القوى النامية، ولما كانت النامية ـ التي تكون من جنود النفس الحيوانية مسخرة لها، متصرفة في البدن بتدبيرها، مستهلكة فعلها وتصرفها في فعل الحيوانية وتصرفهاتها ـ يستند فعلها وتصرفها إلى سيدها ووليها الذي هي النفس الحيوانية، وهكذا ـ فلا تغفل.

ص٢١٨س ١٦ قوله: وفوقها قوة نبوية ـ وهي الفطرة العقلية التي يعبّر عنا بـ«ما عُبد به الرحمن» المضادّة للشيطنة والنكرى، وهي من جنود العقل

الكلي المحمدي الختمي صلّى الله عليه وآله فلا تغفل.

ص۲۱۹س ۸ قوله: لا بالمجاز ـ

ليس مراده ـ قدّس سره ـ من «المجاز والتجوّز» هيهنا على ما هو مصطلح عرف العامة، كما لا يكون «الحقيقة» المستعملة هيهنا أيضاً كذلك، بل الحقيقة والمجاز في عرف البرهان ـ ولاسيما في عرف العرفان ـ كلاهما حقيقة حسب ما يصطلح عليه عرف الجمهور والعوام الذين موضوع أبحاثهم ومباحثهم في باب الحقيقة والمجاز هو الألفاظ غالباً، وروح معنى الحقيقة المرادة في المقام هو الإصالة في الحكم، والمعنى المراد من التجوّز والمجاز فيه هو ضرب من التابعية والتبعية في الحكم، كما أشار إليه ـ قدس سره ـ بقوله: «وذلك لأن الأسباب مستهلكة الذوات والماهيات عند مسبّبها» يعني إن سببية كل من تلك الأسباب المتوسطة ـ التي تكون أسباباً على وجه الحقيقة ـ تكون ظلّ سببيته ـ عزّ وعلا ـ وتكون من مراتب سببيته تعالى غير خارجة عنها كخروج شيء عن شيء، فهي الحقيقة وما دونها من المراتب المترتبة الأُخرى من أطوارها وأظلّتها. ـ فافهم ولا تكن من الغافلين (نوري ـ قده ـ).

ص۲۲۳س ۵ قوله: وأما نسبة الاحياء ـ محصله إنّ الإسرافيلية والعزرائيلية حسب التجوهر جوهرة واحدة، والاختلاف اختلاف الاسم والصفة، الذي يرجع إلى اختلاف النشأة، و اختلاف العمل الراجع إلى ذلك الاختلاف النشائي.

وهذا الضرب من الاختلاف من باب الاختلاف الذي ينظر ويومي إليه كريمة: ﴿وَ هُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾ وهو الاختلاف الاسمي، فإن الاسم الذي به يدبّر أمر العلويات وبه يتحقق ربوبيته تعالى وربيته بالنسبة إلى السماويات هو: «الرفيع» والاسم الذي هو ربّ الأرضيات

والسفليات هو: «الخافض» ذلك فيما نحن فيه، وفيه سرّ ينحل به عقد عويصة كثيرة عجزت عن حلّها أفاضل الأنام، والله وليّ الفضل والانعام (نوري ـ قده ـ).

ص٢٢٤س ٦ قوله: متلوناً بلون والسرّ ـ كلّ السرّ ـ في هذه التعاكس هو كون الكون في القوس الصعودي مفطوراً على الترقّي من الأخسّ إلى الأشرف ومن السجّين إلى العليين، إلاّ أن يمنعه في بعض المواد الموانع الخارجية من باب البخت والاتفاق، وظاهر إنّ الغذاء الحيواني تكون أخسّ منزلة وأدنى درجة من المتغذي، والغذاء الملكي الإنساني تكون أعلى درجة وأشرف منزلة من المتغذي الذي هو هيهنا النفس الناطقة القدسية التي نزلت من عالم القدس، ثمّ أُمرت بأن ترجع إليه ـ فافهم (نوري ـ قده ـ).

ص٢٢٤س ٩ قوله: والروح الحيواني ـ الحاصل إنّ الروح الحيواني منزلته من الملكي الجبروتي منزلة الأُمّ من الولد المتولد من نطفه الأب العقلي الكلي، الذي هو أبو الآباء الإنسانية والآدم الحقيقي، فبجوهر الملكي بموجب «الولد سرّ أبيه» يكون من سنخ جوهر الأُبوّة، ولكن يتشبه بضرب من الصفات بموجب: «الولد الحلال يشبه بالخال» بأُمّه النفسية الحيوانية المجبولة على التغذي الحيوانية، على وجه تتغذي به الحيوانية الانسانية، لا على وجه الحيوانية الحيوانية المنافية للتجوهر الإنساني.

وهذا الضرب من الخلط والمزج يلزمه التمكّن من الخروج من الظلمات الحيوانية إلى عالَم الأُبوة النورانية الربانية، فتستتبعه الأُمّ الحيوانية وتنجذب إلى ذلك العالم النوري بضرب من التبعية، ومن الخروج من النور الفطري والإخلاد إلى أرض ظلمات الحيواني، ولكن الغاية من الولادة حشر الولد مع أُمه بأبيه ـ فافهم.

ص٢٢٤س ١٤ قولـه بتجوهرهما ـ يعني إنّ الروح الملكي النطقي الذي يكون عند بدء تكوّنه عقلاً هيولانيا متحداً بالنفس الحساسة الحيوانية بضرب من الاتحـاد، يتجـوهـر بالتغذي من أغذية العلوم الحقة الحقيقية والحقائق الإلهية والمعارف الربوبية، بعد تجوهره بضرب من العاقلية التي هي مناط ذلك التغذي شيئاً فشيئاً بتجوهر النور ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ بخـروجـه من الـظلمات الحيوانية تدرجاً، مرتقياً إلى عالم الأنوار الربانية بصيرورته عقلا بالفعل بعد ما كان عقلا بالقوة، أو عقلا فعّالاً فيّاضاً بعد ما كان منفعـلاً مستفيضاً بعيداً عن العالم الرباني، الذي هو موطنه الأصلي، فيصير عقلاً بسيطاً محيطاً بالأشياء، منطوية فيه صور حقائق الأشياء على نحو أشرف وبوجه أعلى، فيّاضاً لتفاصيل الصور العقلية بموجب التخلّق بأخلاق ربه الأعلى، ولما كان حقيقة التغذي بأن يصير الغذاء عين جوهر المتغـذي، وجـوهر المتغذي عين الغذاء، فيكون العاقل والمعقول متحداً في الجوهر النوري من دون شوب تعدد وتكثّر من جهة الذات إلاّ في ضرب من التعمّل والاعتبار.

وهذا الانقلاب والترقي لا يتيّسر إلاّ من جهة تعلقه بالمادة الإنسانية القابلة لهذا النحو من الانقلاب، بوساطة من النفس الحساسة الحيوانية من جهة كونها آلة وخادمة له في ذلك الإرتقاء، معدّة له في السلوك إلى جوار الله تعالى باستعماله لها ولقويها في سبيل الاهتداء إن ساعده التوفيق وعاضده التأييد من الله ـ عزّ وعلا ـ ومن هنا يقال: «إنّ من الضد ما يعاضد» ـ فلا تغفل ـ (نوري ـ قده ـ).

ص٢٢٦س١٠ قوله: وفيه سر غامض ـ والكشف عن وجه من وجوه هذا السر الغامض بقدر ما يسعه المجال هوان يقال: إنّ محصل معنى المحبة

يرجع إلى إدراك ضرب مما يلائم جوهر ذلك المحبّ وصفات ذاته، ويؤدي حصـوله له إلى وصوله بكمالاته وخيراته، الموصلة إلى كمال ذاته وصفاته، ومحصل معنى البغض يرجع.

إلى إدراك ما يناقض وينافي ذاته أو كمال ذاته، ويكون شراً له، مانعاً من وصوله إلى خير ذاته، الذي هو من متمات ذاته ومكملات صفاته. فالملائم لجوهر ذات الشيء وصفاته الذاتيه هو ما يكون من متمات ذاته ومكملات جوهره وصفاته لا ماينافض وينافيه ويباينه ويعاديه، وتمام تجوهر الشيء وكمال جوهره لا يتصور إلاّ أن يكون من سنخ تجوهره ومن جنس جوهره، حتى يتصور أن يكون تماماً له وكمالاً لذاته، فقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ يعني إنّ عمل كلّ هو صورة تجوهرة ومثال جوهره وظل حقيقته ووجه كنهه وحكاية ماهيته:

هر طايفـــه طرزى عمـــل خويش نمـودنـد

دونـــان ورمـــيدنـــد وكـــريهان كرمـــيدنـــد

(نوري ـ قده ـ)

ص٢٤٤س ٢ قوله: وللاضافة مترعاً ـ معناه هو ما يقال: «التوحيد إسقاط الإضافات» * فهو الشيء بحقيقة الشيئية، وما سواه ليس إلاّ شؤنه وأطواره وأفعاله وآثاره، وليست اثار الشيء بما هي آثاره إلا تجلياته وظهوراته، وأعيان الأشياء إن هي إلاّ مجالي أسمائه وصفاته، ومظاهر جلاله وجماله، ومرايا تقدس ذاته وتعالى صفاته عن الشبه والشريك علواً كبيراً ﴿أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (نوري ـ قده ـ).

* فليست أعيان الأشياء وذواتها بأعيان وذوات في حيال أنفسها حتى يتصور أن يكون بينه تعالى وبينها نسب حقيقية وإضافات على وجه الحقيقة،

كاضافة الشيء إلى شيء، المتوقف وجودها وتقرّرها على تحقق الطرفين، كيف وقـد تحقق وتقـرر وارتكز في جبلة فطرة كل ذي عقل سليم من الآفات والاحتجابات الوهمية، إنّ ملاك كلية إضافاته إلى خلقه ومجمعها إنما هو قيّوميته واُلوهيته وربوبيته (نوري ـ قده ـ).

ص٢٤٦س١٦ قوله: جميعاً ـ يعني إنه تبارك وتعالى مقدس عن البطون والاختفاء الذي يلزمه عدم تجلّيه وتعرّفه للمشاعر والحواس، فيلزمه التحديد والتحديد المـوجبان للتركب والتركيب، المنافي للتوحيد والتوحدّ والتفرّد في الظهور والإظهار.

كيف ـ وهو الظاهر القاهر في الظهور، وهو الحاضر الذي لا حد له ولا نهاية له في الحضور ـ كيف تختفي وأنت بالملأ الأعلى ظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب والحاضر ـ ومنزه عن الظهور والحضور، الذين لا يكونان عين البطون والخفاء وعين الغيبة والاختفاء.

بل ظهـوره للمشاعر والحواس إن هو إلاّ عين بطونه، وامتناعه عن الحواسّ والإحساس وحصوله ومثوله لدى الأخماس ليس إلاّ جهة غيبوبته واختفائه عن كل مشعر حسّاس ـ يا من خفي من فرط ظهوره، ويا من احتجب لشعاع نوره، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ـ.

قال عليه السلام:«التوحيد ظاهره في باطنه، وباطنه في ظاهره، ظاهره موصوف لا يرى، وباطنه موجود لا يخفى ـ وساق كلامه إلى أن قال:ـ غائب غير مفقود، وحاضر غير محدود».

وهذا يا أخي ـ هو سر التوحيد الذي لا ينكشف وجهه المضيء إلاّ لاُولي الأبصار وذوي الإبصار (نوري ـ قده ـ).

ص٢٥١س٨ قوله: اختفى بهم ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام ما

محصله هو «انّه تعالى تعرّف للأشياء بها وامتنع بها عنها» على طبق الحديث القـدسي المعـروف المشهور المذكور في ألسنة الجمهور، المعلوم سرّه عند أصحاب الكشف والظهور و الشهود وأهل النور، وهو قوله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكَي أُعرف».

أي: تعـرفت للأشياء بعـين صورهـا وأعيان ذواتها وصفاتها التي هي الحجب، التي بها احتجبت عنها ظهوره عنها، فظهوره بعينه إنّما هو جهة بطونه وبالعكس، وهو بعينه سر الجمع بين جلاله وجماله (نوری ـ قده).

ص٢٦٩س ٩ قوله: عين العين ـ يعني إن علمه تعالى بالأشياء الذي هو مبدئها وغايتها إنما هو علم فعلي يترتب عليه وجودات الأشياء كلها جلّها وقلها؛ ترتب الفعل على وجود فاعله، الذي منزلته جنب وجود الفعل منزلة الحقيقة من الوجه، ومنزلة العين العيني من الصورة الذهنية الظلية والوجود الظلي، فيكون منزلة وجودات الأشياء من علمه تعالى منزلة الصور الظلية والأمثلة والأظلة من الأعيان العينية والذوات الخارجية، ومنزلة الوجوه من الحقائق و الفروع من الأُصول. فاتّضح من هنا كون ذكرنا له تعالى وعلمنا وعرفاننا به عزّ وعلا صوَراً وأمثلة وأظلة لعلمه تعالى بنا وذكره لنا.

لكن هذا إنما هو حكم أذكارنا وعلومنا ومعارفنا التي هي علل معدّة لوصولنا إلى نتايجها التي هي ذكر الله تعالى لنا وعلمه بنا.

وأما حكم ذكرنا وعلمنابعد الوصول ففيه سرّ ينكشف عنه قوله: «ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطَرَ على قلب بشـر» ـ فافهم ولا تغفل ـ (نوری ـ قده).

ص٢٧٣س ١١ قوله: والظلال ـ يعني إنّ وجود الأشخاص والأظلال التي من عالم الخلق ليس بوجود بموجب العقل وبرهانه* حتى ينافي فنائها

بموجب التناقض الذاتي الذي يكون بين الوجود والعدم، والبقاء والفناء. بل الحكم بكون هذه الموجودات الخلقية حكم وهمي غير مطابق للواقع ناش من احتجاب عيون أكثر الخلق بحجب غشاوات التعلقات النفسانية الحيوانية و ظلمات العلائق الطبيعية والكونية الخلقية، والأمر في نفسه يكون على خلاف ذلك، لكون هذه الأشياء الكائنة الداثرة الزائلة، التي وجودها عين عدمها، وبقائها عين دثورها، وزوالها ودوامها بعينه انصرامها باطلة الذوات، هالكة الإنيات، أظلة وأمثلة وحكايات مستهلكة في مباديها الأمرية، فانية فيها غير موجودة ولا باقية بحال ذواتها (نوري).

*فعلى هذا يكون روح معنى فناء السالك في السلوك إلى ربّه الأعلى عند وصوله بمرتبة يصير بموجبها فانياً منمحياً عن نفسه ـ فضلا عما سواه ـ هو رفع تلك الغشاوة الوهمية عن عين القلب. والنصرة السرية، وشهود حال الأشياء وأحوالها على ما هي عليها من كونها باطلة الذوات ظلية الإنيّات مستهلكة فيما هو أصلها ومبدئها (نوري).

ص۲۸۲س ۹ قوله: إلاّ النور ـ

والسرّ فيه ان الغذاء يجب أن يكون من سنخ المغتذى، والمغتذى يلزم أن يكون متحد السنخ مع الغذاء.

وكيف لا ـ وعند الاغتذاء والتغذى يصيران متحد الوجود، والاتحاد فى الـذات والوجود لا يتصور بدون التوحد فى السنخية والجنسية ـ فافهم ـ (نورى ـ قده ـ).

ص ۳۰۲ س ٦ قوله : في القرب الأقرب

يعنى أطلبه في نفسك كما قال سبحانه: «وفي أنفسكم أفلا تبصرونَ» فانه تعالى شأنه أقرب من نفسك بنفسك، وأقرب منك بك. كيف لا وهو معكم

أينما كنتم، وأينما تولوا فثَم وجه الله، عالٍ في دنوه، دانٍ في علوه اذ جهة دنوه بعينها جهة علوه، وجهة بعده هو بعينه جهة قربه ـ قال علي عليه السلام: تجلى للأشياء بها وامتنع بها عنها وقال عليه السلام: «ألقى مثاله في هوياتها» ـ (نوري ـ قده ـ).

ص ۳۰۳ س۱۸قوله : بعض الأكابر

لعمر الحبيب ان بيان بعض الأكابر لمراد الرابعة البالغة الواصلة الى الدرجة العليا يأبى عنه صريح قولها:«فشغلى بذكرك عمن سواك » والحقّ الحقيق بالتصديق هو أن مرادها ـ رضوان الله عليها ـ هو ما تضمنه نظم بعض أكابر العرفاء حيث قال بالفارسية :

چون نتـــوانـی که هیچ یادش نکـنی

باری آن کن که دائـــمش یادکـــنی

والسرّ فيه أن ذكر الشيء أو تذكره انما هو يتحقق ويليق وينبغي عنـد غيبـة ذلـك الشيء، وأما عند شهوده وحضوره فلا معنى للذكر والتذكر، ومن هنا قالت: «فكشفك للحجب حتى أراك». فظهر أن بين الحبين وبين المقامين بون بعيد ـ كما لا يخفى على اولي النهى ـ (نوري ـ قده).

*) كأنه ناظر واشارة الى ما اومأنا اليه من بيان مراد الرابعة اعراضا عن بيان بعض العلماء واعتراضا عليه وتعريضا له من دون التصريح على حرجه المنافي لرعاية الآداب.

الفهارس:

١ـ فهرس الكتب
٢ـ فهرس الموضوعات
٣ـ فهرس الأحاديث
٤ـ فهرس أبجدي للموضوعات والاصطلاحات
٥ ـ فهرس الأعلام

٢

فهرس الموضوعات

سورة الجمعه

سورة الطارق

سورة الأعلى

سورة الزلزلة

٣

فهرس الأحاديث

٤

فهرس أبجدي للموضوعات والاصطلاحات

فهرس الأعلام